محسن الرملي

ذئبة الحُب والكُتب







المؤلف: محسن الرملي
عنوان الكتاب: ذئبة الحُب والكُتُب
تصميم الغلاف:
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى: 2015



للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 -بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almeda-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 آيار
al-medahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

محسن الرملي

ذِئبَة الحُب والكُتُب

رواية





"بالحُلم يَتجَدد كُل شَيء"

حسن مطلك

إهداء: .. إلى كُل الذين يُحبون الحُب والكُتب.

.. إلى الذين حُرِموا مِن حُبهم بِسَبَب الظُروف.

شُكـــر: .. إلى الأصدقــاء الذيــن ذُكِــروا هنـــا بأسمائِهم الصَريحة أو المُستَعارة.

- ١ -

جريمة في الأردن

أنا

أنا محسن مطلك الرملي، مؤلف كل الكتب التي تحمل اسمي، باستثناء هذا، ولو لم أكن شقيقًا لحسن مطلك لكتبتُ ضعف ما نشرته حتى الآن، أو لما كتبتُ أيًّا منها أصلًا ولا حتى اهتممت بهذا الكتاب الذي وجدته صدفة حين كنتُ في الأردن، فغيّر حياتي كلها، وجئت إلى إسبانيا بحثًا عن المرأة التي كتبته.

إنها امرأة تبحث عن الحُب وأنا أبحث عنها.

حين عثرتُ على ما كتبته هيام، كنت أعيش في حي شعبي يعج بالفقراء والمهاجرين على أطراف مدينة إربد شمال الأردن. أسكن مع أحد عشر مصريًا صعيديًّا في حجرة واحدة، لها نافذة واحدة وحمام واحد. لا يعرفون القراءة والكتابة، نجحوا في تعليمي طبخ الأرز والملوخية وتدخين الشيشة، وفشلت أنا في تعليمهم، فكلما حاولت، مبتدئًا بالحروف، يقلبون الجلسة إلى ضحك وتهريج فأنسى الدرس وأندمج بالضحك معهم؛ لذا كنت أقرأ ما يرِد إليهم من رسائل، وأكتب ردودهم عليها مقابل بضعة قروش، إضافة إلى ما يتوفر من

الأعمال التي يدعونني لها بين حينٍ وآخر؛ تعويضًا عن غياب أحدهم أو مساعدًا لآخر، فعملت في قطف الزيتون، مساعد راعي غنم، مساعد خباز، بديل حارس، عامل بناء، مساعد نجار، حيث كان يأخذني أكبرنا وأقوانا شخصية وهيمنة، نسميه المعلم رفاعي؛ كونه أقدم منا جميعًا في الهجرة، وهو الذي يحصل أحيانًا على مقاولات لقوالب خشب تسقيف البيوت، فأستعير حزامه القديم وكلابته أو أدوات أي غائب منهم وأرافقه، لكن هذه الأعمال لم تكن ثابتة ولا تكفي، وأنا حريص على إيصال مائة دولار شهريًّا إلى أهلي في العراق أو حتى خمسين دولارًا من أجل الصرف على اليتيمتين؛ ابنتَيْ أخي حسن، اللتين بقيتا تحت رعاية أخي الآخر.

كنت في بحث دائم عن أي عمل، ومنها أنني أساعد الحاج مصطفى، إمام مسجد الحي، بتنظيف السجادات والحمامات وباحة المسجد. عرّفني عليه رفاعي. كان إنسانًا طيبًا وهادئًا بوجه ذي ابتسامة خفيفة دائمة وسط لحيته الرمادية. لا يسألني كثيرًا وإنما يُنصت أكثر، ويقول: أنا أعرف حالك لأنني مهاجر مثلك، أنا من فلسطين.

أحيانًا، كان يدس في يدي دينارًا أو كيسًا فيه بعض الطعام. عرّفني على جنرال يحتاج لتنظيف حديقته مرة في الأسبوع، ولأنني بلا مهنة أصلًا، حيث لم أفعل شيئًا في حياتي السابقة، سوى إنهاء الدراسة ومن بعدها ثلاثة أعوام في الخدمة العسكرية الإلزامية، ثم أعوامًا طويلة حاول خلالها أهلي إقناعي بالزواج كي تخف أحزاني على فقدي لأخي حسن، وعلى البنت التي أحببتها، وماتت محترقة أثناء قليها لشرائح الباذنجان. رفضت وواصلت التخبط بحثًا عن

عمل في ظل ظروف الحصار القاهرة، إضافة إلى أن إعدام حسن، يعني سَد كل فرص التوظيف الرسمي والنَشر أمامي، فخرجتُ من بلدي. أحاول أن أجد مدخولًا مما أعرفه؛ وهو القراءة والكتابة، فأكتب رسائل الحُب لزملائي، ويحالفني الحظ أحيانًا بنشر قصة أو مقالة لي في ملحق ثقافي لإحدى الصحف، كما فكرت بكتابة رواية جيب رومانسية أو بوليسية من تلك التي كنت أراها تباع بكثرة في الأكشاك وأتصفحها، وبالفعل حاولت ذلك، دون إكمالها، عنوانها (جريمة في الأردن)، بنيتها على العلاقة السرية التي يقيمها المعلم رفاعي مع إحدى الجارات، زوجها كثير الغياب باحثًا عن عمل تاركًا إياها مع الصغار. كان رفاعي يطلب مني كتابة رسائل الحب لها وأن أعلّمه بعض قصائد الغزل، يقول إنها تحب الشِّعر. يحدثني عن بعض تسللاته الليلية إليها، وعن بعض الزملاء الذين يحاولون التقصي لمعرفة من تكون بالضبط من بين النساء الكثيرات في البيوت المجاورة. بعضهم بهدف الفضول والبعض الآخر كي يراودها عن نفسها أيضًا، أو لابتزازها بالفضح؛ لذا كان شديد التكتم على المعلومات حولها، و لم يكن يهمني هذا الأمر بقدر اهتمامي بأن يظل بحاجة إليّ لأنني بحاجة إلى ماله. فكرت أن تبدأ الرواية، مثلًا، بأن يجدها رفاعي مقتولة في بيتها حين يذهب إلى موعد معها. وهكذا تبدأ رحلة التحريات والشكوك حول الجميع إلى أن تنتهي الرواية بمفاجأة قوية وغير متوقعة مثل سائر روايات الجريمة.

لم يكن معي آنئذ سوى كتابين، هما رواية أخي حسن مطلك (دابادا) ممهورة بإهدائه، أعيد قراءتها دائمًا كي أبقيه حيًّا في روحي وأتشبع بالمزيد من أفكاره وأسلوبه، فأستشعر حضوره معي حتى أكاد أسمع صوته وأنا أتذكر أحاديثنا، عندما كان يطلعني على الصفحات

الجديدة التي يكتبها منها، وأدون ملاحظاتي على هوامشها من أجل كتابة دراسة عنها مستقبلًا، أما الكتاب الآخر فهو نسخة صغيرة من (القرآن) أهداني إياها إمام المسجد في شهر رمضان.

كنت أمضي بقية الوقت والأيام بالقراءة والكتابة في مكتبة جامعة اليرموك، وأحيانًا أحصل على دينارين من غسل صحون مطعم الجامعة، وأقضي ساعات أخرى في مقاهي الإنترنت في (دوار الجامعة)، فأنشأتُ لأخي حسن مدونة أضع فيها بعض قصصه وقصائده وصوره، وكل ما يتعلق به من نصوص ورسوم له وكتابات آخرين عنه، وفتحت لمدونته إيميلًا خاصًّا، كنت أحفظ فيه بعض ما أكتبه عنه وأتلقى رسائل تتعلق بمدونته، وجعلت الايميل يحمل اسم روايته (دابادا) يليه رقم ٨١ (dabada81@........ com) وجعلت كلمة السر؛ الاسم معكوسا (adabad) إضافة إلى الرقم ٧١٨ أي تاريخ إعدامه ١٨ تموز/يوليو، حيث شنقوه في الساعة السابعة مساءً، بعد ستة أشهر من التعذيب، لاشتراكه في محاولة لقلب نظام الحكم في العراق. وانطلاقًا من هذا الايميل وكلمته السرية.. انطلقت كل الحكاية التي قادتني إلى ترحال وبحث لم ينته حتى الآن.

فبعد يوم صيفي ملتهب قضيت أكثره في تنظيف حديقة الجنرال الواسعة من عشبها الزائد وأدغالها الشوكية الجافة، ممضيًا الظهيرة على مَضض، دون طعام سوى حبتيّ فلافل كنت قد احتفظت بهما في ورقة جريدة من عشاء الأمس. أتصبب عرقًا وأكرع الماء الساخن من خرطوم السقي وأصبه على رأسي وملابسي بغية التبريد لكنني أنشف في دقائق. لم يعطني الجنرال أي فلس، وإنما اكتفى بأن بعث

إليّ بابنه الصغير، كما فعل في الأسبوع الماضي، ليقول لي: أبي يقول لك، ربنا يعطيك العافية، سأدفع لك في الأسبوع القادم.

كانت الساعة الرابعة مساءً حين أنهيت العمل وتوجهت إلى مطعم جامعة اليرموك عسى أن أجد صحونًا أغسلها وألتقط شيئًا مما بقي فيها من طعام، لكن صاحبه الطيب ذا الكرش، الذي وجدته واقفًا يدخّن في الباب، قال لي: ربنا يعطيك العافية، لايوجد ما يستوجب عملك، فاليوم نصف دوام، ولا أدري بمناسبة عيد ماذا، لا يجيء إلا قلة من الطلبة ومن يأتي منهم، ربما لمحاضرة أو اثنتين أو نشاط أو إعادة كتب مستعارة، أو لقاء صاحبة له أو للصلاة في مسجد الجامعة وما إلى ذلك.

مدّ لي بسيجارة كعادته، أخذتها شاكرًا، وكدت أن أقول له: دعني أنظف المكان مجانًا، ولو كانت عشر صحون، أن أدخل إلى المطبخ وأشم رائحة الطعام. هممت أن أطلب منه ولو قطعة خبز، وأعرف بأنه لن يمانع، لكن شيئًا من الإحباط والكرامة معًا منعاني من ذلك. ودعته، وكان مزاجي متعكرًا إلى أبعد حد. جسدي منهك ولا أرغب بالذهاب إلى غرفة السكن الآن حيث أعرف أن زملائي يقيمون جلسة نهاية الأسبوع المسائية بأقداح الشاي التي لا تنتهي ودخان الأراغيل وصخب لعب الدومينو والقهقهات وأغاني أم كلثوم التي يمنع المعلم رفاعي تغييرها منعًا باتًّا. لن أرتاح، ولا مزاج لي للذهاب إلى المكتبة؛ عدا أنها ستقفل أبوابها اليوم مبكرًا، فتوجهت إلى (دوار الجامعة). تحسست الثلاثة دنانير التي في جيبي، ثم قررت تأجيل الأكل قدر استطاعتي من الوقت، ليكون ما سأتناوله لاحقًا بمثابة غداء وعشاء، وأن أمضي بقية المساء في مقهى الإنترنت.

تصفحت بعض الأخبار، وكانت كلها سيئة بالطبع. قلبت بعض

صفحات فرص العمل مع يقيني بأنني لن أجد فيها جديدًا أو ما تنطبق شروطه عليّ. فتحت إيميلي الخاص و لم أجد سوى الإعلانات، ورسائل النصابين من غينيا والسلفادور ولندن ممن يخبرونك بأن بطاقة اليانصيب، التي لم تشترها أصلًا، قد فازت بالملايين. أغلقته وفتحت الإيميل الخاص بمدونة أخي. فوجدته ليس الذي أعرفه، ليس هو. نظرت إلى اسم صاحبه للتيقن فوجدته داباداا١٨ بدل داباداا٨١. فكيف حدث هذا؟.. وماذا عن كلمة السر؟ كيف تطابقت؟. هل كانت مكتوبة بشكلها الصحيح، غير مقلوبة، مثلًا وأن تعبي وشرودي قد جعلاني، بشكل ما، أكتبها كما هي (دابادا)؟ أم أن ثمة تغيير لحرف واحد ففعلت ذلك دون انتباه؟ وماذا عن الأرقام الثلاثة ٨١٧؟ هل هي بالترتيب نفسه أم أنها مختلفة؟ لا أدري... المهم أن هذا البريد قد انفتح دون أن أعرف كيف حدث ذلك! فانفتح معه باب جديد غيّر سير حياتي كلها.

كانت في البريد عشرات الرسائل، إن لم تكن مئات، كلها غير مقروءة، وكلها مرسلة من هذا الإيميل نفسه، وليس فيه أية رسالة أخرى من أي بريد سواه. ترددت، فكرت بإغلاقه وإعادة الدخول، لكنني فتحت الأخيرة فوجدتها من امرأة تقول: "…. وداعاً يا حبيبي، بل إلى اللقاء، ولا تنس أن تحمل لي معك نسختك من رواية (دابادا).. أنا بانتظارك وسأواصل بحثي عنك في الوقت نفسه، وأنت بدورك، ابحث عني أو انتظرني.. قُبلات لك بحجم الغياب الذي كان والذي سيكون إلى أن نلتقي".

هزتني المفاجأة، أيقظتني، أنستني التعب والجوع حتى شككت بأنني أتوهم بسببهما، فأعطيت أمرًا بطبع الرسالة على ورق. نهضت،

أستلمها من الطابعة التي كانت جوار الصبي عامل المقهى، وعدت إلى مكاني. أحدق بالشاشة وأتحسس الورقة بين أصابعي كأنني أتأكد من أنها موجودة وملموسة فعلًا.

رحت أقرأ في الشاشة الرسالةَ التي بعدها والتي تليها... ثم انتقلت لقراءة الأقدم، ابتداءً من الرسالة الأولى.



هي

أنهكتني متابعة الأخبار في الشاشات، فها هو الموت، مرة أخرى، يجتاح شوارع بغداد، وها أنا، مرة أخرى، أبحث عن الحُب.. أشتهي أن أكون الأنثى التي أريد، للرجل الذي أُحب. الناس نوعان: بعض ينتظر الحب والآخر يبحث عنه، وأنا ممن يبحثون.. ولن يهدأ لي قلب حتى أجده أو أهلك دونه.

أنا هيام، صديقة النمل وحشرات الحديقة، كنت أطعمها وأؤنسها أيام القصف كي لا يصيبها الذعر وتشعر بالهجران. أنا التي بكَت على نَعلٍ انقَطَع. الناس والكائنات لها من يبكيها.. فمَن للنَعل؟.. هذا الذي ارتبطتُ معه بعلاقة طويلة وذكريات، حمَلني وحَمى قدميّ من حرارة الأرض وبرودتها وأشواكها وفضلات البشر، دفنته بعد ذلك في الحديقة بتكريم خاص، وتلوتُ قصيدة لوداعه بشكر فائق، ثم زرعت على قبره زهرة عبّاد شمس.

اسمعني.. أرجوك؛ أنا متزوجة منذ أكثر من عشرة أعوام، زوجي يكبرني بسبعة عشر عامًا ولي ثلاثة أطفال – للأسف كلهم ذكور–

لكنني مازلت عذراء؛ لأن بكارة قلبي لم يفتضها أحد بعد، اليوم بلغت الأربعين، وأخشى أن أموت دون أن يستنفد الحب عاطفتي. يحز في نفسي أن يؤول هذا القلب الطيب طازجًا لدود القبر. لازالت أمامي فرصة قصيرة لتحقيق حلمي بأن أمنحك ثمرة من بطني؛ طفلة رائعة تشبهني، نسعى من أجلها معًا كي تعيش الحياة التي كان يفترض بي عيشها وتليق بي، وليست هذه التي عشتها مُرغَمة.. متنقلة بين البلدان والرجال.

أريد استئناف هوسي بالحب، أنا التي لا شريك لي بما أُريد حتى الآن، أريد شريكًا. أنا هيام مرة أخرى.. وآمل أن أكون أنا في كُل مرة

أنا جميلة بحجاب، وبالطبع؛ سأكون أجمل بكثير عندما تكشفه أنت عني بيديك. أصير أحلى بألف مرة لو أن عينيك تراني.

في هذه اللحظة، أشعر بمسرة وخفّة غامضتين وعذبتين، لأنني قررت البوح. سأكتب لك كل يوم، مقتنصة ساعات غياب أطفالي في المدرسة، خروج زوجي إلى السوق وفي لحظات انتظاري قِدر الطبخ على النار.. بل وحتى حين توقظني حاجة إلى الحمّام في منتصف الليل وهم نائمون. سأكتب لك عن حياتي الماضية والحالية، أما المستقبل فسنعيشه معًا. سأكتب لك وأبحث عنك حتى نلتقي.. وعذرًا إن لم أستطع الكتابة إليك في عطل نهايات الأسابيع، لأن زوجي يكاد يقيم في البيت، يراقب كل شيء بما في ذلك أنفاسي واتجاه نظراتي.. يحتل الكمبيوتر ويحتلني.. لا أستطيع الكتابة على ورق لأنني لا أستطيع الاحتفاظ بأية ورقة في البيت دون أن تطالها يده، فهو يحرمني حتى من الاحتفاظ بالكتب، لذا سأكتب إليك من إيميلك هذا إلى إيميلك هذا نفسه والذي فتحتُه لك بنفسي، إلى أن أتوصل بعنوانك فأبعث

إليك كل ما كتبته، أو أعطيك كلمة السر لتدخل إليه.. وعلى هذا النحو نكون قد كسبنا الوقت ولن نحتاج إلى أي كلام للتعارف وتقديم أنفسنا لبعضنا عندما نلتقي، وإنما سندخل في عيش الحب بلا مقدمات.

شكرًا بجنون خَفيّ..

هل قلت لي كلمات جميلة؟.. إذًا شكرًا للإطراء أيضًا... بالمناسبة أنت وسيم بالنسبة لذائقتي. عثرتُ عليك في داخلي بالصدفة.. هكذا في ومضة، حين كنت أبحث في مواقع الإنترنت عن أي شيء جديد لحسن مطلك أو عنه.. و لم يكن يهمني لحظتها شيء آخر، ولكن، أثناء إعادتي لقراءة صفحات من يومياته (العين إلى الداخل) وجدتني أسعى لمعرفة فيما لو كنت أصلع أم لا. لست ضد الصلع، وإنما.. ربما يتعلق الأمر بكون زوجي أصلعَ؛ لذا أردت أن يكون من أحبه مختلفًا عنه في طلته، ففوجئت بأنك أسمر بشكل مذهل والأكثر إذهالًا أن صوتك عذب الرجولة.. لقد سمعتك أيضًا في داخلي، تُرى هل سمعتني أنت أيضًا؟.

أرجوك اسمعني... تخيّل!.. حتى أنك قد فتحت شهيتي للرجال مجددًا، فعلى مدى أشهر من إقامتنا هنا في مدريد، لم أكن أنتبه إلى أن جيراننا ملحاء، على الرغم من أن الشُقر لا يعجبونني كثيرًا.. إنهم أوروبيون حتمًا؛ أعني أكثر أوروبية في عِرقهم من الأسبان.. ربما هم إنكليز أو ألمان مثلًا... حاولتُ الاتصالَ بك، ولكن هاتفك كان مشغولًا. نعم، لأنني أرغب بالحديث معك، أفعلُ ذلك، ولو تمثيلًا، في تليفوني الجوال أو تليفون البيت عندما أكون وحدي أو أذهب إلى كابينة هاتف عمومي على طرف المتنزه القريب، أغلق بابها عليّ

وأبقى أتحدث معك لأوقات طويلة. أخرج بعدها وأنا أشعر براحة ونقاء، كأنني خارجة نظيفة من حمّام. حقًا، لماذا لا تدلني على رقم هاتفك بشكل ما؟!.. حالي عسير.. ستفهم ذلك لاحقًا.



أوه.. أنت يا بَطَل.. أيقظتني في الساعة السادسة صباحًا.. لا أحب أن يوقظني أحد لأنني لا أنام بيسر. سوف أكتب هذا اليوم على راحتي.. غدًا عندي موعد مع الطبيب النفسي وسوف أقول له بأنني أخاطب وهمًا في رأسي وأكتب له في بريد فتحته له أنا بنفسي، لأنني لا أعرف بريده حتى الآن. وأتخيل أحيانًا أنني أتلقى منه رسائل أو حتى أكتبها بنفسي ثم أجيب عليها. أسمع صوته ويسمع صوتي. أتصل به ويتصل بي ولا نعرف أرقام هواتف بعضنا.. حتمًا سيفكر بأنني مريضة نفسيًا ولدي عُقد وأعاني انفصامًا وما إلى ذلك، وسأعترف له بأنني اخترعت رجلًا على هواي كي أُحبه، لكنني مؤمنة بوجوده في مكان ما من هذا العالم، موقنة من أنني سألتقيه في لحظة ما من هذا العمر، وسأقول للطبيب رأيي صراحة، بأنه هو أيضًا مريض نفسي إذا كان يعتقد بأنه ليس كذلك. فمن ذا الذي يعيش في هذا العالم ولا يضطرب! إن وجد شخص يعتقد ذلك فمن المؤكد أنه أقل إنسانية. الحيوانات والنباتات والحجارة والماكينات هي وحدها التي ليست لديها إشكاليات وجودية ونفسية.

حقًا.. ما الحكاية..؟.. أنا متلهفة مُشتَّتة.. وبيني وبينك.. أغار فيما لو كنت متزوجًا. إنني لأحسد المرأة التي أنت في متناولها.. أعترف بأنني أنثى نهمة الاشتهاء ولكن إنسانيتي أكبر من أنوثتي، كرامتي هي

الأرض الخصبة لأحلامي.. وسوف تكتشف هذا على مهل. أيها العاقل أو المتعقّل.. لماذا لا تنظر إلى الموضوع من وجهة نظر عقلانية.. نحن: أنت وأنا، في منتصف العمر. تجاربنا العاطفية، وغير العاطفية، السابقة، كانت عشوائية، طارئة، ناقصة، فاشلة، مفروضة أو حتى مريرة أحيانًا.. ولكننا لا زلنا نفيض عاطفة ويمكننا التجاوب إنسانيًا رغم المسافات، فأنا مسرورة، وهذا دليل على أنني مازلت على (قيد) الحياة.

على مدى سنوات عمري، دائمًا، وفي كل عام، أشعر بأن السنة الأخيرة كانت أقسى سنة.

من أين أبتدئ وأين أنتهي، وكل ما في غربتي أخبار تستحضر عراقًا نازفًا، ووجدًا يابسًا يتوق لندى عاطفي؟. الشرح يطول وأنا اللحظة أقل رغبة بالكلام. ستفهم لاحقًا كل شيء فلا تستعجل. تمتع بوحدتك أو بصخبك الاجتماعي وفكر في هذه الهيام كثيرًا.. لأنها تستحق..



سأبدأ من قصة الحب التي ربطت أمي وأبي على مدى أعوام. كانت هي ابنة عائلة بغدادية غنية، وهو ابن عائلة فقيرة انتقلت من سامراء إلى بعقوبة، تشتغل أمه خبّازة كي تتمكن من إعالة أطفالها؛ لأن جدي الأسطورة والملقب بـ(الذئب) كان دائم الغياب.. حتى غاب نهائيًا في إحدى رحلاته إلى الهند.

كان أبي يحدثني عن تفاصيل منسية في حياته، وكيف أنه يمضي ثلاثة أعوام أو أكثر مرتديًا السترة ذاتها التي يشتريها من محلات الملابس المستعملة، يذهب ماشيًا كل يوم في طريق طويل إلى المدرسة، بحذاء تهرأ من كثرة الثقوب والترقيع، ورغم ذلك كان شاطرًا ودائم

النجاح بتفوق. يمضي جل ساعات يومه بالدراسة وحيدًا على حواف السواقي وسط بساتين البرتقال، حالمًا بتغيير سترته وحذائه وحال أسرته البائس.. وتغيير العالم.

هو من جيل ثورة الطلاب الستيني. وفي السنة النهائية من دراسته الإعدادية في بغداد، تعرّف على أمي وحصل على بعثة إلى روما لدراسة العلوم السياسية، أكملها، ثم عاد وتزوّجا في شتاء مكفهر، ولحد الآن، نحن بناتهما الثلاث، نحتفظ برسائلهما الغرامية القديمة والبطاقات البريدية المرصّعة برسوم القلوب المخترَقَة بالسهام والصور الرومانسية.. كظل عاشقين ساعة الغروب على شاطئ بحر أو بحيرة.

وُلدت؛ أنا الابنة الكبرى، بعد عامين، في ربيع مدينة البصرة الصيفي؛ لأن والدي أصبح أستاذًا في جامعتها. كان منتميًا لحزب الحكومة منذ صغره حين كان يحلم بتغيير العالم، فانضم إلى أول أيديولوجية عرفها، وكان لانتمائه دور في علاقته بأمي وبحصوله على البعثة الدراسية في إيطاليا. ولدتُ في أوج اشتهار عبارة "مارِس الحب ولا تمارس الحرب"، لكن المحزن أن العالم لم يكف عن ممارسة الحروب على حساب الحب. أنت من جيلي حتمًا وشاهد على ذلك. صديقتي ياسمين تقول إن من بين الشعارات التي رفعوها آنذاك "كن واقعيًا واطلب المستحيل". يدهشني هذا القول وأكاد أشعر بأنه قد قيل بشأني أنا تحديدًا. أشبه والدي ببعض الصفات ومنها؛ خَلق مثاليات ضبابية والتمسك بها.

ذهبَت العائلة إلى أستراليا لأن أبي اشتغل في وزارة الخارجية.. لا أتذكر من أستراليا سوى ساحل واسع ورطوبة كرطوبة البصرة، وطائر عجيب وجميل بقيت أبحث عنه ولا زلت، في موسوعات الطيور

و لم أعثر عليه، فهل تكون مخيلتي هي التي اخترعته مثلما اخترعتك؟. أستراليا صورة سرابية لسراب.

بعدها بعامين، رجعنا إلى البصرة لأن والدي اختلف مع السفير. لم يوضح لنا السبب، مكتفيًا بعبارته المعتادة: "لأسباب تتعلق بالمبادئ". أمي كانت مدرّسة لغة عربية، وصارت مديرة للمدرسة التي درستُ فيها. قاسية يخافها الطلاب، وأنا أيضًا. كنت أراها غريبة عني، أو شخصيتين، تختلف التي في البيت عن التي في المدرسة، وبقيت أخاف منها دائمًا، حتى الآن، وهي ميتة.

إنها امرأة جميلة، شخصيتها قوية، مثقفة، أنيقة.. ومنتسبة للحزب الحاكم أيضًا. أذكر بأنها قد أوجعتني ضربًا أمام الجميع في فرصة الاستراحة الطويلة بين الدروس حين وجدتني قد سكبت الغداء على رأسي، وعندما غابت لتبحث عن شيء تمسح فيه مرق الطماطم ولزوجة الباميا، سكبتُ الرز أيضًا، فهالها الأمر حين عادت محمّلة بالمناديل، تضربني وتسأل، تسأل وتضربني، فأخبرتها أنني سألت فاطمة ابنة خالتي عن سر طول شَعرها ونعومته فقالت لي بأنها تُطعمه وتسقيه وتتعامل معه ككائن حي؛ لذا أردت أن أفعل مثلها.

في طفولتي المبكرة تعرضتُ لتحرشات جسدية، ولازلت حتى الآن أبحث عن السبب.. أقول أحيانًا؛ ربما لأنني كنت ناعمة جدًا وسط محيط يضج بالبشر الخشنين، ومدلّلة وسط كائنات معوزة.. لقد حيرتني هذه المسألة. فلم يكن الأمر من قبل شخص واحد، وإنما من عدة ذكور، أذكر منهم؛ رجل غريب في القطار، فرّاش الطبيب، شرطي من أقرباء والدي، ابن عمتي، جارنا بائع الخضراوات، ضيوف لا أتذكر صفتهم وعلاقتهم بأهلي.. هي ليست اعتداءات بقدر ما هي

تجاوزات مستترة. كنت أعي بأنه شأن يتعلق بالجسد، لكنني لم أستطع تحديده حينها بالضبط والبوح به.. وربما أيضًا كنت مستمتعة بشكل ما.

أذكر، وأنا طفلة، أن أمي أجلَستني في القطار المتجه بنا من البصرة إلى بغداد، في حضن رجل غريب؛ لعدم توفر كرسي. نام أهلي فيما بقي الرجل يقبّلني من رقبتي وخدي وأستشعر توتر شيئه تحتي، دافئًا، نابضًا. كنت خائفة؛ لذا لم أفتح عيني أبدًا، متظاهرة بالنوم طوال ساعات الطريق.

هذه أول مرة أتحدث فيها عن هذه الأشياء.. ربما كتمرين للمقابلة مع الطبيب النفسي غدًا.. أتخيلك تبتسم من تعليقي هذا.. ليتني أرى ابتسامتك وأُضحِكك وأضحَك معك كل يوم.. أشعر وكأنني مشتاقة لك.. أفهم نفسي وأُدرك فحوى هذا الشعور.

بالأمس حدثَت مشادّة بيني وبين الرجل، أقصد زوجي عبّود.. أو هي ليست هكذا بالضبط.. ربما جرح آخر لروحي وحسب. حدث ذلك لمجرد أني عبّرت عن رأيي وقلت أمام المحامي الذي يتولى قضية ترتيب إقامة قانونية لنا، بعد أن سألني: هل ستخلعين الحِجاب في المحكمة؟. قلت له: ليس لدي مانع، إذا وافق زوجي.

سمّم روحي حال خروجنا من مكتب المحامي، وفي البيت أقام عاصفة من الغضب والتأنيب قائلًا بأنني أوحيت، للمحامي الغربي بأنه زوج شرقي فظ، ذكوري، متسلط ومتشدد. حاولت إقناعه بأنني أردت تصوير الأمر على عكس ذلك تمامًا؛ أي أوحي له بأننا متفاهمان، وذكّرته بما رواه هو لي عن شخص إنجليزي عرفه في المسجد، اسمه هاري، والده إنجليزي وأمه إسبانية، وكان في شبابه

عضوًا في فرقة موسيقى روك، يرتدي ملابس الهيبيين ويضع الأقراط في أذنيه، لكن روحه كانت قلقة ومعذّبة إلى أن عرف الإسلام فأسلَم، وسمى نفسه هادي، ثم تزوج من باكستانية سوداء، ابنة أحد مشايخه الدينيين الذين تعرف عليهم هناك، وراح ينجب منها طفلًا كل عام لأنهما لا يستخدمان الواقيات ولا حبوب منع الحمل. له سبعة أولاد الآن، لكنه لم يتمكن من الحصول على الجنسية لزوجته على الرغم من أنه هو وكل أولاده يحملون الجنسية الأسبانية، وذلك لأن زوجته ترتدي النقاب، فكانوا يرفضون منحها الجنسية بحجة أنها لا تنسجم أو لا تتعايش مع ثقافة البلد، إلى أن نصحه تاجر سوري بأن يأخذها في المقابلة القادمة مرتدية تنورة قصيرة، بشعر منكوش ووجه مغطى بالأصباغ وفي يدها علبة بيرة. صدمه الاقتراح أولًا، ثم، فكر ونفذه على مضض، فوافقوا على منحها الجنسية، وبعد أن تم التوقيع، راح يصرخ بهم: أهذه هي الثقافة الإسبانية التي تريدون من الناس الاندماج بها؟! إنكم تشوهون صورة ثقافتكم، ثقافتنا، ألا ترون بأن مظهرها هكذا عاهرة؟! ثم خرج غاضبًا مستعيذًا بالله من الشيطان ومستغفرًا، وعازمًا على المزيد من التمسك بإسلامه.

لكن عبّود لم يفهمني، أو لم يرد الفهم، أو أنه فهم وتعمد التمسك بقوله، كالعادة، كي تبقى كلمته هي العليا باعتباره الرجل، والزوج، وحامل شهادة الدكتوراه، وبأنه أكبر مني عمرًا وتجربة بالحياة، وما إلى ذلك من خزعبلات وأوهام معتادة في نفوس الكثير من العاديين.

وأنت، هل فهمت ما أعنيه؟.. بالنسبة لي فقد فهمت ما تعنيه تمامًا، وأعتقد أن ما قرأته لك في الهاتف أمس يتطابق كلية مع تصورك. كنت منتشية من كلمات ربما لا تعادلها أية نشوة أخرى. وبعد أن

أقفلت الخط معك، وكدليل على اشتهائي المفرط للحياة؛ دخلت إلى محل لبيع الملابس، وعندما قارنت لذة ارتدائي لثوب، بلذة حديثي معك، وجدت نفسي أقرر توفير النقود من أجل إنفاقها على الاتصال بك.. شكرًا لأنك منحتني جرعة منشطة للحياة.

سأكتب لك غدًا، وتأكد بأنني لن أخيب ظنك في شيء.. بكل الجوانب. لست بحاجة إلى وعود ولا نقود ولا أي شيء يمكن أن تحتاجه أو تسعى إليه بعض النساء. ما أحتاجه فقط.. هو فسحة من الصدق الذي أنشده فيك، وخاصة في خضم كذبي اليومي المتواصل هذا.. أحتاج أن أتنفس، ولو لبضعة دقائق يوميًا، شيئًا من الصدق كي أستطيع مواصلة المقاومة. أبحث عن الحُب.. أنا أنثى تحلم أن تكون امرأة لرجل يُحب. كما أعتقد بأن العلاج الوحيد للعراق.. وللعالم من كل خرابه، هو الحُب... نعم، المزيد من الحُب.

شكرًا لك مرة أخرى.. فأنا أعرف الآن بأنك ستحبني، وبيقين أكبر أعرف بأنني سأحبك. من يدري؟ فربما أننا حين نلتقي سيعتذر كل منا للآخر عن كونه ليس المقصود بالحب.. أو ربما العكس؛ سيكون الاعتذار عن سنوات الغياب الماضية. عليّ أن أبدل ملابسي بسرعة وأذهب إلى المدرسة لجلب الصغار. سلام لك وتحية سريعة أيضًا لزوجتكإن كنت متزوجًاوأرجو ألا تنسى بأنني مشتاقة للحب، وعلى يقين من أنني سأجده مهما يحدث.

بالمناسبة، سيبقى عنواني مجهولًا، ليس بقصد الإثارة؛ ولكن ريثما أتدبر عنوانًا من إحدى الصديقات، ولأن زوجي يتجه إلى التدين بتعصب منذ سقوط بغداد على أيدي الأمريكان، وهو شديد الغيرة.. ثم أي عنوان هذا الذي سيمثلني حقًا ما دمت خارج العراق!؟.

- ٢ -

ابنة الذئب

أنا

مضى الوقت وأنا أقرأ بذهول وأعيد القراءة، أو أتنقل بين الرسائل، بلا ترتيب، قارئًا من هذه مقطعًا ومن تلك آخر، أو تأخذني إحداها كاملة فأنتقل إلى التي تليها.

إلى أن أيقظني صوت الصبي قائلًا إن لحظة إغلاق المقهى قد حانت. تلفّتُ حولي فلم أر أحدًا من الزبائن سواي. تطلعت إلى الساعة الجدارية أمامي فوجدتها قد تجاوزت الثانية عشرة. حاولت التفكير على عجل بالذي عليّ فعله. أخشى أن أغلق بريدها ولن أتمكن من فتحه لاحقًا. طلبت منه بضعة دقائق، لكنه ظل واقفًا أمامي صامتًا ضَجِرًا فأربكني أكثر. فعلت أول ما تبادر إلى ذهني على عجل. قمت بإعادة إرسال كل ما في هذه البريد من رسائل إلى بريدي الخاص. أعطيت الجهاز أمر الإطفاء. دفعت للصبي وخرجت إلى الليل.

كنت أشد غربة وانفصالًا عما أراه.. كأنني قادم من عالم آخر، وما أن مشيت بضع خطوات حتى شعرت بوطأة الجوع، فدلفت إلى أول مطعم شعبي صغير وجدته. طلبت صحنًا كبيرًا من الفول بزيت

الزيتون مع رأس بصل وسلطة ورغيفي خبز، ورحت ألتهم بشهية فائقة ولذة، وحال انتهائي من ذلك، جلست في أقرب مقهى بقي مفتوحًا على الرصيف. طلبت شايًا وأرجيلة. تنفست بعمق. أدخن وأتحسس الورقة المطبوعة في جيبي، أخرجها، أعيد قراءتها وأفكر. سآتي غدًا من أول الصباح إلى مقهى الإنترنت لأقرأ المزيد، عليّ، أيضًا، أن أطبعها كلها على ورق، ولو بالتقسيط حسب ما يتوفر لديّ من نقود، وهكذا سأتمكن من حملها معي وقراءتها على مهل، وبدقة، بعيدًا عن حسابات ثَمن الوقت في المقهى.

كان جسدي منهكًا، لكن ذهني متوقد تحت تأثير المفاجأة، وأعرف بأنني لو ذهبت إلى حجرة السكن الجماعي الآن فلن أستطيع النوم، ولن أجد فرصة انعزال للتأمل؛ لأن أصحابي الصعايدة يسهرون، كما أنني لن أجد بينهم من يستوعب ما سأقوله له وهم لا يعرفون حتى الآن ما هو الكمبيوتر أصلًا. ثم كيف لي أن أُفهمه هذه الحكاية التي ستبدو له وهمية حتمًا؟ وقد يسربها للبقية وتتحول موضوعًا لسخريات ومزاح سهراتهم. إنهم فلاحون بسطاء كادحون ليس لديهم سوى أجسادهم لكسب قوتهم اليومي. قال لي أحدهم ذات مرة: إنني أخاف حتى أن أمرض، ليس خوفًا من المرض ذاته، وإنما خشية جوع عيالي الصغار، فليس لديهم سوى ما أكسبه يومًا بيوم.

قررت البقاء في المقهى حتى يغلق بابه ثم التجوال في الساحات والشوارع إلى أقصى ساعة متأخرة من الليل أستطيعها، ولأنني كنت بحاجة إلى أن أشرك أحدًا وأقص عليه ما حدث، على الأقل لأتيقن بأنني لا أتوهم. فكرت بصديقي الأردني خالد، والذي تعرفت عليه في إحدى خروجاتي للبحث عن عمل في القرى المجاورة.

كان ذلك في قرية (النعيمة) ظُهرًا، وحرارة الصيف تُلهب حتى شَعر رأسي بحيث أكاد أشم رائحة احتراقه، وليس ثمة باص للعودة. فكرت لحظتها أن أستثمر الوقت بالدخول إلى صالون حلاقة من أجل الظل وشرب الماء كما أن تكلفة قص الشَعر في القرى أقل بكثير، وأثناء تجوالي للبحث وحيدًا في الأزقة والناس يغُطّون في قيلولتهم، ظَهر لي شاب من زقاق مجاور فسارعت إليه أسأله عن صالون حلاقة، وقبل أن يجيبني سألني: هل أنت عراقي؟. قلت: نعم. فابتهجت أساريره بشكل لم أشهده في أي وجه آخر طوال تواجدي في الأردن، وراح يُنشد أبيات السياب المعروفة من قصيدة (غريب على الخليج) وهو يتذوقها حرفًا حرفًا كأنه يمضغها:

"الريح تلهث بالهجيرة كالجثام، على الأصيل

وعلى القلوع تظل تطوى أو تنشّر للرحيل

.................................."

فأكملت له أنا بما أحفظ من أبيات القصيدة، وهو فاغر فمه بدهشة طفل:

"صوت تفجّر في قرارة نفسي الثكلى: عراق

كالمدّ يصعد، كالسحابة، كالدموع إلى العيون

الريح تصرخ بي عراق

والموج يعول بي عراق، عراق، ليس سوى عراق"

إلى أن وصلتُ إلى الأبيات التالية فوجدته يرددها معي بالإيقاع والإحساس والمحبة ذاتها، وارتفع صوتانا:

"الشمس أجمل في بلادي من سواها، والظلام

حتى الظلام – هناك أجمل، فهو يحتضن العراق".

فتعانقنا بعيون دامعة، ثم نظرنا في وجوه بعضنا دون أن ينفك اشتباك أيدينا، وقال:

أنت تعرف السياب إذًا؟

قلت له:– طبعًا.

وتعرف غائب طعمة فرمان؟

طبعًا، وكل الأدب العراقي.

فعانقني مرة أخرى وقال:– هل تقبل أن تكون صديقي؟

طبعًا، وخاصة أنك تعرف السياب وغائب طعمة فرمان.

أووووه، وكل الأدب العراقي وكل الغناء العراقي الحزين وكل...

قاطعته:– هل أنت عراقي؟ لأن لهجتك عراقية تقريبًا.

لا، أنا أردني، ولقبي المصري، اسمي خالد المصري، ولكن روحي وثقافتي وذائقتي كلها عراقية، وأوجاع العراق أوجاعي وأفراحه أفراحي، وما خرَجَت مظاهرة تخص العراق إلا وكنت أول وأعلى الهاتفين فيها، وحتى حين يتقابل فريقا كرة القدم العراقي والأردني أشجع الفريق العراقي.

ما رأيك أن تدلني على صالون حلاقة ونواصل الحديث في الطريق إليه؟ الشمس حارقة وأنا عطشان.

لا يوجد أي محل مفتوح الآن، ستُفتَح بعد القيلولة، بعد ساعتين. ما رأيك أن ترافقني إلى البيت لترتاح قليلًا ثم أرافقك إليه؟.

هل هو بعيد؟

البيت على بعد عشر دقائق من هنا، وصالون الحلاقة هذا الذي نحن أمامه.

فالتفتُّ حيث أشار على يميني، وبالفعل كنا نقف تمامًا أمام صالون حلاقة مغلق، لافتته ممحوة الأصباغ بفعل تقادم الزمن بحرّه وبرّده عليها. قهقهنا بصوت عالٍ وترافقنا إلى بيت أهله.

في الطريق، كان كل حديثنا عن الأدب العراقي. أخبرني أنه يعد رسالة الماجستير عن روايات غائب طعمة فرمان في جامعة اليرموك؛ لذا اتفقنا على مواصلة لقاءاتنا هناك، وخاصة في المكتبة، وهذا ما صرنا نفعله لاحقًا، حيث تعرفت على عدد من أصدقائه وأساتذته. وفي البيت المطل على الوادي في أطراف الحي الغربي للقرية، عرّفني على أهله. قدموا لي الماء والطعام والشاي فيما كان هو يواصل إنزال الكتب العراقية من الرفوف التي تغطي الجدران كي يريني إياها، مشيرًا إلى صفحات ومقاطع أَحَبها فيها حد الوله.

من حينها وإلى اليوم، صار خالد المصري الأردني أعز أصدقائي وأقربهم إليّ، نلتقي كثيرًا، وأذهب بين الحين والآخر إلى بيته في قرية النعيمة. أبِيت هناك، ممضيين الليل كله بالحديث في الثقافة. إخوته الثمانية صاروا بمثابة إخوتي، ووالداه بمثابة والديّ. تغسل أمه ملابسي بين فترة وأخرى وترسل لي بالطعام معه. كان قوي البنية وحيوي الحركة ودائم المرح. تعلمت منه كيف أجيد السخرية والضحك من نفسي ومن مواقفي وآرائي؛ مما كان يخفف عن نفسيتي الكثير.

أعدت قراءة الورقة التي طبعتها من رسائل هيام مرة أخرى، وطلبت قدح شاي آخر، ثم دفعت لصاحب المقهى قروشًا لثمن مكالمة هاتفية أجريتها من داخل محله. أخبرت خالد بأنني أريد رؤيته

غدًا لأمر ضروري، فقال: وأنا أيضًا أريد رؤيتك لأمر ضروري، عندي لك خَبر سار.



هي

لا تخش عليّ، سوف أعرف كيف أُغرق نفسي بتعلم اللغة الإسبانية، إنها أجمل من الإنجليزية والفرنسية، تركيبة الجُمل والصفات فيها تشبه تراكيبها بالعربية إلى حد كبير. لا تحتاج إلى شِدّة تركيز، مجرد بعض الانتباه، ممارسة ضاحكة مع الزملاء ومعلمتنا الراهبة، حِفظ المزيد من الأصوات والمفردات.. وأنا لديّ ذاكرة هائلة، وإن كانت أضعف من السابق. أتعلم اللغة في كنيسة قريبة من البيت، تعطي دروسًا مجانية للمهاجرين، وأحيانًا أكاد أضيع وقت الدروس بالدخول في حوارات جانبية عن الأديان بالإنجليزية مع المعلمة الراهبة الطيبة، آخرها عن الحجاب، فهي الأخرى تضع منديلًا على رأسها، قلت لها: إن الحجاب أتانا منكم ومن اليهودية قبلكم.

هل لديك وقت لتقرأ أم لا؟ اقرأني، فلا يهمني أحد سواك. دعني أبدأ بحكاية ذلك "الذئب" الذي أعتز به كثيرًا، إنه جدي، والد أبي. شخصية غريبة أو مجنونة. اسمه "ذَهَب" ويسمونه "ذئب". تخيل كم من حكاياتنا التي تبدو بسيطة، تصلح لقصص وروايات وأفلام!.

هذا الذهب؛ الذئب، أو الذئب الذهبي، ولد في سامراء لأم يتيمة وأب هارب من بعقوبة بعد أن قَتل ابن عم حبيبته لأنه حال دون زواجهما، لا أحد يعرف على وجه الدقة، لكن اليتيمة أنجبت له سبعة

أبناء أصغرهم جدي الذئب الذي كرر حياة والده هاربًا إلى أراضٍ أبعد.

كان عمره أربعة عشر عامًا حين وجد أشقاءه البالغين يتآمرون على نهب إرث أبيهم، عبر تقسيمه بين الثلاثة الكبار فقط، واستثناء الأخوات، ففاجأهم بالدخول من النافذة إلى اجتماعهم، حاملًا بيده مسدسًا ومهددًا إياهم بأنه سيقتلهم إن لم يجمعوا كل الإخوة الآن، وبحضور الأم والجيران، ويقرون بتقسيم عادل بين الجميع. ارتعبوا وصاحوا على الأم التي كانت في المطبخ. ولوَلَت حين رأت المسدس في يده، لكنها سرعان ما ابتسمت حين عرفت السبب، وخرجت تنادي على بقية أبنائها وبناتها والجيران، فيما بقي هو ممتطيًا حافة النافذة كحصان، ساق في الداخل وأخرى في الخارج، إلى أن تمت تسوية كل شيء، وعرف كل منهم ما يخصه من قطعة الأرض والأشجار في البستان وبقية مقتنيات البيت. وقَّعوا نسخًا من الاتفاق بعددهم ووقَّع بعض الجيران شهودًا. طوى ورقته في جيبه ثم بصق صوب إخوته الكبار، وقفز مختفيًا خلف النافذة.

استبدل حصته من الأرض بأخرى بعيدة عن إخوته وعن المدينة. في بداية شبابه تزعم عصابة سلب ونهب وكان يعطي الفقراء والمحتاجين مما يسرق. عمتي الكبرى تحكي لي أنه كان يسكن بعيدًا، خارج المدينة، وعندما يعرف الناس بأنه قد دخل إليها يرتعب الأغنياء تلك الليلة، فيحتاطون خشية أن يُسرَقوا، فيما يفرح الفقراء ويغنون أن الرزق آت. كانوا يعرفون حتى أيهم سينال نصيبه الليلة، لأنه سَلسَلهم تباعًا، مبتدئًا بالأشد فقرًا ثم الأقل، وهكذا. عمتي قالت لي بأنه وسيم جدًا، وبالغ الأناقة، وكان معروفًا بكونه زير

نساء من الدرجة الأولى، وخاصة بين نساء البساتين، ومن تحظى به، أو الأصح هو الذي يحظى بها بغتة في الدغل، يصعب عليها نسيانه فتظل تُحدث صويحباتها كيف عاشت حلمًا جميلًا... حتى تحول إلى فارس أحلام جل نساء المنطقة ومراهقاتها.

أنا لم أره أبدًا، ولا حتى أبي رآه، ولا أي أحد من أفراد عائلة والدي، باستثناء عمتي الكبيرة، التي هي الأخرى لا تتذكره جيدًا، لكنني كنت ألح عليها أن تحكي لي عندما كنت صغيرة. هل تعرف لماذا لم يره أحد؟ لأنه كان يتحرك في الليل ويختفي في النهار، وعندما تجاوز الأربعين من عمره ولم يعد بمقدوره تسلق الجدران والركض والتخفي بخفة خاطفة كالسابق، شعر بالحاجة لنوع من الاستقرار، فتزوج، لكنه واصل الترحال، متنقلًا بين الشام ومصر وإيران والخليج والهند، وكان يتكلم الإنجليزية والهندية بشكل جيد إثر عمله في ميناء البصرة. أتخيلها مثل إنجليزيتي؛ مجرد كافية للتفاهم.

بيته الطيني الذي كان بعيدًا عن المدينة، أصبح مركزًا لأكبر الأحياء في أطرافها الآن بعد أن راح الفقراء يجاورونه بالتدريج، الفقراء يسمونه (حي الذَهَب) والأغنياء يسمونه (حي الذئب).

لحظة، سأكمل لك حكايته لاحقًا؛ لأنني أريد أن أقول لك شيئًا تذكرته. اليوم كان (يوم الأم)، لذا.. حالما استيقظ ابني حامد سألته: ماذا تتمنى أن تهديني؟ أتعرف ماذا كان رده؟: "أتمنى أن أشتري لك كاسا جرانْدِ (يعني: بَيت كبير، بالإسبانية) كي تتخلصي من ضجيجنا وتقرئي على راحتك". فاجأني قوله، كأنه قرأ إحدى أمنياتي المُضمَرَة. حين عادوا من المدرسة، وجدتهم قد اشتروا لي، من مصروفهم الخاص، قبعة وردية، فهم يعرفون أنني أحب هذه

الأشياء. ففرحت جدًا. احتضنتهم معًا بحضن واحد وأمطرتهم بالقبلات.

تزوج المدعو ذَهب من المدعوة قَمرة، مؤنث قَمَر. لا أدري لماذا القَمر مذكر بالعربية ومع ذلك يتغزل به كل الشعراء على أنه يمثل وجه الحبيبة!. ولأنه كان زير نساء، وشخصية قلقة، لا يطيق المكوث في مكان واحد لفترة طويلة، كان يذهب إلى البصرة للعمل في الميناء مع الإنجليز، ومن هناك يسافر على متن السفن إلى بلدان شتى. وبالتدريج راح يحمل معه التمور النادرة لبيعها في الهند وجلب التوابل والشاي والأقمشة من هناك، ثم تصدير الخيول العربية الأصيلة لمعرفته بها جيدًا منذ اشتغاله بغارات السلب والنهب مطلع شبابه، كما تعاون مع المقاومين للاحتلال الإنجليزي، حيث يجلب لهم السلاح والمعلومات، ويكلفونه أحيانًا، ومجموعته ممن يعرف كيف ينتقيهم، بمهمات وهجومات خاصة يدركون ألا أحد سواه قادر على تنفيذها، لكنه كان يشترط على شيوخ المقاومة أن يدفعوا له ثمن كل شيء، فيقولون له: نحن إخوة وأبناء وطن واحد. فيرد عليهم بأنهم لن يكونوا أوفى من إخوته أبناء بطن أمه، وأنهم سيدَّعون البطولات لأنفسهم وسيستولون على البلد حالما يخرج الإنجليز ولن يذكروه بشيء؛ لذا فهو يريد الآن ثمنًا لكل ما يفعله. "أما من أجل الوطن، كما تزعمون، لا بأس، سأجعل لكم سعرًا خاصًا مُخفضًا".

على هذا النحو كان يجني ثروات طائلة، ولكنه سرعان ما ينفقها على الجيران وأقربائه المحتاجين، والترحال، والنساء، والغجر. كان يعاشر زوجته أسبوعًا ويتركها أشهرًا. يسافر إلى الأردن وإلى سواحل الخليج بحثًا عن الخيول، أو عما يمكنه أن يتاجر به، هذا ما تقوله

جدتي، لكنني على يقين بأنه كان يبحث عن شيء آخر في نفسه، ربما كان يبحث عن أبيه مثلًا، أو عن نفسه بصورة أبيه، أو عن إخوة.. يبحث عن شيء غير مادي بالتأكيد. قيل إنه تزوج في عدن، وفي عُمان، وفي الإسكندرية، لكن كل ذلك غير مؤكد باستثناء أنه قد تعرف على رجل من سلالة مهراجا في أطراف دلهي وأصبح أقرب أصدقائه إليه فزوجه ابنته.

يرجع إلى العراق بين فينة وأخرى. يطمئن على جدتي ويمنحها بعض المال. يرى أطفاله، يتأكد من حملها، ثم يغادر. قيل بأنه قد مات قبل الستين من عمره. كان يروض جوادًا مجنونًا فسقط من على ظهره فوق تمثال صخري لبوذا وسط باحة بيته الكبير في الهند، تاركًا خلفه زوجة هندية وثروة وأربعة أبناء منها، وزوجة عراقية للفقر مع طفلتين وحامل بأبي، حيث اضطرت للانتقال إلى بعقوبة بعد موته خشية من استذئاب أعداء الذئب عليها بعد موته، وهناك سكنت في أطراف المدينة أيضًا وامتهنت الخبز كي تطعم أولادها.

نتشابه أنا وذَهَب، أليس كذلك؟ أعتقد بأنه كان مثلي، يبحث عن حلم، عن شيء غير مرئي، أو ربما كان يبحث عن الحب أيضًا؛ لذا تنقّل طوال عمره بين النساء. لهذا تربطني بالهنود قرابة شديدة، وأتعامل معهم في السوق بمودة خاصة، فلربما أن أحدهم هو عمي أو ابن عمي أو ابن عمتي. كم كنت أتمنى لو أنني أعرف الأسماء التي أطلقها جدي على أبنائه الهنود! فبرأيي أن اختيارنا للأسماء له معانيه أيضًا؛ لذا تجدني أسأل أي هندي ألتقيه عن اسمه، وأفكر فيما إذا كان جدي سيختاره أم لا. جميل هذا.. أليس كذلك؟.

قرأت كثيرًا عن الذئاب، وكلما ازددت معرفة بها ازددت دهشة

وإعجابًا. كنت أحدق بصورة جدي في صالة دار جدتي فأرى عينيه تمامًا كعيني ذئب، حادًّتا النظر، لا ترمشان. كنت أتمنى أن أكون النسخة المؤنثة من جدي، بل أنا كذلك فعلًا، أنا ذئبة قوية الرقة، وشراستي تكمن في حُب الحُب والكُتب، وربما لو أنني كنت رجلًا، لفعلت مثله وتبعتُ مسار سيرته وترحاله مثلما فعل هو متبعًا سيرة والده الطريد. أشعر بأن دمه يجري في دمي وبأنني أكثر من يفهمه ويفكر به في العائلة، البعض كان يقول لي بأنني أشبهه، لي نظراته، عناده وهزاله، يسمونني أحيانًا بـ (ابنة الذئب) وأنا أحب هذه التسمية وأؤكدها لهم قائلة: (ابنة الذئب الذهبي). يسعدني هذا ويزيدني فضولًا للقراءة عن الذئاب، ومن بين أجمل ما أذكره من تلك القراءات مثلًا:

قيل للذئب: لماذا تركض أسرع من الكلب؟

قال: لأنني أركض لنفسي والكلب يركض لصاحبه.

لحظة، سأبعث لك الآن بعضًا من المعلومات التي جمعتها عن الذئاب من الكتب والإنترنت، وسترى بنفسك كم هو مثير للفضول هذا الكائن، ستدرك مدى ارتباطه بصورة جدي في ذهني. حدّقْ ببعض صور الذئاب مليًّا. أنا أفعل ذلك لساعات. أشتركُ بمنتديات الإنترنت بأسماء مستعارة، منتديات تتعلق بالحيوانات أو بالشِعر أو بالعوانِس، وسأحدثك لاحقًا عن قضية العوانس التي تشغلني. خُذ هذه المَعلومات مثلًا، إنها ليست علمية بالضرورة، فأنا أحب الاعتقاد بما هو خرافي أيضًا، كاعتقادي بما هو عِلمي:

الذئب واحد من أشرس وأجمل الحيوانات وأكثرها دهاء وأحكمها صيدًا. وعندما يهجم على قطيع من المواشي يختار أفضلها. لا يأكل الجيفة مهما كان جوعه، وعندما يفترس الضحية يستخرج الأحشاء

أولًا، أو مايسميها البدو (الشواء)، الأعضاء الطرية، كالكبد والكليتين والطحال والأمعاء، فيلتهمها، ثم يأتي على باقي الجسم. يشم رائحة الدم البشري على بعد أميال، فإذا أصيب إنسان بجرح في الصحراء يصبح هدفًا للذئب، ولن يستطيع الخلاص منه بسهولة. لديه من الذكاء ما يجعله يعرف إن كان راعي الماشية ذَكرًا أم أنثى، يحمل سلاحًا أم لا، ووفق ذلك يقرر الهجوم من عدمه. الذئبة أشد شراسة من الذَكر وخاصة عندما تكون أُمًّا، وأنا ذئبة شرسة ليس لأنني أمًّا، وإنما لأنني وحشية الحلم بالحب والمعرفة. الذئب كثير الحركة، لا يستقر بمكان معين، لا يَتَهَجّن ولا يتدجن، كالنمور والأسود التي ذلت إلى درجة رضاها بأن تكون ألعاب تسلية في السيرك..

ورغم ذلك، فهو حيوان اجتماعي أيضًا، يعمل مع القطيع كمجموعة متقاسمة المهام، يحزن على موت الشريك، يعوي لشهور أو سنوات، يبكي على فراقه بعواء شجيّ.. كبكاء جلجامش على أنكيدو، مع أن جلجامش كان ثلثاه إلهًا، وأنكيدو دابة تأنسَنت.

واسمع ما هو أشد إدهاشًا: يقال بأن الذئب هو الكائن الوحيد الذي تخشاه الجِن؟! لأنه الوحيد القادر على أكلها!

إذا وقعت عيناه على جِني فإن الذئب لا يحوّل عنه بصره.. وإن فصل بينهما وادٍ، يدور الذئب حوله من الجهة التي لا تجعل الجني يغيب عن نظراته ولو للحظة، يحرص على تجنب أي عازل يحول دون رؤيته سواء أكان صخرة أو شجرة أو تلًّا.. ذلك أن الأرواح الجنية يقيدها النظر.. فلا تستطيع الانصراف ما دام النظر متعلقًا بها.. ويعرف ذلك كل من اشتغل بالعوالم اللامرئية، كالسحر وتحضير الأرواح وتوظيف الجِن والشياطين.

يعمد الجن أحيانًا لإيهامك بصورة ثانية مختلقة تتحرك عن مكانه إلى جهة من الغرفة.. فإذا تبعت بنظرك الصورة الوهمية اختفى وانصرف.. وإذا ثبّت نظرك على المكان الذي خرج منه فسرعان ما تتلاشى الصورة التي أوهمك بها وتراه في المحل نفسه... فالنظر يقيدهم.

إن الأرواح عمومًا، سواء أكانت ملائكة أو جانًّا، تترك أثرًا ما عند مرورها على الأرض. وإذا كان الجنيّ متشكلًا بصورة إنسي من لحم ودَم.. ووقع في نفسك أنه جنيّ.. فضع قدمك مكان موضع قدمه، على أثر خطوته.. سيتسمَّر في مكانه ولا يبرحه.. وهذا هو ما يقصده الذئب من جريه وراء الجنيّ... وإلا فالجني أسرع منه بالتأكيد.. إلا أنه يسمّره بهاتين الطريقتين. النظر ودوس الأثر. وبالنسبة لأكل الذئب للجن، فكثير من الناس يعتقدون بأن الجن لا يستطيعون التمثل بالذئب، ويرتعبون حتى من رائحته. إنه مسلَّط عليهم وسيفترسهم في حالة المواجهة. وتفسيرهم لذلك؛ أن للذئب قدرة خارقة على قهر الجان،وأن هذه القدرة تتمثل في عينه التي لا ترمش حتى أثناء نومه، ولا تفقد بريقها حتى بعد موته...

بالطبع لا دليل على أكل الذئب للجن مباشرة؛ أي بحالته الطبيعية، لكنهم يؤكدون على أنه يستطيع أكله عندما يكون متمثلًا بهيئة إنسان أو حيوان، وفي ذلك يقول الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين:

""هكذا سمعنا من كثير من الناس، وذلك ممكن، فقد ذكر لي من أثق به أن امرأة كانت مصابة بالمس، وأن الجني الذي يتلبسها كان يخرج أحيانًا ويحادثها وهي لا تراه. يجلس في حجرها وتحس به، وفي إحدى المرات كانت في البرية ترعى غنمها، وفجأة خرج ذئب

عابر، فوثب الجني من حجرها ورأت الذئب يطارده حتى توقف في مكان غير بعيد، وبعد ذهاب الذئب جاءت إلى موضعه فرأت قطرة من دم، ومن حينها فقدت ذلك الجني فأيقنت بأن الذئب قد أكله. وهناك قصص أخرى، فلا مانع (هذا ما يقوله الشيخ: فلا مانع!) من أن الله أعطى الذئب قوة الشم لجنس الجن أو قوة النظر، فيبصرهم، وإن كان البشر لا يبصرونهم، فلعلهم بذلك لا يتمثلون بالذئب ويخافون من رائحته، فليس ذلك ببعيد"

"إذا تمثل الجنّيّ في صورة غير صورته الحقيقية، وتمكن الإنسيّ من الإمساك به وقيّده فهو يستطيع أن يحبسه في هذه الصورة إلى الأبد أو يقضي عليه حتى، وكما ورد عن النبي حينما أمسك بواحد منهم وقال: إنه أوشك أن يقيده إلى سارية المسجد ليلهو به صبيان المدينة، ولكنه أطلقه حتى لا يصير أمرًا واجبًا علينا كمسلمين بالإمساك بهم. فإذا كان هذا من قدرة البشر فما بالك لو التقى الذئب عدو الجنسين بجني على غير صورته النارية!".

نـصـيحة: إذا كنت في غابة.. وهجم عليك ذئب متوحش، فهناك طريقتان للنجاة: عليك بالركض دائريًّا؛ لأن العمود الفقري للذئاب مستقيم متصل بالرقبة ولا يسمح لها بالالتفاف إلا بزواية بسيطة جدًّا، وبالتالي فإن الدوران الدائري يتعب الذئاب، فتترك فريستها وتبتعد!!!

أما الطريق الثانية للنجاة، ليس من الذئب وحسب، بل من الأسود أيضًا وجميع آكلات اللحوم؛ فهي: لا تذهب إلى الغابة أصلًا.

أكاد أراك تبتسم، نعم ابتسم، بل اضحك، فما أجمل أن تضحك. بالمناسبة، أنا أغرق أحيانًا بالقراءات عن حيوان ما، مرة عن النمل، النحل، القرود، الطيور، الخفافيش، البحريات وغيرها، وفي كل مرة

أجد عالمًا مدهشًا، ننساه نحن بأنانياتنا اليومية وننسى أن معظم ما تعلمه الإنسان في بدايات معرفته كانت من الحيوانات، والتي صار لاحقًا يضطهدها أو يستخف بها ويتعالى عليها، أو في أبسط الأحوال يدير ظهر معرفته لها ظانًّا بأن عالمها مجرد عالم حيواني محدود لا يعنيه. جرّبْ أن تقرأ ثلاثة كتب عن أي حيوان يخطر بذهنك، وسترى.

الغريب أن جدتي لم تحمل أية ضغينة ضد جدي الذئب أبدًا، بل إنها طالبت بأن يضعوا صورته في يدها وهي تحتضر، على الرغم من أنها قد فقدت بصرها في الأيام الأخيرة من حياتها، لكنها ظلت تتحسس صورته بأصابعها وتهمس بتمتمات غامضة تخرج من شفتين تبدوان مبتسمتين حتى ماتت. إنها الصورة الوحيدة له، ولا أدري أين اختفت بعد موت الجدة! لا أستبعد أنها ربما أخذتها معها إلى القبر وأن عمتي الكبرى قد دستها لها في كفنها، فكلما سألتها عنها غيّرت الموضوع مكتفية بالقول إنها من حصة الجدة وهي حرة بها.

سألت جدتي ذات مرة عن الحب، فقالت: إن أساس الحب هو الإعجاب، وأنا معجبة بجدك منذ سمعت عنه، قبل أن أراه، ثم ازددت إعجابًا به بعد أن عرفته وحتى في غيابه على حسابي.

فسألتها: وكيف تعرفين بأنك عاشقة؟

قالت: أعرف بأنني أحب، عندما أفكر بالحبيب فلا أشتهي الأكل، لأنني أشعر بامتلاء ولا مجال لشيء آخر، وعندما تكون في وجهي ابتسامة دائمة حتى بلا أسباب، كأنها ابتسامة غبية، لكنها ابتسامة سابحة عذبة. وباختصار: فإن من يعشق حقًّا.. حتى رائحة ضراطه تصبح طيبة.

أوه، يا إلهي كم فكرت بهذه العبارة وتمنيت لو أنها حقيقة، أي

أننا نستطيع معرفة صدق حب الآخر لنا من خلال رائحة ضراطه مثلًا. تخيّلْ! كنت سأتلصص على الحمامات لأتأكد من رائحة ضراط الآخر الذي أحبه، وأتخيل بأنني حين أجدك قد أملأ العالم بضراطي كي أعطره بالحب. يطرأ في ذهني أحيانًا مدى إمكانية كتابة رواية موضوعها وعنوانها (ضِراط العاشق) مثلًا، أراك تضحك الآن.. تضحك، ههههه وأنا أريدك أن تضحك. جدتي تقول بأن ذئبها كان يُضحكها كثيرًا، وبأن الرجل الذي لا يُضحك امرأته فإنه لايستحق قلبها.

نسيت إخبارك بأن ذهب كان يأتمن ابن خالته الأعمى على أسراره المتعلقة برحلاته خارج العراق. هذا الأعمى اسمه شمشون، وسبق له أن سافر مع جدي مرتين إلى الهند ومرة إلى لبنان، وما معرفة الأهل بزواج الجد وموته في الهند إلا عن طريق شمشون الأعمى، الذي يضن بالمعلومات جدًّا باعتبارها أسرارًا وأمانة، فلا أدري ما جدوى ذلك وها هو قد أخذها معه إلى قبره فاختفت إلى أبد الآبدين!.

كنت أسأل جدتي كثيرًا عن ذئبها كي أشكل صورته أفضل في رأسي، وحتمًا كان لطريقتها بالحديث عنه أثر حفرته في داخلي، لجدي، الذي لم أعرفه، تأثير عليّ، مثلما لشخصيات الكتب والأدب أو شخصيات يمر ذكرها في حديث عابر، فلا أنساها وأتخيل لها بقية تفاصيل حياة، لحسن مطلك تأثير عليّ وإن لم ألتقه، ولن ألتقيه أبدًا. وحتى أنت الذي لم ألتقِك بعد واخترعتك في خيالي، في قلبي وعقلي ومن توقي إليك، صرت أشعر بأن لك تأثيرًا عليّ طوال اليوم وفي كل شيء. ليس في الأمر غرابة، صدقني، فجارتي المغربية نعيمة ومنذ عرفتها وهي تحدثني عن همها الأساسي في الحياة؛ ألا وهو أن تتوصل،

ذات يوم، إلى يقين قطعي فيما إذا كان الكلب الأسود الذي رأته، في طفولتها، جالسًا في نافذة غرفتها ويحدق بها؛ حقيقيًا أم وهمًا كما قالت لها جدتها؛ لذا تراها تحدق في عينيْ كل كلب أسود تراه، عندما نخرج للتسوق أو نتنزه مع أطفالنا في الحديقة القريبة، على الرغم من أنها تخاف وتكره الكلاب، فما الذي يجعل من سعيي للبحث عنك وهمًا وعبثًا؟ وإن كان؛ أليس خلق وهم أو حلم وعيشه هو أفضل من الانتظار المرير الأجوف؟ أنا اخترت أن أصدق أقوال جدتي وأصدق ما أتوهمه، بل أعيشه بدل تبديد الوقت بالتحقق من حقيقة وجوده أو عدمها، ألا يكفي أنه موجود في رأسي وداخلي؟ إذًا فهو موجود بغض النظر عن طبيعة وكيفية وجوده، وما أكثر الأشياء التي نؤمن بوجودها ونحن لم نرها أو نلمسها في الواقع أبدًا.



أتعرف يا عزيزي؟!

أنا اليوم مرتاحة بعد أن أنهينا اتصالنا، خرجت، تمشيت قليلًا، وحين عدت وجدت الكهرباء مطفأة؛ فكانت فرصة رائعة لأستمتع بالسكون. جلست قرب النافذة لأكثر من ساعة بلا حركة، بلا تفكير. أنا والغيوم التي في الأفق شيء واحد. كنت أتقمص الطير وهو يدخل للعش الذي بناه بطريقة عجيبة على الشجرة أمامي. إنني مفتونة بهذه الحياة. أعشق كل شيء.. حتى حزني وأخطائي ووعدك بعدم الوعد. أنا مجنونة بالحب..

ثمة إشكاليات كثيرة في حياتي، علّها تخرج بالكتابة. صحيح أن أبرز محاور حياتي هما القراءة ثم الكتابة. كما أنني أم وزوجة وكل

شيء آخر طافٍ على السطح، لكنني أبقى مختنقة بدون هيام الحقيقية التي في داخلي. صدقني، إنني أحترق أملًا للانتهاء من هذه الفوضى، التحرر من هذه الشِباك كي أكون ما أتمنى أن أكونه.

ينتابني أحيانًا إحساس بالفشل، وعدم الجدوى يهلكني تمامًا، لكنني أرفض الاستسلام له. أفضل مواصلة إعادة ترتيب أحلامي وفق مزاجي بدل الدخول مرة أخرى في دهاليز واقع ملوث وعلاقات هزيلة.

ثمة شيء غريب فيّ؛ أنا ذكية جدًّا، وفي الوقت نفسه غبية بمعرفة البشر، لأنني لا أتخيل أحدًا يكذب وينافق بلا سبب. غالبًا ما أنظر إلى الناس نظرة حلوة.

أنتبه لكل إشاراتي لتنبيه الحواس الغافلة، رامبو كان ينادي بتدمير الحواس، أما أنا فأدعو إلى استنفار الحواس، مضاعفتها، تلوينها وشحذها؛ لذا فإن حسن مطلك قد أذهلني بذلك؛ لأنه مثلي، لأنه فهمني تمامًا وعبّر بدقة متناهية عما أعجز عن التعبير عنه، تمكن من جعل قارئه يرى بعينيه، يلمس بيديه ويحس بكل حواسه، جعل شاهين، بطل (دابادا) يحس "بألم الأشجار عندما تنزع أوراقها الميتة، بصراخ النهار حين يبدأ وعذابه حينما ينتهي، بنمش الذباب على جدران البيت الجصي. ويحس بثقل قبة السلحفاة، وعذاب الحلزون بسبب القوقعة. يحس بمرارة الزفير، وألم طرفي المسمار، المطرقة من طرف وصعوبة الاختراق من الطرف الآخر.. وبكل شيء تقريبًا؛ لذلك فهو ميت الحس في نظر كل شيء تقريبًا".. يحس بحصى قاع النهر، بمعاناة الهواء بعد الاصطدام بالتلال، بموت فأر تحت القدم، محادثات بين طابوقتين، شكوى أرجل الطاولة بسبب تعب الوقوف والرفع،

تنفس تروس الساعات.. أصوات لا مكان لها ولا أصل.. أصوات.. أحد ما... فيدين نشرات أخبار الدنيا؛ لأنها تكرس "الإرهاب العالمي وليس الحُب العالمي".. و.. أوووووه.. كم أنا مُرهفة ومُرهَقة في هذه اللحظة!. سأكتب لك بعد غد، فغدًا لدينا موعد مع المحامي.

ـ ٣ ـ

كتاب حياته.. عَذاب

أنا

انتبهت إلى أنني قد ارتكبت خطأً لن أتمكن من إصلاحه، ألا وهو إرسال رسائل بريدها إلى بريدي، فبماذا ستفكر وستفعل عندما ترى ذلك؟ هذا فيما لو أرادت فتحه ومعاودة الكتابة فيه، أو أن تعطي مفتاحه للحبيب الذي تبحث عنه عندما تجده، كما تقول. ماذا سيقول ذلك الحبيب عندما يرى بأن نسخة من الرسائل قد أرسلت إلى بريدي؟ ثم فكرت: ولكن.. يمكنها أن تبعث برسالة إلى إيميلي إذا أرادت، وأنا سأشرح لها كل الذي حدث. ترى لماذا لم تكتب شيئًا إلى بريد حسن مطلك في مدونته؟ لماذا لم تكتب إلى إيميلي عنه؟ ربما لا تعرفني؟.. بالتأكيد تعرفني، فكل من يعرف حسن مطلك يعرف بأنني شقيقه، والمهموم بحمل صوته حتى آخر عمري، فمنذ إعدامه ووصمه بالخيانة ومنعنا من إقامة عزاء له ومنع ذِكره في الصحافة أو حتى في المقاهي الثقافية، شعرت في داخلي بطعنة لا شفاء منها. آنئذ طرأت لي فكرة الانتحار لأول وآخر مرة في حياتي، فسرعان ما طردتها فكرة مناقضة تمامًا.. كأنها إلهام، وهي فكرة: مضاعفة الحياة. بتحدٍ عجيب أضمرت قرارًا عزمت

على تحقيقه مدى الحياة؛ أن أعيش لشخصين، من أجلي ومن أجله، أن أنشر كل ما تركه من مخطوطات نصوص وقصصات ملاحظات ورسوم، أن أجمع وأعيد نشر كل ما كُتب عنه، أن أكتب عنه بنفسي وأحث الآخرين، أن أعمل على التعريف بنفسي في الأوساط الثقافية بغرض إيصال صوته هو أولًا؛ أي أن أصبح كاتبًا لمجرد أن أكون جسرًا لإيصال كتابته. ولهذا أقول، لو لم أكن شقيقًا لحسن مطلك لكتبت ضعف ما كتبته؛ ذلك أنني خصصت نصف جهدي ووقتي لكتاباته هو، وأقول، لو لم أكن شقيقًا لحسن مطلك ربما لم أكتب شيئًا؛ لأن أهم دوافعي وتورطي بالكتابة وتعريفي باسمي، ما هو إلا وسيلة للتعريف به، فالكتابة تهمه أكثر مني أصلًا. ولهذا أيضًا أقول لو لم أكن شقيقه لما اهتممت بهذا الكتاب، برسائل هذه المرأة المجهولة، المرأة الصدفة، النادرة العجيبة المُعجبة به وتفهمه وتحبه إلى هذا الحد مثلي.

كانت شوارع إربد خالية من الناس تقريبًا، والساعة تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل. دنوت من السكن عابرًا الساحة القريبة منه فرأيت رفاعي يترنح سكرانًا ثم يستند على عمود للكهرباء في طرفها، أسرعت إليه، أسندته على كتفي وقدته لنجلس على مصطبة قريبة. أخرج علبة سجائره بصعوبة من جيبه، قدّم لي سيجارة وله أخرى فأخذت القداحة من يده وأشعلتها له لأنه كاد أن يحرق شاربه. وسألته: أين كنت؟ قال: عند القحاب.

لقد تغير رفاعي كثيرًا، فمنذ آخر مرة قال لي فيها إن التي يحبها قد سافرت، وهو لا يشارك كثيرًا في جلسات السهر ولا يطلب مني رسائل حب، حيث كان آخر ما كتبته له سيرة حياته التي أصر

أن يكون عنوانها مطلع أغنية حسن الأسمر كاملًا، هكذا: (كتاب حياتي عذاب؛ الفرح فيه سطرين والباقي كله عذاب).

كان ذلك منذ أشهر لم أعد أذكر عددها، جاءني ذات ليلة يسألني: ماذا يعني (روايات) يا محسن؟ فهي تقول إنها تحب قراءة الروايات كثيرًا. شرحت له الأمر حينها بأبسط ما أستطيع، فقال: ما رأيك أن تكتب حياتي في رواية لأعطيها لها؟ لأنني في لقاءتنا السرية السريعة لا أجد فرصة كافية لأحكي لها كل حياتي.

قلت له:- إن هذا أمر صعب؛ لأن كتابة الروايات ليست سهلة ككتابة الرسائل، ولو كنت قادرًا على فعل ذلك لفعلته لنفسي؛ لأنني ومنذ تعلمت القراءة والكتابة، أتمنى وأحلم أن أكتب رواية.

قال:- سأدفع لك ضعف ما ندفعه في كتابة الرسائل، يعني بدل نصف دينار على الصفحة الواحدة سأدفع لك دينارًا على كل صفحة.

وافقت على الفور؛ لأنني كنت بحاجة لأي قرش، ولأن هذا هو العمل الوحيد الذي أستطيع القيام به أفضل من غيره. فاتفقنا على أن يروي لي كل ليلة خمسة أعوام من حياته وأنا أكتبها في اليوم التالي. ذهبنا إلى أقرب دكان، أقنعته هناك بشراء دفترين كبيرين، أحدهما بغلاف أزرق والآخر بغلاف أحمر، وقلمين أحمر وأزرق، فرمقني بريبة مبتعدًا عني خطوة وسأل: لماذا اثنان، اثنان؟!

قلت له: دفتر أسجل فيه الملاحظات واختصارات لما ترويه لي، يعني مسودة، والآخر أكتب فيه التفاصيل والنص النهائي.

فقال ببحة صعيدية خضبها التدخين:- هااااا... طيب، والقلمين؟!

الأحمر أخط به العناوين والأزرق أكتب فيه النص.

هدأ قليلًا، دفع الثمن، مادًّا يديه قبلي إلى البائع ليأخذ الدفاتر والأقلام بنفسه. خرجنا وهو يقلبها، يتحسسها ويمسح عليها بعاطفة غريبة ثم دفعها إليّ... وهكذا فعلنا على مدى شهر تقريبًا. كتبت له سيرته في مائة وثلاثين صفحة، فكان ذلك حينها أكبر مبلغ أتلقاه من الكتابة في حياتي، عدا أنني ربحت قلمًا ودفترًا كنت بحاجة إليهما. كنا ننتحي جانبًا كل ليلة، يروي لي تفاصيل حياته القاسية منذ الطفولة، مدخنًا أضعاف ما يدخنه عادة. ومن بين أكثر ما أذكره؛ طفولته المريرة. له أخت تصغره بعامين، ماتت أمهما وهو في سن الحادية عشرة فتزوج والده من امرأة سيئة كانت تضربهما، تجوّعهما وتفرض عليهما العمل ليل نهار كالعبيد، وكان والدهما قاسيًا ويصدقها في كل شيء بحيث أنه عند عودته ليلًا يعاقبهما بضراوة على أية شكوى تقدمها إليه زوجته ضدهما. اعترف لي بأنه صار يكرههما إلى حد التفكير مرارًا بقتلهما وهما نائمين.

كانت رؤيته لمعاناة شقيقته توجعه أكثر من معاناته هو. حين بلغ الخامسة عشرة من عمره وكان عائدًا ذات مرة من الحقل. دلف إلى الدار فوجد زوجة أبيه تجلد أخته بقطعة من خرطوم الماء البلاستيكي وتشدها من شعرها، وأخته النحيفة متكورة على نفسها فوق أرضية المطبخ وتنتحب مختنقة كأنها تموت، فرمى نفسه على أخته، أحاطها بجسده فيما واصلت زوجة الأب ضربها له هو ولِما يظهر من جسد أخته تحته، وقبل عودة الأب بدقائق قامت المرأة برمي العشاء على الأرض وراحت تولول وتصطنع البكاء حال سماعها له يدفع الباب، ثم قالت له بأن البنت هي التي رمته وعندما أنّبتها دافع رفاعي عنها وضربني وضرب أخته وضرب نفسه كي يقلب الحقائق أمامك. حاول رفاعي عبثًا أن يشرح لأبيه، الذي لا يستمع إليهما أصلًا ولا يصدقهما

بأي شيء، فانهال الأب الجائع عليهما ضربًا ثم سحلهما إلى الزريبة وعلقهما بالحبال في سقفها بين الجواميس حتى الصباح.

صور تفاصيل تلك الليلة صارت جزءًا من ألبوم ذاكرتي عن عذابات هذا العالم، حيث يمد هو يده إلى أخته وهما معلّقان، كي يمسح دمعها، يمسد على شعرها مهدئًا وهي ترتعد كفأرة مبلّلة. قال: لا تخافي أبدًا مادمت أنا حيًا. وأخبرها بقراره أنه سيقتل الأب وزوجته.

بعد يومين، قال لها أحضري ملابسك، سنقتلهما هذه الليلة ونهرب، لكن الأخت توسلت إليه ألا يفعل، فخفف من قراره، وما إن غادر الأب البيت في الصباح باكرًا، حتى تسلل هو إلى غرفة نومهما، ربط الزوجة النائمة بحبال الجواميس وحشى فمها بقميص لها ثم انهال على كل بقاع جسدها ضربًا بأقصى ما يستطيع من عنف، إلى أن كف جسد المرأة تمامًا عن الحركة، وبدت كأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة، ففك الحبال وسحلها دامية من شعرها إلى الزريبة. استعان بأحد البراميل هناك وصعد ليعلقها بالسقف، في الموضع ذاته الذي كان أبوه قد علّق فيه أخته.

عاد وأيقظ شقيقته، لملم معها، في صرتين، ما لديهما من ثياب وبعض ما وجداه من طعام في المطبخ، وقادها إلى الزريبة لترى زوجة الأب التي كانت تتدلى كخرقة تقطر دمًا وعرقًا وهي فاقدة للوعي، وقال لأخته أن تفعل بها ما تشاء، لكن الأخت لم تفعل شيئًا، سوى أنها اقتربت حتى صارت تحت وجه المرأة وتمتمت: لماذا؟ وابتعدت، فاقترب هو بعدها أسفل الوجه وبصق عليه بقوة، ثم أخذ كف شقيقته بكفه وهربا من ذلك البيت وتلك القرية إلى اليوم.

أذكر أنني سألت رفاعي، بعد أسبوع من تسليمي له دفتر سيرته،

عما قالته حبيبته، فقال بوجه أراه منبسطًا ببهجة لأول مرة: أعطتني قُبلة. وقال بأن الأمر كان مفاجأة مدهشة لها، فرحت بها كثيرًا كطفلة، وأنه أخبرها عن حلمي بكتابة رواية، فقالت له بأنها ستكتب لي رواية حالما تجد الوقت والظرف المناسب لذلك في المستقبل. فضحكت أنا وضحك هو لضحكي ودعاني للغداء في مطعم راقٍ احتفالًا بنجاحنا وبجائزته القُبلة.



هي

صباح الخير..

ياه.. لأول مرة أشعر أن لهذه التحية معنى وطعمًا جميلين، كيف لم أنتبه إلى ذلك من قبل..!؟. أعترف بأنني متلهفة. وفسّرْ ذلك كما تشاء. أول أمس، حين أطفأنا الكمبيوترات أو أغلقنا الهواتف.. ثمة حديث استمر بيننا حتى الصباح الحالي.

عندي مخيلة عجيبة. كنت تمشي معي طوال الوقت، تحدثنا عن الكُتب والكُتّاب وصفحات الثقافة في ملاحق الصحف، تحدثنا عن الرسم، عن اللوحات التي أبكتنا، معرض حسن مطلك في جامعة الموصل، سالم الدباغ، خوان ميرو، جواد سليم، فان جوخ، ضياء العزاوي، كاندينسكي.. عن الشعر والقصائد التي نحفظها، السياب، يسينين، مظفر النواب، هنري ميشو، ملا عبود الكرخي، بيسوا.. عن الموسيقى والأغاني التي نحبها، ناظم الغزالي، بليغ حمدي، لاورا باوسيني، محمد عبدالوهاب، سعدي الحِلي.. وكانت فيروز تغني في

خلفية الصورة "تعال ولا تجيء واكذب عليّ/ الكذبة مُش خَطِية/ وتعال ولا تجيء".

نشأت في بيت تمثل فيه المكتبة ركنًا أساسيًا، ومنذ دخولي للروضة، كانت أمي تعينني على حفظ الأناشيد كي أقرأها أمام التجمع الصباحي للطلاب في ساحة المدرسة، وخاصة في أيام الخميس الاحتفالية بتحية رفع العَلَم. كنت ألح عليها أن تفسر لي معاني كلمات الأغاني التراثية القديمة وأحفظها. أحب الكلمات. لاحقًا تعرفت على شاعر شعبي من أقرباء أمي فكان يقرأ لي القصائد الشعبية القديمة وأحفظها. مما أتذكره في تلك السن أيضًا، أنني كنت ألتصق بابن عمتي الذي يكبرني بثلاث سنين، وغالبًا ما كان يقبلني قُبلًا طفولية.. حسية!. وكان أبي يكثر من جلب الهدايا لي ومنها قصص للأطفال مع أشياء أخرى كالحلوى والألوان والعرائس. كنت مولعة بالرسوم أكثر من الكلمات، إلا أن الكلمات صارت تجذبني تدريجيًا بعد أن صرت أقرأ سرًا في أوراق أمي ويومياتها التي كانت تدونها من حين لآخر، وأرشيف رسائل حبها مع أبي. لم أشعر حينها بالعوز. كنت مميزة بالملبس والتهذيب.. إلا أن وقاحاتي ستطفو كلها لاحقًا على سطح حياتي.

في المرة الأولى التي أخذتني فيها فاطمة ابنة خالتي إلى الحمّام فاجأني جمال نهديها عند تعرينا. ربما كانت في السادسة عشرة من عمرها. شهقتُ: ما هذا يا فاطمة!؟. قالت: نهدان. فرحتُ أتلمسهما بدهشة، أدور عليهما بأصابعي وأتمسح بخدي على نعومتهما وأسألها من أين لها هذا وكيف ومتى.. وهي تضحك منتشية وتصب الماء بلا إجابة. فأتوسل بها أن تخبرني فتقول: من الله.

بعد انتهاء الحمام. جلسنا في صالون البيت مع دفاترنا، أكثرتُ

من رسم الدوائر والقباب والتفاح، وجاء أبي ليودعنا كي يسافر إلى السعودية لأمر يتعلق بتأسيس جامعة البصرة. كان كثير السفر. وسألني كعادته فيما لو أريد أن يجلب لي هدية بعينها، فقلت له: أبي، أليست الكعبة بيت الله؟ قال: نعم. فقلت له: أرجوك اشتر لي من مكة نهدين كنهدي فاطمة.

كانت هي إلى جانبي فهزتها المفاجأة، أغلقت فمها بكفها محمرة الخدين خجلًا ثم هربت مبتعدة وكفها الأخرى على صدرها.. فيما قبلني أبي وغادر ضاحكًا تتبعه قهقهاته التي لا زلت أسمعها حتى اليوم... وبالفعل منحني رب الكعبة أجمل نهدين أثمرهما جسد امرأة.



أرجو ألا تتعالى أو تتبجح عليّ.. لا بأس أن تكون معتدًّا بنفسك، وأن تكون مغرورًا بي، يعجبني، ولكن اجعل غرورك معي أقل. إن الحالة التي أمر بها معك غريبة، وليس لدي تفسير لها. دعني أكمل.. وتذكر بأني أهينك كي أحبك.

انتقلنا إلى نينوى لانتقال أبي إلى جامعتها حين كان الربيع في أوجه، هناك أحببت دجلة أكثر من حبي لها في أي مكان آخر، أحببت الهواء والجسور والمخللات وكبة البرغل وسوق الذهب والغابات. كنت في الصف الرابع الابتدائي. ولأن أبي حزبي كبير جاءته الأوامر الحزبية، بعد ستة أشهر، بالانتقال مزيدًا نحو الشمال، إلى السليمانية. في تلك الفترة بدأت أدرك بأن أمي وأبي ليسا سعيدين مع بعضهما على الرغم من كل محاولاتهما في إخفاء ذلك أمامنا.. كنت أقرأ يوميات أمي

خلسة في غيابها. سطورها مشتعلة بالهواجس. وأكاد أعرف الآن لماذا لم يكونا منسجمين. لم يكن أبي مخلصًا لها، ربما كان يشعر بأنها أفضل منه، ومن طبقة اجتماعية أعلى، راح يحاول -عامدًا- إثارة غيرتها بكثرة التأخر عن البيت وتشعب علاقاته، بالطبع كان سلاحه لاصطيادها قبل الزواج هو الحرص على تفوقه الدراسي والنجاح في العمل والحزب إلى جانب رسائل الغرام التي يعبئها بالشِعر.

كنت أتبادل النظرات والشوكولاتة مع ابن الجيران الكردي الذي لم يكن يتكلم العربية، اسمه بختيار، ممتلئ البدن وبطيء الحركة، يشبه خروفًا شبعان. كان أنيقًا بلباسه الكردي وخديه الكرويين كنهدي فاطمة. بكيت في بيتهم ذات مساء اصطحبتني فيه والدتي لشرب الشاي مع والدته. أريد ثوبًا كُرديًا. أمي تقول: اسكتي الآن وسأشتريه لك غدًا. وأنا أدفع صحن الكعك من أمامي وأبكي: الآن، الآن. فنهضت والدة بختيار وعادت من غرفة نومها بثوب مدهش الألوان قائلة: هو لكِ، صممته بنفسي لشيرين لكنهم قتلوها قبل أن ترتديه. تجهمت أمي متطيرة ومانعت، لكن والدة بختيار قالت: هو لها، كأنه كان بانتظارها، وهي مثل ابنتي أيضًا، سيُسعد ذلك روح شيرين ويسعدني، وأنت يا بختيار؟. فهز بختيار رأسه الكبير موافقًا وخدّاه الكرويّان عند الابتسام يدفعان عينيه حد إغلاقهما. إلى اليوم لا أعرف حكاية مقتل شيرين، لكن الموت سوط ظل يجلد الأكراد في كل الأزمنة، فيما تمدهم جبالهم والسفوح الخضراء والماء العذب بالحياة والطيبة والزهور والعِناد. أحب الطيبين منهم وأمقت القساة.

أخذتُ بختيار من كفه السمينة وطفنا في الحي. كنت مبتهجة

بثوبي الكردي الملون وأكاد أطير فيه كفراشة. اشترينا شوكولاتة من دكان الحاج أمين الذي كله من الصخر والجبس، بما في ذلك الباب والرفوف والميزان ومقعده. أنا التي قادت بختيار لاحقًا في الظهيرة إلى ظل شجرة التين بين بيتينا وقبلته من خده بلا كلام.. لأن ابتسامته وعينيه اللتين لا تكفان عن النظر إلي تقول الكثير. لكنني أحب الكلام. كذلك أحب الصمت. كان يناديني (بيام) مستبدلًا حرف الهاء بياء أخرى.. ترى أين هو الآن؟.

لوالديّ صداقات ومعارف كثر، وكانوا يكثرون من دعوة الضيوف إلى البيت. وكنت أنا جريئة عن قصد فيما ينطوي داخلي على حياء خصب. أحفظ القصائد وألقيها أمام الزائرين، وذات مرة حفظت قصيدة طويلة لمحمود درويش دون أن أفهم معناها، فكانت الكلمات تخرج على لساني كلها خاطئة وهم يضحكون ويحثونني على المواصلة. في تلك السن كنت أذهب وحدي إلى السوق، أمشي، أركب باص وأشتري أي شيء يعجبني من (الأسواق المركزية).. هل تتذكرها؟. ربما نضجت مبكرًا، ربما كان عمري عشر سنوات أو أكثر.

خصصت الحكومة لأبي رجل شرطة كحماية. شاب وسيم، قوي وطيب. يعيش في سكن صغير جوار بيتنا، لكنه يتواجد معنا في أغلب الأوقات، نادر الكلام، ويبدو كخادم مطيع. أذكر أنه كان يلمسني بشكل خاص كلما قادني من يدي أو رفعني إلى السيارة أو رافقني إلى المدرسة، وعند العودة يقف في الحديقة، يتلصص عليّ من النافذة عندما أخلع ملابسي المدرسية. في مواقف معينة، كان يحتك بجسدي من خلف الثياب، بشكل يذكرني برجل القطار.

كنت أشعر بالخوف وبلذة ما أيضًا، لذة شعوري بأنني ربما أصبحت امرأة، وخوفي على أختيَّ الصغيرتين من أن يؤذيهما، و لم أجرؤ على ذِكر الأمر لوالدي أو لأي كان، هذه أول مرة أبوح به.

في العطلة كان ابن عمتي عدنان يأتي إلى بيتنا، وهو يقرأ كثيرًا، إلا أن قراءاته تقليدية، روايات بوليسية ورومانسية سيئة الترجمة وأشعار الحب والحرب والشموع والعصافير، وعندما يلاحظ اهتمامي بالكتب يعيرني المزيد منها، أقرأها ثم يسألني لاحقًا عن رأيي بها. كنا نجلس معًا لساعات طويلة ونحكي أو نخرج في جولة في الحي ونشتري شيئًا من دكان الحاج أمين. علمني أيضًا كيف أسمع فيروز.. أستطيع القول بأنه كان يربيني على يديه. وكانت أمي تلاحظ كل ذلك عن بعد دون أن تتوقع أي شيء غير طبيعي. كنت متفوقة في الدراسة، ما أقرأه كثير. كانت الكلمات بالنسبة لي تمثل اكتشافًا عظيمًا، يسحرني أن هذه الرموز التجريدية البسيطة تتكلم وتعبّر عن كل شيء، أستشعرها حيّة وأرى أطراف الحروف ونقاطها مثل ألسن وأيد تتكلم. القصائد التي كنت أقرأها في رسائل أبي إلى أمي وكلمات الأغاني التي أطالب أمي بشرحها لي كشفت لي بأن الكلمات، هذه الأصوات، تعني الكثير، ولها امتدادات بعيدة وواسعة أكثر من ظاهرها.. إنها تمثيل لوجود أوسع.. هكذا قادتني الكلمات إلى الشغف بالكتب أكثر.. هكذا أرى الإنسان مفردة تمثل ما هو أوسع وأبعد وأعمق من مجرد كينونتها الملموسة الظاهرة. كنت أحب أن ألعب وحدي أو مع النمل في الحديقة، أنثر السُكّر وأبقى أراقبه، ومع الضفادع وسحالي أبي بريص، وخاصة في مواسم التزاوج. هل سبق لك وأن شاهدت أبا بريص يعتلي حبيبته أم بريص؟. بالمناسبة، أنا مُثارة طوال الوقت مُذ عرفتك ولا أدري ماذا أفعل.. حتى أن بثورًا قد صارت تظهر على

جلدي بين الكتفين وفي خدي كمراهقة. كان عدنان رائعًا، هو الآن في أستراليا وبلا زواج، وكلما كانت تراني عمتي تبكي، لا أدري لماذا بالضبط، ربما أنها في داخلها تتهمني بعقدة ابنها وامتناعه عن الزواج. سوف تأتيك الحكايات تباعًا. في تلك الفترة سافرت مع أهلي إلى تركيا واليونان ولبنان وسوريا والكويت. العراق مر بأحسن مراحله تقريبًا قبل الدخول في حرب مع إيران.

لا تنسني.. فأنا أحلم باللقاء بك وسط حقل من حرية.



حاولت الاتصال بك قبل قليل، أرجوك لا تقفل الهاتف، فعلى الرغم من أنني نهمة للحب والحياة لكنني سأكتفي الآن بهذه الهيام الخفيّة في داخلي.

حين عدنا إلى بغداد كنت في الصف الأول المتوسط، وكانت صداقاتي مع طالبات أكبر مني، في الصف الثالث أو حتى الرابع الإعدادي. إن شئت فسوف أكتب لك الأسماء، لازلت أذكرهن جميعًا.

إلا أن ياسمين هي التي أصبحت من حينها صديقة حياتي، جمعنا حب القراءة وحب الحب ومن يومها لم نفترق. تعرفت عليها في مكتبة المدرسة. كانت تجلس قبالتي على الطاولة وتقرأ. تكبرني بثلاثة أعوام. رأيت دمعها ينزل وتمسحه بصمت فأثار الأمر فضولي، حاولت أن أتبين عنوان الكتاب فلم أتمكن؛ لأن الكتب آنذاك كانت تُغلف كلها بأغلفة ثانية من الكارتون المقوى والجِلد حالما تدخل المكتبة. نسيت الكتاب المفتوح بين يديّ وبقيت أَراقبها حتى هدأت، فنهضت

والتففت حول الطاولة دانية منها، ثم همست بأذنها إن كانتْ تسمح لي بمعرفة الكتاب الذي تقرأه. كان (روميو وجولييت) بطبعة معدة للفتيان، كنت قد قرأتها من قبل، فاقترحت عليها أن نقدمها كمسرحية ضمن النشاطات المدرسية. فتحت فمها دهشة وهي تحدق بي بإعجاب. نهضت وقادتني من ذراعي إلى الساحة، هناك جلسنا وبدأنا تداول الفكرة طويلًا حتى قبل أن تسأل أي منا الأخرى عن اسمها.

استغرقنا شهرًا بالإعداد والتمارين ثم قدمنا المسرحية في مناسبة وطنية لا أتذكرها. هي مثَّلت دور روميو لأنها أخشن مني صوتًا وصورة وأنا مثلت دور جولييت، وهالنا النجاح الذي حققته المسرحية بحيث ظل الطلاب ينادونني جولييت لفترة طويلة. فكرنا بعدها أن نقدم مسرحية (مجنون ليلى) فأعددنا النص بمساعدة أمي باعتبارها أستاذة اللغة العربية، وتمسكت أنا بدور الشاعر المجنون عشقًا، حفظت أشعاره وكلماته وتشربت بشخصيته التي تخيلتها حتى صار الحب بالنسبة لي هو قيمة كل شيء، لكن اعتقال واختفاء مدرسة التربية الفنية، التي كانت تشرف على تدريباتنا، قضى على مشروع مسرحيتنا الثانية. قيل لأسباب سياسية وبأنها كانت تنتمي للحزب الشيوعي.

ياسمين مسيحية وتتمتع بحرية أكثر مني، وكان هذا فرصة لكلينا كي نروي فضولنا نحو الآخر المختلف بثقة ومحبة. معها زرت كنيسة لأول مرة، ومعي زارت هي أول مسجد، تبادلنا الكتب المقدسة فلم نفهم منها الكثير. أعطتني الإنجيل فقرأته غارقة في حكاياته أكثر من وصاياه، وأعطيتها القرآن فكان فاتحة لتذوقها للغة بشكل مختلف.

لماذا ياسمين وأنا تحديدًا، وليس صداقة كهذه مع غيرها؟ ربما لأننا لا نغار من بعضنا البعض كباقي البنات، لا نلوم، لانحاول تغيير الآخر، لا نبرر، ونتقبل بعضنا دون نصائح ولا توجيهات. هي تراني جميلة وأنا أراها جميلة وأتمنى أن تكون أجمل وأحسن دائمًا. لا نبخل على بعضنا بشيء.

أقدّر لها مساعدتها المادية لي كلما احتجت لذلك. نحن مع بعضنا هيام وياسمين لا غير بلا زيادات أو نقصان. أذكر بأنني بكيت لعدة أيام عندما تزوجت هي دون معرفة التفاصيل. كنت أشعر بأنه خطأ اقترفته. وهي أيضًا بكت عندما تزوجت أنا لأنها تعرف بأن هذا خطأ أقترفه. نختلف عن بعض في كونها أكثر عقلانية وأكثر تحكمًا بمشاعرها وأقل سذاجة مني، وأعتقد بأنها مثلي، لم تحب حبًّا حقيقيًّا في حياتها ولا زالت تتمنى الارتباط بمن تحب.. لم أسألها سابقًا. غالبًا، لا تسألني ولا أسألها. نتفق كثيرًا في الأمور الثقافية رغم أن انتقالها إلى الصين قد أحدث بيننا فجوة، إلا أننا لم نكف عن التواصل مهما طالت بيننا فترات الانقطاع.

أول من قال لي كلمة (أحبك) هو عدنان ابن عمتي. ربما كنتُ حينها في الصف السادس الابتدائي. أمل من الحديث المتسلسل. كن صبورًا معي. نَبَتَت في وجهي بثور مراهقة بسببك. أكتب لك من مقهى مجاور، استثمرت أن الزوج قد بعثني لشراء الخضراوات. عليّ أن أذهب. أحبك.

- ٤ -

الزواج إيجار للجسد

أنا

استيقظتُ بصعوبة. كان خالد يناديني بصوت خافت في أذني ويهزني بعنف، وحين فتحت عيني، وضع ساعة معصمه أمامي وقال: الساعة الحادية عشرة والنصف وأنا كنت أنتظرك في (دوار الجامعة) منذ العاشرة حسب موعدنا.

في الحقيقة، لا أتذكر إذا كنّا قد تواعدنا على العاشرة أم لا، وآخر ما أتذكره سهرتي الطويلة الغريبة مع رفاعي في الساحة القريبة، وكيف انتهت بأن أتيت به مسنودًا على كتفي، ثم ألقينا بأنفسنا كقتيلين من شدة الإنهاك، ونمنا فورًا بملابسنا وسط بقية الزملاء النائمين هنا. نظرت حولي فلم أر سوى رفاعي يغط بنومه في الزاوية الأخرى فيما البقية غائبين، حتمًا في أعمالهم.

تحاملت على نفسي للنهوض، وساعدني خالد ساحبًا إياي من مرفقي. ذهبت إلى الحمام، اغتسلت سريعًا وخرجت برفقته. سألني عن سبب إجهادي فأخبرته بالسهرة مع رفاعي وبتغيره ومعاناته بعد سفر التي كان يحبها. خالد يعرف رفاعي ومجمل الحكاية من خلالي

لأنه زارني في السكن أكثر من مرة، وتعرّف على أصحابي الصعايدة.
قال: لا تهتم، هو رجل قوي وسيتجاوز هذه المرحلة سريعًا.

قلت:– إنه قوي من خارجه فقط لكنه هش جدًّا من داخله يا خالد، اعترف لي أمس بأنها لم تحبه، كانت تعطف عليه فقط ولكن هو الذي أحبها فعلًا.

وماذا عن التلميحات التي كان يوحي بها لكم بأنها تذوب فيه عشقًا؟

لا أظن بأنها أكثر من تبجحات ذكورية أمام ذكور، وإيهام الذات وسط محيط قاحل عاطفيًّا. أتعرف ماذا قال أيضًا؟

ماذا؟

قال بأن المرأة الوحيدة التي تحبه ويحبها بحق هي أخته، وبأنه لم يحب و لم يثق بأية امرأة في حياته لأنه يرى فيهن جميعًا صورة زوجة أبيه، إلا أنه قد اطمأن نوعًا ما لهذه المرأة، وأن جلَّ ما كانت تفعله معه في لقاءاتهما السرية هي أن تسمح له بوضع رأسه على صدرها، وتمسد شَعره.

مسكين، لم أكن لأتخيل أبدًا بأن خلف مظهره القوي المتجهم هذا طفلًا يتيمًا، إنه بحاجة لحنان الأم وهي عرفت فيه تلك الحاجة.

ربما، لكنه أحبها بصدق؛ لذا بعد غيابها، يبدو بأنه قد حاول التماسك لفترة طويلة فلم نلحظ عليه شيئاً، لكنه مؤخرًا، صار يؤذي نفسه بالشرب وبالتردد على المبغى، وأخشى أن تتطور الحال إلى ما هو أسوأ.

وأخبرته عما قالته لرفاعي من أنها ستحقق لي أمنيتي وستكتب لي رواية في المستقبل، فضحك وقال:

عمومًا، أنت ستنجو أخيرًا من كل هذه الأجواء الغريبة والإشكاليات.

كيف؟

وجدت لك عملًا ثابتًا يناسبك.

حقًّا؟! أم أنك تمزح كالعادة؟

لا أبدًا، ويمكنك أن تباشر بالعمل ابتداءً من الغد. تعال نفطر أولًا، تشرب فنجان قهوة ولتر شاي كي تصحو جيدًا، ثم أحدثك بالتفاصيل. ماذا تريد: حمص، مسبحة، فلافل، قدسية...؟

فدفعته ضاحكًا وهو يضحك لأنه اعتاد أن يكرر هذه العبارة ساخرًا منذ أن قلت له ذات مرة: لماذا تخدعون أنفسكم وتطلقون كل هذه المسميات فيما كل هذه الأكلات هي في الأصل واحدة: حُمص؟

كنا قد وصلنا وسط المدينة فدلفنا إلى مطعم شعبي صغير في إحدى الزوايا. جلسنا متقابلين على طاولة دَبِقة قرب الباب. قال بأنه قد طرح موضوع حاجتي لعمل على أصدقائه في الجامعة والثقافة أحمد خريس ومهند ساري وكريم النقرش وماهر الأصفر، فقال ماهر إنه يحتاج إلى حارس لبيته الذي تحت الإنشاء في حي جديد للمهندسين في طرف المدينة، لكن الراتب الذي سيدفعه قليل؛ وهو خمسون دينارًا، إلا أنه يمكنك القيام بأعمال أخرى كمساعد للبنائين والنجارين، وفي رفع الطابوق إلى السقف، وغيرها؛ فتكسب من خلال ذلك بعض الدنانير الإضافية. وظل يسوغ لي الأمر أكثر قائلًا بأنك هناك ستتمكن من القراءة والكتابة، أو على الأقل النوم براحة بدل النوم محشورًا في قبو مع

أحد عشر شخصًا. في الحقيقة لم تكن تعوزني أي من مسوغاته كي أوافق لأنني كنت بحاجة إلى أي عمل وبأي ثمن. فشكرته بفرح ومرح.

قال: أنا عندي محاضرة في الساعة الثانية وموعدنا هذا المساء على الساعة الرابعة في مقهى لقاءاتنا المعتاد ذاته في (دوار الجامعة) وهناك ستتفاهم مع ماهر.

في طريقنا إلى الجامعة ودوارها حدثته عن حكاية إيميل هيام، وكيف أني أخطأت بشكل ما بتركيبة الكلمة السرية فانفتح أمامي وهالني ما وجدته فيه من شغفها بحسن مطلك ومن شعوري بأنها تخاطبني أنا شخصيًا، فأدهشه الأمر وقال بسخرية غير مصدق: أخشى أن تكون أنت الذي شربت بالأمس وليس رفاعي.

أخرجت له من جيبي الورقة التي طبعتها بالأمس وقدته معي إلى مقهى الإنترنت. جلسنا متلاصقين أمام الشاشة وفتحت له إيميلي، فأخذ فأرة الجهاز من يدي وراح يقلب بعض الرسائل ويقرأ مأخوذًا بدهشته، صامتًا، فيما أنا أحوّل نظري بين الشاشة ووجهه المنذهل.

وبعد ما يربو على العشرين دقيقة من التصفح والقراءة، التفت إليّ: في الحقيقة، لا أدري ماذا أقول لك. تعال لندخن سيجارة أمام الباب.

وبعد تدخين السيجارة، قال: سأذهب الآن إلى الجامعة، دعنا نفكر بالأمر على مهل ثم نتحدث به لاحقًا.

صافحني بكف مرتخية وغادر ساهمًا... رجعت أنا إلى داخل المقهى لأواصل قراءة إيميلات هيام.



هي

رجعتُ، ليلة البارحة، إلى البيت حوالي التاسعة فيما حديثنا مستمر بيننا في الحافلة والمطبخ والحمام، بل وحتى عندما جلستُ أمام المحامي مثل البلهاء وهو يعطيني نصائحَ بشأن القضية. فَسِّر لي هذا السلوك الإنساني: أنت وأنا على بعد آلاف الكيلو متراتأو ربما أقرب مما نتخيللم نلتق ولا يربطنا شيء، سوى حبنا للعراق وحسن مطلك والكلمات وحبنا للحب.. بحيث لا أتردد اللحظة بالاعتراف أن شعوري بالوحدة قد بدأ يزول.

لقد قلت لك أن تتصل بعد العاشرة والنصف بتوقيت جرينتش وأنت اتصلت في الثامنة والنصف. كان زوجي في البيت.. لذا اضطررت أن أُنكرك وأقول بالإنجليزية إن الرقم خطأ.. على أية حال، فرِحت، لأن هذا يدل على أنك أنت الآخر متشوق لسماع صوتي.

ولكن يا عيني.. يا زينة الشباب، ما هذا؟.. هل تنوي تخريب بيتي وتُطلقني من زوجي؟.. أووووه.. لا تغضب، إني أمزح معك، يا ليت يحدث هذا.. أود لو أنك قربي لأمازحك على هذا النحو، أمارس الدَلال دافعة كتفك بأصابعي، ومشاكسة في فتح أزرار قميصك.

كن معي غدًا على الهاتف الجوال بعد العاشرة والنصف، إذا كان هذا يلائمك. سأكون في الطريق إلى دروس اللغة في الكنيسة. من أحلامي الملحة مؤخرًا، أن أقرأ رواية (دابادا) مرة أخرى، بودي لو أحصل على نسختك أنت تحديدًا كي أرى ما دوّنْته على هوامشها فأدون أنا ما يطرأ لي، إلى جانب كلماتك، ثم أعيد إرسالها إليك. أتذكر بأنني عندما قرأتها للمرة الأولى في العراق سرًّا، كانت الكلمات تتدفق في ذهني سائلة بلا انتظام فأشعر بعدها بتفريغ وراحة عجيبين.

كانت لغتها تحث انثيال اللغة المستعصية في روحي... بعد التهامي لها، شعرت باستنفاد حواسي وخدر في أطرافي قادني لنوم عميق حلمت فيه برجل من نور، ماهيته مركبة بشكل عجيب، لا يمكن لمسه ولا احتضانه.. لأنه يتبدد بسرعة.

كنت أعيش صراعات دائمة بين قلبي وعقلي، بين الكائن وما يُفترض أن يكون، وعندما لا أصل إلى نتيجة، أختلق بطلًا من ورق، أعشقه بطريقتي، أذعن له وأكون شرارة تحرقه ثم تخفت وترجع إلى العدم. أشعر كأنني نواة أو بكتيريا لم تحظ بالبيئة المناسبة كي تكون، أو مشروع لنطفة كانت ستنجب عبقريًّا لكنها راحت سدى في لحظة طيش.

كثيرة هي المرات التي شعرت فيها بلوثة في عقلي أو روحي وبأن سبب ما أنا فيه هو أن مداي يَسحب كل تيارات الهواء الموجودة في الأماكن التي أتواجد فيها مع الآخرين، تصبح أمداؤهم فارغة، لذلك لا يصل صوتي عندما أتكلم ولا تثمر فكرتي. ببساطة؛ أنفخ في قِربة مثقوبة. وفي مرات أخرى أحس بأنني أنا مركز الكون وأن كل الموجودات حولي مُسخرة لأجلي، فأستخف بالآخرين وأجلّ نفسي. أقول: أنا الرقم الأصعب، وكل مَن هم سواي صِفر أو هم أرقام سالبة لا تؤثر أصلًا بمعادلة الحياة. أحب اللانمطية، غالبًا لا منتمية، ميالة في داخلي للعبثية، ولا شيء اسمه ممنوع ما دمت لا أضر بأي أحد.

كم أتمنى لو أسمع صوتك الآن أيضًا.. ولكن بعد الموقف الذي حدث، فلا بد أنك قلق.



انظر ما كتبته لي، أُعيده إليك كي تعيد قراءته بعينيّ: "نعم أنا قلق. الذي فهمته منكِ هو أن أتصل على التاسعة والنصف، وعلى الرغم من عادتي التأخر في النوم، وضعت الساعة المنبهة كي أوفي طلبك وفعلت ففاجأني ردك بإنكاري، وأدركت أنك مع العائلة. شعرت بانزعاج شديد من نفسي على هذا التصرف لأنني شخص يتجنب التسبب بإشكاليات لأي إنسان، فلم أضر أحدًا في حياتي ولو بمقدار قشة. أنا رجل مسالم جدًّا وواضح جدًّا وإنساني جدًّا وأتجنب المشاكل.. لذا أعيش براحة ضمير دائم ورضى وصحة.. بل وأستطيع القول بسعادة أيضًا.

عمومًا.. رجعت ونمت ساعات أخرى؛ ولهذا اضطرب نظام يومي. حاسبت نفسي بشدة تحت وطأة الشعور بالخجل كوني تسببتُ بضرر أو غدرت بشخص أو أشخاص لم يضروني بشيء، وأعني بهم أطفالك وزوجك؛ لذا فكرت ألا نتصل بالهاتف إلا في الحالات الضرورية الجادة، ويمكننا الاكتفاء حاليًا بالتواصل عبر البريد الإلكتروني، فمن محاسنه أن كل واحد يختار ما يناسبه من وقت وكلمات، وعندما نعتقد بأن هناك أمرًا مهمًّا بعينه، فيمكننا أن نتفق على موعد دقيق يناسبنا معًا للاتصال كي لا يحدث الذي حدث اليوم، لقد أحسست بشيء غريب وأنا أسمعك تزيفين الموقف وتمثلين.. شعرت بالمغص لأن شخصًا يعرفني وينكرني على هذا النحو.. فهذا ما لم يحدث لي وأكره أن يحدث.

أُفضل مواصلة نهجي بتحاشي كل ما يتسبب لي أو لغيري بالإحراج.. أنا شخص بالغ الحساسية، ومن النوع الأخلاقي، أي بمعنى الذي يحرص على احترام قيم معينة وما يتعلق بجوانب إنسانية

وخصوصيات الآخرين.. لا أدري فيما إذا كنت قد تمكنت من إيصال صورة عما أفكر به... أعتذر إذا ما حدث لك أي إشكال. أتمنى لك ما تتمنينه لنفسك. وتقبلي فائق الاحترام".

أعد قراءته معي بحساسيتي أنا.. فقد آلمني ردك هذا بشدة، وحاولت الاتصال بك مرارًا. اشتريت بطاقة هاتفية أخرى من دكان الهندي القريب، ولكن خطك كان مغلقًا. لقد مرت المسألة، بلا إشكال، ولكن صداعًا رهيبًا لازمني اليوم. ثمة شعور لطيف بيننا وكلانا مغتبط به.. فلماذا هذا الرد؟ حاول الاتصال غدًا كي أمسح عنك غبار هذا الموقف السخيف.. اتصل بي رجاءً، على هاتفي المحمول، أو على هاتف البيت كي لا يكلفك الاتصال أكثر، اتصل بعد العاشرة والنصف بتوقيت جرينتش، فلا أعرف كم ستكون الساعة بتوقيتكم.. لأنني لا أدري أين أنت بالضبط، وأخشى ما أخشاه هو أنك لازلت في العراق.. أعتذر لك من كل قلبي.. وأنتظر.. أرجوك بحق روح أحب الأموات إليك.. إنني أنتظر، أو إن شئت أن أتكلم أنا معك أولًا ثم تكلمني أنت لاحقًا.. أرجوك وبحق محبتنا للعراق أيضًا.

أظن بأن قلبي قد اعْتُصِر مذ قرأت رسالتك.. هذه ظروفي، هذه محنتي فلماذا تريد مضاعفتها؟.. هل تعلم؟.. لقد كنت في العراق أُخبيء الكتب تحت الكرسي الذي أجلس عليه حالما أسمع صوت سيارة زوجي داخلة إلى الكراج. كنت ولازلت أخفي أفكاري ورغباتي وجمالي.. أوه.. ما هذا الغَم الذي اعتراني؟!.. ولكنني سوف أكمل ما بدأناه حتى ولو بالخيال.. مع فائق اعتذاري مرة أخرى.

لقد جرحتني، وخصوصًا في الجزء الأخير من الرسالة.. منذ أن

قرأتها وأنا متجمدة أمام المرآة.. ثم أن الوقت لازال مبكرًا جدًا على بدء تجريح بعضنا البعض هكذا.. أفكر جديًا بالعيش في مخيمات اللاجئين أو حتى الرجوع إلى العراق، إذا رفضتني.

كيف تسمي شوقي لسماعك غير ضروري ولا يستحق المكالمة الهاتفية؟!.. ثم ما هذا الختام الرسمي الذي أمقته "وتقبلي فائق الاحترام"؟.. أوجعني قولك.. ومع ذلك سوف أحاول ألا أغضب منك أبدًا.

أيها العاقل الكبير المغمس بالسمرة والفروسية، يبدو أنك لم تفهمني.. لقد أخجلتني من نفسي حين قلت لي بطريقة غير مباشرة؛ إنك تكذبين. لذا فإن ليلة الأمس قد كانت قاسية عليّ، لم أنم إلا قليلًا، وحلمت بأن ابن عمتي الذي أحبني منذ كنت طفلة، يراودني عن نفسي وأرفض، فيما أمي واقفة في الباب تراقب بحيادية. صحوت أتصبب عرقًا بعد عراك مع البطانية والسرير ويديّ ورجليّ، ثم نهضت بفوضى ورحت أراقب القطارات الفارغة التي تمر قريبة من شرفة المطبخ.. ترى ما هو شعور المرء حين يركب قطارًا فارغًا؟.. إنك لم تفهمني.. فليس المشكلة أن نتواصل عبر الايميل أو الهاتف.. أنا التي أدمنت معاشرة الذات، مجرد معرفتك، أو اختراعك، هي بحد ذاتها مكسب كبير لإنسانيتي، المشكلة هي أنني أكذب كل يوم.. كل يوم.. حتى أكاد أختنق من الكذب.

أحاول العيش على مسرات تفاصيل صغيرة الآن؛ تعلُّم اللغة الإسبانية، تقوية لغتي الإنجليزية، الشهادة الأوروبية للكومبيوتر، مداعبات ساذجة لأطفالي.. وماذا أيضًا؟.. هل أوجعت رأسك؟ أتمنى لو أن في الكومبيوتر درج يمنح حبوب البراسيتول مع الايميلات المزعجة.

سأحكي لك عني أكثر، وإن كنت لا أجيد ذلك كما أريد.. أو ربما

قد لا أعرف الترتيب، فالذاكرة أنثى مزاجية، كما أن بعض التفاصيل غير المهمة تحفر لنفسها خنادق في ذاكرتي أكثر من أحداث كبيرة.. بالمناسبة يخامرني إحساس بأنك تخشى التورط معي. ولكن عذرًا.. فالذي يعرف ويُعجب بحسن مطلك حقًا.. من المؤكد أنه لا يخاف. فهو القائل:"إن الرجل الحقيقي هو الذي يحذف ساعات الخطر الحقيقية ويقترب من القرار بإلغاء صيغ التعجب في تحجيم الذات.. لم يكن ثمة وهن في تلك اللحظة، هناك فقط شيئان: عمود الحياة وحفرة الموت. أطلب منك أن لا تفزع". سأخرج اليوم مع إحدى الجارات، نصطحب الأطفال، نأكل في الماكدونالد ثم نتوجه إلى المتنزه القريب.



لكي أبدد حنقي على نفسي، ارتديت ملابس رياضية وذهبت أُنفِّس عن طاقتي بالركض ناسية أن آخذ الموبايل معي، وعندما عدت وجدت مكالمة مفقودة وبلا رقم، هي حتمًا منك أنت لا من كائن غيرك.

أردت معاودة الاتصال بك، لكنني لم أفلح لحد الآن. غدًا عندي دروس من العاشرة حتى الواحدة بتوقيت جرينتش وبعدها أكون حرة؛ أي ليس بقربي أحد. سأبعث لك بصورة لي كي ترى كم أنا جميلة.

اسمع.. أعتقد بأنك تفتقدني، وأنا أيضًا. لا تكبت رغباتك وتتظاهر بكونك غير مكبوت. أحد حلول المشاكل عندي هو الرياضة. لذا أشعر بعدها الآن بأنني نظيفة، جديدة وبلا أية مشكلة.. سأستمتع بدراسة الأفعال الشاذة غير المنطقية.. وأضحك لأنها تشبهني تمامًا، فهي غير منطقية وفي ظروف غير منطقية وبذاكرة غير منطقية وبحلم غير منطقي وبملابس غير....

المخَبَّلة هيام.. لاحظ كيف اكتشفت طريقة أخرى في كتابة المخبولة بالعراقي (المخَبَّلَة).



علاقتي بالصور ليست على ما يرام، أحب مشاهدتها أو التقاطها بطريقتي، لكنني لا أحب أن يتم تصويري ما دمت لستُ أنا كما أريد، ولأني مثل حسن مطلك "الذي تهرّب من صور الأعراس وأعياد الميلاد ورحلات الشرود حول موائد البيرة وصور المعاملات الرسمية؛ لأنها تذكره بلحظة ميتة عشناها فانتهت بعدما أمسكت بها الكاميرا...".

وجدت هاتين الصورتين صدفة أثناء بحثي عن بيجاما لابني الصغير في حقائب السفر، تم التقاطهما حين كنا نقيم في المغرب ولا نعرف إلى أين نذهب وحتى الآن لا ندري إلى أين نذهب، فالمحامي لا يضمن قضية حصولنا على الإقامة

كما ترى في إحدى الصورتين؛ الناس يرقصون وأنا أقرأ.. فأنا دائمًا المخبولة، الزَعطوطة (غير الناضجة)، المتبَطِرة.. وفق تسمية أخواتي لي، أما الصورة الثانية فهي الأخرى أقل جدية. أحببت المغرب وخاصة أنهم أناس لا يفكرون بالسلاح مثلنا مهما ضاقت بهم الأحوال، وأعجبني شاب غاية في الوسامة، كأنه من تماثيل روما. يعمل سمّاكًا في أحد مطاعم ميناء طنجة، لكنه للأسف لم يكن يعرف عن الثقافة شيئًا كما أن رائحة السمك النيء ملتصقة به حتى عندما جاء متعطرًا للقائنا الأول... والأخير.

في الثانوية، في عز تفتح جسدي. كنت أرافق ياسمين إلى بيتها وهي إلى بيتي أحيانًا، نمر لنشتري الكرزات والآيس كريم وغيرها من

الدكاكين القريبة من بيتهم، أو الباعة البسطاء على عربات خشبية، وذات مرة قال بائع سمك فقير لياسمين: أتمنى لو ألتقط صورة مع صديقتك، إنها تشبه تمامًا الفتاة التي أحببتها في صباي وفقدتها. كان كبير السن، متغضن الوجه بلحية بيضاء وعينين غائرتين مترعتين بالمعاني والأسى. وعندما أخبرتني ياسمين، فاجأناه بالمجيء في اليوم التالي والتقطت معه الصورة، بعثت له بنسخة منها واحتفظتُ بالأخرى، علقتها في صالون البيت مع بقية الصور العائلية، ولاتزال هناك في بيتنا البغدادي. تلك أحَب صوري إلى نفسي.



رجعت توًّا، كنت جالسة على مصطبة رطبة في الطريق إلى البيت وأعدت قراءة القليل من "هيدجر".. أقرأه بالعربية.. إنه مذهل.. ترى كيف تكون قراءته بالألمانية؟. من يدري، ربما تقودنا تنقلاتنا التائهة هذه إلى ألمانيا أيضًا، عندها سأتعلم الألمانية وفي ذهني قراءة "هيدجر".

أتصور نظرتك لهاتين الصورتين، بالفعل هما لايشبهانني، فهذه التي يفترض بأن تكون أنا، هي ليست أنا.. وإنما هي زوجة هذا الدكتور والأخ الكبير المحبوب في عائلته.. فلا تستكثر عليَّ الكذب لكي أكون أنا نفسي. فما أكثر ما أغني لوحدتي: "غريبة الروح../ لا طيفك يمر بها/ ولا ديرة تلفيها/ غدت مع ليل هجرانك ترد وتروح/ وعذبها الجفاء وتاهت كحمامة دوح.. آه، غريبة الروح". إذا كنت لا تتذكر، فهذه أغنية قديمة لحسين نعمة. خشيت أن أبعث لك بصورة الدكتور فتتأسى عليّ أكثر.. كنت أدرك بأنك سوف تتأسى. قلبي هو الذي أخبرني بذلك.

لا تكترث، من أجلك سوف أحاول أن أكون على علاقة أفضل مع الصور، وحين تتاح لي سفرة لوحدي أو مع زملائي في دروس اللغة، سألتقط صورًا جديدة. ثم لك أن تسألني عما تشاء وسوف أجيبك. ثق واعتمد على صدقي معك... وهذا هو شرطك الوحيد، وليس الشرط أن أكون صادقة مع زوجي، وإلا لما تعايشنا أنا وهو لحظة واحدة. لقد جرحني ليلة أمس أيضًا، وأجبته بالصمت أيضًا. قال لي: خراء عليكِ!.. تصور ذلك!.. كيف يقول رجل عبارة كهذه لامرأة يعاشرها!؟.. وكيف لامرأة أن تواصل معاشرة رجل يقول لها عبارة كهذه!؟. الأشد مرارة أنه يطأني بعدها عنوةً. أشعر بالذنب والقرف من نفسي كلما فعل ذلك، لأنني أخون نفسي وأتركها مستسلمة لرجل هو ليس الرجل الذي أحبه. بعد كل مضاجعة يجبرني عليها، أفكر بالانتحار. أنا التي تحب الحياة جدًّا، أفكر بالانتحار.. هل تدرك مدى مرارة ذلك وقسوته؟!.

في العراق وهنا، ظل يحرص على أن يجد لي طبيبًا نفسيًّا أراجعه، ظانًّا بأن عدم تقبلي له عائد لعقد أو لأمراض نفسية.. ربما الأمر كذلك، ولكنه لا يبذل جهدًا.. أو لا يجرؤ على معرفة حقيقته بنفسه؛ لأنها تمسه هو. هنا وجد لي طبيبًا إسبانيًّا من أصل موريتاني وزوجته إسبانية من قرطبة. ما يعجبني فيه هو طبيعة نطقه المتمكن للغة العربية الفصحى وهوسه بالشعر الكلاسيكي الذي يحفظ منه الكثير، وله بعض الدراسات النفسية الطريفة لقصائد شعراء قدماء. وحين أتحدث معه عن الشعر سرعان ما يباهي بأنه من (بلد المليون شاعر) فأقول له ولكننا لا نعرف أي واحد من هؤلاء المليون. فيضحك ويقول: هذه مسألة أخرى، وفي كل الأحوال أنتم المقصرون وأنتم الخاسرون.

نسيت أن أخبرك بالهاتف عن حكاية اخترعتها وحكيتها للطبيب النفسيّ حتى أضيف مزيدًا من البهارات على طبخة المرض النفسيّ التي ربما تنجح، في الحقيقة لا يهمني كثيرًا النجاح أو الفشل، مجرد كسب وقت. قلت له إنني أحس بشيء ما، يرافقني طوال الوقت ويراقبني، وأحيانًا أسمع صوته. بالطبع، في داخلي، كنت أعنيك أنت، لكنني حولت الأمر إلى مأساة، فأنا أحب التمثيل. دعك من هذا الهراء. أنا جائعة جدًّا، سآكل أرزًا مع مرق بامياء وطماطم وأتذكّرك. استمتع أنت بوقتك أيضًا، وربما يجمعنا الله فأطبخ لك حينها قصائد ونصوصًا؛ أي أنك ستموت من الجوع. اضحك. اكتب لي إذا وجدت وقتًا لذلك.



تقول بأنك لم تتبين صدري جيدًا في الصورتين، وتسألني عن حجمه.. تُرى ألم يهمك من الأمر سوى موضوع الصدر؟.. لا بأس سوف أوجز لك الجواب لأبعاد سؤالك: أنا أنثى طازجة جدًّا جدًّا. هل سيكفيك هذا؟.. وفي كل الأحوال ليس لدي أي مانع من أن أبوح لك بالتفاصيل إذا ما سألتني عنها.. وإن كنتُ أفضّل أن يكون بهاء أنوثتي مفاجأة لك عندما سنلتقي.

الصورة الأولى التي كنت أمسك فيها مجلة ثقافية التقطوها لي، ثم تشاجرت لأنهم طوال الوقت يضحكون عليّ، وقلت لهم إما أن أقرأ أو أرقص.. وبالطبع، فزوجي الدكتور المحترم الملتزم دينيًّا لن يسمح لي بالرقص، لذا تجرع على مضض مسألة أن أقرأ أشياءَ لا يطيقها كالأدب، فجل ما كان يريده في تلك الأثناء هو أن أتظاهر بالبهجة

والابتسام والانسجام معه أمام أهله ومعارفه. وبأني الزوجة المثلى للزوج المثالي.

أحب الرقص، وما أكثر ما أضع أغاني الغجر في الجهاز، حين أكون لوحدي في الدار، ثم أرقص إلى أن أتعب وأستحم بعدها وأنام. طقسي الخاص هذا يحررني من فوضاي الداخلية، كأنه ينفضني فينظفني. كنا نفعل ذلك أنا وياسمين أيضًا، حتى في أوقات الامتحانات. نغلق علينا الأبواب سواء في غرفتها أو في غرفتي. ستراني أرقص لك وحدك في ليالي مستقبلية وستشهق قائلًا: ما أكثر الأشياء الجميلة في هذه الحياة!.

في الأعراس تطلب مني النساء أن أرقص، في الغرف المخصصة لهن، وأشترط عليهن عدم التصوير والتكتم على الأمر كي لا يصل خبر رقصي إلى زوجي فيقصفني بجاهز مقولاته العشائرية والدينية ويسوّد عليّ بقية اليوم بعبوسه.

لا أريد هذا الرجل.. أريد أن أكون كيانًا مستقلًّا حرًّا، وصوتًا مسموعًا، ذاتًا غير مكررة. أريد رجلًا آخر، مثلك، بقريحة تستوعب طيشي، نزقي، مزاجيتي واعتدادي بنفسي. أريد دفئًا دائمًا، احتواءً، تدليلًا، تقديرًا.. علاقة مبنية على التصالح مع كل شيء. عالمنا غرفة مبعثرة مليئة بأشياء غير مترابطة ولا متناسقة مع بعضها، حيطانها أوراق بيضاء نكتب عليها معًا. أريد بيدرًا من الألوان. لا أسمح له باستخدام المشط لأنني سأمشط شعره بأصابعي وشفتيّ، أطوقه شمالًا.. جنوبًا.. شرقًا.. غربًا، وقلبًا.. وهو يكتب لي قصائد عارية ويتوّجني كل يوم امبراطورة على كل الخليقة، أن يتفهم بأنني غير قابلة للتدجين، لست بركة آسنة وإنما بركان يغلي.. ثورة دائمة.

اسمعني واكتشفني على حقيقتي... فأنا أختنق من الكذب.. ولا

تنس بأنني متلهفة.. يا أيها العزيز- غير المكبوت!يا من تسألني عن حجم صدري... أراهن على أنك تعاني.. وستبقى ظمآن حتى لو انتقمت من نفسك بالعمل أو الاهتزاز في الحمّام.. لا أستطيع نسيان نبرة الاشتهاء في صوتك. كنت أشم رائحة تعرق جسدك من خلالها، وأكاد ألمس نبضك المتسارع. لا تعاند ولا تخطط.. فربما نموت غدًا.



عزيزي.. يا عزيزي.. لقد تخرب عليّ هذا اليوم بأكمله، فقد أصابني مغص فظيع بعد أن تكلمت معك، لقد عريتني مرة أخرى.. يهمني جدًّا أن تفهم. كن مرآتي. لا أحب التبرير لكنني أحب أن أكون أنا، ولو كنت قد رأيتني من قبل لسهل الأمر. اسمعني أرجوك.. أنا لم أخُن، ولا أخجل من كوني قد مررت بتجارب، أو بتجربة كالتي ذكرتها لك عن ذلك (المثقف) خَلَف موريس الذي ساحته في جسدي مقابل كلماته، بل الأصح أنه قد اغتصبني في تلك الليلة الجحيمية السوداء نفسها التي اجتاحت فيها القوات الأمريكية بغداد.. وبغض النظر إذا ما كان الطرف الآخر في هذه التجربة يستحق أم لا.. إن الذي يخجلني حقًّا هو كوني لم أحترم وعدي لنفسي بالطلاق من هذا الرجل. صدقني بأن السنة الماضية قد كانت أصعب سنة في حياتي. كم من مرة فكرت بالانتحار، أن أحقن أعضائي الداخلية بالنفط وأشعلها كنوع من التطهير. أنا إنسانة لا تفرق بين الروح والجسد، أنا كينونة واحدة لا يمكن تقسيمها. آلاف النساء يَخُنَّ وملايين الرجال يخونون. وصدقني أيضًا، إذا ما قلت لك بأنني لم أخن إلا بعد أن قررت مع نفسي ومع أهلي أن أنفصل عن هذا الزوج. إنني لأخجل

الآن وفي كل لحظة من استمراري معه بالكذب. ولأننا؛ أنت وأنا، من مواليد البرج نفسه؛ فانظر نفسك وسوف تفهم. آمل ألا أكون قد خيبت ظنك، وألا تكف عن تدليلي، وأعدك بأن أروي لك ما حدث بصدق.



أوووه.. يا مَكروه!لا تنزعج من كلمة (مَكروه) فأنا أقولها بحنان وأعني نقيضها، أي كمن يُعبر بالشتائم عن إعجابه، أو كما يقول الشاعر الإسباني أنطونيو ماتشادو "الكفر صلاة معكوسة" وهو قول يستشهد به المكسيكي أوكتافيو باث في محاولة لتفسير ولع الأسبان بالشتائم والكلمات البذيئة، حيث يرى بأن "الإنسان الإسباني البسيط: يجدف بالرب لأنه يؤمن به. واللذة التي يستشعرها الكثير من الأسبان، بما في ذلك أرفع شعرائهم منزلة، عند الإشارة إلى النفايات وعند خلطهم الغائط بكل ما هو مقدس، لتبدو شبيهة إلى حد ما بتلك المتعة التي يحياها الصغار وهم يلهون بالوحل. وهناك. فضلًا عما يضمرون من ضغينة، ولعهم بالأضداد الذي أدى إلى ظهور الطراز الباروكي وتلك المأساوية التي تسم الرسوم الإسبانية الفذة".

إنك تحب النوم عاريًا.. هذا يعني أن التهامك سيكون أسرع. ها أنا على مدى ساعتين ساهمة أتخيلك كيف تتعرى.. ثم أتنهد وأحسد الفراش لأنه يلامس حرارة جسدك.. آه، يا وليمة السُمرة. كم أود الآن سماعك. لا تتصور بأنني ساذجة وأمارس لعبة خداع نفسي أو الضحك عليها. إن الثقافة تجعلنا نعي بأن ما نزعم أنه واقعي فينا ما هو إلا أقل مكوناتنا، فالخيالي في تركيباتنا النفسية والشخصية ودوافع

سلوكنا هو الجزء الأكبر والأهم.. هذا الوعي، والذي أسميه أدبي أو بفضل الأدب، يكاد يجعلنا نعبر فوق أحاسيسنا ونكون أكثر شفافية وصدقًا وعمقًا، وحتمًا، بعدما أوضحته لك في رسالتي وحديثنا السابقين، عرفت (أنت) بأنني كم أعرف نفسي!. مثلما أدرك (أنا) مدى تناقضاتي وأحبها.. لأنها دليل آدميتي وإنسانيتي.

آه، كم شرنقة تلفني! في داخلي عشرات النساء وأنا التي تديرهن، لكنني لا أعرف أحياناً، من أنا منهن بالضبط، وأريد رجلاً في داخله أكثر من رجل. بعضهن شخصيات أدبية من الروايات التي قرأتها، بعضهن من تاريخ وأساطير العراق، عشتار، شبعاد، أنانا، أنخيدونا.. وأريد رجلًا من هذا النوع، أحيانًا يكون شخصية أدبية أو أسطورية وأحيانًا يبدو كأي ميكانيكي سيارات في ورشة أطراف الحي.. فإذا لم تكن أنت؛ سيعني هذا أن الرجل الذي أريده لم يولد بعد. أذكر أبياتًا لنيتشة يقول فيها:

عندما تعبت من البحث

تعلمت أن أقوم بالاكتشافات

منذ أن خاصمتني رياح

أعليت شراعي لكل رياح.

أهم ما يربطنا الآن هو الوعي والصدق، لسنا ملائكة وإن كنا نطمح للكمال دائمًا. إذا كنت قد سبّبت لك أي ألم فأنا آسفة ولك سبعون قبلة اعتذار. لا أريد فقدك.. أنت حلم لذيذ وأنا أحب هذا الحلم؛ فهو يشغلني ويوقظني يوميًا مع الفجر.. وليس بيدي حيلة حياله وهو يتخابث معي بنشوة. أرجوك لا تكف عن تدليلي إذا لم تكن قد غضبت مني حتى الآن، ومع ذلك، فإن شعرت بأي تغير في

نفسك ليس لصالحي، اكتب لي عنه. علمًا بأننا قد اتفقنا على ألا مكان بيننا للزَعل.

لا تجعلني وراء قلبك، أريد أن أكون فيه. لقد انتظرتك طويلًا وأنت تدرك ذلك. أقسم بأن النشوة التي أحسست بها في إحدى مكالماتنا جعلت لدنياي طعمًا عذبًا. هل جربت أن تحب، وفي ذروة الحب تمارس الحب مع التي تحبها؟.. حتمًا جربت ذلك، طوبى لك. أما أنا فلا زلت أحلم بعيش لحظة كهذه، لم أذقها في عمري أبدًا كما أريدها، ولأقل لك شيئًا آخر، إن ما فعلته معك في الهاتف من حب ما هو إلا صورة عن حلمي مع الرجل الذي أحبه فقط. أقسم لك، بحق هذه المشاعر المستحيلة التي أحملها لك، إنني لا أطيق مجرد تقبيل زوجي، وأشترط عليه عشرين شرطًا كي أمكنه من جسدي.. والمسكين يرضخ، ليس لديه خيار آخر.

حاولْ الانتهاء من ارتباطاتك وإنجاز التزاماتك وتوزيع حياتك الحالية بين.. لا أدري مَن وماذا.. لأن الباقي منها سيكون كله لي، لأنني أنتظرك.

لقد تقيأت هذا الجسد السخيف الذي أحمله أو يحملني؛ كونه لا يميز بين ألم يمس الروح أو يمس الجسد، يحدث لي هذا كلما استباح هذا الرجل، الذي يسمونه زوجي وأسميه (المُستأجِر)، هذا الجسد على هواه بعد أن يعيد على مسامعي اسطوانة شروط عقد النكاح ووصايا الدين، فقد انقلب إلى متدين بعد أن كان مجرد نَفعيًا في زمن الطاغية.. كأن الزواج مجرد عقد إيجار للجسد. أكاد أقول بأنني قد صرت أمقته.. أكاد أقول بأنني قد صرت على يقين من أنني أحبك..

- ٥ -

سأسميك (حَسَن)

أنا

تسلَّطَ على ذهني التفكير بهيام، لغتها، تفاصيلها، ذاكرتها، حساسيتها، رؤيتها للحياة، طريقة قراءتها العاشقة لنصوص أخي حسن. فكرتُ فيما لو عاودت فتح بريدها لتكتب رسائل جديدة. تُرى ماذا ستكتب إذا ما انتبهت إلى أن كل ما كتبته سابقًا قد أُعيد إرساله إلى بريدي؟.. مع أنها قد أشارت في آخر إيميلاتها إلى أنه آخر رسالة.

حاولت الدخول إلى بريدها بتجريب أكثر من صيغة لكلمة السر، فلم أفلح. وبما أنني بلا أية أسرار في إيميلي أو الايميل الخاص بمدونة حسن، حدّثتُ صبي المقهى، بشكل ما، عما حدث من انفتاح إيميل آخر أمامي، وسألته عن مدى إمكانية معرفة كلمة سره. لم يستوعب الأمر في البداية فدعوته ليجلس بجواري أمام الشاشة وفتحت أمامه الايميلين. وبعد تفكير وتقليبات طالت، قال: الشيء الوحيد الذي استطعت معرفته هو أن هذا الايميل تم إنشاؤه من إسبانيا، أما كيفية التوصل إلى كلمة سره، فهذا يتطلب تجريب عشرات أو مئات الاحتمالات. يعني أن تغير حرفًا، ثم تجرب تغيير حرفٍ آخر، ثم

تجرب تغيير الأرقام رقمًا رقمًا، وبعد كل تغيير، تنتظر لفترة. إن شئت، فأنا مستعد لأن أعمل لك قائمة طويلة بكل الاحتمالات مقابل خمسة دنانير. وإلا فعليك أن تنتظر صاحب الايميل ليكتب إليك أو أن يقدم شكوى لشركة بريده عن الاختراق الذي حدث لايميله.

أخبرت خالد بما قاله لي صبي المقهى، كما بحتُ له بإحساسي أن هذه المرأة تتحدث إلي أنا، وبأن شعوري بالوحدة راح يتبدد قليلًا. يتفتح في داخلي عالمٌ جديدٌ، ولكنه هو الآخر عالم معزول. لأول مرة تتحدث إليّ امرأة عن نفسها على هذا النحو.. كأنني أكتشف هذا الكائن من جديد، فطوال حياتنا ثمة حواجز لا حصر لها من التقاليد والخجل والارتباك والعُقَد بين الإناث والذكور. وهنا في الأردن أكثر، حيث لا نجرؤ على أكثر من سرقة النظرات. نحن وهن نعاني كبتًا خانقًا، كلٌّ منّا يتدبر أمره بشكل شخصي وسري وفق ظرفه وذهنه. وكلما قرأت ما كتبته هيام، صرت أشعر، أو حتى أتوهم، قدرتي على الفهم أكثر لهذه النظرات. موضوع هذه المرأة قد أخذ يشغل تفكيري، بل ويطيب لي التفكير بها، فأمضي أوقاتًا طويلة بتخيلها، بل وحتى أجد نفسي أحادثها أحيانًا مع نفسي بهمس مسموع، كما لاحظت بأن طريقتي في القراءة قد تغيرت وصرت أنتبه لأشياء لم أكن لأنتبه إليها من قبل، وجربت فعلًا أن أقرأ عن حيوانات وعن كل اسم أو كتاب تذكره هي.

لكن خالد له رأي آخر، وهو ألا آخذ الأمر بكل هذه الجدية والتفاعل؛ أن أعتبره مجرد صدفة من المصادفات التي تمر عابرة أمامنا في الحياة ولا تعنينا بشيء، فهذه المرأة لديها إشكالياتها التي وجدت متنفسًا للبوح بها في إيميل أو على صيغة يوميات، وربما أنها فعلت

ذلك بنصيحة من طبيبها النفسي، فجل ما يفعله الأطباء النفسيون هو أن يحثوا زبائنهم على البوح عبر الحديث والكتابة، بما في ذلك كتابة الأحلام والذكريات وغيرها، بهدف إعانتهم على معرفة ذواتهم أكثر.

– اعتبر هذه المرأة وهمًا يكتب عن أوهامه، إن استطعت الاستفادة من بعض ما كتبته في نصوصك الأدبية فبها، وإلا فانسى الموضوع. ثم حتى لو افترضنا أن كل هذا واقعي ويعنيك، فما الذي تريده منها بالضبط؟ وما الذي يمكنك أن تفعله؟... لا شيء. فأنت لا تعرفها ولا هي تعرفك، وليس بينكما أية وسيلة للتواصل، فلم يبق أمامك إلا أن تبعث برسالة إلى بريدها شارحًا لها ما حدث، أو أن تنتظر بأن تبعث هي برسالة إلى إيميلك ذات يوم. لذا أرى أن تنسى الموضوع ولا تشغل نفسك به وتعطيه أكبر من حجمه، وتكتفي بمراقبة الايميل بين حين وآخر من باب الفضول. ليس بيدك شيء يا صديقي، الأمر دائمًا بيد المرأة.

في عملي الجديد كحارس، شيّدت لنفسي غرفة/عشة، هي مربع من الطابوق غير المبني، سقفته بالزنكو والبلاستيك وغلفته من الداخل بالكارتون الذي ألصقت عليه بعض الصور العائلية التي معي، وصورًا أخرى قصصتها من الصحف كي تخفف وحشتي. صنعت لنفسي سريرًا من الطابوق أيضًا، وجلب لي ماهر فراشًا ومدفأة صغيرة وأدوات طبخ ودفترًا وقلمًا ومحبرة وما طلبته من كتب. من حسن حظي أن ماهر مثقف وشاعر مرهف الحس وكان يأتي لمسامرتي في بعض الليالي لوحده أو بمصاحبة أحد الأصدقاء كالناقد أحمد خريس أو الرسام علي طالب أو المخرج المسرحي الدكتور كرومي، وهم أساتذة في جامعة اليرموك فيما أنا بلا هوية، بملابس رثة، وبالكاد أجد

ما يسد رمقي. نمضي أغلب تلك الأماسي بالحديث عن الثقافة والشِعر وقراءته. كانوا يرفدونني بالكتب.. والأهم، ما كنت أشعر به معهم من آدميتي وبكوني إنسانًا عاديًا؛ لأنني كنت أمر بمرحلة عرفت فيها لأول مرة إحساس الإنسان الفقير المسكين، إنه نوع من الشعور بالدونية والضعف والمهانة وتقليل قيمة الذات، بل وحتى بالحيوانية في لحظات الجوع؛ لذا، ولكي أشعر بآدميتي، أذكر بأنني عندما كنت أعيش مع الصعايدة ولا أجد أحيانًا ما آكله ليومين أو ثلاثة، أسير كالنائم موشكا على الإغماء، أتجه صوب أحد المحلات الفخمة لبيع بذلات الرجال، وهناك يستقبلني العاملون بترحاب من الباب ويقودونني باحترام مبالغ به ليُروني أنواع البدلات، قماشها، مقاساتها، ماركاتها ويخاطبونني بحضرتك وهم يعينونني على تجريب المقاسات، فيما أنا أفاصلهم على السعر، وعادة ما أقلله إلى النصف، وكلما أنزلوه أطالب بأقل وأوجد مبررات أو عيوب للبذلة أو أقول بأنني رأيت مثلها في محل آخر بكذا سعر، وهكذا لربع ساعة تقريبًا، حيث تعاملهم وحديثهم معي بهذا الشكل ينفض عني الشعور الحيواني، ويؤكد لي بأنني لازلت أبدو آدميًا عاديًا في نظر الآخرين، أشعر بأنني لازلت إنسانًا، وللختام أقول لهم: سأقوم بجولة على محلات أخرى وإن لم أجد أفضل من أسعاركم سأعود.

في تلك الأيام فكرت كيف يمكن للمجتمع أن يحول الفقراء الطيبين إلى أشرار بتجاهله لهم وقسوته عليهم؛ ذلك أن فكرة السرقة وغيرها من خيالات السطو والاحتيال قد راودتني، وكنت أقاومها بنفض رأسي وإسناده على ما تربيت عليه من قيم.

المقاول المتعهد ببناء البيت، حسين العمري، كان هو الآخر رجلًا

طيبًا، من عائلة متدينة ومحافظة، يهتم بقراءة ما يتعلق بالدين وقضايا حقوق الإنسان. كان يمنحني بعض الأعمال، كالحفر ونقل أكياس الإسمنت ومساعدة البنائين والنجارين وتصعيد الطابوق وما إلى ذلك، ويجلب لي بين الحين والآخر أقراص فلافل وصُررًا فيها شاي وسُكّر وأرزًا. يجلس معي أحيانًا لاحتساء الشاي، يسألني عن هذه الكتب التي أقرأها ويحدثني عن كتب دينية أو تاريخية قرأها.

المكان خارج المدينة، وللذهاب إليها عليّ أن أمشي لمسافة نصف ساعة للوصول إلى أقرب محطة باص. لي الحق بالعطلة نهارًا واحدًا من كل أسبوع. ولم أكن أذهب في يوم الإجازة إلا للضرورة، كشراء قطعتي ثياب من سوق الملابس المستعملة، أو لطبع بضعة صفحات من إيميلات هيام عندما يتوفر لدي بعض المال. لذا كنت أستغل بقية الوقت بالمزيد من القراءة والتفكير بها وبأهلي، والبكاء على فقدي لأخي حسن، متخيلًا ما عاناه في السجن والتعذيب ولحظات الإعدام.

هناك بدأت بكتابة الصفحات الأولى من روايتي الأولى (الفتيت المُبَعثر) والتي استلهمت عنوانها من آخر قصيدة كتبها ماهر الأصفر وأطلعني عليها، كما استطعت أن أكتب بعض القصص القصيرة التي نشرتها في الملاحق الثقافية، وكان خالد المصري يأتيني برسائل الأهل التي تصل إلى بيتهم، وبالصحف عندما يُنشر لي فيها شيء، فكنت أراقب أطراف المدينة صباح كل خميس منتظرًا طلته من بعيد ملوحًا لي بالصحيفة، وتلك كانت لحظات فرح هائلة بالنسبة لي؛ فلم يكن من السهل النشر في الملاحق الثقافية الأسبوعية، ولأن مكافأة كل مادة منشورة تعني حصولي على خمسة عشر دينارًا، فكنا نبتهج في تلك الصباحات ونقيم احتفالنا وضحكنا الخاص. ولأنني لم أعد أستطيع

إمضاء الوقت في مكتبة (جامعة اليرموك) ولا يحق لي الاستعارة منها؛ كان هو يستعير لي

-باسمه- أي كتاب أطلبه. ولأنه مفلس مثلي، ويأخذ مصروفه من والديه وإخوته العاملين؛ كنت أعطيه أحيانًا ثمن الباصات التي يركبها من أجلي، أو ثمن عشر صفحات يطبعها لي من إيميلات هيام. كنت أريد أن أطبعها كلها بأسرع ما أستطيع خشية أن تُقدم هيام شكوى إلى شركة أو شبكة الايميلات مثلًا فيغلقون إيميلي، قبل أن أكمل قراءة كل ما فيه. كان خالد يتبرم من إصراري على متابعة هذا الأمر ويعتبر أي فلس يصرف فيه تبذيرًا لا معنى له، بل أني اشتري الوهم لنفسي بنفسي، إلا أنه، وكعادته، يستجيب لطلباتي في نهاية الأمر.



هي

اسمح لي أن أجد لك اسمًا أخاطبك به إلى أن تخبرني باسمك الحقيقي، سأسميك (حسن)، لأنني أحببت حسن مطلك دون أن أراه، كان مثلي يحلم بالخلاص من الديكتاتور، وباشتراكه في محاولة لقلب نظام حكمه؛ شعرت بأنه قد حاول تنفيذ أمنيتي بالثأر للحرية، للمظلومين.. ولأبي لاحقًا. لو لم يشنقوه وبقي حيًا لما أحببت غيره، وأنا أحب أن أحب بعده لأنني أشعر بأنه يريدني ألا أكف عن الحب. فهو القائل "إن الشَر فكرة وإن الحُب طبيعة". تعرفت عليه من خلال همس المثقفين السري عنه وتلفُّتهم الخائف عند ذِكره، فزاد فضولي لمعرفته. صرت أردد اسمه في سري مرات ومرات كطفلة تمارس تجربة

النطق لأول مرة... أستحضر روحه وأستشعره من خلال القليل الذي سمعته عنه. يحدث أن يُختصر العالم برجل يُلبِسه القَدر كل الأدوار. انسلخت عن ذويي وصرت أنتمي إليه، وفعلت الأعاجيب إلى أن أعارني أحدهم نسخته من رواية (داباد). كنت أغلق باب غرفتي على نفسي بعد منتصف الليل، حيث ينام الجميع وأقرأ فيها. وحدنا أنا وهي، أو هو، تحت لحافي دافئين، بقلب يرتجف ولغة تنهمر. يسرني عدم فهم الآخرين لأعماله، فهذا دليل على أنه خاص ومختلف.. مما يعني بأنه ليس عاديًا وبأنني أنا أيضًا مختلفة وخاصة، والحب عادة ما يكون مثلنا: خاص ومختلف. إنه يريد شبيهًا له بمستواه؛ لذا يرفض القارئ العادي ويقول عن الكتابة: "أنا وهي نتبادل الصلاة لأجل بعضنا، نعذب بعضنا بعضًا، ونرتكب جريمة الغفران في لحظات الضعف الشبيهة بالهزيمة، وهكذا أعادي القارئ، لكي أصعده إلى مستوى منازلتي، على أساس أنني قوي. أُدمره لكي يدرب نفسه طويلًا على رد ضرباتي، على أساس أنني أرفض نزال الضعفاء، المنطق الشبيه بنزال الفيل والنملة. أما إذا كنتُ نمرًا، فإنني سألتذ بتخديش أشباهي لأجل استمرار النوع، المسمى تجاوزًا بـ (النُخبة)".

أعترف بعشقي له الذي لا يضاهيه سوى فاجعة فقده. لو أنني كنت التقيته لأهديته أحد أصابعي كعربون هيام ووجد. لحولت نفسي إلى شيطان شِعره وفرشاة رسمه وهلوسة فلسفته. أنا أرملة عشق وِلد خارج رحم التوقيت... عاشقة بائسة لرجل لم يعد موجودًا في الدنيا.

بالأمس لعنت كل الرجال، باستثناء حسن مطلك، وشتمتك حتى أنت كثيرًا، وقلت: لا أدري من أين طلع لي هذا وصار يأخذ دور المنقذ في حياتي!. ثم انفجرت بالضحك على نفسي، لأنني وأنا مع الطبيب

النفسي، كنت أنظر إلى ساعتي في كل دقيقة، إلى أن خرجت من عيادته متلهفة للكتابة لك أو الاتصال بك. ومجيبة على نفسي في الطريق: لقد طلع لي مني أنا، من قلبي وحلمي. تمنيت لو أن كل الرجال يكونون أحلامًا فنمارس، نحن النساء، الحب مع الحلم ونتناسل.. تخيل ما الذي سيحدث؟.

عيادة الطبيب بعيدة، في الضواحي الأخرى من مدريد، أحتاج لما يقرب الساعة في الحافلة للوصول إليها، ولكن لا بأس، لا يضايقني ذلك، بل ألتذ به، حيث أكتفي أحيانًا بالمراقبة من النافذة لسير البنايات والأشجار والأرصفة إلى الخلف متناسية نفسي، أو متفحصة وجوه بقية الراكبين، أو أغوص في داخلي، وأحيانًا أخرى آخذ معي كتابًا أو القاموس، فكم أحب أن أقرأ الكلمات ومعانيها التي هي كلمات أيضًا. حسن مطلك كان يقرأ في المعاجم كما يقرأ في رواية.

يجب أن تفهم شيئًا أساسيًا في هذه الكارثة التي بيني وبينك. إنها حُرّة كما نريدها؛ بلا وعود، وهذا أجمل ما في الموضوع، فلا أدري لماذا تكررها عليّ في كل لحظة، على الرغم من أنني قد فهمتها تمامًا منذ أول وهلة، فدعنا نتجاوز هذا الأمر ولا نعاود الخوض فيه. ثانيًا؛ أعترف بأنك تهمني، بل وكثيرًا جدًّا، وحين أحرص على التواصل معك فهذا لا يعني بأني أسعى لامتلاكك. ليس هناك شيئًا اسمه امتلاك شخص لآخر، وإن وجد شيئًا كهذا فهو لن يحدث معي ثانيةً، أو أنه لم ولن يحدث أبدًا، وأمامك هذا الرجل (المُستأجِر)، توهَّمَ بأنه سيستطيع امتلاكي بمجرد عقد زواج، أو ترويض روحي لتكون طوعه بعد الإنجاب؛ إلا أنه لم يستطع رغم سعيه المحموم. لذا فدعنا من مخاوفك، دعنا نتجاوز. أوكي؟. إنني أحاول أن أبدأ من جديد. أن

أصحح أخطائي دون الاتكال على أحد. أحاول التعويض عما فاتني من الحب ومن تهميش الثقافة في حياتي وعدم متابعة الجديد.

بماذا سأجيب امرأة فيما لو سألتني: هل تحبين؟ وهذا سبب آخر لحاجتي للحب، حيث متعة رؤية نوع من الفرح والفضول وأشياء أخرى في وجه وعيني ونبرة المرأة الأخرى. شيء كهذا أستعذبه وأنا أراها تسأل عن المزيد من التفاصيل، كما أستمتع برويها واختراعها واستعادتها كأنني أعيشها بشكل أفضل وأجمل. عذوبة رؤية انعكاس صدى روحك وفعلك وذاكرتك وذهنك في الآخر. حين أحب، أفرح عندما تسألني إحداهن، وإن لم تسأل سأسألها أنا كي تسألني هي من بعد، أما بلا حب فإنني كمن يسير جوار حائط خشية من ريح أو مطر أو شظايا قذائف، وفي حالة كهذه، الأسئلة هي القذائف.

هل جربت أن تتأمل -خفية- وجه، عيني، شفاه، جسد امرأة وهي تستمع عبر الهاتف إلى صوت رجل يتغزل بها؟ تأمل ذلك وستكتشف واحدة من أجمل مظاهر الطبيعة.

لن أطلب مساعدتك، فغصبًا عليك سوف تساعدني، وأنا واثقة بأنني، في يوم ما، سوف أحتل كل مسامات روحك وجلدك. وأتمنى ساعتها ألا تنكر وألا تسعى لتقسيط مشاعرك.

"أحبيني..

لأن كل من أحببت قبلك ما أحبوني

ولا عطفوا عليّ

وأنت؟.. لعله الإشفاق!!

آه، هاتي الحب، روّيني".

هذه كلمات من قصيدة للسياب الذي أفتقده كثيرًا، فمنذ أن أهداني ابن عمتي ديوانه في المدرسة المتوسطة وهو لم يفارق مكانه بجوار سريري.. أما الآن فأنا بدون السياب ولا أستسيغ قراءته، هو تحديدًا، من الإنترنت.

قرأت ناظم حكمت أيضًا ولا زال صدى إشعاعاته التفاؤلية يسند روحي.

"أجمل البحار .. ذلك الذي لم نره بعد

أجمل الأطفال .. ذلك الذي لم يولد بعد.

أجمل أيامنا .. تلك التي لم نعشها بعد

وأروع ما أريد قوله لك.. ذلك الذي لم أقله بعد"

كنت في البصرة، في القسم الداخلي وطالبات يتحرشن بي عندما ينتصف عليهن الليل. وكان لي صديق أجمل منهن فيحسدنني عليه وهن لا يدركن حقيقته الجنسية المثلية. اسمه يوسف، من بابل، وهذه الأبيات أحفظها عنه وأؤمن بها لذا أرددها كلما داهم الوهن روحي.

بالأمس قرأت قصة عنوانها (عيون)، أسلوبها بالكتابة يأخذ مفردة ويركز عليها حتى تصبح هي البطلة أكثر من الشخصيات. تكتيك أعجبني جدًّا. وبعدها، ولكي لا تهيمن على ذهني رؤية بعينها، قرأت قصة عراقية أخرى وكانت ثرثرة.. لمجرد الكتابة، ثم أخرى لمدعية كتابة أعرفها.. وانقهرت على نفسي. عندي عين سينمائية يمكنها التقاط لحظة عابرة بسيطة أكوّن منها شتى الحكايات، فلماذا هؤلاء يكتبون وأنا لا؟. أمس، كنت بحاجة ماسة إلى الكتابة، لكن الجهد الذي سأبذله في إخفاء ما أكتبه سيفوق كثيرًا الجهد الذي سأبذله في

الكتابة نفسها؛ لذا فهي الأخرى ستبقى مجرد حلم آخر مؤجل. ولكن "نعم.. بالحلم يتجدد كل شيء" كما كان يكرر حسن مطلك.

أشعر بشوق وأحلم بك. هل تتذكر؟، هناكقصة لهرمان هسه، تطرأ على بالي بين حين وآخر، مثلما يحدث اللحظة، وهي عن شاب يعشق نجمة بعيدة، إلى الحد الذي لا يعود يحس أو يميز فيه الليل من النهار، إلى أن يجف تحت الشمس ويتبخر فيتمكن من الانتقال إليها. لست متأكدة من أنها هكذا بالضبط لكنني استبقيتها في ذهني على هذا النحو.

أود لو أتعلم الإسبانية بسرعة، ففيها الكثير مما لم نقرأه وبإمكان المرء أن يترجم منه ويكتب عنه الكثير، بدل مواصلتنا لإعادة ترجماتٍ ومواضيعَ صارت مألوفة ومكررة، كالتي عرفناها عن الأدبِ الإنجليزي والفرنسي مثلًا.

سوف أحاول الاتصال بك، ولكن بلا عصبية. بالمناسبة، أنا ذكية وأعرف تفسير عصبية الرجال. أو أتحسس أبعادها، أو على الأقل هذا ما أظنه بنفسي مثل كل النساء.. مثل كل الناس.

المخَبَّلَة



بقي بالي مشغولًا عليك.. حرمتني ليومين من صباحاتك الجميلة ومن صوتك الأخاذ ومشاكساتك. هل تعلم بأنني، وبعد أن فتحت الايميل دون أن أجد أي شيء منك، ماذا خطر في عقلي؟. قلت هذا مجرد وهم، أنا اخترعته واستطاع ذهني أن يجسد لي كلمات مكتوبة

بالكومبيوتر، ثم اتصلت بك وحتمًا قد تلمست مقدار لهفتي واطمئناني على حقيقة وجودك. ذات مرة وأنا في القسم الداخلي، كتبت قصة مشابهة، عن امرأة تيأس من إيجاد الرجل الذي تتمناه، فتخلقه بنفسها وتجسده في دمية بحجمها، تحيكها خيطًا خيطًا وتخبئها في خزانة ملابسها.

عزيزي، لأجل أن تشفى من نزلة البرد سريعًا، ولكي لا تتدلع عليّ أكثر، اشرب عسلًا مذابًا في كأس ماء دافيء مع عصير الليمون أربع مرات في اليوم، وبعدها سوف تقول إن هذه اللئيمة لعارفة بكل شيء. أوه، إني لا أعرف كيف أقول مشتاقة. دعني ألا أقول، كي لا تخاف علي من مط الحلم إلى أقصاه. كنت أريد الإجابة على رسائلك الساحرة تفصيليًّا وأبدأ من صورك التي جنَّنتني وقلت: لماذا هذا الوسيم لا يعمل كنجم سينمائي مثلًا أو حتى يمثل في أفلام بورنوغرافية؟. بالمناسبة، صدفة اطلاعي على هذا النوع من الأفلام لأول مرة قد قلبت حياتي من مرحلة إلى أخرى، كنت في ذروة تصوفي حينها وفجأة انهار كل بنائي الروحاني. سأحدثك عن ذلك لاحقًا.

كان وصفك يتطابق تمامًا مع وصفي "سرير حُر". فكرت أن أحوّر به قليلًا وأنشره تحقيقًا للشهرة السريعة، ففي هذه الأيام تعم موضة الكتابات الجنسية.

يكفي أن أقول لك بأن الإنسان واحد ولن يستمتع بأي شيء إن لم يكن مستقرًّا داخليًا، في هذه الحالة سوف يستمتع بكل ما في الدنيا، حتى أحزانها، ويُمتّع من هُم حوله... مشتاقة؛ لذا أحسد كل النساء اللاتي عرفتهن، يكفي أنهن مررن في حياتك، وأعرف بأنك ممتن لكل واحدة منهن. أتمنى أن أكون إحداهن ولو في حلم. صدقني

حين أقول لك بأنني لم أعش أو لم أجرب ملذات الجسد التي وصفتها إلا في الخيال، ذلك أن المتعة لا تجتمع مع الخوف وتأنيب الضمير. ودعني أقول لك شيئًا حقيقيًا أكثر. إن كل المتع تبدأ وتنتهي بـ(الحرية) وبكل المعاني الممكنة التي تحملها هذه الكلمة. لا تدفعني للحديث عن هذا الموضوع الآن لأنه يوجعني. لا أدري كيف سأتماسك ولا أحاول سماع صوتك اليوم!. أقول لنفسي كوني مؤدبة، الولَد مريض ولا تجعليه يصدق المثل الذي يقول: لا تَدل الغجري إلى باب بيتك.

يوم السبت، عندما اتصلت بك، شعرت بصدقك كأنني لامست قلبك أو عينيك. أتدري؟ لو كنت بمكان صديقتي ياسمين وعندي فلوس وأستطيع السفر بسهولة، لجئتك.. حتى ولو من أجل أن أحتسي شايًا عراقيًا معك وأعود.. ولا مانع لديّ من تبادل بضعة قبلات. ولكن أين أنت؟!.

بالمناسبة، أنا لا أفرض على ياسمين أي رأي، وإنما العكس؛ قلت لها فيما يتعلق بتفكيرها بالطلاق من زوجها، خذي ورقة وقلمًا واحسبيها جيدًا، مستبعدة أهلك عن الموضوع. تَذَكّر يا عزيزي بأنني لست مجنونة جدًا، وإنما نصف مجنونة ونصف عاقلة.

غدًا لدينا جلسة أخرى في محكمة تابعة لوزارة الداخلية، بشأن إقامتنا. هؤلاء الأسبان أبطأ من سلحفاة في إجراءاتهم. الموظفون كالذين عندنا في العراق، معتادون على التأجيل وترداد عبارة "تعال غدًا". بيروقراطيتهم مُتعبة. أقول لمدرستي الراهبة: إنما أنتم مرفهون لأنكم محظوظون.. وإلا كيف يسير هذا البلد ولا أحد يعمل بجد هنا؟... تمنَّ لي الخير. فكم تضجرني كثرة المعاملات الورقية التي اخترعها الإنسان وكبّل بها نفسه.

أشعر بأنني أحبك فلا تنسني.. لك مني قبلة حتى وإن أصبتني بالعدوى.



الحمد لله، إنني الآن مطمئنة على أنك لن تموت. أبقِ لي حتى ولو عشرة أيام/أعوام من حياتك، سوف تكون كافية؛ لأن بإمكاننا اختزال دهر كامل فيها. لا أشبع من الحديث معك، مشتاقة أكثر.. ولكن سوف أمسك نفسي.. من أين تريدني أن أبدأ اليوم؟.

من عدنان، ابن عمتي؟. إنه تجربة الحب الأولى في حياتي، أُدرك الآن بأنه لم يكن حبًا من طرفي بالمعنى الذي أفهمه وأريده، لكنه من طرفه قد كان حبًا حقيقيًا. شخص جيد، كان يدرس صباحًا ويعمل في مكتبة بعد المدرسة، وحارسًا ليليًا في صيدلية. كنت أشم فيه رائحة الدواء والكتب. اعترَف لي بحبه في الصف الثاني المتوسط واستمرت هذه العلاقة لأعوام طويلة. في البداية لم يكن يُقبلني، وأقصى ما كان يجرؤ عليه هو أخذ يدي بيده. بعد ذلك، حين دخلت الجامعة، أثرت على علاقتنا الخلافات التي بين عائلتيْنا، منها مشاكل قديمة ومنها ما كان يتعلق بالأيديولوجيتين: القومية، والدينية، أيام الحرب مع إيران. دخل عدنان إلى الكلية العسكرية، وبعد أن اعترفتُ لأمي بكل شيء، كعادتي بالصراحة الفطرية أو السذاجة.. لا فرق. أخبرَت أمي أبي بالأمر وحدثت مشكلة كبيرة في العائلة، فتغيّر أبي إثر ذلك في نظرته إلى البنات.. كأنه صار يشعر بالخجل لأنه أنجب إناثًا فقط.

حين انتقلنا إلى بغداد، بعد أن نُقل أبي مجددًا إلى وزارة الخارجية، كنت في الثانوية. و لم تمر سوى فترة قصيرة حتى أصبح عدنان ضابطًا

احتياطيًا. كان يقضي نصف إجازته في بغداد كي يراني. يعيش في فندق متواضع في منطقة (الميدان) ويوصلني يوميًا بسيارته إلى دراستي صباحًا ويعيدني بعد انتهاء الدوام. كانت مشاكل الأهل مع بيت عمتي مستمرة وزادت بسببنا، فأخذ عدنان يوفر من راتبه حتى اشترى قطعة أرض وبدأ ببناء بيت له، وبشكل متزامن مع البناء راح يشتري قطع الأثاث التي يصطحبني معه لاختيارها، كل ذلك استعدادًا لحياة جديدة معي.

كنت ممتازة بدراستي، أقرأ بهوس وأنتظر إجازته في كل شهر. والداي كانا يضربانني لأي سبب بحكم انزعاجهما من هذه العلاقة. أجبراني على الدراسة في الفرع العلمي، وعلى الرغم من أنه ليس ما أرغب به، فقد كنت أتفوق. نجحت بمعدل ٧٩ و لم أعرف كيف أملأ استمارة التقديم إلى الجامعات، فتم قبولي في كلية الزراعة، جامعة البصرة، قسم الإنتاج الحيواني.. تخيل؟!.

دعنا نسكت الآن ونكمل غدًا. بانتظار إيميلك الصباحي. تُرى ماذا تفعل الايميلات بعد أن نموت؟.. هل ستكون ضمن التركة؟ وأين تختفي الايميلات التي نمحوها؟. بالأمس فكرت بهذا الأمر.. إنه يصلح كمادة لقصص وخيال وأسئلة.. أليس كذلك؟.

لا أدري... لماذا أحب أغنية فيروز، هذه:

"حبيتك تنسيت النوم يا خوفي تنساني

حابسني برات النوم وتاركني سهرانة

أنا حبيتك حبيتك

وبشتاق لك، لا بقدر شوفك ولا بقدر أحكيك

بنده لك خلف الطرقات وخلف الشبابيك

بجرب أني أنسى

وبتسرق النسيان

وبفتكر لاقيتك ورجعلي اللي كان

وتضيع مني كلّ ما لقيتك

حبيتك حبيتك".

أستشعر بأنها أغنية تجمع بين البساطة والعمق.. فيها فلسفة تعجبني، وهي تصف علاقتي بالحب إلى حد كبير.. اسمعها معي. أحتاجك كثيراً.



أعجبتني رؤيتك وطبيعة قراءتك للتاريخ.. حتى أنني فكرت بها مرتين. يشدني إليه أحيانًا وأمضيت فترات أقرأ فيها كتب التاريخ وحسب، فقادتني إلى الأنثروبولوجيا وعلم الأجناس. ذات مرة كنا في زيارة إلى بيت أحد أقاربنا في الناصرية، وكان بجوارهم بيت الشاعر والمترجم سعدون الياسري. حينها كانت حملة مطاردات واعتقال الشيوعيين على أشدها، فاختفى هو قبل أن يقبضوا عليه لاحقًا في أدغال الأهوار. قبل هربه، خبأ في إحدى زوايا سطح الدار، كيسًا كبيرًا من أكياس الطحين، مليئًا بالكتب. طبعًا، وبكل بساطة قفزت وسرقت كتبًا كثيرة. كانت هذه أول سرقة للكتب في حياتي، ثم استمرت سرقاتي لها لاحقًا أيام الجامعة وفي معارض الكتب، وأحنّ إليها اليوم. في تلك الفترة أدركت هول ارتكابات التاريخ، واكتشفت

أيضًا السورياليين وكولن ولسن وقليلًا من الفلسفة لأن أمي كانت تراقب قراءاتي. وأعتقد بأن الذي خرّب علاقتي بعدنان هو كولن ولسن في كتابه (اللامنتمي).. سأكمل لك لاحقًا.. فلا بد أن أذهب الآن إلى حفلة مدرسة الأولاد.



كيف حالك؟. لا تمت رجاءً. كنت راغبة جدًّا بالكتابة لك عن أشياء ونسيتها.

لا تداهمني كثيرًا، فأين سأتوجه ونفسي لا تستطعم الرجال الأسبان، وليس هنا سوى خليط من مهاجرين ترهقهم الصعوبات فينطفئ النور في وجوههم. للعلم؛ لقد أصبحت أجمل هذه الأيام والدليل أنني أتعرض لنظرات مركزّة، في مدرسة الأولاد، من مدرسين وآباء يأتون لأخذ أبنائهمبل وحتى من بعض النساء! ويطرأ في تفكيري، أحيانًا، أن مصاحبة أحدهم قد تكون أسهل طريقة لتعلم اللغة.

عدنان هو ابن عمتي الكبرى. ما الأمر.. هل تنسى يا حبيبي؟.. حاول حفظ الأسماء كي لا أضطر لإعادتها. كان عدنان، وبفعل تأثير الحرب، يتجه إلى التديّن، وفيه إلى الصوفية أكثر، فيما أنا أسير بالاتجاه المغاير.. أعني عدم الانتماء إلى أي شيء تقريبًا سوى نفسي. مع ذلك ولاعتقادي بأنني كنت أحبه، لم أكن أعارضه أو حتى الرد عليه في أغلب ما يقول وما يفعل.

بعد القبول في جامعة البصرة؛ كلية الزراعة. كنت أسكن في بيت عمتي الصغرى في منطقة (خمسميل)؛ منطقة مسحوقة. تفنّن الفقر والإهمال في رسم ملامح وطبائع أناسها. كان كل شيء جديدًا عليّ،

وأول شيء فعلته؛ استخرجت بطاقة للاستعارة من المكتبة، وهذه العادة سوف تبقى تلازمني طوال حياتي وفي تنقلاتي.. فحتى هنا، وحال وصولي، عرفت بوجود مكتبة عربية ضخمة تابعة لوزارة الخارجية الإسبانية تسمى (المكتبة الإسلامية) في منطقة (مونكلوا) في مدريد، كذلك مكتبة المعهد المصري، لكنهم لم يمنحوني بطاقة؛ لأنني بلا أوراق إقامة قانونية كاملة ولست بطالبة، فتدبرت الأمر باستخدام بطاقات آخرين أو بالجلوس والقراءة داخل المكتبة.

جُرحَ عدنان في الحرب وبقينا ثلاثة أشهر دون أن نلتقي. في تلك الفترة تعرفت على عَبد مَرار. أردت استعارة (ديوان المعري)، وكلما ذهبت إلى المكتبة يخبرونني بأن طالبًا اسمه عَبد مَرار قد استعاره، ومن ثمّ يجدّد استعارته مرة تلو الأخرى، بقي عنده مدة طويلة. لفت انتباهي الأمر، فرحت أسأل عنه بنفسي حتى التقيته، فقلت له قبل أن أُحييه: "لقد فقَعتَ مرارتي يا مَرار". ضحكنا وتعارفنا، لكن تعارفنا لم يدم طويلًا، فسرعان ما اكتشفت بأنه شخص لئيم ومليء بالإشكاليات النفسية، يسمي نفسه شاعرًا بالمجان، يتظاهر بالحزن والعمق والكآبة حتى انتهى لأن يكون كئيبًا فعلًا. سعى لأن أكون حبيبته، كتب القصائد، وادعى ذلك فعلًا أمام الآخرين الذين رأونا معًا نحتسي الشاي لعدة مرات في نادي الكلية أو نجلس على إحدى مساطب حديقة المكتبة، فصدّق وهمه وحاول التعامل معي على هذا الأساس، وحين نبّهته كي يصحو من وهمه وبأنه لا وجود لأي شيء من هذه الخزعبلات، انقلب ضدي وسعى للإضرار بي وتشويه سمعتي عبر بَث الشائعات الساذجة. على أية حال لم تكن إلا معرفة سطحية وبعدها صرت أتجنب حتى رؤيته.

لم أر عدنان إلى أن حلّت العطلة الصيفية، على الرغم من أنني لم أكن ملتزمة بالدوام في الجامعة، وأمضي أغلب أوقاتي في المكتبة وباكتشاف نفسي والبصرة والعالم. لم أكن أداوم لأن أغلب الدروس كانت مع البقر والغنم والدجاج والعنزات المشاغبات.. وتخيّل أنت الوضعية. ولأنني اكتشفت بأن الدرجات لم تكن توضع حسب الدراسة والمواظبة والاستحقاق وإنما وفق مواصفات صدور ومؤخرات الطالبات. ليس لأن في صدري أو مؤخرتي من قصور؛ ولكنني أمقت اتخاذهما للمزايدة وربط أمور التعلّم بهما.

أحيانًا، كان يصيبني العوز المادي، وأخجل أن أطلب من أهلي المزيد، لأنني أعرف حجم نفقاتهم وأنهم يساعدون بعض العوائل الفقيرة من أقاربهم سرًّا، فكنت أبيع الجبن واللبن والبيض على سكة القطار في منطقة (خمسميل)، أشتري من العجائز الوحيدات غير القادرات على السير واحتمال تفاصيل السوق العشوائي، وأبيع ما أشتريه هناك. كنت أنتبه إلى الجنود وهم يتعاملون على سعر المضاجعة مع صاحبات البسطيات في السوق الذي كان يفوح برائحة الجنس والبؤس، أستشعر ذبذبات التوتر الغرائزي وأصابعه اللامرئية في كل مكان؛ في الجامعة، في البيت، في القسم الداخلي، في الأسواق، في الطعام وفي الهواء.. وكل شيء كان يسترعي انتباهي. كنت مستفَزَّة طوال الوقت. عرفت شعراء وفنانين من أصدقاء أبناء عمتي وكلهم كانوا يسكنون الصرائف المبنية من البردي، وشاهدت الكثير من القحاب اللاتي لا يعرفن من هذه الدنيا مصدرًا لكسب العيش سوى أجسادهن.

ربما أنا طيبة أكثر من اللازم وبريئة لا أتعلم من تجاربي السابقة أبدًا،

وبخيلة الشعور بالندم؛ لأن كل الظروف التي تمر عليّ ما هي إلا تمهيدًا لأوضاع أخرى. يقال بأن الطيبة إذا فاضت عن حدها فإنها سوف تلامس سواحل الغباء. كذلك لم أشعر بوقت فراغ، وطالما حلمت لو أن اليوم يكون أكثر من أربع وعشرين ساعة. عشت عدة صداقات، قلة منها كانت حقيقية، وأفتخر بكوني قد عرفت راشِد مَثلًا.

هاه.. وأعرف أيضًا مسألة أخرى تتعلق بك، وهي أن صفات برجك تنطبق عليك وتتطابق معي أيضًا. تخيل ما الذي سيحدث لو عشنا معًا. فها نحن في مجرد حلم، ومع ذلك ترانا نقيم الدنيا. ما كنت لأحكي كل هذا، لولا شعوري بأنني معك آخذ حريتي وراحتي؛ ربما لأنك لا تعرفني، ولانعدام أي تخطيط بيننا.

قبل قليل أنهيت مكالمة مع ياسمين وتوصلنا إلى نتيجة مشتركة، وهي: عندما تنعدم الثقة بين الزوجين يصبح استمرارهما معًا لا معنى له، ونحن الاثنتان نعاني من هذا الوضع.

غدًا سأتصل بك صباحًا للاطمئنان..

الحلم يصنع المعجزات. لماذا تحلم أنت بي؟.. أعرف السبب.



أتمنى أن تكون صحتك اليوم أفضل. أمس مسني الحزن وحسرة كبيرة ملأت صدري. فكلما قلت لنفسي: لأكن بنتًا عاقلة، وأتعامل بنوع من القبول مع هذا الرجل المتعاقد معي، وفق الشرع، على النكاح.. أصطدم بأكثر من أمر يزيد نفوري منه.

اتفقنا أن نذهب مع الأولاد ونتناول العشاء في الخارج، وكان ذنبي

العظيم هو أنني قد رطّبت شفتيّ بقلم حُمرة. ولك أن تتخيل مدى مرارة أن يكون ذنب الأنثى أنها أنثى!. ما الذي يمكن، والحالة هذه، أن يتم التحاور حوله!. شعور بالعجز والإحباط وانعدام الحيلة. لم أنم تقريبًا، فلجأت لتخيّلك وأنت ساخن بفعل الحمّى، فيما أنا ألاعبك وألعب بك، أضحك معك وعليك.. كم بي من الشوق للضحك واللعب.. التوق إلى أن أكون أنا نفسي وأستمتع بأيامي على ذائقتي.. بشوق لأن أعيش. كنت أمر بأناملي على قطرات العرق التي تنزل من جبينك، ألاحق بشفتي مواضع حرارتك، فيما أنت تطارد فوقي ذئب أنوثتي الوحشي. ها أنت ترى بأن الحلم هو ملاذي الأخير. لا أعرف كيف هو طعم شفتيك.. إلا أنني أحمل شبه يقين داخلي بأنك بمستوى حلمي.. أرجوك انتظرني..

كن أفضل، لا تغب، لا تختفِ ولا تمُتْ رجاءً، كي لا أبقى وحيدة مع هذياناتي..



بإمكان المخيلة أن تكون ذاكرة لكن من الصعب أن تكون الذاكرة مخيلة.. جرب هذا... أردت أن أكتب الآن قصة بهذا المعنى، تخيلتها، لكنها كانت استرجاعاً وليس ابتكاراً.. كم أتمناك قربي.. أكيد سنُثري بعضنا بعضاً ونكتشف أشياء جديدة تخصنا نحن فقط ولا تخص الآخرين.. مشتاقة لك، وكلما استحضرتكَ جسمي يُصَبْ بالجنون.. فمتى ستصبح أنت سمائي؟... أين وصلنا بالفيلم؟.. لاحظ بأني أحب ترديد هذه المفردة، كأني أعتبر حياتنا أو مراحل منها مجرد أفلام ستخزن في أرشيفات محطات البث التي سرعان ما تُهملها.

عدت إلى بغداد في العطلة الصيفية وقد تغيّرت.. للأحسن أو للأسوأ.. لا أدري. بدأت أسأل عن صديقاتي أولًا، وإن لم يكن لديّ صديقات كثر، أبرزهن ياسمين وأحلام صديقتاي منذ المتوسطة أيضًا، وشريكاتي في مسرحية (مجنون ليلى) التي لم تتم. أحلام هي ابنة الكاتبة والمخرجة التلفزيونية سميرة اليافطي. كانت صداقتنا حلوة، نتبادل الكُتب والأسرار. اتصلت بأهلها فقالوا لي: ماتت. هكذا ببساطة. شربَت نفطًا وأحرقت نفسها. كان عمرها ثماني عشرة سنة. قالوا إنها نادت باسمي وهي تحتضر في المستشفى. فصعقني ذلك، أبكاني كثيرًا، ولا أجد له توصيفًا في نفسي حتى الآن. أشعر أحيانًا بنوع من الذنب لأنني لم أكن متواصلة معها أو إلى جانبها في أيامها الأخيرة، ولكن من ذا الذي بإمكانه تخيل ما سيحدث، وأن تُنهي حياتها مبكرًا. ربما كانت بشوق إليّ، وأنها أرادت أن تقول لي شيئًا مهمًّا، أو سرًّا ما، أو آخِر، وخلاصة قولها.. تُرى ما الذي كانت تريد قوله؟ ما الذي جعلها تتذكرني أنا تحديدًا ويكون اسمي آخر ما تنطقه في وداعها الأخير؟ أفكر أحيانًا بأن للأمر علاقة بالحب، وهي التي تعرفني كأكثر من يتحدث عنه، ومهووسة به.

بقيتُ ما يقرب من الشهر تحت تأثير الصدمة، وبالكاد أستطيع الكلام، لا أقدر.. لا رغبة للساني بالحديث مع أحد. أذناي تعافان السمع، نفسي تعاف الطعام، وعيناي تعافان النظر. صرت أذبل، فانتاب القلق الشديد أهلي المساكين حتى توقعوا دنو نهايتي، جنوني أو موتي أنا الأخرى.

أخذت نتيجة الامتحانات، راسبة بأكثر من نصف الدروس، وكان هناك قرارًا بالفصل من الجامعة لمثل هذا النوع من الرسوب، فزاد ذلك

من خيبة أمل أهلي بي، وصاروا يتجنبون اللقاء بمعارفهم خشية أن يسألهم أحد عنيّ.. وأنا الابنة الكبرى.

كنت أشعر بحيادية حيال العالم، بالجفاف وببرود وجودي... أيها الساخن دائمًا كما أتخيلك.. لا أدري كيف جعلتني أفكر بقفاك؟. وحتمًا إذا كانت المؤخرة جميلة فسوف تكون المشية جميلة تبعًا لذلك. أحب مراقبة أساليب مشية الناس، ومن خلالها أتصور طبيعة شخصية كل منهم. شيء شبيه بتحسس طبيعة شخصية أي كاتب من خلال أسلوبه في الكتابة. أنفك كبير، ومع ذلك فهو نصف أنف سيرانو دي برجراك.. أحلم بك كثيرًا لأنك تعرف كيف تشحن ذهني حتى من خلال البديهيات. غدًا عندي دروس صباحًا وسأتصل بك بعد الثانية عشرة والنصف إذا كان لديك ثمة وقت فائض تود تبديده. آه.. لا أدري من أين طلعت لي!؟. أو نعم أدري؛ لقد نبعت لي من داخلي.. من توقي إلى الحب الذي أريد.

مشتاقة.. وسوف أعمد إلى تقطير الحكاية لك كي لا تجيء مبكرًا وترى بشاعتي. هههههه أنا أتدلع، لأنني في الحقيقة أجمل مما تتصور. وكما يقول حسن مطلك: "سأكون جميلًا ومهذّبًا لأنكِ حبيبتي. إنكِ تمنحينني الحياة كما يَمنح الثقب للعصفور فكرة بناء العُش".

- ٦ -

حُب الشيشاني

أنا

كنت أُكثر من أكل الأرز، أطبخ قِدرًا متوسطًا وفق الطريقة التي علّمني إياها رفاعي، وأظل آكل منه ليومين. أخترع أي مَرَق معه، كأن يكون رأس بصل وحَبَّة طماطم مع زيت وماء، وأحيانًا آكله برفقة الماء فقط.

ذات مساء دخل عليّ ماهر فجأة وقال: اترك كل شيء واذهب مع الدكتور كَرُّومي، إنه بانتظارك في السيارة، وأنا سأبقى مكانك.

حاولت أن أشرح له متى يُطفئ النار عن قِدر الأرز، لكنه قاطعني وأطفأه حالًا وهو يقول: اتركه الآن واخرج بسرعة.

لم أكن قد استبدلت ملابس العمل المعفرة بغبار الجبس والإسمنت والتراب. خرجت لأقول للدكتور كرومي أن ينتظرني بضعة دقائق كي أغتسل وأغير ملابسي، فوجدته، بابتسامته الحميمة الدائمة، وراء مقود سيارته دون أن يطفيء محركها، قال: لا داعي، هيا اصعد، أنت جميل هكذا.

ركبتُ إلى جانبه، وفي الطريق قال بأنه يريدني أن أحضر تمرينات

الطلبة على مسرحية (كاليغولا) التي يُخرجها هو للمشاركة في مهرجان إربد المسرحي السنوي الذي سيقام بعد عشرة أيام، كما أخبرني بأن طلبة آخرين سيشاركون بتقديم نص مسرحيتي (البحث عن قلب حي)، وأنهم منِ خيرة طلبة المسرح وهم يتدربون عليها الآن أيضًا. وأضاف ضاحكًا: لكنني لم آتِ لآخذك إلى قاعة تدريبهم بالطبع، وإنما إلى قاعة تدريبي أنا فقد تركتَ الممثلين هناك بانتظاري. نريد رأيك وملاحظاتك فيما نفعله.

فاجأني كل ما قاله إلى الحد الذي لم أصدقه واعتبرته مزحة أخرى ضمن مرحه الدائم، فقلت له: أشكرك على هذه المسرحية التي اخترعتها أو على هذا الحلم الذي يعزز معنوياتي، والآن بجد؛ إلى أين نحن ذاهبان؟

قال: إنني أتكلم معك بجدية يا محسن.

سحب من بين رزمة أوراق كانت على رف السيارة أمامنا كتالوج برنامج المهرجان وأعطاني إياه قائلًا:

كنت أظن بأنك على علم بذلك، فجدران الجامعة والمدينة مليئة ببوسترات إعلانات المهرجان.

تصفحت الكاتالوج فوجدت كل ما قاله صحيحًا، أنستني المفاجأة والغبطة قِدر الأرز، وملابسي المعفرة بغبار ورائحة مواد البناء. كدت أبكي منَ الفرح، لكنني تماسكت مطيلًا النظر في الكاتالوج، متظاهرًا بالقراءة، فيما عيناي مركزتان على اسم مسرحيتي فقط. هذا النص المونودراما الذي كتبته حين اعتُقِلَ أخي حسن مطلك فكنتُ وعائلتي نعيش قلق اللحظات المدمرة. ولشدة حبي له كنت على استعداد لفعل أي شيء لإنقاذه. ولم تكن ثمة وسيلة لذلك، حينها وقع بين يديّ خبر

في صحيفة عن شخص يتبرع بقلبه لأخيه، فانبثقت كل هواجسي تجاه هذه النقطة ورحت أكتب بكامل رغبتي لفعل هذه التضحية حقيقة.

شعرت كأنني في حلم من أحلامي الثقافية، وبجدوى انشغالي بالأدب منذ صغري، والأهم أنني شعرت بأهميتي وبإنسانيتي، فأن يجيء مخرج كبير ومعروف مثل الدكتور كرومي إلى العشة الفقيرة التي أسكن فيها ليأخذني بنفسه كي أحضر تدريبات أحد أعماله وأخذ رأيي أنا... فهذا كثير وما لم يكن ليخطر لي على بال حتى في أكثر أحلامي الثقافية مبالغة.

قال:

- كنت أعتقد بأن الطلبة الذين سيقدمون نصك قد أخبروك، فالمخرج والممثل قالوا لي بأنهم يعرفونك وأنك جارهم في الحيّ الذي كنت تسكن فيه مع المصريين.

ازدادت دهشتي.. ومعها حرصت على زيادة تماسكي ومحاولة الظهور بأنني طبيعي، كأي كاتب أو مثقف معتاد على هذه الأجواء والتعامل مع الوسط والنشاطات الثقافية، أن أبدو بالأهمية التي يتعامل بها معي الدكتور كرومي، إلى الحد الذي أتى به ليأخذ رأيي فيما يفعل. كان ذهني يحاول فك هذا اللغز ويسارع باستعراض ما أتذكره من إقامتي هناك، كيف وصل نصي إلى هؤلاء الطلبة؟ ومَن هم أصلًا؟ لأنني لم أعرف أي اسم منهم... ليس لي علاقات بأي شخص في الحيّ سوى المصريين الذين كنت أعيش معهم، وهم يعرفون بأنني أحب القراءة والكتابة، ولكنهم هم أنفسهم لا يعرفون القراءة، وكانوا يتركون أوراقي باحترام على حالها؛ في الزاوية قرب

وسادتي دون مساس، والذين التقيتهم من أهل الحي لم أُقم أية علاقة بأي منهم سوى إمام المسجد. كانت لقاءات عابرة مع أناس لا أتذكر منهم أحدًا الآن، لقاءات في أحد الدكاكين، على الباب وقوفًا في المساء مع المصريين، تبادل التحيات مع أي جار عابر عند الدخول والخروج، تناول الشاي مع مَن يزور المصريين.. وأشياء من هذا القبيل، فمنذ أن جئت إلى الأردن وأنا أهمش الكثير من ذاتي مُركّزًا جل همي على تدبير حالي بين قوت وسكن وعمل ومحاولة توفير ما أستطيع توفيره لإرساله إلى أهلي في العراق. كنت أركّز في علاقاتي على المصلحة الملموسة أكثر من أي وقت مضى في حياتي. جئت إلى الأردن في مغامرة وعناد وأمل باحثًا عن متنفس لبعض الحرية بدل الاختناق واليأس ومتابعات السلطات الأمنية منذ إعدام أخي حسن. لم أكن أعرف أي أحد فيها وليس معي سوى مائتي دولار، أنفقت مائة منها في الأسبوع الأول غريبًا تائهًا في عَمّان، وأثناء نومي على أرضية السطح في فندق فقير متسخ مع غرباء آخرين من العراق ومصر وحديثنا عن مشكلة عدم إيجاد عمل، ذكر بعضهم أن الحل هو تَرْك العاصمة والاتجاه إلى المدن الأخرى والقرى، فهناك سيكون الإنفاق أقل وفرص إيجاد عمل أكبر، وهكذا كان مَقدمي إلى إربد بشكل عشوائي، حيث استقليت أول حافلة في الكراج فقادتني إلى هنا. كنت أسير وأتحرك وأتصرف كالنائم؛ لأنني عمدت إلى فصل الكثير من ذاتي الداخلية، والتركيز على ذاتي الخارجية؛ على النجاة، وعلى المطاولة قدر الإمكان خشية العودة فاشلًا إلى أهلي بعد أن عاندت من عاندت منهم، وأقنعت من أقنعت بخروجي. نوع من الإصرار على النجاة.

حين نزلنا من السيارة وأغلقت الباب لاحظت بأن ملابسي قد

تركت أثرًا أبيض على المقعد. استأذنت الدكتور كرومي أن آخذ نسخة الكاتالوغ لي فقال: هي لك. وأثناء إعادة فتحي للباب لأخذه انتهزت الفرصة ومسحت المقعد من بقايا غباري.

دامت التدريبات ما يزيد عن ثلاث ساعات. كنت فيها جالسًا في أحد الكراسي الأمامية مستغلًا العتمة للتفكير بكل هذا، واستيعاب نشوتي به. وبعد الانتهاء دعانا الدكتور كرومي إلى مطعم في (دوار الجامعة)، مطعم فخم ما كنت لأحلم بالدخول إليه، وكلما مررت من هنا، كنت أتطلع إلى واجهته المغرية في الطابق الثاني وحسب. أجلسني على رأس طاولة طويلة، وجلس جواري، فيما انتشر بقية الطلاب الممثلين على الجانبين، وبعد أن طلبنا وأكلنا جميعًا ما نرغب به، فكانت تلك أول وأغلى وجبة أتناولها منذ مجيئي إلى الأردن.

طلب لنا القهوة ثم قال: والآن استمعوا جيدًا إلى ما سيقوله لكم الأستاذ محسن الرملي.

أذكر حينها بأنني تحدثت لما يقرب الأربعين دقيقة بصدق وموضوعية، ولم أضعف أو أجامل حتى الفتاة الجميلة المدللة التي أسند لها دور البطولة وكانت موضع إعجاب الجميع، مستحضرًا كامل معرفتي المسرحية، وأجبت على كل النقاشات التي دارت بشكل تجليّت فيه، بحيث نسيت بؤس ملابسي وشَعري غير الممشط، وشعرت بأنني أستاذ فعلًا، كما وصفني لهم الدكتور كرومي الذي شكرني بجدية، وقال بعد الانتهاء: صفقوا للأستاذ محسن واشكروه.

عدت من تلك الأمسية إلى عشتي شبعانَ وبكامل زهوي الشخصي، ولم أستطع النوم إلا متأخرًا جدًّا. كنت سعيدًا إذا جاز القول؛ فقد أعادتني تمامًا إلى الثقة بنفسي وأحلامي، شحنتني بطاقة

جديدة عزمت معها على عدم التخلي عن نفسي وأحلامي ثانية، وشكلت لي غلافًا صلبًا يحميني من قسوة الظرف الذي أعيشه، بحيث صرت أتقبّل، وأقوم بالأعمال الشاقة، وكأنها مجرد تفاصيل ومعوقات عابرة، فآخذها على محمل المزيد من التجربة الحياتية، وحتى اللعب أحيانًا.

حين أخبرت خالد في اليوم التالي عما حدث وعن دهشتي به حد عدم التصديق وتصوره حلمًا، قال:

طبعًا يا صديقي، هذا هو الوضع الطبيعي الذي يفترض أن يكون عليه حالك، فأنت مبدع ومثقف جيد والكل يعرفك ويحترمك.

طبعًا يا صديقي، أنت تقول هذا لأنك صديقي وكي ترفع من معنوياتي.

لا أبدًا، فالقصص والمقالات التي نشرتها في الملاحق الثقافية الأسبوعية يتابعها ويقرأها كل مثقفي البلد، وأنا سمعت في المقاهي، ومن الأصدقاء، الكثير من الآراء حول ما نشرته، وكلها إيجابية، ولكنك أنت لا تدري بذلك ولا تشعر به لأنك تعيش معزولًا، من قبل مع الصعايدة، والآن هنا. وربما أيضًا لأنك تفكر بالمردود المادي لما تنشره دون الانتباه أو حتى الاكتراث بمردوده المعنوي والثقافي.

وماذا عن مسرحيتي التي سيقدمونها؟ كيف حصلوا على نصها وهي غير منشورة أصلًا؟

هذا أمر لم أنتبه إليه لأنني لا أتابع المسرح، ولكن الذي حدث هو كالتالي بالتأكيد: أتذكر يوم زرتك للمرة الأولى في سكنك مع الصعايدة وأعطيتني رزمة من أوراقك ودفاترك كي أحتفظ لك بها عندي؟

نعم.

حين خرجت من عندك استقليت سيارة أجرة (سرفيس) من الكراج القريب باتجاه الجامعة، وفي انتظار أن يكتمل عدد الركاب، كنت أقلب في أوراقك ومنها مسرحيتك (البحث عن قلب حي) وكان الجالس إلى جواري شاب لا أعرفه، أخبرني لاحقًا بأنه من طلاب المسرح في الجامعة، رآها وسألني عنها، فحدّثته عنك، وقال: رأيته أكثر من مرة وظننت أنه أحد المصريين لأنه يتحدث معهم باللهجة المصرية. وقال بأنه وثلاثة زملاء له يبحثون عن نص مسرحي لتقديمه كأطروحة تَخرّج، وعند نزولنا طلب مني أن أسمح له باستنساخه كي يقرأه، فدخلنا إلى أقرب مكتب استنساخ، نسخه سريعًا وشكرني، ثم افترقنا، و لم أره بعدها، بل نسيته ونسيت الأمر تمامًا.



هي

لقد أفزعتني اليوم بقوة أثناء درس الكومبيوتر. كنت فاتحة للبريد وفجأة رأيت رسالة تأتيني منك. جننت فوق الخبل الذي بي. سأحاول أن أكون حذرة، وأنا آسفة لإزعاجك بالاتصال، فربما كنت تأكل أو تقرأ أو تستحم أو أي شيء آخر.. إنه الشوق يصعد بي أحيانًا مثل موجة شتائية عاتية.

أعترف بأنني الآن أكثر اشتياقًا. أين وصلنا؟..

كان ذلك الصيف شديد القسوة. لم أشعر بالندم مطلقًا لأنني رسبت في الكلية. فكرت بأنه القرار السليم كي لا أضيّع وقتي وسنوات من

عمري في دراسة شيء لا يليق بي، لكن حزن أهلي كان كبيرًا. قطعوا خط الهاتف و لم يكن لدي أي اتصال بعدنان، إلا أنه ورغم العداوة والمشاكل بين عائلتينا، بعث أهله كي يخطبوني بشكل رسمي.

دعني أقول لك شيئًا قبل هذا الموضوع. بسبب الصدمتين، انتحار أحلام ورسوبي في الدراسة؛ اتجهت أكثر إلى القراءة، قرأت عن مختلف مدارس علم النفس وهضمتها بحيث أصبحت أقوم بتأويل أي شيء أراه أو أسمعه وفق رأي علم النفس، وقادني هذا إلى الباراسَيْكولوجيا بعمق، ثم إلى تمارين التركيز والتأثير على الآخرين وقراءة بعض كتب السحر، كل هذا تم في فترة قصيرة. كنت أنام في النهار وأقرأ في الليل ولا أخرج سوى مرة واحدة في الأسبوع، أستعير كتبًا من المكتبة العامة القريبة من البيت. للأسف، لقد سُرِقت كل كتبها بعد الحرب وتحولت مبانيها إلى مساكن للعوائل التائهة، والمشردين، ومن بعدهم إلى ثكنات للمسلحين.

كان طعامي قليل جدًّا. خشي عليّ أهلي من الجنون، فيما الحقيقة هي أن الجنون كان أبعد شيء عني ولا مبرر لخوفهم، ونتيجة لهذه المخاوف، رضخوا أخيرًا وقالوا لي: أنتِ اختاري. أقصد عندما أتوا بيت عمتي لخطبتي.

اسمع حسن.. شيء حقيقي آخر. عندما أُحب فليس بهدف البحث عن الزواج من خلال الحُب أبدًا، بالنسبة لي، الحُب هو هدف بحد ذاته، أجمل وأعلى من كل الأهداف الأخرى؛ لذا فكلما كنا نصل إلى مسألة الزواج مع أي واحد منهم، كنت أخاف على حريتي، أريدها أولًا وقبل الزوج، لذلك قلت لبيت عمتي بأني لا زلت صغيرة ولست مهيأة بعد. اتصل عدنان فقلت له رأيي، وطلبت منه أن؛ أعطني مهلة

أو فترة حتى أراجع عواطفي ونفسي من جديد، ولا تحاول أو تتصور بأنك، على هذا النحو، سوف تنقذني من فشلي، لأنني لست بفاشلة. فوافق المسكين على مضض.. وعلى أمل أن أتصل به.

فرِحَ أهلي لموقفي، وأرادت أُمي أن تخرجني من هذا الوضع بأية صورة، فشجعتني على التسجيل في المركز الثقافي الفرنسي. كانت الدراسة فيه أفضل من الدراسة في الأقسام المماثلة في الجامعات. ذهبت إلى المركز في منطقة جميلة في (الكرادة)، مقابل الكورنيش. كنت ألبس بأناقة، أضع المكياج وشكلي لطيف، بحيث يستحيل على أحد أن يستشف أو يتخيل حجم المرارة التي تمور وأعانيها في داخلي.

آنذاك، كنت أمر بلحظات من "الومضة"؛ حسب ما وصفها كولن ولسن في باب (ما بعد اللامنتمي)، في الفصل الذي يتحدث عن ومضات سودينبرج، إذا كنت تتذكر.

في استعلامات المركز الثقافي الفرنسي، أثناء التسجيل. كان يقف إلى جانبي شخصًا يرتدي معطفًا أسود طويلًا وقبعة سوداء.. يلتف بسواد كامل ذكرني بقصيدة (الغراب) لإدغار آلان بو، الذي دَمّرَت أعصابَه محنتُه العائلية، فأسماه بودلير (كاتب الأعصاب). كنت أحبه آنذاك بقوة، أحفظ الكثير من أشعاره، ومأخوذة بالغراب تحديدًا.

"في منتصف ليلة كئيبة، كنت واهنًا ضجِرًا

أقلّب كتابًا غريبًا لحكمة منسية.. !!

أهدهد رأسي، ناعسًا، وفجأة أرعبني صوت خفيض.

كأن أحدًا يطرق باب حجرتي بلطف.

تمتمت، (مطمئنًا ذاتي)، هذا زائر يقرع باب حجرتي،

ولا شيء سوى هذا.. (أكدت لنفسي): أن لا شيء سوى هذا".

أنهيت تسجيلي وأخذني الفضول لمعرفة اسم هذا الملفوف بالسواد، وليس ماذا يعمل. تفحصته وفكرت بأنه لمن الاستحالة أن يكون عراقيًّا. قلت له على الفور وبلا مقدمات: إن اسمك له علاقة ما بالبحر أو بالدين. بُهِتَ الشاب حتى ابتعد لخطوتين إلى الوراء. كان اسمه (بَحر الدِين) وهو رسام، أصله شيشاني ويتحدث، مع العربية الضعيفة، اللغة الروسية ويدرُس الفرنسية..

فاجأتك.. أليس كذلك؟. خذ حذرك مني، فأنا ذئبة حفيدة ذئب، تعرف الكثير وتبعثر معارفها مُجبَرة أو عامِدة أحيانًا. ولكن لا تستبق الأحداث ولا تحكُم، وصدّق بأن كل الذي أقوله لك حقيقي مائة بالمائة، وعندما أنهي حكايتي سيكون بمقدورك التأكُد. أظن بأن هذا أمرًا سهلًا عليك، كما أنه لا يهمك كثيرًا.

اسمع، لدي رأي حلو بالكذب، وإن كان هذا لا علاقة له بصدقي المطلق معك. أنا دائمة الإصغاء للآخرين حتى وإن كنت على يقين من أنهم يكذبون، فكما يقول حسن مطلك:"الكذب مصدر من مصادر وجود العالم، إن سقوطه مشابه لانطباق السقف على الأرضية وتحطمه في حالة الاعتقاد بعدم أهمية الأعمدة. إنه مصدر للعبد لكي يظل عبدًا، والعاشق كيما يغذي نار الحنين إلى ضرورة الجسد الآخر".

ذات مرة قالت لي أختي: من أين لك هذه القابلية على احتمال سماع الأكاذيب؟. قلت لها: إن الذي يكذب إما أنه يطمح لتحسين صورته أمام الآخرين، وهذا كذب حلو وأستمتع بسماعه، أو يكذب بأشياء تخص الآخرين، وهذا الكذب الذي أمقته.

بدأنا الدروس في المركز الثقافي الفرنسي شتاءً. كنت طالبة جيدة ومتحمسة كي أقرأ سان جون بيرس بالفرنسية لأن كل الترجمات التي قرأتها لم تقنعني. هناك تعرفت على بحرالدين، وكان كذابًا كبيرًا، من النوع الأول؛ أي الكذب اللذيذ. نصف مثقف، نصف طالب، نصف رسام، نصف عراقي، نصف شيشاني، نصف كذاب، نصف صادق، نصف صديق، نصف حبيب.. نصف في كل شيء. يصغرني بسنتين، أنيق جدًا ويمضي ساعات يتحدث فيها عن أساطير، ربما مستقبلًا سأكتب كتابًا كاملًا عنه وعن أساطيره. كانت عائلته السابقة في الشيشان تحرص وتحب الحفاظ على خصوصيتها الإسلامية الشيشانية قلبًا ومع الحكومة قالبًا، فقُتِلت بكاملها ذات اشتباك للرصاص المتقاطع بين الطرفين، باستثنائه هو وأخته الصغيرة، ووفق اتفاق مع الأمم المتحدة أو منظمات إنسانية، جلبت الحكومة العراقية سبعة عشر صبيًّا شيشانيًّا، منحتهم الجنسية العراقية وتربوا في دار الأيتام. هو يخلط بين ذكرياته الواقعية والحكايات الأسطورية التي كان يسمعها من جدته، وسوء لغته العربية يترك فراغات في حكاياته، فكنت أسد هذه الفراغات من مخيلتي لأنني أُحب حكاياته الغريبة.

أعرف كذبه، لكنني كنت أتماهى مع الكذب إلى درجة البكاء. أحبني لدرجة كبيرة، فيما أنا لا أريد سوى تغيير حياتي. كان يناديني (حُبّي)، فهي أسهل عليه من لفظ اسمي (هيام) ومن قول حبيبتي، كما أن ذلك كان تعبيرًا حقيقيًّا عمّا في نفسه. هو قالها: أنتِ حبي الأول والوحيد.. أنتِ حُبي.

نجحتُ في الكورس الأول الذي دام ثلاثة أشهر ورسبَ هو.

دراسيًا، لم يُنهِ المتوسطة. لم تكن علاقتي به قوية في عمقها، هي مَحبة وليست حُبًّا. لا وعود ولا مواعيد، وإنما على الصدفة، كلما وجدنا وقت فراغ وفي تردداته على المركز.

كنت مندفعة في دراسة اللغة، رغم صعوبتها، وأشعر بالتحرر من عدنان وأهلي. تحسّنَ مزاجي فصرت أحضر المسرحيات التي تعرض في بغداد وأزور معارِض الرسم في قاعة (الرواق) القريبة من المركز، يعطيني النحات فائق الوادي بعض الكتب والصور، وفي بعض الأحيان ألتقي بمجموعة من المثقفين ويبدأ نقاش. تعرفت على المترجمة سامية رائد في هذه القاعة ونصحتني أن أحاول النشر، أو حتى العمل، في القسم الثقافي بجريدة (الجمهور)، لكنني كنت غير متحمسة ومُهمِلة لهذه الأمور. وكما يقول فرناندو بيسوا: "حكيم مَن يقنَع بالتفرج على العالم".

ملامح بحرالدين قوقازيّة بامتياز. لا تظن بأنني أركز كثيرًا على الأشكال، ولكن، أحيانًا يكون الشكل مفتاحًا جيدًا للشخصية، وفي النهاية فما ملامحنا إلا جزءًا من شخصياتنا.

إلى الغد وكن أفضل.. تعافَ بسرعة كي تتاخبث معي.. ولكن برويّة مراعاة لظروفي.. فإلى أين سأذهب؟



مرحبا حسن يا مَن خبلتني وأعدتني مراهقة.. أسهر الليل.

رجعت قبل قليل وفي حقيبة سمعي شهادة أحدهم عن أمه، أبكتني. كأني أحمل كنزًا أو مخطوطًا نادرًا وخائفة عليه.. هذه

إحدى متعي الكبرى التي لا أتمكن من مقارنتها بسواها. شهادته عن أمه فتحت شهيتي لأعرفك على نوع آخر من الأمهات. أظن، في نفسي، بأنني وحدي أتفرد به أو على الأقل أخترع هذا النوع من التفرد، إنه ليس أقل تضحية من نموذج أمه التي يصفها ولكنْ للأمومة أوجه كثيرة.

أفتخر بأن لي ثلاثة أولاد رائعين.. لكنني ضد الامتلاك من أي طرف، حتى وإن كانوا أولادي، ولهذا، كما تحررت من أهلي منذ زمن دون نكرانهم؛ أتحرر من أولادي دون نكرانهم. لا شك، إن فكرة الكمال الدينية أو النيتشوية أو أي كمال إنساني هي أمر مستحيل.. ولهذا أقول: أنا نصف أم. في الوقت الذي حرصت فيه على إرضاع أطفالي رضاعة طبيعية، لم أنس نفسي. كنت أقرأ تاريخ ابن كثير بكل مجلداته، كما أتذكر أول صفحة في كتاب حمزاتوف وكيف عاقبه أبوه على كذبة، وعذابات إدغار آلان بو وكافكا ومحمد شكري من قسوة الآباء. حرصت دائمًا على أن أعلمهم الصدق مهما تكن النتيجة، والآن عندي ثلاثة رجال صغار، يشعرون بالمسؤولية، أنيقين، حساسين وفضوليين للمعرفة.. لذا لست بقلقة عليهم، وغالبًا ما أتبادل الأدوار مع حامد الصغير؛ أي يكون هو أمي، يضم رأسي على صدره سائلاً إياي: ما بكِ يا حلوة؟..

ثمة حلم عندي، هو سر، لكنني سوف أقوله؛ أن أكون لك كل شيء في حياتك: الحبيبة والأم والصديقة والنظيرة النديّة والابنة والسيدة والجارة والجارية، و.. و.. و.. وكل النساء.. هذا إذا أعجبتني طبعًا.. كن أفضل دائمًا لأن عندي لك حكايات كثيرة لا أظن بأنها ستنتهي.. فأنا حفيدة شهرزاد ووريثة عذابات الأرض؛

العراقية وأملاحها التي لا تزال تشرب دماءنا وأحلامنا وتمدنا بالأغاني الحزينة.. كيف هو طعم شفتيك؟.

وأستمر في هذه اللعبة إلى أن يحين وقت الحمّام...



كيف كانت عطلة نهاية الأسبوع؟ أنا كنت في حفلة واكتشفت بأنني جميلة من جديد. أوه.. هذا أنت مثلي تحب الرقص، ولكن ليس دائمًا. أكره العطلة، وكل العطل؛ لأنها سوف تُبقي زوجي في البيت وتحرمني من الكتب والكتابة، ومنك، لبعض الوقت. حامد مريض ولن يذهب اليوم إلى المدرسة؛ لذا لن أتمكن من سماع صوتك.. ربما بعد أن أذهب إلى دروس اللغة.. وأنت كيف أصبحت؟.

بالمناسبة، أنت فتحت شهيتي للحديث عن مجمل تجاربي لاحقًا.. وكلها حين نلتقي. لا تنس شيئًا مهمًا؛ أنني قد ربيت أولادًا يصغرونني بعشر سنوات فقط، أقصد أبناء زوجي.. أي أربي كائنات لها عمر مقارب لي..

أين وصلنا؟. لنكمل إذًا:

اجتزت الكورس الثاني والثالث، وفي تلك الفترة أقيم مهرجان للفن التشكيلي العالمي في بغداد. فكنت، على مدى أسبوعين، مشدودة تمامًا لمئات اللوحات، ولحد الآن هناك لوحات لا تغادر ذهني. قرأت كل ما ترجمه جبرا إبراهيم جبرا عن الفن التشكيلي. اتصل عدنان وقلت له: أحتاج إلى فترة أخرى. وقلت له أيضًا بأنني أحبه لدرجة سوف تجعلني أتنازل عن نفسي وبالتالي لن أعرف معنى

السعادة معه.. ربما كانت حجة كي أتخلص من كل شيء. وبقصد أن يثير غيرتي، خَطب إحدى صديقاتي، كانت موصلية جميلة. قال لها سوف أتزوجك لأنك صديقة هيام وأتمنى أن تشبهيها أكثر.. وافقت البنت في البداية، فهو شاب جيد ولديه بيت وسيارة ووظيفة، ولكنها سرعان ما فكت الخطوبة لأنه كان يضغط عليها لتكون صورة مني إلى الحد الذي يخلط فيه بالأسماء أحيانًا ويناديها باسمي، وهذا ما لا تطيقه أية امرأة طبعًا.

لا أستطيع المواصلة لأن حامد يريد اللعب بالكومبيوتر.. ولأنه مريض.. صار لزامًا عليّ أن أهتم بذكَرين: أنت وابني.

أشعر بأنني أحبك بصدق جاد.



مرحبا حسن.

بعثت لك برسالة و لم أتلق منك إجابة.. إنني خائفة عليك، وخاصة أن أزقة مدن وأرياف العراق وفضاءات حقوله وصحاريه وجباله لا تخلو من الرصاص والمفخخات والقَتَلَة، ولا سبيل للاتصال بك إذا كنت هناك، لأن الاتصالات مقطوعة، وإن كنت خارجه فإني لا أملك بطاقة هاتف ولا ثمن شرائها الآن.. أعتذر إذا كان وقت بعثي للرسالة غير مناسب.. إنني مشتاقة لك بحيث يبدو هذا اليوم باهتًا لأن صوتك لم يلونه بنبراتك المشحونة بمزيج الذكورة والحنان والمعرفة والدخان. أريد الاطمئنان عليك سريعًا.



صباح الخير يا حسن.

أحمَدُ الله أنك لا زلت موجودًا؛ مما يعني بأنني لم أكن أخاطب شبحًا. بالأمس اتصلت بي صديقتي ياسمين وتبلغك السلام بمحبة. قالت إنها ستبعث لي سبعين يورو ثمنًا لمكالماتك حتى أرجع سعيدة وأنثى من جديد، وقالت أيضا أنها لا تود الذهاب إلى أي مكان بدوني. تريد المجيء إلى هنا، ولكن لضيق المكان وغيرة زوجي، قررت أن تسافر إلى مصر مع زميلة لها في العمل، وليست صديقة فهي لا تعرف صديقات غيري. وفي طريقها ستنزل في مدريد كي نلتقي سويعات في المطار. ثرثرنا وضحكنا كثيرًا على غيرة زوجينا من علاقتنا واختلاقهما الأسباب دائمًا لقطعها، كأنهما يشتريان الغباء!.. في الحقيقة أن زوجها بالغ الذكاء، فعلى الرغم من أن لغته الإنجليزية أسوأ من لغتها ومعرفته بالصينية أقل من معرفتها إلا أنه قد استطاع، وبوقت قياسي، أن يشارك صينيًا ويخلق له تجارة تدر عليه الأرباح. أقنَع عشرات الكنائس هناك بأنه من سلالة قساوسة شرقيين، لا أدري كيف!، وراح يبيع على المؤمنين قناني فيها جرعتين من ماء نهر الأردن الذي تعمّد فيه المسيح، وأكياسًا صغيرة تحوي مقدار ملعقة من تُراب الأراضي المقدسة في بيت لحم والقدس والدرب الذي مشى عليه النبي إبراهيم في العراق، ثم صار متعهدًا لتزويد الكنائس بكل احتياجاتها من مواد غذائية وكهربائية وبخور ورسامين وأقمشة ومسبحات وغيرها.

أعرف لماذا تريد ياسمين زيارة القاهرة، فهي لازالت تحب الدكتور هاني الاسكندراني الذي عرفناه أثناء فترة عمله أستاذًا في جامعة بغداد.

شوقي إليك بازدياد..

لا أدري أي الصور قد أعجبتك أكثر. التقطتها في بيت وكاميرا جارتي.. إحدى الصور بالزي اليماني مع نقاب. مصيبة.. لأن واحدة تُظهر الذراعين والساقين، ما رأيك بساقي؟.. المهم أنت وحظك.. أخاف من الصور لأنها لا تظهر الحقيقة الإنسانية.

والآن.. متى سأراك؟ صرت أحلم بك كثيرًا، وتعرضت لمغازلة من رجل أشقر قبل يومين.. في الحقيقة إن حلمًا جميلًا وعلى مزاجي لهو أفضل بألف مرة من الكذب والسرقة.

قرأت مقالًا عن محمود جنداري في أحد المواقع ليلة أمس، بعد أن نام الزوج غاضبًا كوني سقتُ له مجددًا الكثير من الحجج تهربًا من غريزته. لم أقرأ لجنداري أيًا من كتبه، لكنني أذكر له عبارة قرأتها منذ زمن بعيد يقول فيها: "مئات الأيادي تشير إلى المرأة، ولكن هناك يد واحدة نظيفة، على المرأة أن تميزها، وإذا لم تميزها، فسوف تبقى بين كل تلك الأيادي". لا زلت أقرأ في السر، أنهيت كتابًا عن تاريخ الحروب. الكتاب مشغول بحياد توثيقي لكنه أكثر إيلامًا. ذهني، أثناء القراءة، يتلاعب بالتاريخ وكأنه المربع الذي نحركه بأصابعنا حتى تتساوى جميع وجوهه. التاريخ حكي كثيرٌ ويحتاج إلى حكي أكثر.. ربما للقراءات المتوالية أهمية أخرى.. ما أكثر تعدد القراءات وما أقصر العمر!. أفكر بهدية لك لا تكلف مالًا.. لأنني لا أملكه.

قبلة كبيرة.. مثلًا؟.

دعني أُكمل:

اجتزت ثلاثة كورسات للغة في المركز الثقافي الفرنسي. حينها كانت علاقتي بوالدي سيئة. لا مصروف، لا خروج من البيت، ولا

تليفون، كان في فترة خدمة عسكرية، وأمي تلتزم بالأوامر أثناء وجوده فقط، فيما يُكثر هو من تأنيبها بالقول: هذه تربيتك.

رحت أخيط للصديقات وأدفع أقساط المركز. أشتري أقمشة جميلة، أفصلها وأخيطها بموديلات أكثر جمالًا. كنّ يسألنني فيما إذا كنت أشتري ثيابي من خارج العراق. الخِياطة تعلمتها في معهد متخصص في بغداد عندما كنت في الإعدادية، وقد أفادتني كثيرًا هذه المهنة في سنوات الحصار.

لم يكن لدي أي عنوان لبحر الدين ولا رقم هاتف، إلا أنه، وكلما رغب برؤيتي، يعرف كيف يفعل ذلك.. لاحقًا عرفت بأنه جندي هارب من الفرقة العسكرية نفسها التي كان والدي ضابطًا للتوجيه السياسي فيها. صدر قرار بإعادة المفصولين إلى كليات أدنى، رفضتُ في البداية بحزم، لكن أمي أقنعتني بالذهاب للتسجيل في البصرة، وستحاول بعدها أن تنقلني إلى بغداد فأستطيع مواصلة الدراسة في المركز الفرنسي وأحوّل محاضراتي إلى الدوام المسائي.

اقتنعت، وعدت إلى البصرة من جديد، إلى (خمسميل) أيضًا، وكانت الكلية الأدنى؛ إدارة واقتصاد، حسب الاستمارة الأصلية. قُبلتُ بقسم إدارة الأعمال. بعد ثلاثة أيام بدأت البحث عن أي طريقة للنقل إلى بغداد. اتصلت بأهلي، وكان أبي حينها قد تسرح من الجيش حديثًا ونُقل إلى السعودية كملحق ثقافي، والأفضل، حسب ما أجابني به، أن أبقى في بيت عمتي في البصرة أو أذهب معهم، فذهبت لمدة شهر، وكان أسوأ شهر. لم أخرج فيه من الرياض إلا مرة واحدة، ذهبت فيها إلى مكة، زرت بيت الله وصليت له وشكرته على هديته التي بعثها لي مع والدي عندما كنت صغيرة، وهي أجمل نهدين في الدنيا.

لم أر شيئًا هناك سوى الأسواق والمساجد، والناس مشغولة بالأكل وتبديل السيارات والأثاث والنساء. نصحتني جارة لبنانية أن أكمل دراستي في العراق وأعود مرة أخرى؛ لأن شهادة إدارة الأعمال أهم عندهم من الطب والآداب، وليس بمستطاع أي كان أن يحصل عليها، والجامعات السعودية لا تقبل بسهولة أي طالب غير سعودي. اقتنع أبي فرجعت إلى البصرة... وهكذا، مرة أخرى، لم أكمل شيئًا أحبه؛ ألا وهو دراسة اللغة الفرنسية.. هل لاحظت بأنني لا أكمل أغلب الأشياء إلى آخرها.. سواء علاقة أو دراسة أو نص أكتبه أو حكاية أسردها.. كل شيء في حياتي ناقص. لا أدري.. فثمة تشتت أو عدم إيجاد لذاتي الحقيقية في هذا الذي أفعله.. وكم يضايقني أن أفعل فقط ما يجب عليّ فعله وليس ما أُحب فعله.. ومع ذلك أحتمل، كأنني أتجنب إشغال ذهني، ولكي أوفر وقتًا أكثر لذاتي وعالمي الداخلي. ما أُكمله هو ذلك الذي يستغرق وقتًا أقل، أنجزه على عجل كيفما كان.. أشعر كأنني أُطارد شيئًا، أو كأن شيئًا يُطاردني وأهرب منه. لم أجد الوضع الذي يناسبني، أو الذي أريد، حتى الآن كي أحقق ذاتي كما هي أو كما أريد... "أرغب أن أفِرّ إلى جِهة ما: ربيع بلا نهاية أو خريف مُنسحِق" كما يقول حسن مطلك.

في البصرة، سكنت في القسم الداخلي، هذه المرة؛ لأنه قريب من الكلية، وعزمت على إنهاء الدراسة كيفما كان.. حتى وإن كنت أكرهها، ذلك من أجل أمي على الأقل.

لم أحدثك عنها بما يكفي، لقد كانت عالمًا قائمًا بذاته، وليست مجرد أُم عادية.. كأنها مستقلة عن كل شيء. أحيانًا أشعر بأنها تعيش وحيدة داخل نفسها على الرغم من كل شبكات علاقاتها

الاجتماعية. ثمة أسرار في داخلها وغموض مستعصٍ، وكنت صريحة معها إلى أبعد الحدود. أخذتها معي ذات مرةً إلى مركز الطاغية للفنون فتعرفَت على أحد رساميه وصارا صديقين نوعا ما، ولا أدري إلى أي مدى تطورت واستمرت علاقتهما لاحقًا. رغم كل وضوحها وقوتها، ثمة شيء غامض فيها دائمًا، لغزٌ ما، يصعب عليّ فك شفرته مهما فكرت به. كانت تقرأ كثيرًا.. وفي آخر حياتها تخلت عن نشاطها في الحزب الحاكم.

بالنسبة لي، كان أهم شيء أن أستخرج بطاقة مكتبة ثم القيام بالترتيبات الباقية لاحقًا. في القسم الداخلي تعلمت الرقص، وكل أنواع الشتائم، ورأيت بناتٍ يُساحِقن بعضهن، كما تعرضتُ لهذا النوع من التحرش، كنّ يطلبن ملابسي حتى يلبسنها، إحداهن قالت لي: رائحة ملابسك حلوة جدًّا، وقميصك نائم بجانبي طوال الليل.

كانت تستمتع بصبغ شفتيّ بالحُمرة وتجريب الألوان على وجهي، وكنت أهجس دوافعها، لكنني أتظاهر بعدم الفهم، فلم يتجاوز الأمر المحاولات بعد أن ضبطتها مع أخرى. كن يخشين مني لأن زوج عمتي مدير الأقسام الداخلية.

في الكلية، كان عندي صديق رائع اسمه راشد ياسين، يدرس الصحافة، ويحلم بإكمالها حتى الدكتوراه، بقينا صديقين لطيفين. نتحدث، نتعاون بالدروس، نخرج ونأكل... بالمناسبة، أنا خبيرة بكيفية جعل الرجل الذي يرافقني يعرف الحد الذي أريده؛ أن يقف عنده، وهذا يتم اكتشافه بالمعايشة اليومية. عندي أصدقاء كثر وبقينا مجرد أصدقاء. كل الزملاء كانوا يحسدون راشد على علاقته بي، وهو يقول بمرح: لا بأس، إنهم يجهلون طبيعة علاقتنا، ليكن..

صِيت الغِنى ولا صيت الفقر.

كان بصراويًّا أصيلًا وكريمًا، ولأن بشرته سوداء كنت أدلعه: يا حَبَّة المِسْك.

لا تخف.. فأنا معك بلا حدود.. لأنك أحلى حلم في حياتي.



مرحبًا من جديد..

اليوم، غضبت منك بعض الشيء. ألم نتفق بأن نتعامل بلا كذب؟، فلا تقل لي بأنك لا تصدقني.. شعرت وكأنك تسايرني. لا بأس، فحسب اعتقادي؛ أننا حين نلتقي سوف نتفاهم بشكل أصح.

حامد لازال يعاني الحمى.. ترى هل تفهمت كيف أعيش أمومتي؟ أدرك أنها غريبة عليك، وأعرف شيئًا آخر.. الثقافة ليست كُتبًا نقرأها وحسب، فبالنسبة لي هي تلبسني وتتلبسني وتسيطر على مجمل مشاعري وأحاسيسي ورؤيتي.

في العطلة سيرتاح جيبك مني، كما لن أتمكن من الكتابة لك على راحتي.. فاصبر قليلًا.. ألم تقل بأنك تجيد التصبّر؟. لا تتصل على الموبايل أبدًا، وإذا أردت الاطمئنان اتصل على البيت فأنا الأنثى الوحيدة هنا. الأربعاء والجمعة تحديدًا بعد السابعة وحتى العاشرة مساءً.

لا تنسني.. أشعر بأنني أحبك فعلًا.. أتمنى لو أسمع صوتك الآن.. سأحاول غدًا عندما أذهب إلى المعهد المصري، فعطلتهم عشرة أيام فقط، ولن تبدأ حتى يوم الرابع والعشرين.

أيّ رقيب هذا الذي تتحدث عنه في رسائلي؟ فأنا، وإن كنت مليئة بالرقباء في داخلي على كل سلوك وقول؛ إلا أنني معك بلا رقيب أبدًا، فأنت متنفس صدقي الحقيقي والوحيد مع نفسي. كل كلمة أقولها لك نابعة من روحي. يذكر إدواردو غاليانو في (كلمات متجولة)، بأنه في لغة هنود الغواراني، (الكلمة) تعني: الكلمة والروح، وهم يعتبرون بأنَّ كل من يكذب أو يبدد الكلمات إنما يخون الروح. وكما ترى فإنني ومنذ أول رسالة كتبتها لك، أشرت فيها إلى ما تعرضت له من تحرشات منذ صغري. وفي آخرها ذكرت لك بأني قد تعرضت لتحرشات من طالبة ضخمة في القسم الداخلي، هذا إذا كانت القُبل تحسب تحرشًا!.. نعم مررت بقبل طفولية مع عدنان ولا أذكرها، وقُبل راقية وأنيقة مع بحرالدين وأذكرها جيدًا. كنا نناور سيارات الشرطة في شارع (أبو نواس)، وحتى أثناء ملاحقتهم لنا، كنا نتعمد أن نسرق القُبل. تحركات تشبه حرب العصابات، وهذا كان يسليه جدًّا. ذات مرة، اقترب منا شخص دنيء وقال: ماذا تفعلان؟. بحرالدين ساكت وخائِف. فقلت أنا: بأي حق تسأل؟.. هل الكورنيش ملك أهلك؟.

قال: أعطني بطاقة هويتك كي أتصل بأهلك ليروا ابنتهم ماذا تفعل هنا.

قلت له: بل أنت أعطني بطاقتك حتى أعرف مع مَن أحكي، وبعدها نذهب إلى مركز الشرطة.

شتمني وأدار وجهه ومشى. بحرالدين، كعادته، بقي مندهشًا ولم يستطع التعبير عن دهشته سوى بتكرار: حُبّي، أنتِ حُبّي، أوه.. يا حُبّي.

حتى تلك المرحلة لم يكن أحد قد أخذني لمكان مُقفَل وفتح أزراري.. لا أدري لماذا.. ربما لأن الرجال هناك يفضلون اللحم، و لم يكن لديّ جسد يغريهم، فقد كنت مجرد عمود فقري، وشَعَر، ولسان يحكي كل شيء!. وسوف أمر بهذه التجربة لاحقًا. ثم أنني، وطوال وعيي وصحوي، معي كتاب، تكون قراءته هي الشاغل، وكنت مدمنة على مضاجعة نفسي بالأحلام. أحلى ما في الموضوع معك، هو أنني وضعت نفسي على طاولة أمام عيني وأحلل كل ما صار لي ماضيًا، ربما لأنني أريد أن يكون ما سيصير لي مستقبلًا هو معك أنت. أنت الحبيب الذي أحب حقًّا، وليس أولئك الذين كنت أبحث فيهم عن الحب أو أُسقِطه عليهم عنوة، ذلك أن "السير في الحياة دون الحُب هو مثل الذهاب إلى المعركة بلا موسيقى، مثل السفر بلا كتاب، ومثل الإبحار دون نجمة توجهنا" كما يقول استندال.

ليلة الأمس كنت أحلم بك بكثافة، حتى جاءت أشد لحظات الاشتهاء توحشًا، و لم يكن أمامي من سبيل ألجأ إليه.. فاضطررت لإيقاظ المستأجر في منتصف الليل كي يخلّصني من أزمتي، ففرح كثيرًا ونطّ غير مصدق أن أطلب منه ذلك بنفسي، خلع وامتطى ورغى واهتز وأزبد وانطفأ، ثم عاد لنومه تاركًا إياي أشد اشتعالًا، أتقلب بِلَوْعتي حتى الصباح؛ متحسرة عليك، ومسكونة بالحلم بك.. أنت تحديدًا لا غيرك. أريد أن أشم رائحة جسدك وأنا على يقين من أنها كما أتخيلها، أريد أن أقول لك الكلمات التي كنت أقولها لك في الحلم.

صباحًا نظرت إلى وجهي في المرآة فرأيت حرمانًا عميقًا يحيط بعينيّ. ألا تستحق، إذًا، كل شتائم العالم وبكل اللغات؟. بالمناسبة

فإن اللغة الإسبانية هي أكثر اللغات احتواءً للشتائم، هذا ما انتبه إليه همنجواي أيضًا عندما كان هنا مراسلًا لتغطية الحرب الأهلية ومبددًا الوقت وعنفه المكبوت بالذهاب إلى الحانات ومصارعة الثيران، أعرف حانتين من تلك التي كان يرتادها، مررت من أمامها ودخلت فيها لدقائق من باب الفضول وخرجت دون أن أشرب شيئًا بالطبع، كانت دهشة الزبائن لدخول مُسلمة محَجبة أكثر من دهشتي بهذه الحانات. لا أحب هذا الهمنجواي، ولا أحب كتاباته، لكنّ سيرة حياته تغريني؛ لأنها تشبه حياة جدي (الذئب)، يعجبني الرجل الذي يتصرف بقوة تعاند القدر العادي ويحاول خلق مصيره بنفسه.. كلما تعلمت شتيمة جديدة سأصبها على رأسك من شدة احتراقي وتحسري. وأنت أيضًا، علّمْني شتائم البلد الذي تسكنه.. وإذا كنت لازلت في العراق فأخبرني بالشتائم الجديدة؛ لأن القديمة أعرفها كلها تقريبًا. بما فيها الأقذر والأشد سريالية وتفننًا وغرابة، كشتائم قحاب البصرة وشتائم المتنافسين والمراهنين الخاسرين في سباقات الخيول. أريد أن أصرخ "فلا أحد أكبر من الصرخة التي يكتمها، إنها شرط التوازن" كما يُقال.

- ٧ -

حُبّي قَبيلة مَجانين

أنا

مثلما تأخرتُ كثيرًا حتى أنام إثر تلك الأمسية التي أخذني فيها الدكتور كَرُّومي برفقته، صعب علي النوم في الليلة التي كانت مخصصة لافتتاح مهرجان المسرح؛ لأن مسرحيتي ضمن برنامجها، ولم أستطع الذهاب لمشاهدتها لأن ماهر في عمان بصحبة والده في المستشفى. كنت قلقًا كأن الريح تحتي، كما يقول المتنبي. بيدي كاتالوج المهرجان، أنظر إليه مرة تلو الأخرى، مركّزًا على اسمي وعنوان المسرحية والكلمة التي قيلت للتعريف بها وأسماء المخرج والممثل وملحن الأبيات الشعرية فيها، وأعيد التدقيق بموعد عرضها. كان إحساسًا غريبًا، قلبي يدق مع دقات الساعة وأنا أراقب اقترابها من لحظة العرض.. وكأنني أنا الذي سيخرج صاعدًا ليمثلها على المسرح. كنت أجلس، أتمدد، أنهض، أدخل، أخرج وأنظر إلى الليل والسماء والسكون، فيما داخلي مصطخب بتخيل العرض لحظة بلحظة كأنني أشاهده، وأي مقطع وصلوا الآن، وكيف سينطق به الممثل. إنه لأمر أخّاذ أن تسمع أقوالك يحفظها آخرون عن ظهر قلب، وترى شخصيات خلقتها من خيالك تتجسد أمامك.

كنت أتابع عرض المسرحية في خيالي، وكفّاي يفركان بعضهما بتوتر ونشوة حتى انتهاء العرض، سمعت تصفيق الجمهور ولكنني لم أتبين نوعه؛ أكان قويًا أو ضعيفًا، إعجابًا أو روتينيًا كمجرد نقطة نهاية. كنت أتمنى لو أنني خلف ستارة أتلصص على وجوه الناس، أراقب ردود فعلهم مع كل جملة، أن أشهد تصفيقهم وتقييمهم وتعليقاتهم بعد إسدال الستار الأخير. تُرى كيف كان رد فعلهم؟ كيف تم تقديم المسرحية؟ وكيف لُحنت أبياتي الشعرية فيها؟ ترى هل أوصلوا تلك الأحاسيس التي كانت تعصف بي عندما كتبتها قلقًا عليك وحبًا لك يا أخي حسن مطلك؟ أين أنت الآن يا حسن؟ فأنا وحيد وحزين وغريب تائه في هذا الوجود الذي يخلو منك يا حسن، وما مسرحيتي هذه إلا صرخة واحدة من صرخاتي التي تناديك في كل لحظة.. فهل سمعتها؟ هل طافت روحك وشاهدت العرض كما شاهدته في خيالي؟ أتمنى تصديق تلك الحكايات التي تتحدث عن بقاء أرواح الأموات وقدرتها على التطواف ورؤية أحبتها ومتابعتهم، أتمنى أن تكون روحك قد شاهدت العرض وأرضاك؟ فلو رضيت عنه أنت سأرضى أنا.. بل سأكون سعيدًا. ونمت عند الفجر سعيدًا.

لم أستيقظ حتى الظهر على هزات ماهر الأصفر لي وهو يقول ساخرًا: انهض يا حارسنا. أين قضيت الليل يا صديقي؟. من حسن الحظ أن أولاد الحلال اللصوص لم يمروا الليلة من هنا وإلا لما وجدنا الآن شيئًا من أدوات ورشة البناء ولا حتى أكياس الإسمنت ولا الطابوق. بل وربما لسروقك أنت أيضًا وحملوك معهم.

جلست فاركًا عيني وابتسمت له قائلًا: صباح الخير.

فقال ضاحكًا:

- أي صباح الخير يا صاحبي! الساعة الآن هي الثانية بعد الظهر، والعمال غادروا، قال لي المقاول حسين العمري بأنهم حين أتوا في الصباح وجدوك تشخر غاطًا في نوم عميق كالقتيل، فمنع العمال من إيقاظك، والغريب أن ضجيج عمل البناء لم يوقظك أيضًا. ترك لك صحن الفول هذا، وهذا الخبز، وتلك الحبات من الفلافل.

متى عدتَ من عَمّان؟ وكيف أصبحت صحة الوالد؟

هو أحسن الآن، عدنا قبل ساعة.

هل أُعد لك الشاي لتفطر معي؟

لا، وإنما أعد لي نفسك كي نذهب الليلة لمشاهدة عرض مسرحية الدكتور كرّومي، هو الذي طلب مني ذلك. سأذهب أنا الآن لأرتاح قليلًا وأعود إليك في السابعة.

أزعجني العرض لأنني لاحظت بأنهم لم يأخذوا بأغلب الملاحظات التي قلتها لهم، فيما يتعلق بالأداء والسينوغراف والصوت وغيرها... فهل كان الأمر مجرد مجاملة إذًا من قبل الدكتور كرّومي؟ وإذا كان كذلك، فلماذا فعله؟ هل كان بطلب من ماهر وخالد وبقية الأصدقاء لإخراجي من عزلتي؟. على أية حال، صفقتُ وتقدمت بعد العرض، مع بقية الأصدقاء المهنئين له ولطلابه، شكرناهم، صافحناهم وتمتمتُ أنا بكلمتيْ إشادة غير واضحتين، فقال لي الدكتور: أريدك أن تكتبَ عن العرض مقالًا نقديًا وتنشره.

فقلت له مبتسمًا:

- أنا؟! أنت تمزح؟!

لا بالعكس، أنا أتكلم معك بجد.

ولكنك تعرف ملاحظاتي، وسيزعجك الأمر لو كتبتها.

لا أبدًا، بل اكتب رأيك بكل حرية وصراحة.

وقبل أن نخرج نادى عليّ وقال وسط المصافحين: بالمناسبة، كان عرض مسرحيتك بالأمس ناجحًا، الجمهور تفاعل معها وصفق لها طويلًا، وكتب عنها أحد النقاد بشكل جيد في نشرة المهرجان لهذا اليوم. تجد النشرة هناك، قرب الباب عند الخروج.

لم آخذ مسألة كتابة مقال عن مسرحيته على محمل الجد حينها، و لم أكن أنوي فعل ذلك، لكن ماهر أخبرني في اليوم التالي، أن الدكتور كرّومي قد أعاد الطلب عليه وأوصاه أن يقنعني بأن أكتب شيئًا عن العرض، فهذا مهم جدًّا بالنسبة لطلابه حين يروا أسماءهم تُذكر في صفحات الملحق الثقافي لصحيفة رئيسية، ومهم حتى له شخصيًّا، كما سيشكل نوعًا من الدعاية للمسرحية؛ بما يعزز رغبة الطلاب بعرضها أكثر من مرة في أكثر من مكان.

ففعلت... وليتني لم أفعل.



هي

صباح الخير يا ورد الورود.

كلما أستعيد مكالمتنا الأخيرة أنفجر بالضحك وأشتاق لك أكثر.

أدرك بأننا سوف نتعارك كثيرًا لأننا متشابهين في وجوه عديدة. قل لي أحبك، رددها وردد اسمي. إنك تلفظ اسمي بطريقة أحبها، نبرة غريبة، وبلا غرور، تشي بقوة جاذبيتي المغرية، فأنت تبدو عند نطقك

له كمن كان يبحث عن شيء ووجده. أشعر بأن اسمي آمن في فمك. إن تعقيبي على كل كلمة جميلة بتساؤل: صحيح؟ حقًّا؟ ليس لأنني لم أسمعها، ولكنني أحب تكرار سماعها، تذوقها، تحسس يقينيتها وصدقها في نبرة الناطق بها.

غدًا عندي موعد مع طبيبي النفسي، ولدي حكايا كثيرة لا أظن بأنها ستنتهي، وإن أوشكت فإنني أقلبها على مسارد أخرى. أحبك حتى وإن كنت خائفًا مني. ولا أدري لَمَ كل هذا الخوف!.. فلستُ بسعلاة تطلع للصغار المشاغبين. أحبك، فلا تقسط مشاعرك.. كن عفويًّا وتلقائيًّا مثلي.. وسيكون الرب كريمًا معنا. الحب أحد الضيوف الذين يزوروننا بلا موعد مسبق، مثله مثل الحظ والموت.

صحوت قبل ربع ساعة. منذ الأمس وأنا شبه مريضة، حرارتي مرتفعة قليلًا. الجو متقلب وأنا محبوسة في الدار منذ يومين لأن الأولاد عندهم عطلة. أنا بانتظار دوري لسماع حكاياتك... أنا امرأة يسكنها أو يغلفها الحزن. حزنت كثيرًا وأعرف بأن أمامي أحزانًا أخرى. وحتى حين أضحك مرّة من عمق قلبي.. أقول: ربما لأنني أوشك على الموت.

عذرًا لتأخري عليك. كانت مجاملات عائلية تافهة، إضافة لهذا المرض القليل، فأنا حمارة أحيانًا ولا أجيد ارتداء الثياب التي تناسب الطقس، كأنها تضايقني أو تخنقني. لو كنت بقيت في البيت أكتب لك وأدرس الإسبانية لكان الأمر أفضل. المهم، رجعت وحالتي النفسية لا بأس بها أو على الأقل أعرف كيف أخادع نفسي.

أظن بأن من المفترض بي أن أشرح لك الذي حدث مع المُستأجِر لأن الموضوع غير ما فهمته أنت. محتاجة لأن أضحك، أمشي،

أحكي. إن أجمل ما حدث معي ولي في هذه السنة هو اكتشافك ورؤيتي لصديقتي ياسمين بعد فراق طويل.

سأذهب لتناول إفطاري الذي لا يخلو من التمر أبدًا، وربما لكي أتيح لك أن تتحدث إن شئت. أبوح لك أيضًا بأنني قد صرت أخاف منك بشكل ما. ربما لكوني لم أعد قادرة على احتمال صدمة جديدة. أحاول حصر المسألة في زاوية محددة، لكنني سرعان ما أجدني أنساق مستسلمة لدفق عاطفي.. كأنني أنزلق على سفح زيتي، قائلة لنفسي: إنه حلم.. فهل تستكثرين على نفسك حلمًا!؟. في كل يوم أفقد يومًا جديدًا في واقع فُرض عليّ ولا أعرف كيف الخلاص منه. بينما تقول لي ياسمين في مطلع رسالتها الأخيرة: "هيام.. أنتِ، أنت وحدكِ عرفتِ، دون أن يقول لكِ.. أحد". أفرح بقولها وأسأل نفسي: هل عرفتُ حقًّا؟. شاهين؛ بطل (داباداا)، كان يردد وأنا من بعده أردد عبارته: "سأعرفُ شيئًا ذات يوم وأحبه.. سأعرف شيئًا وأحبه".

كيف لم أتحدث لك عن ياسمين كثيرًا؟ ربما لأنها كانت موجودة دائمًا.. حتى أن كل الذين تعرفنا عليهم يغارون منها أو مني، بحرالدين مثلًا. كان يقول: ليتني ياسمين. كثيرون اتهمونا بالشذوذ وكنا نضحك ونقول: كلهم سينتهون، ونحن مثلما كنا، سنبقى مع بعضنا. حين رأت ياسمين صدري عاريًا لأول مرة في حمّام نساء بغدادي، شهقت وعلقت ساخرة: لو احتجنا، فهذا الصدر يمكنه أن يدر علينا ذَهبًا، ولو من مجرد بيع صور له. علمًا بأنني أحلى بكثير من الصور، أمتلك قوة روحية خاصة، وجسدًا يشع حرارة.. لاحقًا سوف تندهش. حال وصولها إلى الصين اقتنت جروة صغيرة وأسمتها (هيام) على الرغم من اعتراض زوجها على هذا الاسم.

حسن.. حبيبي، أقسم بأنني مشتاقة إليك.. وكل كلمات اللغة تبدو عاجزة عن وصف حالتي. لماذا، دائمًا، ليس لي أي خيار آخر سوى الحلم؟.. وأنا معك الآن في حلم بلا حدود. مع ذلك أشعر بشكر داخلي لهذا الحلم الذي يجمعني بك.

لا تخف عليّ.. مررت بأوقات أصعب من هذه. أثناء الحرب تحطَّم نصف البيت وكنت وحدي مع الأولاد، وها أنا من جديد، أعيش وأستأنف جنوني اللذيذ معك. اكتب لي بالتفصيل عن عائلتك، لون قمصانك، عطرك المفضل وآخر ما قرأت من قصائد. وأنا بدوري سوف أواصل السرد كي لا أخيب ظنك، كي تعرفني، كي أرتاح معك، كي تُحبني أكثر؛ لكي أحب نفسي والحياة أكثر. ولكي تعرف بأن أصابعي قد لامست أشياء وأحوالًا وتراب بلدان عديدة. اليوم كادت كفاي أن تحترقا بالطبخ لغيري، وتحت شعور ما، كان همي لحظتها ألا تتشوّها كي لا أكون كاذبة معك عندما أخبرتك بأن لي كفين جميلين.

ما أكثر ما لجأت إلى خلق الأحلام! كنت أهرب مرة إلى التصوف ومرة إلى الدراسة وأخرى إلى توهم الخلاص.. وها أنا أهرب الآن إلى الحلم بك.

في جامعة البصرة، كانت علاقتي ببحر الدين غير مقطوعة. لا أدري كيف كان يعرف الوصول إليّ ورؤيتي كلما أراد. أحيانًا كان يركب طائرة صباحًا من بغداد ليراني ويعود مساءً. فجأة أسمع صوته خلفي قائلًا: "هلّو حُبي، صباح الخير". فألتفت لأجده بثيابه السوداء ضاحكا في أوج لهفته، فأهتف به: أهلًا يا طَير، أهلًا يا غُراب. ذات مرة أراني صورة لشقيقته التي تبنتها عائلة بغدادية غنية بعد العام الأول لهما في ملجأ الأيتام. إنها شقراء، خرافية الجمال، وكان يحز في نفسه أن تلك

العائلة قد فصلت بينهما ولا ترغب كثيرًا بزيارته لأخته أو حتى رؤيته. يحبها كثيرًا، لكنه في الوقت نفسه، كان سعيدًا لها ولرغد عيشها ولمستقبلها الذي سيكون أفضل من مستقبله حتمًا. بكى عدة مرات على صدري شوقًا إليها. صار يغيب بالتدريج ثم يظهر كل أسبوع، ثم كل شهر، ثم كل شهرين أو ثلاثة. وكانت تربطه علاقة صداقة مع راشد ياسين، كنت أنا سببها. يتحدثان يوميًّا بالهاتف. ياسمين أيضًا عرفت راشد (حَبّة المِسك) عن طريقي، ولحد الآن تراسله. أصبح صديقنا المشترك. مَرّت المرحلة الأولى من دراسة إدارة الأعمال بنجاح وكنت أسافر لأهلي أثناء العطل.

في أواخر السنة الدراسية، تعرفت على يوسف الحلاوي، شاب رائع من بابل. كان في الصف الرابع "هندسة". قبل هذا أشير إلى أنني لم أكن على علم باتصالات راشد وبحرالدين، اكتشفتها لاحقًا بعد أن عرفت يوسف الحلاوي؛ أبيض الوجه ومثقف. تعرفنا على بعضنا صدفة. البداية صداقة وحسب. كان يوسف وسيمًا وقصيرًا، ناعمًا ورقيقًا. الشباب يتحرشون به أكثر مما يتحرشون بي، وهو يخجل. ذات مرة حاول سائق تاكسي معه بكل السبل بعد أن كان يغمز له في المرآة، تغزّل به أمامي، فاحمرَّ يوسف خجَلًا، وبصعوبة قال له: توقف هنا. نزلنا ولم يتكلم بعدها إلى أن شربنا ماءً وشايًا في أقرب مقهى. بالطبع تكلم عن مواضيع أخرى لا علاقة لها بالذي حدث في التاكسي. كان أخوه شيوعيًّا وعنده الكثير من الكتب مخبأة في سرداب البيت. يجلب لي كتابًا منها كل يومين. قرأنا معًا ناظم حكمت ومظفر النواب وبابلو نيرودا وسعدي يوسف ورافائيل ألبرتي وسمعنا كل الأغاني العراقية القديمة.



بالأمس سألني البائع الهندي:ـ كيف حالك يا سيدة عبود؟

فقلت له بعفوية بما كنت أحس به:ـ تعبانة مثل إسبانيا وحزينة مثل العراق.

ففغر فاه بدهشة وقال:ـ أوه، هذا جواب عظيم.

صمت قليلًا ثم قال بنوع من المزاح، ربما بقصد تغيير الشعور بهمي:ـ وماذا عن الهند؟

فقلت: ومثل الهند؛ مفعمة بالتناقضات والأسرار ومزيج الأساطير والمعتقدات والروائح والأطعمة والتواريخ والأمراض والسحر والغموض و....

حتى قاطعني ضاحكًا:

– يكفي يكفي، ربنا يساعد من يعيش في دواخلك إذًا، فأنا هندي وأتيه في الهند، فكيف إذا اجتمع العراق والهند وإسبانيا معًا!.

وضحكنا حتى نسيت للحظة ما الذي جئت لأشتريه منه.

اكتب لي، فأنت حتمًا، ومهما يكن ظرفك، تملك الحرية والوقت أكثر مني. أنا بحاجة إلى أية كلمة منك، إلى أية إشارة.. وبي عطش عتيق إليك. آه.. لو تعرف كم أنا حزينة!. بمستطاعك تلمُّس حزني على الرغم من هذه المسافة العائمة بيننا. إنني أهدر وقتي وأيامي فيما كل الآخرين من حولي يتقاسمون هذه الهيام دون أن يكون لي نصيب منها. أعيد قراءة كلمات حسن مطلك التي يقول فيها:

"نفس المساء. السبت. يصلح للبكاء.

لو هدأتُ قليلًا لأخذتني الفكرة إلى نفسي.

إنني أتجنب هذا الصِدام منذ زمن، حسبتُ أني نسيتُ فكرة العدم وأورام الضمير ولحظات المواجهة. قررت أن أستيقظ فالوقت قصير، وقد ذهب الجميع إلى النوم. إنني أتعرض لمؤامرة كبيرة تحت خدعة التطمين، وأنا منكس الرأس بين الأثاث. سأخوض بعد أيام قليلة معركة التأمل، عندها، أعرف أنني لن أرحم نفسي. سأجهّز السلاح الكافي من الكلمات لصد هجوم الأفكار، أو احتواء هذا الهجوم.

يجب أن أنتزع قميص الراحة، وأضع نفسي في حرارة التجربة، فلم أعد أحتمل هذا الهدوء".

آه يا حسن.. نعم "يجب أن أنتزع قميص الراحة، وأضع نفسي في حرارة التجربة". أحسدك لأنك تستطيع أن تقرأ وتكتب كما تشاء، وأحسدك لأن هذه المسألة أولوية عندك.. أما أنا، فيا حسرتي على ذلك؟ والمصيبة، أحس بأن لدي طاقة كبيرة لا أعرف كيف أوظفها. ليكن البريد الذي تفتحه لي فقط، فيما لو أُوحي إليك بالفكرة نفسها. لك أصدقاء كثر، لأكن مميزة عنهم ولو قليلًا. يدي أفضل اليوم ولن تتشوه والحمد لله. أتمنى أن أهدي لك فرحًا بالقدر نفسه الذي أدخَلته على حياتي. وأن نواصل حياتنا حتى نواصل حلمنا معًا.

لماذا بعثت لك صور أولادي؟.. لا أدري بالضبط.. ربما كي أقول لك بأننا لسنا نحن الذين نختار ظروفنا ومن الصعب تغييرها الآن، وخاصة إذا كان الأمر متعلقًا بأطفال لا ذنب لهم و لم يسيئوا النا بشيء.

أسهر طويلًا في الليل وأنا مستلقية على ذراعك ونحكي، أتذمر من السيجارة لأنها تأخذ شفتيك أكثر مني. أحبك. صدقني. مرّات أقول: من الأفضل ألا أراه. فيما أدرك بأنني سوف أُجَن بك أكثر.



أُصَبِّحُ عليك بقبلة طولها سنة ولا مانع لدي من أن أعلّمك إياها..

"ما القُبلة؟ هي أن نَلعق اللَّهب لعقًا" كما يقول فكتور هوغو.

أول شيء أفعله صباحًا، هو قراءة رسائلك.. أمس، صوتك أعطاني عمرًا جديدًا.. لا أدري كيف أقول شكرًا بحيث تفي عما في داخلي من امتنان لك.. ودائما أعاتب ربي، وأنا أعرف بأنه يستمع إليّ.. هل نحن مراهقان من جديد؟.. أحبك حسن.. كل قبلاتك وصلت. مرحبًا حبيبي.. وقبلة صباحية تليق برجل نبيل مثلك.

اليوم كله لك لأن الأولاد في بيت عمتهم. أستطيع الكتابة لك براحتي.. وأشتهي لحسٍ كل عذوبتك التي لا أعرف من أين لك إياها. سوف أبدأ معك من تعلّقي الغريب بالقُبل. أولًا: كنت أتحسس رُقي الحبيب من قبلاته. ثانيًا: إن بإمكاني الوصول إلى لحظة النشوة لمجرد تخيل قُبلة. ثالثًا: لا أطيق تقبيل زوجي، أُصاب بالغثيان حد القيء إذا قَبلني أحيانًا؛ لذلك أصبحت لديه رَدة فعل وكَف عن تقبيلي.. رابعًا: أعتقد أن القُبل تحتاج إلى قدر وافٍ من المشاعر والثقافة. خامسًا: للقُبلة أنواع لا تُحصى، ومنها مثلاً؛قُبلة الرأس؛ تبجيل، قُبلة الخَد؛ صداقة، قُبلة اليد؛ ولاء، قُبلة الأنف؛ حنان، قُبلة الشفاه؛ حُب، قُبلة الرقبة؛ اشتهاء، قُبلة الأذن؛ شَغف، قُبلة الأصابع؛ رِقة، قُبلة القَدم؛ اعتذار، قُبلة الساق؛ عشق.. أما قُبلة المؤخرة؛ فهذه لا أعرف ما هي وأترك تصنيفها لك. سادسًا: أتعجب من الذين يستأجرون القحاب وأتساءل: هل يقبلونهن؟. سابعًا: لحد الآن أحفظ وصف القبلة في قصة فرنسية عنوانها (ذو الأنف الكبير). وثامنًا وتاسعًا وعاشرًا و.. أتمنى أكثر من أي شيء آخر، أن أُقبّلك. أبوسَك. لحظتها سأتمكن

من الوصول إلى روحك؟. أنت صرت رائعًا، ومثلي تقريبًا... كلما أحببت أشعر وكأنني أُحب للمرة الأولى. أكون شبه مجردة من أية خبرة سابقة وأتخبط بأفعالي، أحب بكل طاقتي، لا أدخر ولا أؤجل شيئًا.. وهكذا، بكل بساطة، أكون أنا نفسي وحسب. وإن راودتني بعض المخاوف فهي من خشيتي ألا أحتمل صدمات إضافية، ولِكن، في الحقيقة لم يصدمني أحد.. وإنما أنا مَن صدمتُ نفسي و لم أُحسن التصرف. أدرك بأنك إنسان متخم بالإنسانية، وتحاول إسعاد الذين معك.. بحيث وصلت إليّ إشعاعات السعادة وذبذباتها.

بالمناسبة، كأن علاقتي مع زوجي بدأت تتحسن بعد أن رفعت شعار (طُز بالدنيا) الذي التقطته من إحدى رسائلك.. لا أبحث عن متعة جسدية فقط.. ما فائدة الجسد إن لم يكن بابًا واسعًا لبهجة الروح وسكينتها وصفائها. أحيانًا، أكاد أتحسس لمساتك، أشم رائحتك وأحس بثقل جسمك فوقي. عندي قابلية غريبة على الحلم بفضل الكبت الذي عانيته.. قوة الخيال ضد الجاذبية الأرضية، قوة تمدني بصعقة مثل الكهرباء. وأنت؛ كيف عرفت بأنني صرت أجمل؟

هل لاحظت ما الذي يفعله سحر الكلمة؟ كي تصدقني حين **أقول** بأنني أعيش على الكلمات...

لا أدري إن كنت ستقرأ رسائلي هذا المساء أم لا؟ أتمنى لك سهرة سعيدة ولا تنسَ بأنني أجيد الرقص الشرقي بعدة من أشكاله الجميلة، سأرقصها لك وحدك، شبه عارية ذات ليالي قادمة.



أكملُ الفيلم كي أكون معك أنا نفسي. في مكالمتنا الأخيرة،

شعرت وأنا أتحدث معك بأنني كنت أراني، وفكرت بأن ذلك يصلح مدخلًا لقصيدة ربما أو قصة... والآن، إذا كنت قد رويت مرحلة ما قبل زواجي برسائل قليلة، فكيف سأنهي الكابوس الذي أنا فيه منذ أكثر من عقد من الزمان!

يوسف الحلاوي كان شيوعيًا، وأخوه الأكبر سجينًا، ثم مطاردًا بعد أن هرب من السجن. تعرفت على يوسف في نهاية الصف الأول بالكلية، في الامتحانات النهائية. كان يدرس في كلية في (الكرمة) وأنا في (باب الزبير). نلتقي عصرًا في حدائق الجامعة، ونقضي ساعتين أو ثلاثًا، ثم نسير حتى القسم الداخلي. كانت أقسام الطالبات مقابل أقسام الطلاب. صباحًا نلقي التحية على بعضنا ثم يذهب كل مِنا باتجاه. في نهاية السنة سافرت، وبلا سابق موعد، رأيته في المطار يودعني بنظراته فقط؛ لأن أبناء عمتي كانوا برفقتي، نظراته تلك يصعب نسيانها. كانت اعترافًا صريحًا بالحُب.

يوسف فقير الحال، يعمل أبوه صبّاغًا للسجاجيد والملابس والجلود وغيرها، لديه مصبغة صغيرة في سوق الحِلّة القديم، لاحقًا فاجأناه بزيارة إلى هذا المحل أنا وياسمين، رجل نحيف، محني الظَهر والرأس دائمًا على عمله وذراعاه غائصتان في أواني الأصباغ. نظراته الطيبة الخجولة الكسيرة.. كأنها تعبير عن هربه من شيء ما. كنت أرجع من الرياض وحقائبي محملة بالملابس والعطور والهدايا، وكان يرفض تقبل أية هدية مني. في المرحلة الثانية لي، والأخيرة ليوسف، تعزّزت علاقتنا أكثر. كانت تجربة حلوة. سافرنا كثيرًا تخلّصًا من البصرة وبيت العمة، ذهبنا إلى العمارة والنجف وكربلاء وغيرها. نقضي النهار ونرجع عند الغروب قبل إغلاق أبواب القسم الداخلي،

كنت أحرص على المواعيد لأن تقرير دخولي وخروجي سيذهب إلى عمتي عن طريق زوجها مدير القسم.

معه حققت حلمي بزيارة البيت القديم لجدي الذئب في حي الذَهَب على أطراف سامراء، وجدت هناك عائلة لا تعرف عنه شيئًا، استخدمَت البيت الطيني زريبة لبهائمها بعد أن بنَت جواره بيتًا إسمنتيًا حديثًا، وزرت بيت هجرة جدتي في بعقوبة فلم أعثر على أثر لتنّورها الذي طالما أكلت من خبزه عوائل البلدة، فرُحت أتجول مع يوسف على حواف السواقي والبساتين القريبة متخيلة فيها طفولة أبي، عزلاته وأحلامه، وعزمت في نفسي أن آتي برفقة أبي إلى هنا مستقبلًا كي يريني بنفسه الأماكن التي طالما حدثني عنها برومانسية.

مع يوسف عرفت أغلب الجنوب العراقي والكثير من الكتب. زرنا معًا آثار أور وبابل والسماوة والقرنة وكل مكان بمستطاعنا زيارته. كنا نغرق بقبل طويلة لذيذة ولمسات خجولة منه، أكثر خجلًا مني، ولأني ذئبة حفيدة ذِئب ولا أستحي من أحد؛ عرف الجميع بعلاقتي بيوسف، بدءًا من الزِملاء إلى أهلي إلى الأقارب إلى صديقي راشد الذي أخبر بحرالدين هاتفيًا، لذا فوجئت، ذات يوم، ببحرالدين أمامي:

– مساء الخير.

– أهلًا يا طير.

طلبت منه أن ينتهي كل شيء لأنه لا وجود لشيء بيني وبينه أصلًا. لا أعرفه ولا أعرف عنوانه ولا أيًا من تفاصيل حياته. ضحك كثيرًا وقال بأنه على يقين من أنني لن أتزوج ابن الصباغ. ولحد الآن لا أدري من أين أتى هذا الغراب الغريب بهذا اليقين!. اعترفَ أنه يحبني بجنون ولكنني أجننه أكثر بتقلباتي وعلاقاتي، وأنه يريد الزواج بي.

تجادلنا طويلًا ونحن وقوف تحت ثلاث نخلات على ضفة شط العرب. هو يصر على حُبه والزواج وأنا أصر على رفضي وأحاول إقناعه بالعكس، حتى صرخ في النهاية وهو في أوج غضبه متلعثمًا بالتعبير: حُبّي.. أنتِ قبيلة مجانين. ثم صمتَ قليلًا، دلّى رأسه الكبير على صدره وأضاف بغصة حزينة: مِثل العراق.

فأخذته احتضانًا بقوة وحنان. شعرت بأنه قد عبّر عني ووصفني بشكل هائل. ثم افترقنا متفقين على أن نبقى أصدقاء مثل ما كنا دائمًا، وبقينا أصدقاء فعلًا، بلا أية ضغينة. لكن يوسف لم يكن صادقًا ونقي القلب تمامًا كما توهمت.

أنهيت الصف الثاني وذهبت لزيارة أهلي في الرياض. اتفقت معه على مفاتحتهم بأنه يريد التقدم لخطبتي. قبلها طبعًا، كنت أتذمر وأطلب منه أن نذهب إلى بيت أو أي مكان يدارينا بلا مخافة أن يرانا أحد، أو على الأقل فلنُشرعِن علاقتنا. وكان يجيبني بقصيدة بول إيلوار (أحبك من أجل الحُب). يقول إنه لا يليق بنا أن ندخل أي مكان ويعرضني للإحراج، وكان يهدئني، أو بالأصح، يخدعني ببعضِ القُبل. لم يكنْ يوسف بوّاسًا ساخنًا، فكنت أتعلم به البوس أفضل ثم أُعلمه. بالطبع، أمي وأبي رفضا رفضًا تامًّا هذه الخطوبة من شيوعي، وشقيقه هارب، من السجن، قائلين بأن الخطبة ستفشل وخاصة أنه الأصغر بين إخوته العازبين. أين سيُسكنكِ؟ من أين سيطعمك ويكسوك؟ وكم سيشتري لك من الذَهب مَهرًا؟ ما الذي يضمن عدم تعرضك للأذى بسبب توجهاته وتوجهات عائلته السياسية؟ ومزيد من هذه التبريرات التعبانة... اقترحت على يوسف أن نهرب ونتزوج دون رضاهم، فوجدته يتهرب، معربًا لي عن خطورة ذلك؛ كون والديّ واصلين

في الحكومة وحزبها، فيما عائلته مراقَبة من قِبل الأجهزة الأمنية. كان يقنعني بالتصبر، وبعد تخرجه سيق لأداء الخدمة العسكرية في صنف الهندسة وظل يزورني كل أسبوعين. المهم، عدت مع أهلي في العطلة إلى بغداد.

حبيبي، أعتذر منك الآن فلابد أن أطبخ وأستحم بعد ليلة الأمس مع طيفك. ظَهرك أعجبني كثيرًا وأغرقته بقبلات لم تنته إلى أن نعست ونمت.

.. انتظرني.



صباح الخير يا قلبي.

البارحة.. الشيء نفسه.. ولا أدري من أين هطلتَ عليّ؟.

سابقًا، عندما لا يكون لديّ أحد في الواقع أو في ذهني، أستدعي بطلًا لأحلامي ريتشارد جير الممثل الأميركي الذي أحبه، وخاصة في أفلامه التي يعزف فيها موسيقى. ثم تخليت عنه بعد أن تبينت بأنه لا يقرأ وأن لديه مواقف وآراء وتصريحات سياسية ساذجة وسخيفة، استبدلته بجورج كلوني. أما الآن فأنت بطل هذه الأحلام المُطلَق.. ويروق لي أنك تعرف كيف تدلعني...

أعيش مع إنسان منذ أكثر من عشرة أعوام، ربما صاروا ثلاثة عشر، لا أريد عَدّهم حتى، وعندي منه ثلاثة أولاد، لا أدري كيف صاروا، ومع ذلك نحن غير متشاركين. لذا أتساءل: كيف نقدر أن نتشارك أنت وأنا بهذه البساطة؟ مشتاقة وأعترف بأنني أحبك، وجودك

الفيزيائي بالنسبة لي لا يهم كثيرًا الآن، وجودك اللغوي ومن خلال الكلمات هو المهم.. أوكي حبيبي؟.

حسنًا، إذا كنت تريد أن تعرف فيما إذا كان يوسف حبًا حقيقيًا أم لا، فهو لم يكن كذلك، لسبب أعتقد بأنه صحيح، وهو أن المشاعر الحقيقية تفرض نفسها على الآخرين وتنسج العالم. ليس من عادتي نسيان ماضيّ الذي كان "لكن كل من أحببتُ قبلك لم يحبوني"، وإذا كان كولن ولسن قد خرّب علاقتي بعدنان فالحرب خرّبت علاقتي بيوسف. إنني أتحدث الآن كي أراني، وأعترف بأن رفقة يوسف كانت جميلة، مثيرة ومثرية. نقضي ساعات نقرأ في السيارات وفي الحدائق، وساعات في مناقشات فكرية، وأخرى سوفسطائية غير مجدية، لا رأس لها ولا أطراف، ثم نضحك على أنفسنا. ولكنني كنت محكومة بالقسم الداخلي وبأولاد العمة. انتسب يوسف بعدها إلى التصنيع العسكري لأجلي؛ كي يكسب المزيد من المال والحماية لنفسه ولعائلته. وكان يأتي بين أسبوع وآخر في الخميس والجمعة، ولكنه ظل يؤجل مسألة التفكير بالزواج إلى أن اندلعت الحرب فاختفى وانقطعت عني أخباره.

لاحقًا، وفي حديث حميم مع ياسمين بشأنه، وكنوع من محاولاتها إقناعي بعدم المعاناة ونسيان الأمر؛ أخبرتني بأن الكثير من الزملاء الذين تعرفهم في الجامعة يتهامسون ولديهم شكوك بأن يوسف ربما يكون مثليًا جنسيًا. تذكرني بانكسار نظرات والده، وتفسر تردده بالزواج بأنه ربما لم يكن متأكدًا من جِنسه، أو ربما كان يتخذني غطاءً اجتماعيًا. وكانت تدلل لي على مثليته بأمثلة من تفاصيل علاقتنا التي كنت أحكيها لها.

بيني وبينك، شخصيًا، ربما ما كان هذا الأمر ليهمني كثيرًا لو أن يوسف كان صريحًا معي، فما بيني وبينه أكثر بكثير من مجرد الهوية الجنسية. بل وربما لكان الأمر فرصة لي لأمارس ذنبيتي الخفية عَلنًا. أكاد أراك تبتسم.

بعد الطامة الكبرى في حرب الكويت، عاد أبي بمفرده إلى الرياض مؤقتًا، في مهمة تتعلق بالسفارة هناك، ثم انتقل إلى قَطَر. بالمناسبة، لماذا أتحدث لك عن يوسف وغيره؟.. لماذا لا أتحدث عن مشاهداتي الانفجارية وتجاربي الحربية مثلًا؟!. هذه الحرب هزت حياتي وغيرت مسار تجاربي وحكاياتي إلى يومنا هذا. وسترى بنفسك.

كيف وصلت إليك؟ وكيف أصبحتَ أنت تشعر بي إلى هذه الدرجة؟ كأنك تعرفني منذ زمن بعيد.. صرت أعيش حياة موازية بكل تفاصيلها معك.. بحيث وفي اللحظة نفسها التي كتبت لي فيها بأنك تفكر بي، في الساعة الرابعة والنصف، كنت أحلم بك.. أتدري بم حلمت؟ أو أفضل ألا أخبرك بهذا الحلم كي لا تفسره على أنه تخطيط مني لشيء ما... كلماتك معي وصوتك الذي يملأ عليّ الدنيا هم أثمن من كل كنوزها.. والحاضر الذي أعيشه معك، رغم البُعد، أحلى من كل ارتباط سخيف. في يوم ما ستعرفان أنت والحُب مَن أكون. بل إن الحُب قد عَرف من أكون عندما ظَهَرتَ أنت في حياتي نابعًا من لب أعماقي.

رجائي العميق منك، هو ألا تضعني في خانة النساء العاديات ولا بأية خانة، ولا حتى تُشبهني بواحدة من معارفك أو صديقاتك. لا أقول بأني الأكثر جمالًا أو أنوثة، وإن كنت كذلك فعلًا، فقط أقول بأنني الأكثر وعيًا وصدقًا وبراءة وحلمًا.. لذا؛ فادخل معي كلك في

هذا الحلم وانْسَبْ كماء الفراتين العذب، مسافرًا من شمال الوطن كي تدفئني مثل بساتين نخيل الجنوب. اكتب لي كل شيء، أتوق لمعرفة كل شيء ولرؤية كل شيء لأنني حفيدة جلجامش، وريثته أو نسخته الأنثوية التي تأخر ظهورها؛ لذا أريد حقي بالتساوي معه، وأن تُكتَب ملحمة عظيمة باسمي، مبتدئة بما ابتدئت به ملحمته: هي التي رأت كل شيء؛ لتمنح حبيبها كل شيء، فغنّي بذِكرها يا بلادي.

صدقني يا حسن، إن أكثر شيء سوف أطلبه منك هو المشاركة. أخشى من شيخوخة تقترب دون أن يكون لي فيها أنيس حقيقي، حين تتعطل متعة الجسد ولا تبقى سوى متعة التأمل والحديث والذكريات. جلجامش الذَكر كان أنانيًا بالذهاب وحده بحثًا عن نبتة الخلود، أما جلجامش الأنثى فإنها تريد المشاركة... تُرى هل استطعت أن أوضح الصورة أم أنها لا زالت مشوشة؟

أرجوك، لا تكرر عليّ بعد الآن عبارة: "لا تنتظري مني شيئاً". لقد فهمت طبعاً.. فهل أنا حمارة؟

أنت تعرف كم أنا ذكية ومثابرة وواعية.. بل وحتى أكثر مما تتصور.

لحظة، أنا لا أمشط شعري يا حسن، والشَعر الذي رأيته في الصور هو ذاته حين أصحو من النوم. ثم أنني أستحق أن تفعل من أجلي كما تفعل ياسمين؛ تركب طائرة وتسافر لرؤيتي. ألم تقل لي: اعتبريني مثل ياسمين؟ لا أدري كم الساعة عندكم الآن. حاول ألا تتحرش بي كثيرًا هذه الليلة أيضًا ودعني أنام... تصبح على أمل.

- ٨ -

بَشعة الجميلة

أنا

نُشر المقال بعد أربعة أيام في ملحق صحيفة (الرأي) بعنوان: (أنتيجونا.. حضور النص وغياب المسرح). و لم أندم في حياتي على نص نشرته كندمي على نشر هذا المقال.

من بعض الذي قلته فيه: "ما الذي يدفعنا اليوم إلى مشاهدة تراجيديا ألفها سوفوكليس منذ ٤٤٢ ستة قبل الميلاد؟ وأعاد جين أونيل كتابتها مرة أخرى سنة ١٩٤٤، كما فعل ذلك جان كوكتو ثم جان أنوي وغيرهم؟ قرأناها وقرأنا عنها وأصبحت جزءًا من التاريخ العالمي، وجزءًا من رصيد ثقافتنا الشخصية؟ وبما أننا نتفق أن خلود النص هو أبلغ شهادة على نجاحه فلن نقف عند أنتيجونا كنص نُفلي معانيه ونطيل تقاطعاته وتصادم شخصياته وعمق أفكاره، فهذا أمر مفروغ منه. إذًا؛ فالذي يدفعنا للذهاب إلى المسرح بقصد مشاهدة أنتيجونا هو الكيفية الفنية في إعادة طرحها وفق رؤية عصرية جديدة، بتقنيات مسرحية متطورة ومستندة على موروث هائل من الخبرات والتجارِب المسرحية ونضج الوعي المسرحي، وعبر منظومات متعددة تشكّلها عناصر المسرح؛ من سينوغرافيا، وتمثيل، وملابس، وإضاءة، ومكياج،

ومؤثرات صوتية، وإيحاء، ورقص، وفضاء مسرحي، وغيرها.. من هنا ننطلق بسؤالنا: إلى أي مدى استطاع المخرج كرّومي فعل ذلك في معالجته الأخيرة للمسرحية؟.

ابتداءً؛ يمكن إجمال البناء العام للعرض بقيامه على ثلاثة أجزاء وثلاث وحدات مشهدية تمثلت بمشهد أول يقدم فيه الراوي شخصيات المسرحية بطريقة تدريسية مباشرة، مبالغ في تبسيطها، إلى الحد الذي يظهر فيه افتراض جهل تام بالمسرح والمسرحية عند المشاهدين، وينوّه إلى أن هؤلاء ممثلون، وأن ما سيقومون به أشبه بلعبة. وهذا تقديم لم يعد يثير الدهشة لأنه لم يعد جديدًا على نطاق المسرح، أو حتى الفنون الأخرى، حيث يتحدث الروائي في "الرواية الجديدة" عن مادية وآلية العملية الكتابية للرواية داخل الرواية ذاتها. المشهد الثاني، وهو مشهد طويل، يدور فيه حوار طويل بين أنتيجونا وكريون، ويكمن في هذا الحوار متن المسرحية، وثيمتها التي أُخذت من النص الأصلي بانتقائية قصدية مكثفة موفقة- الأمر الذي يجعل تقديم جوهر المسرحية بهذه الطريقة التي تقل فيها الحركة، ويضعف إشراك عناصر العرض المسرحي الأخرى، ليصبح المشهد مجرد قراءة عادية لحوار المسرحية، حيث يصغر دور الموسيقى وتغيب الشخصيات الأخرى، وتسكن حركة الأضواء لتقتصر على "بروجكتر" وحيد في إحدى الزوايا يتولى كشف الفضاء المسرحي -إن لم تكن القاعة برمتها- وهكذا يخلو المشهد من أي تصرف فني حيوي، وهنا يكاد يكون مقتل العرض، حيث يدب الملل والضيق إلى نفس المشاهد لطول الوحدة المشهدية الثانية في حين قد يعتقد المخرج أنه بهذا التوقف عن الاشتغال الفني سيتيح للمشاهدين التركيز على المعنى الفكري للمسرحية.

وقد ألمح هو في كلمته عن العمل إلى غايته بالوصول "إلى عرض مسرحي يقدم خطابًا ذا قصد ومعنى" وهذه مسألة تضر بالعمل المسرحي إذا ما جاءت على حسابه كأداة تعبير فنية لها خصائصها وخصوصيتها، ذلك أن المشاهد لو أراد المعنى الفكري للمسرحية بحد ذاته لما احتاج المجيء إلى المسرح، ولاكتفى بقراءتها وقراءة ما كتب عنها على امتداد قرون.. بل وإن عملية القراءة لغرض كهذا، سوف تتيح له قدرًا أكبر من التأمل والتحليل، ولكنه جاء يبحث عن الرؤية الجديدة عبر العملية المسرحية.. عبر فن المسرح قصدًا.

أما الوحدة المشهدية الثالثة، أو المشهد الثالث، فكان استكمالًا للمشهد الأول ولا يختلف عنه كثيرًا من حيث الحركة واستخدام الإضاءة والتجسيد، فإذا كان الأول للتمهيد؛ فإن الثالث للخاتمة، وهكذا فقد كرّس هذا البناء حضورَ النص وغياب المسرح، وهو أمر يكاد يحمل صفة التأخر في مسيرة المسرح إذا ما قيس وفق المعادلة المعاصرة التي تُرجّح المسرح بشتى عناصره مجتمعة على كفة النص لتحيل النص إلى مجرد عنصر واحد من عناصر المسرح التي تتزايد بفضل التطور، حتى وإن كان النص مجرد عنصر ارتكازيٍّ يقوم عليه تشييد الهيكل المسرحي، ولذلك نجد الآن الكثير من التجارب المسرحية التي تقوم على قصيدة أو على قصة قصيرة أو طُرفة أو حالة يومية عادية أو مقالة أو خبر في صحيفة وما إلى ذلك.. بل وأحيانًا بلا نص ناطق على الإطلاق كما هو الحال في مسرح الصورة والمسرح الصامت "البانتومايم". ويوضح المسرحي البولندي يوزيف شاينا هذا الأمر بقوله: "إن المسرح يبدأ حيث ينتهي الأدب، وهناك فرق بين الدراما الأدبية والمسرح. في المسرح أريد أن أحول الكلمات إلى صورة، والمسرح الحقيقي هو الحركة داخل هذه الصورة، لم أكن أبدًا المخرج

الذي يقدم أعمالًا أدبية.. حاولت دائمًا أن أخلق عروضًا لا يكتفي الإنسان بالاستماع إليها".

في عرض أنتيجونا الأخير كان الاستخدام السينوغرافي بسيطًا نسبة إلى اتساع الفضاء المسرحي، ولم تؤثث خشبة المسرح بأكثر من ثلاث قطع خشبية وهي: مقطعين واطئين من جذوع الأشجار والكرسي "العَرش" وعلى امتداد العرض لم يتم تحريك أي شيء من مكانه، ولسنا ممن يلجأون إلى التأويلات الإيهامية المحلقة والتبريرية لنُقلْ إن الاقتصار على استخدام الخشب فقط، يعني أن الخشب قد يكون عرشًا، وقد يكون سجنا، أو تابوتًا، فما أبعد تأويل كهذا عن ذهنية المشاهد، وخاصة إذا عجز مجمل العرض عن الإيحاء به، ثم لو أننا قد سلمنا بهذا التأويل، ألن يكون من السخرية أن نقول: أن الهواء أيضًا قد وضع عن قصد لأنه قد يحمل لقاح الأزهار، وقد يحمل غازات الأسلحة الكيميائية.. أما إذا كان الغرض من الاقتصار على تلك الخشبيات الثلاث هو الأخذ بشيء ما من وجهة نظر المسرح الفقير أو التبسيط، فكان على العنصر الآخر، الذي يعتبر أهم العناصر في منظومة العمل المسرحي.. ألا وهو التمثيل، أن يقوم بالتعويض عن ذلك الفقر أو يغنيه بالحركة والاستخدام، وهذا ما يؤكده المخرج المعروف جواد الأسدي بقوله:"إن الاعتماد الجوهري في فضاء المسرح الفقير والبسيط هو على الممثل، فمن الممثل يطلع المكان وتطلع الأضواء، وبه يتم تغيير معجم العلاقة بين العرض والمكان، ولهذا فإن وظيفة الإخراج والتمثيل تندمج هنا لتحديد مفهوم المكان الجديد"، ولكن الذي لوحظ في عنصر تمثيل مسرحية أنتيجونا هو طريقة الإلقاء المدرسية للكلمة والتشابه الكبير في درجة الإيقاع الصوتي وطريقة الأداء بشكل لا يميز كثيرًا بين الطلاب أحدهم عن الآخر، رغم التمايز

الكبير بين الشخصيات الأصلية في النص، حيث ساد نمط الفهم الأكاديمي لفحوى التمثيل على امتداد العرض، وبدا التوتر واضحًا في مجمل حركاتهم، فيما يفترض أن يسعى كل ممثل لتفجير طاقاته وملء الشخصية التي يمثلها إلى حد الذهاب في التجسيد والتنافس إلى كسب التمحور، أو لتقوم كل شخصية وكأنها مسرحية لحالها.

وفيما يتعلق بالعناصر الأخرى فإن الملابس كانت موفّقة، وهي توحد سائر الشخصياتعدا أنتيجونا طبعًافي ارتدائها للمعطف العسكري، وهذا ما ينسجم وجوهر فكرة النص التي تناقش مسألة وضعية "القانون" وطبيعة المعطيات الأخرى في علاقاتها معه وفهمها له ومبررات التصادم به، هذا وقد كانت الإضاءة هي من أروع العناصر في هذا العمل، حيث أبدع المخرج في خلق مشاهد تشكيلية مدهشة عبر استخداماته الذكية للضوء، ومن ذلك ابتداء العرض بنقطة ضوئية تتسع تدريجيًا، كأنما يصور لنا نشأة الكون، ثم مشهد الأشباح على خلفية المسرح، وكذلك دخول "البروجكترات" محمولة إلى ساحة العرض؛ الأمر الذي جعل حضورها بهذه الكيفية الصريحة أفضل بكثير من استخدام الراوي، بهدف الدلالة على صناعة العمل الفني، وكسر استجابة الاستسلام لتواصلية تجسده المستقلة، يضاف إلى ذلك استثمار "البروجكتر" المرمي على الأرضية للاستعاضة عن البئر والحفرة، أو الزنزانة، فيطل الممثل على ضوئه، ويصف ما يحدث في الأسفل "الداخل"، وهذا من الاستخدامات الجريئة النادرة في عملية التجريب الحداثوي، حيث يتم استخدام النقيض للدلالة؛ ذلك أن البئر يعني الظلام، فيما نجده هنا نورًا يتدفق؛ الأمر الذي يفتح أفق التأويلات التي قد تصل إلى المستوى الشعري، كأن نصف هذا الطالع من البئر هو نور روح أنتيجونا وهي تدفع حياتها ثمنًا لحرية

اختيارها وإلى ما هو أبعد من ذلك، كما رافق تلك الاستخدامات الضوئية الجمالية البارعة دقة التعامل مع اللون الضوئي بشكل وظيفي يخدم المشهد... فيما ظلت الموسيقى أقل تأثيرًا لعدم تلاؤم اختيارها وطبيعة العمل ككل، ابتداءً بالمعنى وانتهاءً بكيفية توزيعها، فهي ترتفع في لحظات الهدوء وتهدأ في لحظات الاحتدام؛ أي على العكس من طبيعة توظيف الموسيقى التصويرية، فجاءت وكأنها مكرسة للترقيع.

وفي النهاية، فإننا إذا ما أردنا الحكم على العمل بمجمله، فلا مناص من أن نلجأ إلى مسميات المسرح العديدة التي أطلقها النقد المسرحي عبر تاريخه الطويل، فقال عن المسرح الساعي لجمع المال "مسرح تجاري"، وعن الساعي إلى التجديد "مسرح طليعي"، وعن الساعي إلى التعبئة "مسرح إيديولوجي"، وهكذا. فكان هناك المسرح الجاد والشعبي والتحريضي والتجريبي وغيرها، وبما أن تجربة أنتيجونا هذه قد أظهرت قدرًا كبيرًا من التعليمية في طرحها وفي كيفية عرضها وتجسيدها، وحتى في طبيعة البيئة التي نتجت عنها وقُدمت فيها، فسوف يكون من المنطقي أن نصنفها من المسرح الأكاديمي والمدرسي التعليمي، وقد بدا واضحًا ثقل العبء الطلابيالبسيط بإمكاناته، المتواضع بقدراتهعلى تقييد أو إعاقة الانطلاق للقدرة الإبداعية الخلاقة التي يُعرف بها الدكتور كرّومي كمخرج عربي متميز، ونحن نتوجس من أن هذه المعادلة ستستنزف جهده وطاقته ووقته، علمًا بأنه قد أثبت فيها أنه مخرج ومعلم أكاديمي كبير مثلما أثبت من قبل بأنه مخرج إبداعي كبير عبر أعمال رائعة ستظل علامات مضيئة في مسيرة المسرح العراقي بشكل خاص، والعربي بشكل عام. ومنها مسرحياته: "صراخ الصمت الأخرس"، "الإنسان الطيب"، "ترنيمة الكرسي الهزاز" و"بير وشناشيل" التي لم تأخذ حقها الكافي من الإعلام وغيرها.. تلك

الأعمال الإبداعية الخالدة التي سيكون من التعسف ومن الصعب، إن لم يكن من الاستحالة مقاربتها ومقارنتها بعمل أكاديمي متواضع كأنتيجونا.

وفي كل الأحوال يبقى وجود هذا الفنان الكبير الدكتور كرّومي هو أكبر مكسب لقسم المسرح في جامعة اليرموك، بل وللحركة المسرحية الأردنية عمومًا؛ لما يتميز به هذا الرجل من حيوية غير عادية وغزارة في العطاء، ولما يجري في دمه من عشق أسطوري عجيب للمسرح."

جاءني ماهر في اليوم التالي وقال: لماذا كتبت على هذا النحو؟ أعتقد بأن الدكتور كرّومي قد أزعجه المقال، وأنه زعلان منك.

فاجأني قوله فسألته على الفور:- هل قال هو لكَ ذلك؟

- لا، لم يقله بشكل مباشر، ولكنه صديقي وأعرفه جيدًا.

- ولكنه هو الذي قال لي وبحضورك: اكتب رأيك بكل حرية ولن يزعجني!.

- نعم، ولكن ما كان يُفترض بك أن تكتب على هذا النحو و لم نكن نتوقع منك ذلك. أنت تعرف بأنه يواجه انتقادات عديدة لكونه لم يقدم عملًا مسرحيًا كبيرًا منذ أن جاء إلى الأردن، فيتهمه البعض بالنضوب أو بالتعالي على المسرح الأردني، أو بأن العمل الأكاديمي قد استهلكه، وما إلى ذلك من ثرثرات الأوساط الثقافية. وكان يعوّل على ما ستكتبه أنت وأصدقاء آخرون لصد هذه الأقاويل، لكنك خذلته. بل وزدت الطين بلة، فقد طعنت به حتى في المواضع التي بدوتَ تدافع فيها عنه وتمتدحه.



هي

صباح الخير حبيبي وبوسات من كل مكان.

لا زال الأولاد في البيت وهم يطالبون باللعب في الكومبيوتر كالعادة، لذلك فاعذرني اليوم أيضًا فيما لو قصّرت بالكتابة إليك، ولكن كن مطمئنًا، سرعان ما سيأتي الغد وسوف أحكي وأقرأ وأكتب لك حتى تمل مني.

أما الآن، أتمنى لو أكتب لك كل شيء وبشكل سريع، لكن الأشياء الصغيرة تجلب الغبطة الصافية. الذاكرة تنتقي، تقدم وتؤخر كما تشاء، وأنا أعذرها وأفهمها، فهي تجعل مشاهد قديمة بعينها أهم وأقرب من مشاهد ربما عشناها بالأمس. وجزء جوهري من حاجتي إليك هو كي تخففني من هذا الماضي. حسن مطلك يفهم ذلك، فكتب بِشأن حبيبته: "رميتُ عنها حمل الماضي... زرَعتها في الثقة مباشرة... قربتها إلى الأمان". فازرعني في الثقة وقرّبني إلى الأمان. لا فرق في أن أروي لك شيئًا قبل غيره. لا يهم الترتيب الزمني لما هو سابق، فكله مكدس ومخزون في كيس الماضي هذا، تمد الذاكرة يدها وتستخرج أي شيء تلامسه كفّها. أشعر بأنك أيضا كنت بحاجة إليّ.. أليس كذلك؟. أمس شغفني صوتك. صحوت في منتصف الليل و لم أستطع النوم بسببك أو بفضلك..

كنت تلاوعني ولكنني لم أقصر معك، قبلتك ولحستك حتى تحولتُ كلي إلى شفاه فقط. فكرت أن أتصل بك كي أشتغل الحب معك ولو بالهاتف. أضحك أحيانًا على نفسي لأنني تحولت إلى

مراهقة كبيرة. وكنت زعلانة منك بعض الشيء على الرغم من أنني لا أحب الزعل. حسن، وبحق السماء والخبز، كف عن قولك: لا تنتظري مني شيئًا.

أولًا: لقد وعيت هذه المسألة جيدًا. ثانيًا والأهم: أشعر بوجود عمر طويل بيني وبينك، ما كان وما سيكون، وليس لديّ مشكلة باختراع هذا العمر. ثالثًا: لا نعرف ما الذي تخبئه لنا هذه الدنيا. ورابعًا: لا أريد إدراك وتدارك هذه الكارثة التي تحدث معي الآن تجاهك.. أتقبّلها بلا مسمّيات، بلا تعريف.. وهذا أجمل ما في المسألة. الحب يولد من أي شيء وأحيانًا من اللاشيء نفسه.

في الحرب الثانية، أو التي لا أعرف تسلسلها، ولكنها حرب طرد العراق من الكويت.

كان والدي في قَطَر مع اثنين من الموظفين في السفارة، أمي وأختيّ قد رجعن من الدوحة وأنا في الكليّة، التزمتُ بالدوام حتى اليوم الأخير.. كأنني أكتشف الانضباط في الوقت الضائع!. فأنا طوال عمري غير منضبطة وأضجر من الالتزام. على الصعيد العاطفي لم يكن أحد ما فعليًا في حياتي. مررت بعدة علاقات، كانت لمجرد أن يرى الآخرين بأن عندي علاقة، وأنني مرغوبة، وفي الحقيقة لم يكن هذا الأمر يعني الكثير. بالطبع كان الجانب الإنساني موجودًا في هذه العلاقات ولكنه ليس عاطفيًا.

كنت مع ياسمين في آخر يوم دراسي، نضحك مع بعض الأصدقاء. خرجت هي إلى باب الكلية تشتري سجائر مفردة. تمشينا كثيرًا وخفنا أكثر، ضحكنا على مصطلحات الإعلام المحلي الساذج (الأصل والفرع) التي يُقصد بها العراق والكويت. كانت

الدنيا باردة وياسمين ترتدي ثوبًا بنفسجيًا أعجبت بلونه جدًّا لأنه غير مناسب للشتاء. عندما يضرب الهواء البارد وجهي أحس بألم في سني. على الساعة الخامسة عصرًا قلت لهم: أنا ذاهبة إلى البيت. كنا مع بحر الدين وصديق آخر اسمه وليد كشكول، عرفته قبلها بأيام في الجامعة. رجعنا أنا وياسمين إلى بغداد حيث بيتهم، وكنا نخطط للقاء بعد يومين.

لا أحد يعلم أن الحرب قد كانت أقرب إلينا من الصباح. أكملت سيري إلى بيتنا، وبدا لي الطريق طويلًا ومليئًا ببساتين الحاج والد زوجة الرئيس الذي لا أملُّ من شتمه كلما مررت بها. كانت أمي خائفة جدًّا لأن بيتنا قرب مصفى نفطي. لم نكن نتوقعها لذلك نمنا كل في غرفته.. ليتك ترى سريري ذاك!. فوقه رفوف مكتبة معلقة بالحائط كي يسهل سحب الكتب.

اندلعت الحرب. أمي تخاف كثيرًا؛ لذلك قررت أن نسافر إلى بيت خالتي في ميسان. أنا أرفض على طول الخط، فليس من اليسير عليّ مفارقة مكتبتي والأشياء الصغيرة، النباتات، الحديقة، المطبخ، الحمّام، السرير وكل شيء... طبعًا سافرنا.

بقينا ليومين في ميسان، كانت أسوأ من بغداد. تمنيت لو يكون توجهنا بعدها إلى الأهوار كما اقترح زوج خالتي، حيث تعيش أخته. الأهوار التي سمعت وقرأت عنها كثيرًا و لم أرها. كي أركب المشاحيف هناك، أسمع الغناء الصافي، أتذوق طعم الخبز المصنوع من الأرز أو السمك، أرى مخابئ الهاربين والمعارضين للحكومات في كل الأزمنة..لكن أمي قررت الذهاب إلى بيت أخوالها في أرياف الناصرية، شيوخ من البو صبرة كان منهم عبد الحميد الصبرة وزيرًا في

أولى حكومات الجمهورية. أجرنا سيارة بيك اب مع مئونة كاملة. أربع نساء سافرات، نرتدي ثيابًا عصرية، بنطلونات وقمصانًا.. ولك أن تتخيل ذلك في ريف (الغَرّاف).

وقف سائق البيك اب ببلدة (الغَرّاف) عندما علم بأن الطريق من بعدها سيكون طينيًّا، وربما يصعب السير فيه، فبقينا لأكثر من ساعة في الشارع وهو يحاول إيجاد حلًّا ويسأل الناس عن دروب أخرى تقود إلى الريف. تجمع العابرون حولنا لأنهم لم يروا من قبل شابّات بلا عباءات. كنا نشعر بحدة نظراتهم المشحونة بالدهشة والاشتهاء وهي تكاد تخترق ثيابنا في منطقتي الصدر والمؤخرة، فعاودنا الجلوس داخل السيارة، مكتفيات بالتطلع إلى المتطلّعين عبر نوافذها. عاد السائق حاملًا كيسًا كبيرًا من البرتقال وورقة رسم عليها علامات لسلوك درب ترابي آخر.

وصلنا بعد أكثر من نصف ساعة إلى القرية. كانت بضعة بيوت مبنية بمزيج من الطين والحجر، خرج منها كل قاطنيها حالما توقفت السيارة في الساحة، جاؤوا لرؤيتنا وكأننا هابطات من كوكب آخر. وأكثر ما لفت انتباهي، منذ اللحظات الأولى لنزولنا، هو أن أولادهم يخجلون من النظر إلينا، بينما البنات كن أكثر جرأة بنظرات مركزة تُفلي التفاصيل.. والمصيبة، ما كنا نعرف كيف نلبس الدشاديش! لذا بقينا ببناطيل الجينز أغلب فترة إقامتنا. كانت تلك تجربة فريدة لها طعم الطين ورائحة العشب وهمس الريح. وفيها كانت المرة الأولى والأخيرة التي استسلم فيها جسدي لغواية أنثى.



مرحبا عيني.

بالمناسبة، نحن العراقيين، الشعب الوحيد الذي يُخاطب الشخص المقابِل تَحببًا بكلمة: عيني أو عيوني. تُرى هل لذلك علاقة بكون حجم العيون عند السومريين كان مقياسًا للجمال والبصيرة؟ أم لأن العين أثمن الحواس؟ أم لأن الرؤية لا تكتمل أبدًا إلا بالآخر؟... آه، العين.. العين، إنها إحدى كبرى معجزات هذا الكون. ليس صدفة أو عبثًا أن يسمي حسن مطلك كتاباته الحُرة (العين إلى الداخل) قائلًا: "عندما تكون العين إلى الداخل، دومًا تعكس صورة العالم".

أنت عيني بكل المعاني، أنت في داخلي وعيني عليك. لقد جعلت يومي جميلًا لأننا ثرثرنا كثيرًا في الهاتف، وغنينا وضحكنا معًا، وإن كانت ثمة غصة بقيت على منتصفها. لا بأس، ربما هكذا أفضل. أنا أيضًا تعبت ولكنه تعب لذيذ؛ لذلك كنت فرحة بك وبتعبي معك. أدرك الآن بأنني لا أهدر مشاعري. فأنت تبادلني العاطفة ذاتها. هذا هو المهم وكل الباقي يأتي لأنه (باقي) أو قد لا يأتي، ليست مشكلة. حتى حين خرجت إلى الشارع للتسوق، وهو مشوار بسيط، كنتَ معي، أحكي معك، نمزح ونضحك.

أحبك يا حسن، لا تصدر حكمًا بالإعدام وتقول نكفُّ عن الهواتف. أعدك بتخفيفها وليس قطعها. أمامنا عطلة ثلاثة أسابيع؛ أي لا داعي للقرارات.. سيكون لك ما تريد. أحبك وأشتاق لك في كل لحظة.. أبوسك من كل مكان فيك.. وحتمًا سأتوقف في المنتصف.

ذهبت هذا الصباح مع زميلة برتغالية إلى فحص النظر لعمل عدسات لاصقة لكلينا. كان الجو جميلًا وأنا منتشية بك.. استعدت

رسائلك في الطريق فزادتني حبًّا وشوقًا.. أتمنى أشياء كثيرة معك أنت بالذات، من الآن كن على يقين مثل يقين وجودي وملامح وجهك. أن أكون معك أكثر مما أكون معي نفسي. إن حياتي معك، وإلا فهي بانتظارك، وإلا فهي بالحلم بك. ومهما يكن هذا البعد والحرمان قاسيًا، لكنه يربينا بشكل آخر ويعيننا على إعادة اكتشاف عواطفنا.

لا تخف، سوف أحميك حتى من تدفق مشاعري وضراوتها في بعض الأحيان. أعرف كل شيء وأحتاج أن تعرّفني أنت، أن تُفهمني ببعض الأمور التي لا أستوعبها تمامًا، ربما لأننا لم نلتق من قبل.. لا تشغل بالك حبيبي ولا أشغل نفسي، نحن هكذا مع بعضنا مستمتعين.. لم أطبخ لحد الآن وأنوي أن أعمل مرق باميا، وبلا شك سأتذكرك وأحاول أن آكل لك معي.. أحاول.. سأكمل لك الحكاية عندما أنتهي. سأرويها لك وسط رائحة طبخ عراقي يتنفسها البيت كله.



أول يوم مر علينا في الريف، وسأكمل بصيغة الأنا.. أوكي؟

كنت متجمدة في مكان واحد. لا أدري كيف أتحرك. محتارة. أين الحمّام وأين سأنام؟ كيف آكل بكفي؟ ومن أين أشرب الماء؟.. نساؤهم كن يقبلننا بطريقة غريبة، يأخذن الرأس بين الكفّين بقوة، يدرنه ويقصفن الخد بأفواههن، قبلاتهن تصدر أصواتًا عالية، كأنها مدافع قُبل، ولأنني أضعف أخواتي وأنعمهن كنت أكاد أسقط مترنحة إثر كل قبلة، وكانوا يفسرون نحافتي بكون أهلي يدللوني أكثر، وحسب فهمهم لمفهومهم الدلال في المُدن؛ ألا يكلف الوالدان الابن بأي

شيء، فيما مفهومهم للدلال هو أن يُكلَّف الابن بكل المهام، وكلما كانت أكثر مشقة وأكبر من عمره كانت مزيدًا من الدلال.

من بين الغرائب الكثيرة في هذه القرية المعزولة؛ اسمها الذي لم أستطع حفظه لطوله، إنه قصيدة كاملة تبدأ بـ: "أصل المصير" وتنتهي بـ:"من حَجَر إلى حَجَر"، وبعضهم يقلب مطلع تسميتها فيقول:"مصير الأصل........ من حَجَر إلى حَجر" وحين سألت زوج الخالة عن ذلك قال: كلاهما صحيح.

معاناة الحمّام، معضلة بحد ذاتها؛ لذا كلما وددنا أن نضحك نستذكرها، فلم تكن هناك حمّامات أصلًا وعلى من يريد قضاء حاجته أن يحمل إبريقًا نحاسيًّا مليئًا بالماء، ويسافر في الأدغال المحيطة بالقرية، وفي الدغل، حيث تعري مؤخرتك، ترى الجنادب والجرذان وأنواع الحشرات والسلاحف تمر قربك أو من تحت ساقيك وتتقافز حولك، فكنت أشاغل نفسي بالتركيز على الرسوم والرموز الغريبة المنقوشة يدويًّا على جوانب إبريق النحاس. أما محاولاتنا لتعلم ركوب الخيل فقد كانت مأساوية، وبالتالي تخلّينا عن ذلك لتعلم ركوب الحمير.

لكل بيت صالة ضيافة، بعضها بصالتين صيفية مبنية من قصب البردي وأخرى شتوية من مزيج الطين والصخور. بيوتهم منخفضة ونوافذها صغيرة جدًا، لا أسيجة بينها؛ وإنما هي مفتوحة على بعضها، ولتشابهها كنا نخطيء أحيانًا فندخل بيت الجيران، ولم يكن ذلك مشكلة لديهم لأن الجميع يدخل بيوت الجميع بلا استئذان. كل البيوت لكل القاطنين. أغلبية الشباب كانوا جنودًا، فلم يبق من الرجال سوى بضعة شيوخ؛ لذا كانت القرية مليئة بالنساء والبنات.

عند غروب اليوم الأول، قدمت إحدى بنات الجيران عائدة من الرعي. اسمها (بشعة) فيما هي آية من الجمال. ممشوقة القوام ولونها مُحمّر مُحَمَّص من لفح الشمس، هي التي ذبحت خروف الضيافة وطبخته. كانت بعمري تقريبا، غير متزوجة لأن الشباب يخشونها، وأبوها يحبها حد المفاخرة بها، يعتمد عليها ويستشيرها في كل شيء. قليلة الكلام، مدروسة الحركات، قوية، حيوية، وتسير مستقيمة كالرمح، مشيتها مزيج من الخشونة والدلال، لا تزال كلها محفورة في ذاكرتي، ولو كنت سحاقية لما أحببت غيرها على الإطلاق. كل شيء في جسدها ووجهها متناسق تمامًا، ملامحها مرسومة بوضوح؛ حواف الشفتين، الخدين، الحنك، الأصابع، الرموش الطويلة المقوّسة للأعلى تكحل عينيها، الحاجبان الكثان ثم العينين الواسعتين... آه يا حسن من عينيها! حين رمقتني بهما لأول مرة، شعرت بصعقة ارتعد لها بدني كله. كان ذلك قبل أن تنحني على الخروف المسدى تحتها، كل قائمتين من قوائمه تحت قدم من قدميها. استلت من حزامها سكينًا كبيرة، رمقتني ثم انحنت ساحبة بقبضتها الأخرى رأس الخروف من شعفته إلى الخلف... فغادرت أنا مسرعة.

أخبروني أن إحدى العجائز هي التي نصحت والدها بتسميتها اسمًا قبيحًا؛ علّ الموت لا يقترب منها، أو تبتعد عنها دهشة أعين الحاسدين الطاعنة حين يتأسفون على هذا الاسم لهذا الكائن، لأن جميع الذين أنجبهم كانوا بجمالها و لم يعش أي منهم أكثر من عام. بعضهم مات بعد أول ابتسامة ساحرة له، هي الوحيدة لوالديها، لذا علّمتها أمها كل ما تعرف من طبخ وتنظيف وخياطة ونسج وغناء ورقص ورعاية الحيوانات وكل ما يتعلق بمهام المرأة هنا، وكذلك فعل والدها، حيث علّمها كل ما يعرف من مهام الرجال من صيد ورعي

وفلاحة وبناء وحراسة وذبح وغيرها، لذا فهي الوحيدة التي تستطيع فعل كل ما تفعله امرأة وكل ما يفعله رجل.

رأيتها في الليل، بعد العشاء وقبل الانصراف للنوم. كانت تودعنا لتتجه إلى بيتهم المجاور. لها مهابة ملكة أسطورية طاغية يا حسن، لها سحر وهيبة آلهة قديمة. نظرت في عمق عينيّ تماماً لبرهة، فشعرت بقشعريرة تدب في جسدي وشهوة استسلام. لها نظرة ذئبية كنظرة جدي ذَهب في صورته. لم أتبين لون عينيها الواسعتين بالضبط، فبعد أن رأيتهما زرقاوين بحدة في المساء، رأيتهما ليلًا صفراوين حد الإضاءة. وددت لو أنها تفترسني. بقيت طوال تلك الليلة أتقلب محترقة على ذكرى جمرتي عينيها، وراودني الجنون للحظة؛ بأن أتسلل باحثة عن سريرها في الظلام وأنضوي في حضنها.

بعد ثلاثة أيام، خَفّت معاناة التفاصيل الصغيرة وصارت تشدني المشاهدة: الأبواب المصنوعة يدويًا من الخشب والنحاس، مساميرها والنقوش، البساتين والأودية والتلال على أطراف القرية، السواقي الملتوية بين النباتات، ذهاب وعودة الأغنام والأبقار والجواميس من الحقول، الدجاج والبط السائح في باحات البيوت، زرائب الحيوانات، البيادر وأكداس الحشائش، الأطفال اللاعبون في الطين وما يصنعونه من لُعَب لهم وعوالم كاملة، شروق الشمس وغروبها، الروائح، الأصوات، ملابس النساء التي ينسجن أغلبها بأنفسهن، العادات والتقاليد، الأغاني ومفردات لغتهم بالحديث، توحد البشر بالحيوانات وعموم الطبيعة، الفطرة، السلام البدائي... كنت مأخوذة بكل شيء.

شعرت بأنهم جميعًا مثقفون تقريبًا، فثمّة حكمة ما، ومنطق

في كل ما يقولون، ربما بفضل مجالسهم في المضايف ورفقة الصغار للشيوخ مبكرًا، ربما لديهم مدرسة خاصة. بناتهم مدللات أكثر منا بطريقة أخرى، ليس دلال لبس ومال، وإنما دلال حريّة فعلية في الرأي والتصرف والذهاب بعيدًا، بما فيها علاقاتهن مع الجنس الآخر، حرّة جدًا بحيث يمكن لهن اللقاء بأحبتهن في البساتين أو الدغل والأودية أو الخلاء أو في الزرائب ويمارسون الجنس، بشكل يبدو أن الجميع متفق أو متواطيء على سريته.

صرت أشعر وكأنني أعيش في عالم آخر، زمن آخر، فترة من إحدى الحضارات العراقية القديمة. وبالفعل كانت ثمة بقايا آثار هناك لأسوار وزقورات مندثرة. نسيت بغداد ونسيت نفسي أحيانًا. كانت الحرب بعيدة وأنا أتعلم ركوب الحمير والرعي مع البنات. بعد أسبوع صرت ألبس العباءة وأشد أطرافها على الخصر، بنطلون الجينز تحتها وجواريب طويلة للحماية من وخز الأشواك وقرصات الحشرات. في الصباحات الباكرة والمساءات المتأخرة أذهب بعيدًا مع إبريق النحاس دون خجل من أن يصادفني أحد. نوم مبكر بعد الجلوس الحميم في المضيف مع أفراد العائلة. كنت أسمي الرجل الكبير (خالو) وهو يطلق الدخان والحكايات من تحت شاربيه الكثين، متكئًا على وسادتين، مستفسرًا من كل فرد عما فعله اليوم، ومعطيًا أوامره لأفعال الغد. وإذا ما قدم ضيوف، ننتقل مع البنات للجلوس في صالة النساء أو في الغُرف. كن يعرفن ويصفن ملامح كل شباب القرية، من كان منهم فيها، أو أولئك الذين أخذتهم الخدمة العسكرية إلى جبهات القتال.

المُطَلَّقة منهن تتزوج ثانية وبسرعة. ما أتذكره دائمًا بأهمية، هو حياء عيون أولادهم من النظر إلينا مقابل تَفَرّس نظرات بناتهم بشكل

يبدو وقحًا، يتحارشن ببعضهن، ويتواعدن بينهن، أو يتحدثن عن مواعيد لهن مع الشباب في أماكن لا أدري أين هي بالضبط؛ لأن لها أسماءها الخاصة. هناك في أراضيهم؛ في الحقول والأودية المترعة بالدغل والحشرات.

تخيلني وأنا أحمل بيدي عصا طويلة، أهش بها على الأغنام. تعلمت إشاراتهم الصوتية مع الحيوانات، وكيف أركب حمارًا يحمل حزمة من حطب. كنا نتعارك مع بناتهم على مَن تركب هذا الحمار أو ذاك؟ ومن تمشي؟ كنت أحمل معي ديوان السياب فقط، أقرأ فيه وأستمتع بمذاق خبز الشعير والطماطم المقلية والبصل، وأحيانًا لحم وأرز، كما صرت أميز النباتات التي تؤكل عن غيرها. وهناك، فكرت بكتابة ديوان كامل مستوحى من تلك الأجواء، حتى أنني فكرت بعنوان له مستمد من اسم القرية ذاتها: "أصل المصير" أو "مِن حَجرٍ إلى حَجَر". وبالفعل دونت بعض القصائد القصيرة التي لا أدري أين أضعتها لاحقًا، أذكر من بينها قصيدة بعنوان "الدغل" ومطلعها "تعالي معي إلى الدغل... تعالي". أذكر هذا المطلع تحديدًا؛ لأنني طالما رددته مع نفسي، ولا زلت. وأذكر تمامًا كيف طرأ على ذهني لأول مرة ووجدت لساني يردده بإيقاع، كان تحت وطأة اشتهائي لبشعة بعد حادثة خلوتها بي.

ذات مساء، قبل غروب الشمس بساعة تقريبًا، كنت قد توغلت في الأدغال برفقة الإبريق النحاسي، وبعد أن انتهيت من قضاء حاجتي مستمعة إلى نقيق الضفادع في السواقي، وصرير الصراصير والجنادب بين الأحراش، ونداءات الرعاة على بهائمهم، عائدين بها إلى الزرائب. اغتسلت بماء الإبريق، وحال نهوضي وقد هممت

برفع لباسي الداخلي، وجدت بشعة تقف أمامي وترمقني بنظرتها الثاقبة تلك. أمر شبيه باصطياد الذئب للجن وتقييده بالنظرات. شُلّت يداي، تخشبتُ مكاني فيما نصفي الأسفل لازال عاريًا، أنزلَت نظرها إليه فرفعت لباسي والبنطلون معًا بعجالة.

دنت مني وسحبتني من ذراعي ثم أسندت ظهري على جذع نخلة قريبة. عيناها مركزتان في عينيّ وتقولان الكثير. وجهها أمام وجهي، نسمع تنفس بعضنا، وربما كانت تسمع حتى تسارع نبضات قلبي المضطربة. كنت بلا حمّالة أثداء تحت القميص لأنني نزعتها في البيت استعدادًا للاغتسال؛ ومن ثم النوم. دون أن تحوّل نظرتها عن عينيّ، مدت بنان إصبعها السبّابة وراحت تداعب حلمتي من فوق القميص، شهقت كمن يُسكب عليه ماء بارد في جو بارد، ثم الحلمة الأخرى برأس سبابتها الأخرى، فانتصبتا. كانت عيناها خضراوين بحدة هذه المرة. مصت سبابتيها ثم دست كفيها تحت قميصي وراحت تداعب الحلمتين، جِلد على جلد، ثم تفرك نهدي بكامل كفيها وتلتصق بي ضاغطة إياي على جذع النخلة. نظراتها تعرّيني، وشعرت ببنطلوني واللباس الداخلي يسقطان على الأرض، فأدارتني وراحت تمسد على إليَتيّ الناعمتين بكفيها الخشنتين؛ إنها تتعرف عليهما كأنهما اكتشاف، فيشتعل جسدي لذة. أدرت رأسي أستمتع بمنظرها مقرفصة خلفي وهي تداعب مؤخرتي وبعض أصابعها تمر من تحتي إلى أمامي، ثم نهضت وهي تواصل مسح ظهري، كتفيّ، والتفّت كفاها نحو نهديّ من جديد، فيما هي تتشمم رقبتي وتقبلني تحت أذني. كنت مستسلمة لها تمامًا، لهيمنتها، سيادتها، للذة هائلة وسط سحر الغروب الريفي. شعرت بجسدي يتحول إلى زبدة لن يؤثر فيها الضغط أو حتى الطعن فيما لو أُغمِد فيه سيفٌ. أدارتني مجددًا، وجهًا لوجه وأخذت كفي نحو

نهديها ففعلت بها ما فعلت بي. كان جسدها مذهلًا بجمعه لتناقضين هما الصلابة والليونة؛ نهدان طريان وقويان في الوقت نفسه. كان تنفسها يرتفع وهي تُمرر لسانها على شفتيها، لها شفتان مكتنزتان، بحواف مرسومة بشكل أخاذ، فرحتُ أقبلهما وهي تستشعر ما أفعل. أدركت بأنها لم تعرف تقبيل الشفاه على هذا النحو من قبل، فرحت أمارس امتيازي عليها بذلك وأعلمها. أغمضَت عينيها فيما جسدها يتلوى من داخله وتبدو متماسكة. كنت أستشعر تصاعد نشواتها من هذا التلوي واقفة، ومن تصاعد أنفاسها حد الحشرجات الذبيحة.. وفجأة قبضَت على شَعري بكفها، أنزلت رأسي تحت فستانها، دست وجهي بين فخذيها وسمعت صوتها لأول مرة وهي تأمرني: الحَسي.

كانت مبللة تمامًا، وساقها مثل ذراعيها مشعران بزغب خفيف، أعجبني، فراحت كفاي تمران عليهما صعودًا؛ لذا فأنا أحب الرجال الذين لديهم شَعر في الساقين والذراعين، أتمنى أن تكون أنت كذلك. عرفت لاحقًا أن من تقاليد القرية ألا تُزيل البنات العزباوات أي شَعر من أجسادهن إلا ابتداءً من ليلة العرس. ظلت قابضة على رأسي وهي تحركه.. كأنها تستخدم وجهي، تمسح به ما بين ساقيها. شعرت بها تجأر كلبوءة جريحة، وتدفَّق ماؤها غزيرًا وهي تشد شَعري.. تكاد تخلعه، ثم دفعتني وألقتني على الأرض، خلعَت فستانها الذي لم تكن ترتدي تحته شيئًا. خلعت كل ملابسي وتمددت فوقي تفترسني شمًّا وتقبيلًا ولمسًا، أفرجَت ما بين ساقي وراحت تلحس بقوة، فكنت أموء تحتها كقطة مُحاصَرَة، حتى اختضّ جسدي في ذروة شهوته وقذَف ماءه، عندها غطتني بجسدها محتضنة.. وبقينا على هذا الحال لدقائق طويلة.

كانت تلك تجربة هزتني ويستحيل عليّ نسيانها يا حسن. لحظات نسيت فيها من أي جنس أنا، أذكر أم أنثى. كنت ككتلة ملتهبة من لذة وحسب. لاحقًا بقيت أفكر بها طوال الوقت، وأقول في نفسي: هذه هي ابنة الذئب الحقيقية، إنها ذئبة فعلًا، وتستحق هذه التسمية أكثر مني، إنها بَرّية متوحشة رقيقة جارِحة مُداوية. إنها مَلكة سومرية. أتساءل وأتخيل، تُرى من سيتزوجها وهي التي لا ذَكَر يصلح لها إلا مَلك مثل أشور بانيبال، حمورابي، جلجامش، نبوخذ نصر أو محارب ضخم بعضلات، من أولئك الذين نرى صورهم في المنحوتات الآشورية والسومرية وهم يحملون جثث الأسود التي اصطادوها على أذرعهم كما يحمل نادل المقهى منديل العمل. أتخيله يلف شعرها على كفه، يحنيها على صخرة ويأتيها من الخلف كمن يسوق عربة.. وهي تجعر. يفرشها في الدغل أو في رمل الصحراء وعلى حصى الشاطيء كما فرَشَتني، ويعجنها تحته عجنًا، فأنا لا أتخيل هذه المرأة متزوجة بشكل عادي من رجل عادي من رجال زماننا. دائمًا أفكر بها في مشاهد على هذا النحو وأتمنى لها هذا الذي أراه يليق بها. أحيانًا حين أفكر لو أنني أتمكن ذات يوم من إخراج فيلم سينمائي، سيكون فيلمًا بلا حوار وإنما فقط أصوات تنفسها، دقات قلبها، تأوهاتها، صراخها وسط أصوات الطبيعة البدائية، وكله مشاهد حُب معها في أراضٍ عذراء، تفاصيل من عينيها بشتى الألوان وجسدها الذي يشبه تمثالًا منحوتًا بعناية. صلب ورقيق في آن.

بعد أن نهضنا، توجهنا إلى مساحة واسعة وعميقة تمر فيها إحدى السواقي وسط أشجار، هناك نزلنا في الماء، اغتسلنا وابتسمنا لبعض. كانت عيناها سودوا ين في تلك اللحظات، ولعبنا مثل طفلتين وحيدتين لا علاقة لهما ببقية العا لم. رأيتها أكثر رقة، ولكننا عندما عدنا وكانت

تسير أمامي في درب ترابي باتجاه القرية وقرص الشمس الموشك على الغروب أمامها، شعرت بها تستعيد هيبتها، وتسير مستقيمة كفرس ملَكية، وجهها في وجه الشمس بحيث شعرت أن الشمس تبتعد من أمامها كلما تقدمت هي باتجاهها. كان المنظر هائلًا حيث ظِلها ينصف دائرة الشمس البرتقالية الكبيرة، وتكورات جسدها تَبدو مرسومة بالظل تحت الفستان فيما يتصاعد غبار الدرب تحت قدميها وهما تدقان الأرض بثقة. كانت سيدة الأرض والشمس.. وسيدتي.

بقينا هناك لأكثر من شهر. أمي تمارس حبها للمشيخة وتستمتع بحب أقربائها لها، ونحن نتبادل الخبرات مع بناتهم وأولادهم. أما أنا فكنت مسحورة بلعنة بشعة طوال الوقت. كنت أردد مع نفسي باشتهاء ذلك المطلع الذي بدأت به تلك القصيدة "تعالي معي إلى الدغل... تعالي". لم يتكرر لقاؤنا الجنسي إلا مرتين أخريين، إحداهما دعوتها أنا إليه، والآخر وجدتها فجأة فوقي كما حدث في المرة الأولى. عرفت من بنات خالي أنها تنام في باب الزريبة وتحت وسادتها بندقية بغرض حماية حيواناتهم من هجومات الذئاب، وقيل إنها، في الصيف الماضي، قتلت ذئبًا، وحكايات أخرى عن تصارعها مع الذئاب عن قرب ومطاردتها لهم. حاولت إقناع أمي بأن أنام مع بشعة لليلة واحدة كي أرى التجربة، لكنها رفضت بحزم وقالت: أأنت مجنونة؟ نحن لا نصلح لهذه المخاطر، هم خبراء في حياتهم. فكرت بالتسلل إلى سريرها خفية، لكنني خفت من أمي والفضيحة وليس من الذئاب.

ذات نهار عادي، وإذا بصوت سيارة قادمة. كان أبي بعد أن خرج من السعودية إلى قَطَر إلى الأردن، ومنها إلى بغداد فريف الغراف.

جاء ليأخذنا. عانقناه بشوق نادر ودموع. احتشد الجميع لوداعنا كما استقبلونا من قبل، وكنت أبحث عن بشعة بين المودعين لكنني لم أرها. كان ذلك يحز في نفسي، إلا أننا، وبعد أن خرجت بنا السيارة في ذلك الطريق الترابي نفسه الذي جئنا فيه، خارج القرية، في برية مكتظة بالتلال الواطئة، رأيتها هناك، تمتطي حصانها، ساكنة في قمة تل قريب من الطريق وتنظر إلى سيارتنا دون حركة، مررنا من قربها ثم ابتعدنا و لم ينتبه لوجودها غيري فبقيت ملتفتة إلى الخلف، أنظر إليها وهي منتصبة بلا حركة على ظهر حصانها، ووجهها يتابع سيارتنا. شعرت بها كأنني أراها؛ وجه صارم حزين، وربما عينان دامعتان. حتى الآن لا أعرف لون عينيها الحقيقي. بقيت أنظر إليها وتنظر إليّ والمسافة تتسع.. إلى أن تَحوّلت إلى نقطة سوداء في آخر الأفق.. وتلاشت.

عدنا إلى بغداد قبل يوم واحد من تَفجر غَضِب الشعب ضد الحكومة. لم تنته الحكاية، لها بقية في بغداد، فبغداد أُم الحكايا.. بغداد شهرزاد التي تقاوم الموت بالحكايات.

- ٩ -

حُب على حُب

أنا

.. أنا أيضًا شعرت بالخذلان من نفسي، بسبب ما سبّبه مقالي من إزعاج للدكتور كرومي، ورحت أحاسبها.. فمن أنا لأنصب نفسي ناقدًا وأحكم على أعمال مسرحيٍّ بقيمة وتاريخ كرّومي المعروف عربيًّا، والذي اعترفت به الأوساط المسرحية الألمانية، وجاء بشهادته من هناك؟ من أنا لأحبط شبابًا أمضوا أربعة أعوام من حياتهم يدرسون المسرح بحماس؟ كيف نسيت نفسي وكتبتُ ما كتبت؟ ما مصلحتي في ذلك؟ لماذا فعلتُ ذلك؟ وخاصة مع مبدع كبير وإنسان رائع مثل دكتور كرّومي الذي احترمني وقدّرني واهتم بي، وهو مَن هو؛ أستاذًا جامعيًّا ومخرجًا كبيرًا.. وأنا لا شيء سوى فتى مسكين يبحث عن لقمة عيشه من أي عمل كان؟ يبدو بأنني قد نسيت نفسي وتوهمت بأهميتي وبأهمية ما أقول وما أفعل.

بقيت منكسرًا لعدة أيام، خَجِلًا من نفسي، يؤنبني ضميري وينهشني الندم.

خالد وماهر لاحظا ذلك وحاولا التخفيف عني بقولهما: أنت

لم تفعل شيئًا سيئًا، وإنما كتبت رأيك ووجهة نظرك بموضوعية، ثم أنه هو الذي طلب منك ذلك وقال لك اكتب بحرية. قلت لهم: أريد أن نلتقي جميعًا وأعتذر منه أمامكم. لكنهم لم يؤيدوا الفكرة قائلين بأن ذلك سيزيد الأمر سوءًا، لأنه سيعيد فتح الموضوع وسيبدو الدكتور كرّومي وكأنه شخص غير منفتح ولا يتقبل النقد والرأي الآخر، الأفضل أن تنسى وتتجاوز الموضوع، فما أكثر ما يُكتب في الصحافة اليوم ويُنسى غدًا، كما أن الدكتور قد نسيه فعلًا و لم يذكره أبدًا. كنت أسألهما كلما التقينا فيما إذا كانا قد رأياه وكيف رأياه، فكانا يؤكدان لي في كل مرة بأنه كما هو مَرِحٌ، مبتسم ونشيط كالعادة.

مع ذلك فقد عزمت في نفسي على ألا أكتب بعد اليوم أي مقال نقدي، وخاصة عن أعمال لأصدقاء أو لأشخاص أعرفهم، أن أبتعد عن تنصيب نفسي ناقدًا لأي عمل، وألا أذهب إلى جامعة اليرموك كي لا أراه.. فبأي وجه سأقابله!

عزمت على معاودة الانطواء ومعرفة حجمي الحقيقي، فإذا كان هناك عاملان قد أعادا لي الزهو بنفسي والشعور بالثقة والامتلاء، وهما رسائل هيام واهتمام دكتور كرّومي، فقد انهار العامل الثاني بعد أن أسأتُ التصرف والتقدير، و لم يبق لي سوى مواصلة ومعاودة قراءة رسائل هيام، وفي هذا لن أضرها ولن أضر أحدًا، لأنه لا أفق لي في التصرف حياله أصلًا كي أخشى من أن أخطيء أو أُصيب...

هكذا رحت أنكفيء على ذاتي أكثر وأشغلها بمزيد من العمل والقراءات. أخلق عالمي الداخلي مثل هيام وبفعل تأثير رسائلها، أعيد قراءة كل ما خطّه حسن مطلك وأقرأ عما تشير إليه من حيوانات والمزيد عن المرأة والحُب. لم أكن أعرف من أنا بالضبط إلى أن صرت

أجد نفسي، شيئًا فشيئًا، في الذي تصفه، شعرت بأنها تصف الرجل الذي أُفضل أن أكونه، رحتُ أتعرف على ذاتي أكثر.

بشكل ما، صرت أشعر باستقرار ما، حتى أنني، وبتأثير قراءات إيميلاتها بدأت أفكر بالمرأة وبالحب، بعد أن كنت قد ألغيت ذلك من تفكيري ومن حياتي تمامًا منذ أن ماتت أول بنت أحببتها محترقة في مطبخ وهي تقلي شرائح الباذنجان.

أصابتني هيام بعدوى حبها للحب بعد أن كنت قد ركنته، مسنودًا على عذر ظروفي، وعلى الكثير من أقاويل الفلاسفة. باسكال في بحثه عن ماهية وجوهر (الأنا) يؤكد على انتفاء حب أي شخص في ذاته ولِذاته، ولو أردنا ذلك. لا يمكن القبض على الأنا أو معرفتها؛ مما يعني أننا لا نعرف الحب. شوبنهاور، الذي قال بأن "حياة الوحدة هي مصير كل الأرواح العظيمة"، يعتبر بأن الجنس هو حقيقة الحب الميتافيزيقية، إنه مجرد قناع للغريزة الجنسية وهدفه بقاء النوع، غريزة البقاء؛ أي أن الحب وهم. الرواقيون يرون فيه بعضًا من الرغبات غير الضرورية كالطموح والقوة والتطلع إلى الغنى والمجد. لوكريس يشير إلى وجود تناقض جوهري بين الحب والحكمة؛ لأن الحكيم يصبح بالحب تابعًا للآخر، بينما يجب على الحكيم ألا يتعلق بأي أحد. ويرى سارتر بأنه لمن المستحيل أن نتوحد مع الآخر "أنا لست الآخر، كما أن الآخر ليس أنا". إن محاولة التوحيد بين ذاتين ليست إلا مصدرًا للصراع لأنه ينطوي على حريتين، تسعى كل منهما للفعل والإمساك بالأخرى. إذا كانت الأنا موضوعًا؛ فإن الآخر ذات (مازوشية)، أما إذا كانت الأنا ذاتًا فإن الآخر موضوع (سادية).

كل هذه القناعات وغيرها تهزها هيام بمجرد أن تحيلني، عبر رابط

إليكتروني، في إحدى رسائلها إلى نماذج من إجابات أطفال سُئلوا: ما هو الحُب؟.

كريستي٦ سنوات: الحب هو عندما تخرج مع أحد وتعطيه معظم البطاطس المقلية التي تحبها والخاصة بك، دون أن تلزمه بأن يعطيك شيئًا من البطاطس الخاصة به.

مارك٦ سنوات: الحب هو عندما ترى أمي أبي جالسًا على كرسي الحمّام.. ورغم ذلك لا تشعر بالتقزز.

ماري٤ سنوات: الحب هو أن يركض إليك كلبك فرحًا ويلعق وجهك على الرغم من أنك قد تركته طوال النهار بمفرده.

لورين٤ سنوات: أختي الكبيرة تحبني كثيرًا إلى حد أنها تعطيني ملابسها القديمة لأرتديها وتضطر هي لشراء ملابس جديدة.

ربيكا٨ سنوات: عندما أصيبت جدتي بالتهاب المفاصل و لم يعد بمقدورها الانحناء لصبغ أظافر قدميها، كان جدي يقوم بذلك لها على مدى سنوات، وحتى بعد أن أصيب هو بالتهاب المفاصل في يديه لم يتوقف عن القيام بذلك لها. هذا هو الحب كما أراه.

كارول٥ سنوات: الحب هو أن تضع المرأة عطرًا على جسدها، ويضع الرجل عطر ما بعد الحلاقة، ثم يخرجان سوية ليشم أحدهما الآخر.

كارين٧ سنوات: عندما تحب فإن رموش عينيك تبدأ بالصعود والنزول وتخرج نجوم صغيرة منك.

صارت هيام أنيستي الداخلية في الليالي الطويلة وأثناء القيام بالأعمال الشاقة نهارًا تحت حرارة الشمس، صارت تجعلني أكثر

رقة وحلمًا، تعيد سقي بذرة الحلم بالحب المهملة في أعماقي، تعيد تذكيري بحاجتي إلى الأنثى، تعيد تشكيل المرأة التي أتمنى أن أحبها وتحبني، وهي على صورتها بالطبع.

صرت أحدق أكثر بصور النساء في الصحف القديمة التي لدي، أتشوق لرؤية أية امرأة ولو عابرة من بعيد... إلى أن فوجئت ذات صباح مبكر بوجود امرأة تنظر إليّ من خلف سور بيت جار يبعد حوالي مائتي متر عن هيكل البيت الذي أحرسه.



هي

هذا اليوم كان بلا معنى تقريبًا.. لأنه قد خلا من صوتك ورسائلك. الكومبيوتر كله فايروسات. سأحاول أن أقرأ رسائلك من بيت جارتي المغربية نعيمة.

بقي عبود في البيت.. لا تقلق فأنا على موعد مع العادة الشهرية.. وغدًا تبدأ عطلة أربعة أيام، عَلّه ينظف الكمبيوتر من الفايروسات ويصلحه.. لا بأس، فأنت معي دائمًا. أحبك وأريد أن أموء تحتك مثل قطة مُحاصَرَة..



أكتب لك الآن من بيت جارتي الطيبة، بعد أن أحضرَت لي فنجان قهوة وبضعة قطع بسكويت وخرجت للتسوق.

أُصيب والدي بصدمة نفسية عنيفة نتيجة المجازر الرهيبة التي ارتُكبت بعد الحرب من قبل قوات التحالف، وأشد قسوة على روحه وضميره تلك التي ارتكبها النظام الحاكم ضد المنتفضين. تلك كانت بداية نهايته المأساوية. كان يشعر بالندم لأنه لم يهرب ويطلب اللجوء مثل آخرين، وكان قد سلّم كل ميزانية السفارة العراقية في الدوحة والبالغة عشرة ملايين دولار إلى السفارة العراقية في الأردن أثناء مروره بها عند العودة. لم أره كئيبًا وحزينًا وشاردًا إلى هذا الحد من قبل. وذات مرة، أثناء مروري إلى الحمّام المجاور للمطبخ، سمعته يقول لأمي وهما يحتسيان الشاي. بأنه نادم على إعادة المال إلى الحكومة، كان يُفتَرض الاحتفاظ به ويوزعه بنفسه على أصحابه؛ على مستحقيه من أبناء الشعب الذين هَرَسَتهم الحرب، وبأن ما ارتكبته الحكومة من أخطاء ومجازر يصعب السكوت عليها، وبأنه يفكر أن يطرح رأيه في الاجتماع القادم لقيادات الحزب، يطالبهم بالمراجعة وممارسة النقد الذاتي والاعتذار لمن تضرر بالخطأ وتعويضه، والتفكير بسياسة جديدة ومختلفة.

لأول مرة أسمع أبي يتحدث عن الحكومة والحزب على هذا النحو، وأمام أمي الحزبية مثله، فاقشعرّ بدني. بقيت جالسة في الحمّام بمؤخرة عارية دون أن أفعل ما جئت إلى الحمّام من أجله. شعرت بحب عارم لأبي، ولوهلة، تخيلت شجاعة جدي الذئب كلها تتجسد فيه دفعة واحدة. وفي الوقت نفسه، ارتعب قلبي خوفًا عليه. وددت لو أستطيع الدخول إليهما، معانقته بحرارة والاشتراك معهما بالحديث. ما أستغربه هو أنني لم أسمع رد أمي بوضوح وكنت أتمنى لو أرى وجهها في تلك اللحظة لأرى رد فعلها، وكيف كانت، واقفة أم جالسة بمواجهته تحتسي الشاي، أم تدعي أنها منشغلة بأدوات مطبخية؟.

طبيعي أن ينعكس هذا الوضع المتوتر على البيت، وعليّ أنا تحديدًا، خاصة بعد أن أخبرتهم بعلاقتي بيوسف، دون أن يحدث أي رد فعل تخيلته، بل لم يحدث أي شيء على الإطلاق.

سهَّلَت ظروف ما بعد الحرب عملية انتقالي من جامعة البصرة إلى جامعة بغداد، وكان أبي يوصلني يوميًا إلى الكلية، يأخذ الجدول ثم يعود إليّ عند انتهاء المحاضرات، وحين أطلب الذهاب إلى المكتبة يصر على مرافقتي، بل هو من يأخذني إلى صالون الحلاقة.. وعلى الرغم من أننا كنا صامتين أغلب الوقت، إلا أننا صرنا نقترب ونحب بعضنا أكثر مع كل لحظة تمر. كأنه كان يعتذر عن غياباته السابقة، كأنه كان يلجأ ويحتمي بي بحجة أنه يحميني. ذات مرة، وبلا مقدمات، قلت له حين أوقف السيارة مضطرًا؛ لأن شخصين كانا يتضاربان وسط الشارع: إن ما يحتاجه العراق هو الحب. لماذا لا تقترح على الحزب أن يقترح على الحكومة استحداث وزارة للحب؟ الناس بحاجة إليها أكثر من وزارة الدفاع. ظل صامتًا يتأمل المتعاركين الذين تجمع حولهما الناس حتى غص الشارع، فأضفت: وأن تقترح اسمي لأكون أنا وزيرتها. فالتفت إليّ مبتسمًا ثم انحنى وقبلني من جبيني.

في لحظات عديدة من رفقتنا، كنت أشعر بأنه يود احتضاني فأبادر أنا وأطوق عنقه كطفلة، أقبل رأسه الشائب فتدمع عيناه. وبالطبع لم يكن هناك أي تلفونات بعد أن ضُربت الاتصالات. يا لها من أيام عصيبة.. تلك؟

عدا ياسمين لم يعد لديّ صديقات حقيقيات، ولحد الآن. علاقتي بها عجيبة.. لولاها لشعرت بوحدة لا نهاية لها في هذا العالم.

رغم مرارة الظروف، نجحتُ في الدراسة، وكنت أزداد نحولًا

وحزنًا. كان كل هاجسي أن أجد لي وطنًا غير العراق. كنت أتوق للهرب، للخلاص، للرحيل إلى أي بلد. كنت أرى الخراب والبؤس في كل شيء، وجوه الناس وثيابهم ومشيتهم وفي ألوان الجدران. كنت أستشعره حتى في الهواء الذي أتنفسه ويخنقني. لم أكن أطيق فكرة الزواج وإنجاب طفل يفتح عينيه على صُور الديكتاتور.

ذات مرة، بعد خروجي من الكلية، وأنا بانتظار مجيء أبي في موقف الحافلة. رأيت بنتًا بلا جوربين، أعجبني شكل قدميها العاريين في الحذاء الرياضي القديم، أعجبني الكاحل والساق. كان الوقت شتاءً ورأيتها ترتجف، تحك قدميها ببعضهما وعلى حافة الرصيف، تمنيت لو أسألها، لو أخلع لها جوربي، لكنني خجلت. كانت فقيرة. وفي اليوم التالي تركت لبس الجواريب حتى في أشد أيام الشتاء برودة.

حسن، على الرغم من أنني كنت ألبس ملابس فاخِرة ووالدي يوصلني بسيارة حديثة، إلا أنني كنت أشاهد، أرى، أُبصر.. أبصر بكل طاقتي ومشاركة قلبي، المشردين النائمين في زوايا الأزقة القذرة، الأطفال الحفاة، الأرامل بائعات اللبن والشاي، بائعات الهوى، الجنود المنهكين في الساحات، السكارى، معوقي الحرب، طوابير المرضى، ملابس اليتامى الفقراء.. ولكنني كنت عاجزة عن فعل شيء لكل هؤلاء الناس المساكين الذين رأيت معاناتهم...

أوه.. كفى.. لأنني سأبكي.



أنت رجل، ربما تمكنت من تحقيق أحلامك أو على الأقل تستطيع تحقيقها، أما أنا فقد كانت ولا زالت الأنوثة مصيبتي. أنت اخترت

وطنًا وتخلصت من طنين العراق، أو ربما اخترت العراق نفسه عن قناعة، ربما لديك زوجة ووضع اجتماعي لائق وأنك سعيد، وإن شاء الله تكون أسعد.

عندما أسمع صوتك، أحس بدفء ماء دجلة في الصيف. أقول إنه رجل ناضج ومتخلص من عقده.. ربما ليس لديك أي مبرر لتحبني بينما أنا عندي مليون مبرر لأحبك.

فهمي لك يزداد يومًا بعد آخر ومعه يزداد فهمي لنفسي. أشعر بأن الصدق رهانك ومبدؤك وهذا هو الكسب الحقيقي للقول والفعل وللحياة والكتابة ولكل شيء.

أتعرف؟.. أحيانًا تتعطل مخيلتي فلا أتمكن من أن أمني نفسي ولو أمنية بأنني سألتقيك ذات يوم. وكما يقول جاك بريفير: "أنا أيضًا ابن الإنسان". وأقول لنفسي: لماذا يبدو هذا الأمر مستحيلًا على القدر والدنيا أو على الصدفة أو أي شيء من هذه المسميات؟فلن تنقلب الدنيا ويتغير نظام الكون لو أنني أصحو ذات مرة من النوم فألقى الذي أحبه أمامي وليس صلعة المُستأجِر! لماذا لا يحدث هذا يا إلهي؟! كم من مرة أفز من نومي في منتصف الليل وأتساءل باستغراب: من هذا الغريب النائم جواري؟ وكلما أراه قادمًا من بعيد أحس بأنني لا أعرفه، وصوت خافت يتساءل في داخلي: من هذا؟ أقسم أن هذه حقيقة. وأقول لك سرًّا آخر. إنني لم أعرف النشوة الجسدية، التي أشعرها بتخيل نفسي معك، في حياتي كلها إلا مرات معدودة إحداها مع بشعة. بعدها كنت أغرق بالبكاء طويلًا، فلحظة ذروة عذوبة كهذه تجعلني وكأنني على مشارف الموت..

حسن.. لا تتأسَّ، ولا تنقهر كثيرًا عليّ، فأنا، بلا شك، أفضل

حالًا من كثيرات وكثيرين.. جل غايتي معك أن أكون على راحتي، أن أتشارك مع آخر أحبه.. ولكن يا لغرابة ذلك الذي حتى لعدم التمكن من رؤيته حلاوة نادرة!. الحب بالنسبة لي كما وصف الشاعر العباسي أبو دلف حبيبته جَنان:

"أحبكِ يا جنان فأنتِ منيمكان الروح من جسد الجبان"

وأنا هو الجسد الجبان الذي أثمن ما فيه هو الحُب، فلولا هذه الروح، ربما ما عرفت لهذا العالم من لذة أو معنى ولا عرفت كيف أقاوم كل بؤسه، ظلمه، قسوته وقبحه. الحب مشاعر بلا فهم في أغلب الأحيان، وثمة تفاصيل بين المحبين قد لا تعني شيئًا لغيرهم أو بالمقياس العام، لكنها هي التي تعجبني فيهم أكثر من عموم العلاقة وهيكلها الشمولي الظاهر. يجب أن يكون الحب بلا شروط وإلا فهو ليس بحب، وإنما اتفاق.

في مكالمتنا الأخيرة قلت لك: أنت موجود. فأجبتني: من أين موجود؟. وأنا أقول لك: نعم، إنك موجود أكثر مما تتصور لأننا نعيش أحيانًا مع أناس ونقضي أعمارنا معهم فيما هم غير موجودين في دواخلنا.. وجودهم مثل طيف باهت وليس لهم أي تأثير على الروح أو التفكير، نضطر لتحملهم كما نتحمل الجو السيئ وطوابير المعاملات ونزلات البرد.. سرعان ما يعبرون دون أن يتركوا أثرًا.

لأكمل لك الفيلم: كانت كلية الإدارة والاقتصاد مليئة بالبنات الحلوات، ومن أراد صداقة أو حب أو مغامرة عاطفية من الشباب كان يجيء إليها، وبين البنات كان من العيب والمنقصة أن تبقى إحداهن بلا صديق. القاعة التي كنت أدرس فيها في الطابق الثاني الذي يشرف على ساحات وحدائق وزوايا الكلية من شرفة كبيرة،

ومقعدي جوار الشباك، فكنت أطيل النظر متفرجة على حركة الناس أسفلي كأنها حركة النمل، وخاصة في فرص الاستراحات بين المحاضرات. ذات مرة، اقترب مني أحد الطلاب وقال: لماذا ليس لديك علاقة بينما أنت حلوة وأنيقة وكل الطلاب في شعبتنا يتمنون الكلام معك؟، فأجبته: انظر، كل هؤلاء الشباب الحلوين، إنه لمن المؤسف أن أصادق واحدًا منهم فقط وأعاف البقية، فإما أن أصادقهم جميعًا أو لا أصادق أحدًا. فانفجر بالضحك حتى انطوى إلى الخلف، وهو الذي كان يظن بأنني مُعقَّدة. لاحقًا صار يضحك كلما رآني ويدعوني لكأس شاي، ولكن لم نصبح أصدقاء أبدًا.. لا أدري لماذا!.

قبل الامتحانات النهائية بأيام قلائل، ذهبت إلى منطقة (بغداد الجديدة) لشراء بعض الأشياء، لا أتذكر منها الآن سوى رواية (ذكريات من بيت الموتى) لديستوفيسكي، وأبلغت أمي بأني سوف أتأخر. عندما عدت كان أبي ينتظرني في الحديقة، وحال دخولي، انهال عليّ بالضرب وأطال. كان هائجًا كثور غاضب، يُفرج عن مكبوت يخنقه كمن يحطم صحونًا، كان يحطمني.. وأنا استسلمت تمامًا. الوقت ظهيرة والجميع نيام في الطابق الثاني.

بعد الضربات الأولى لم أعد أحس بألمي، ولكنني كنت أشعر بأنه هو الذي يتألم أكثر مني. ربما كان ينتقم مني لأني أنثى ولست ذَكرًا وسط هذا الجحيم الخشن... اكتشفنا لاحقًا أنه قد أحدث رضوضًا في كفي الأيسر، وفي اليوم الثاني ذهبت إلى الطبيب فغلّف يدي بالجبس، وحين رجعت إلى الدار وجدته في الصالون منكسِرًا حائر النظرات، ولم أسأله عن السبب، بل اعتذرت منه كثيرًا، فأدمعت

عيناه ونهض خارجًا، ثم صعدت إلى غرفتي... قررت أن أنجح في دراستي من الدور الأول.. ونجحت.



صباح الضوء على عينيك يا حسن.

أعرف أنك بمستوى أحلامي لذا أحبك بهوس. اليوم عندي موعد مع طبيبي النفسي، وعليه فلن أستطيع الكتابة لك كثيرًا. سوف أبوسك بوسة ذات مصمصة، وأحضنك، وأشمك، وأستخرج كل قهري معك، ولكن ليس ضربًا كما فعل أبي.. وإنما تقبيلًا.. اليوم ستكون الحصة الأكبر من كلامي للطبيب النفسي.

بالأمس، أحسست بتعب ودوخة وكان جل بغيتي لحظتها أن أرجع إلى البيت. خرجت بعد الاستحمام، لم أجفف شَعري جيدًا، و لم أكن أرتدي ثيابًا كثيرة. بللّنا المطر وبلّل كل شيء. كان الجو باردًا.. لذا لم أستطع النهوض من فراش نومي بيسر. عظامي كلها تؤلمني، لذا لم أقرر بعد فيما إذا كنت سأخرج من البيت هذا اليوم أم لا.

وأنت، كيف حالك؟. لا تأسف عليّ كثيرًا يا حبيبي، فأنا أعرف بأنك معجون بالحزن مثلي ومثل الأغاني العراقية، فلا تضف إلى همومك همًّا آخر أنا سببه.. بل تمسّكْ بمحاولات التقاط منافذ الفرح مهما كانت الظروف.. حسن، هذه حياتي أرويها لك ببساطة.. بل وبشكل مخفف، لا أريد أن أزيد أحزانك؟.. ثم أنك لم تعلق؟!. لقد كتبت لك بأنني أغار وأحسد كل الناس الذين يعيشون معك وتقرأ لهم قصائد السياب ومقاطع من (دابادا). أقضي ساعات كاملة أعاتب فيها رب العالمين لأنه لم يعرفني عليك في وقت مبكر. على أية حال فها

نحن الآن مع بعضنا، بل وربما أنك قد جئت في الوقت المناسب.. وثمة شيء آخر؛ إنني أحاول إيقاف نفسي عن التساؤل فيما لو كنت سأراك أم لا؟.. فقد عرفتك وهذا بحد ذاته انتصار لي ولإنسانيتي.. وإذا كان الرب قد كتب لنا أن نرى بعضنا فسوف يحدث. كما أنه ليس بالضرورة أن يحب أحدنا الآخر بالشكل التقليدي لعلاقة رجل وامرأة. للحب عدة أشكال، والمهم فيه أنه حب.. فلماذا نصر أحيانًا على تصنيفه ووضعه ضمن التعبيرات المعتادة، فهي أقل مما يجب وعاجزة عن احتوائه. الحب كبيبير وشائك وبسيط وشاسع جدًا مثل بحر أو سماء أو أفق أو خيال، فهل يمكن حصر البحر في قنينة أو السماء بين كفين أو الأفق في علبة هدايا أو الخيال في ثوب عُرس؟!..

أنا الآن أحبك وأذوي من أجلك فأُتعبك بحيث صرت تخاف كلما اقتربت منك.. لماذا تريد أن تعرف تفاصيل حياتي؟ أراها عادية أحيانًا.. ربما أن إحساسي وطريقة فهمي للخبرات الحياتية هو الذي ليس عاديًا.. ربما أنا التي تريد أن يسمع سيرتها حبيب يجيد الإنصات بقلبه فينفض عن مخزون هذه الذاكرة الغبار ويعيد ترتيبها، فتضيء لي نفسي.. ربما.. " أقول: ربما. وكلمة (ربما) أدق الكلمات تعبيرًا عن الاحتمال".. هكذا تقول (دابادا). أنا أحب الحب وأحب استخدام فعل (أُحب) بدل (يعجبني)؛ لذا أقول أحب القراءة والتمر والمشي والنوافذ ولا أقول تعجبني النوافذ والمشي والتمر والقراءة. أقول: أحب الكلمات، وليس: تعجبني الكلمات. أسكن الكلمات وهي تسكنني، الكلمات هي بنزين محرك حياتي، وبإمكان كلمة أن ترفعني إلى السماء وأخرى تهبط بي إلى الهاوية. أنا مجنونة كلمات. إنها تغريني، تغذيني، وأجد فيها أكثر مما أجده في الصور.. بل وأكثر مما أجده في الواقع الملموس. أحب تكرارها أحيانًا ولا أمل منها،

فهي في كل مرة لها معنى وظرفا وطعم مختلف مثلما يختلف مذاق شاي الصباح عن شاي المساء. يسحرني مشهد العشاق في الحدائق ووشوشاتهم في المقاهي والباصات وزوايا الأزقة، وأحب أن أكون جزءًا من هذا المشهد الجميل كي أُسعد عيون الآخرين كما يُسعدون عينيّ بمشاهد حبهم. شيء ما في داخلي يدفعني بقوة للتوحد معهم في هذا المشهد.. كأن الأمر يتعلق بهويتي؛ أي مثل الأشجار والأنهار والحدائق ودروب الماعز على سفوح الجبال.. أشياء تسر أرواح الناظرين وتدعوهم للراحة والهدوء أمام قلقهم الوجودي ربما. منظر عاشقين يدعوهم للحب وتذكر نعمة السلام العظيمة.. آه، السلام.



نجحتُ، وانتقلتُ إلى الصف الرابع، لكنني كنت مُطفأة، أمر بحالة يأس وإحساس بالفشل والاختناق، تمامًا مثل ما كانت عليه حالتي قبل أن أجدك. صارت العلاقة بين أبي وأمي متوترة حد الانفجار أو الموت. أخذت عائلتنا تنغلق لأسباب لازلت أجهلها، وأبي يقول: "تتعلق بالمبادئ". أنزلوه درجة حزبية ونقلوه إلى حي (الثورة) الشعبي في أطراف بغداد، فانشغل عنا أكثر وصار أقل كلامًا. أصبحتُ أمقت الذهاب إلى الكلية، وحين أذهب أجلس في آخر مقعد في القاعة وأكتفي بالتحديق عبر الشباك أو الشخبطة على الأوراق، شحيحة الكلام والطعام، ناحلة نحيفة، بلا أصدقاء، وكثيرة التفرج على نفسي وعلى الآخرين.. إلى أن تعرفت على زكريا بالصدفة، بعد أن قال لي أحدهم من أولاد البغداديين الذين يرون في أنفسهم غير ما هم عليه حقيقة، فيغالون باختيالهم الفارغ: من تظنين

نفسك كي لا تحتاجي إلى صداقة أحد؟.. مغترة بذاتك بينما أنت أشبه بسمكة زوري يابسة... وكمَس من الكرامة ونوع من الدفاع عن النفس؛ قررت أن أصادق أول من يصادفني. عند انتهاء الدوام، وحال خروجي رأيت زكريا في باب الكلية. وسيم طويل وفيه شُقرة نادرة. كان متكئًا على سيارته الزرقاء بانتظار صاحبته. نظر إليّ نظرة غريبة، ربما أسميها جادة، فأجبته بنظرة مشابهة. كان جريئًا وأنا يشدني الرجل الجريء.

في اليوم التالي، في الموقف نفسه، حيّاني فرددت تحيته بالثقة ذاتها. حكى لي نكتة فحكيت له نكتة أقوى منها. في اليوم الثالث قال لي: تعالي أوصلك إلى بيتك بدل أن تنتظري الباص. فوافقت ببساطة. لاحقًا صار ينتظرني كل يوم ونطوف في أرجاء بغداد، متنزهاتها، شواطئها، مقاهيها الخاصة وحاراتها القديمة.. معه اكتشفت بغداد أكثر من أي وقت آخر. كان صاحب خبرة بالنساء، لم يكن مثقفًا، وإنما له وعي فطريٌّ، وعمق ناضج.. كان إنسانًا قبل وبعد كل شيء. هو من بلدة الشرقاط، ويعمل مهندسًا في التصنيع العسكري. أحببته أكثر من كل الذين عرفتهم، وهو الوحيد الذي شعرت بأن داخلي يوافق على الارتباط به كزوج. يفهمني بالحس أكثر من الكلام، ويقدّرني بشكل يروي ثقتي بنفسي ويقويني، وكان دائمًا يقول لي ببساطة وصدق فلاحي:"أنت أثمن جوهرة في حياتي". وهو الرجل الأول الذي رأيته عاريًا، وأوّل من عرّاني. حين لامس صدري بأصابعه شهقت وأُغمي عليّ لدقائق. لقد جعلني أحب نفسي وعرّفني على أنوثتي، فصرت أشعر بأنني امرأة تحب كونها امرأة.. أنثى، وليس مجرد لسان يحكي وعيون تقرأ وجسد تصنفه نوعية الثياب.. مؤسف أن علاقتنا لم تدم طويلًا. أتعرف؟.. الآن في

هذه اللحظة وأنا أسترجع تلك الأوقات معه وخلواتنا، يتوقف رشح مخاطي، يخف زكامي وأشعر بأنني قادرة على التنفس من أنفي.



حبيبي.. إن تفاقم حبي والتلهف لك جعلاني هشة ومجنونة أكثر مما أتوقع أنا نفسي. إنني أختنق في بيت أعاشر فيه رجلًا غيرك.. لذا أمتطي قدميّ رغم تواصل جريان الرشح من أنفي إثر نزلة البرد التي أصابتني. أطوف في شوارع مدريد الجذّابة، جريانًا مستمرًا وتصفعني الريح الباردة.. لكن قلبي ساخن أكثر من احتمالي. أنا أنثى تشتهي أن تكون امرأة حالمة لرجل يُحب. وليس لديّ إلا مزيد من الحب كرد على هذا التصحر والتوحش الذي يحدث في العراق والعالم. عندما أمشي في الشوارع أحب النظر إلى الشبابيك، وخاصة نوع الستائر ودرجات انفراجها.. أجدها شيئًا أخاذًا. أشعر بأن النوافذ بمثابة العيون لهذه الكائنات الحميمة التي نسميها بيوتًا، والعيون تعبر عن الداخل وعن الهوية والقول المُخَبأ. شكسبير يرى بأن العيون في الإنسان هي نوافذ الروح القابعة في سجن الجسد، وأنا أرى بأن النوافذ هي عيون أرواح هذه البيوت التي ترى بها. أنظر إلى الحدائق وواجهات البيوت وتجذبني رؤية الدروب الصغيرة داخل الحدائق والممتدة من البوابات الرئيسية إلى أبواب البيوت، بعضها مرصوفًا بالحصى تسير بين تعرجاتها عادة أسراب النمل والحشرات، ولسبب ما، أتخيلها أحيانًا، في منتصف الليالي، بأنها دروب للجنيات الجميلات والمشاكسات المفعمات بالحكايا والأسرار.

ما الحل معك، ما الحل معي؟. أرجوك على رسلك في التغلغل في

قلبي.. ها أنت ترى بأنني وحيدة وغريبة ومحاصَرة. أوه.. لا أعرف كيف أقاوم رغبتي الحارقة بسماع صوتك.. اسمع يا حسن؛ أنا أحبك.. وفيروز تغني: "تعال ولا تجيء، واكذب عليَّ، الكذبة مُش خطيّة" فعِدني على الأقل بأنك ستجيء و"تعال ولا تجيء". فيروز هي التي علمتني حُب الموسيقى. كل الناس تسكر بالخمر وأنا أسكر بالموسيقى. ومن أمنياتي الأخيرة أن أدرس الموسيقى. أحيانًا أحكم على الكتب قبل شرائها بكونها جيدة أم لا من خلال قراءتي لمقاطع منها بصوت مسموع وتحسس وقع أصوات الحروف على الأذن ومدى انسجامها.. دعك من هذا الآن؛ لأن شرحي له قد يطول.

لماذا أنت بعيد وعذب إلى هذا الحد؟ قلبي يدق كثيرًا حين أسمع صوتك أو أكتب لك أو أتذكرك فأنسى الكلام. أحيانًا أمد يدي في الهواء؛ علّ أصابعي تلامسك وتتحسسك.. لكن جمرة السيجارة التي بين شفتيك تحرقني فترتد أصابعي مكتوية بخيبة. وعلى الرغم من أنني لا أحب التدخين، إلا أنني دائمًا أتخيل بأن الرجل الذي أحبه مدمن على التدخين.. ربما لأنه رجل فكر وليس رجل عمل عضلي أو رياضة، أو ربما بسبب تأثير كثرة تحديقي المبكر في صور الكُتاب والفلاسفة التي تبدو فيها السجائر والغليونات مثل مسامير ضرورية لتثبيتها. حين أرى بعض سيجارة لازال مشتعلًا وملقى على الأرصفة، أقف لأتأمله، بل ألتقطه أحيانًا وأتشمم العقب كي أشم رائحة شفتيك.. أحيانًا أكاد أشم عطرك ورائحة جلدك، فأقول: أنت. وأظل أمشي، مسرعة في أحد الاتجاهات ناظرة إلى الظهور والوجوه الرجالية. مباشرة أقول: ليس أنت. فأنا أهتم بأعقاب السجائر (المعضوضة) تحديدًا؛ لأنني أتخيلك تتحدث كثيرًا دون أن تخلع السيجارة من فمك وإنما تعضها بين أسنانك لتفتح شفتيك

وتنفث الدخان. دائمًا كان حلمي أن يكون حبيبي مثقفًا ومهووسًا بالكلمات والأدب مثلي. لا أحب الدخان ولكن من أجل الحب سأحب كل شيء.

آه.. ترى متى أتعلم من خيباتي، وخاصة من المثقفين، وأقول لنفسي: كَفى.. كُفي بحثًا عن الحُب؟

ربما أنني أحببت زكريا. لكنني في أعماقي لم أكن أشعر بالحب الذي أحلم به أن يملأني. حب من كل قلبي.. أتتحسس مثلي معنى أن يكون حبًا من كل القلب.. وليس من بعضه؟. الآن أحبك بشكل مختلف عنه.. أشعر بأنك أنت الحب الذي بحثت عنه والذي أريد. أحبك من كل قلبي.

زكريا هو الوحيد ممن عرفتهم، حين أتذكره لا ألوم نفسي أو أؤنبها، أو أضحك ولا ينتابني أي نوع من الندم.. لكنه لم يملأ قلبي وعقلي وحلمي تمامًا. كنت أريد حبيبًا يحب الثقافة مثلي ويحاورني بتفاصيل الشِعر والروايات وجديد الكتب بينما هو مجرد عسكري ريفي طيب.

تعرفت على الشاعر سعيد الخاطر بالصدفة. كان يردد: "حلمي أن أصير وزير ثقافة". وأسأله: ألا يكفيك أنك زير نساء؟. فيقول:" كل وزير زير ولكن ليس كل زير وزيرًا". حينها كانت علاقتي بزكريا مستمرة، وكنت أخبره بكل شيء.. أتعرف ما الذي قاله لي؟: أنا أفهمك حبيبتي، عيشي حياتك واستمتعي، أما بالنسبة لي فأنا أعرف بأنك تحبينني وأعرف أكثر بأنني أحبك، وحتى لو جاء شيخ الشط والبط فلن يغير هذا.

وكان على حق في قوله. في تلك الفترة لم يكن سعيد قد باع

قصائده ونفسه لنظام الطاغية كليًا، واقترح عليّ أن أشتغل في وزارة الإعلام، لكن والدي رفض معللًا رفضه القاطع "لأسباب تتعلق بالمبادئ". سعيد كان مبهورًا بي لأنني كنت أحلل له نصًا معينًا من عدة أوجه، فيأتي في اللقاء التالي بعد أن يتقصى عن ذلك النص في كتب النقد ويقول: خجلت من نفسي، أنت بطول ساقي وتسردين مدارس النقد وعلم النفس كلها، فيما أكتفي بالسماع والشك. قلت له: إنك لست بشاعر حقيقي ولن تكون. فبُهت، ثم قال: فما أنا إذًا؟ وهذه الدواوين والصحافة ومقالات النقاد؟. قلت: هناك من هو شاعر حقيقي وهناك من يكتب شِعرًا، وأنت تكتب شعرًا. آرثر رامبو نفسه انتبه لهذا الأمر قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره وقال: "لم أعد شاعرًا لأنني لم أعد مجنونًا"، وحسن مطلك قال قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره: "الشاعر العظيم هو من كتب قصيدة وأضاعها"؛ لذا لم ينشر أية قصيدة من قصائده في حياته. وفرناندو بيسوا الشاعر الذي هو مجموعة شعراء كلهم كبار، قال: "أن أكون شاعرًا فهذا ليس طموحي، إنها فقط طريقتي في العيش وحيدًا."

لاحقًا وجدت بأن سعيدًا يسرق أفكاري وأقوالي وينشرها في مقالات على أنها آراؤه في الشِعر.

من بين إشكالياتي مع الرجال، بمن فيهم المثقفون؛ أنهم لا يعرفون كيف يكونون أصدقاء وحسب.

المثقفون لا يريدون المرأة الواثقة من نفسها كليًا، التي شكّلت أو تشكل ذاتها بأسلوبها الخاص، وإنما يريدون المرتبكة، المشتتة، الناقصة، العجينة الضعيفة؛ كي يعيدوا تركيبها وفق مزاجهم؛ لذا فأكثرهم يفشلون، إلا الراسخين بإيهام الذات.

في تلك الأيام، تقدم أحد أقاربي لخطبتي ورفضت، لأنه ساذج (زَعْطُوط) وشديد التبعية والتعلق بأمه و لم يقرأ رواية في حياته. الأهل أيّدوا رفضي لأنهم تأكدوا من حقيقة ذلك. و لم أطلب من زكريا أن يخطبني أبدًا، على الرغم من أنني كنت بحاجة إلى أي إنقاذ من مناخ البيت وضغط أهلي وعيون الناس وحكيهم. كنت أخجل منه وأحترمه؛ لذا لم أكن أتحدث أحيانًا في كثير من الأمور لظني أنها قد تزعجه.. أدركت بطريقة ما بأنه لا يفكر بالتقدم لخطبتي.

في تلك الأثناء زارتنا عائلة عبودزوجي الحاليبالصدفة، فأمي وأبوه أبناء عم، و لم أكن قد رأيته من قبل، قيل لي لاحقًا إنني قد كنت حاضرة في عرسه أثناء زواجه الأول حين كان عمري بضعة سنوات. زوجته متوفاة وعنده ولدان، كان عمر أكبرهما اثني عشر عامًا، والثاني عشرة.

حال رؤيته لي أعجبته، إلا أن الأهم من معرفتي، بالنسبة له ولأهله، هو أنه كان يعرف عائلتي. وبالمقابل لديه المواصفات التي تُرضي أهلي: دكتور، أستاذ في الجامعة، عضو في حزب الحكومة، ملتزم بالتقاليد، لديه بيت ومال وسيارتان، ثم أنه من الأقارب. لم أتشدد في ممانعتي، فقد كان أي رفض سيعني أن لي علاقة برجل، وكان بعض الجيران قد سبق وأن رأوني ذات مرة مع زكريا وأخبروا أمي، التي أهانتني حينها في المطبخ على انفراد قائلة بأنني عديمة الحياء، وأنني كلبة ابنة كلب، ولا يأتي مني سوى القلق ووجع الرأس والفضائح. لم يزعجني في شتيمتها تلك إلا قولها كلبة ابنة كلب؛ ذلك أنني مع نفسي أرى نفسي بأنني ذئبة ابنة ذئب. قد يبدو الأمر ساذجًا وأن الكلب والذئب كلاهما حيوان، ولكن بالنسبة لي فإن

الدلالات والرموز لها أهمية الأشياء الواقعية، ومثلما يختلف الناس عن بعضهم، على الرغم من كونهم جميعًا بشرًا؛ فإن الذئب يختلف عن الكلب، مع احتراماتي للكلاب طبعًا... أكاد أراك تبتسم أو تضحك.

قالت أمي فيما يتعلق بعبود: اخرجي معه وجربي، فإن أعجبك فبها، وإن لم يعجبك فليست هناك مشكلة. وخرجت معه.. سأروي لك البقية لاحقًا، فمجرد سرد هذا الحلقة من حياتي يُشعرني بضيق التنفس.

-١٠-

السريلانكية الطيّبة

أنا

واصلتُ مراقبتي لذلك البيت الجار طوال يومين، فكنت أرى تلك المرأة تطل برأسها من كل الزوايا خلف السور الواطئ، وحين أبتسم لها تبتسم، ولكي أتأكد أكثر؛ قمت بحركات ظريفة ممثلًا أنني أبحث عن أحد حولي وفي جيوبي، ثم نظرت إليها وأشرت إلى صدري قائلًا بصوت غير مسموع: أنا؟ فهزت رأسها وابتسمت بقوة، عندها تأكد لي بأنها تقصدني، فأشرت بكفي: كيف؟ اتجهَت إلى الجهة الخلفية للبيت الكبير حيث باب المطبخ، وقفت وأشارت إلى الأرض، تقصد؛ هنا.

هكذا تحدد مكان اللقاء وبقي الزمان، فأشرت لها إلى الساعة في معصمي. رفعت إصبعها السبابة فقط؛ قاصدة الساعة الواحدة، ثم وضعت كفها تحت خدها وطوت رقبتها، علامة النوم؛ ففهمت أنها تقصد ليلًا. رفعت لها إبهامي علامة الاتفاق هامسًا: أوكي.

امرأة رشيقة، سمراء بملامح آسيوية، إنها الخادمة السريلانكية. ظل قلبي يدق مضطربًا حتى موعد اللقاء، متفحصًا الطريق، والسور

الواطيء، ومن أين سأقفز، وأين الدرب بين نباتات الحديقة التي بين السور وباب المطبخ. لم تكن لي أية مغامرة من هذا النوع سابقًا، لكنني كنت بحاجة إليها؛ بحاجة إلى أية علاقة بأية امرأة، على الرغم من إداركي بأن انكشاف الأمر سيسبب فضيحة ومشاكل كبيرة في هذا المجتمع المحافظ وسيؤدي إلى طردنا نحن الاثنين من هذا البلد، كما سبق وأن سمعت عن حكايات مشابهة.

لم تكن هناك سوى ثلاثة أو أربعة بيوت منجزة ومأهولة في هذا الحي الجديد، أما البقية فكلها قيد الإنشاء؛ لذا يبدو كل شيء ساكنًا تمامًا ومعتمًا في الليل. لا خشية من مرور أحد أو نباح كلب، ومَن سيأتي أو سيذهب سيحتاج إلى سيارة؛ مما يجعل الانتباه إلى ضوئها عن بعد سهلًا.

حلَقت ذقني واغتسلت. حاولت أن أكون نظيفًا ومرَتبًا قدر المتاح. وبقيت أراقب ساعتي كل خمس دقائق حتى حان الموعد، فسرْتُ في الظلام بقدمين ثقيلين وقلب مرتجف. لم يكن أمر الوصول والتسلل صعبًا لأن السور بارتفاع صدري وثمة الكثير من الطابوق المتناثر قربه، فوضعت بعضه تحتي وقفزت مستعينًا للرؤية بما يصل من ضوء المصابيح الخافت في الجهة الأمامية للبيت. مشيت الهوينا؛ على رؤوس الأصابع في الدرب الضيق بين النباتات وصولًا إلى باب المطبخ الذي كان موصدًا، دفعته فلم يندفع، فوقفت هناك حائرًا، أحرك المقبض بحذر وبطء، أدفعه وأتلفّت. فكرت بالعودة، إلا أنني سمعت صوت بسبسة خفيف من نافذة في الجدار القريب فاقتربت.

كانت هي خلف القضبان، وكفاها ممدودتان من بينها نحوي،

فأخذتهما بكفيّ وأنا ألهث. مدت إحداهما فارشة إياها على صدري، على موضع القلب المضطرب، تمسحه كي تهدئ من روعي، فابتسمت لها ورفعتُ كفها نحو وجهي ورحتُ أقبلها. سحبَت وجهي إلى ما بين القضبان ورحنا نُقبل بعضنا. أتلمس وجهها، رقبتها، ذراعيها العاريتين. كانت ناعمة، يفوح منها عطر خفيف وطيب. قُبلنا الأولى كانت كنقْر العصافير، ثم غرقنا بعدها بقبل طويلة عذبة ونحن نشد بعضنا إلى بعض من خلف القضبان.

بقينا هكذا، وقوفًا لأكثر من ساعة، ومن خلال الكلمات المعدودة التي أعرفها من الإنجليزية، وتلك التي تعرفها هي من العربية، وبصحبة الإشارات. تعارفنا أكثر؛ إنها من سريلانكا وتعمل في هذا البيت منذ عام. مُطلَّقة ولها طفل عمره أربعة أعوام، تركته مع أمها في بلدها، وهي تشتاق إليه بشكل جنوني، لكنها مضطرة لهذه الهجرة والعمل بمائة دينار كي تعيل عائلتها. أخبرتني باسمها، وأخبرتها باسمي، لكن أي منا لم يستطع حفظ اسم الاخر، فكنا نخاطب بعضنا بكلمة (حبيبي)، وتحديدًا: (هَبيبي) لأنها لا تلفظ الحاء. كان شعورنا فيضًا من الحنان والعطف والتآلف؛ فكلانا مهاجر فقير يكابد الوحدة والأشواق إلى ذويه. وكان لتفريغ كل هذه الشحنات العاطفية والجسدية أثر كبير على روحينا، حيث أحسسنا بعدها.. وكأننا أصبحنا أكثر خفة ورقة وآدمية.

قبيل الفجر، قبل أن أغادرها، مدت إلي بكيس تفوح منه رائحة طعام زكية. قَبلنا بعضنا وغادرتها، ولم أر ستارة شباكها البيضاء تُسدل إلا بعد أن قفزت السور نحو الطريق وغادرت باتجاه عشتي.

هكذا صرنا نلتقي كل ليلة حتى أصبح كل منا جزءًا من حياة

الآخر. تبث لي شكواها من كثرة العمل عليها وحدها في هذا البيت الكبير، وإن كان لا يسكنه سوى الزوجين المهندسين وطفلهما الصغير، لكن عليها تنظيفه كل يوم، والعناية بالحديقة، والطبخ، والغسيل، وكل شيء. كانت تبكي كلما تحدثت عن شوقها لابنها. أهدتني زجاجة عطر صغيرة، وصارت تحتفظ لي من أنواع الطعام بأفضله، وتغسل ملابسي.

نلتحم ببعضنا بكل ما يتيحه لنا الالتحام من خلف القضبان، ولا أنسى أبدًا ما حييت ذلك المشهد الساحر في ليلة مقمرة، حين تعرَّت تمامًا استجابة لطلبي، صعَدَت على كرسي كي أراها وألمسها كاملة. كان جسدها البرونزي الرشيق يضيء بفضل انعكاس ضوء القمر عليه، بدت مثل لوحة من عصر النهضة أو كمشهد سينمائي مدروس الإضاءة؛ بحيث أكاد أسمع الموسيقى المناسبة تصاحبه.

على ضوء القمر، نهداها وكأنهما قمران آخران. أمرّر كفي على تكويرتيهما، وأداعب حلمتيها المنتصبتين بأناملي ولساني، وهي تشهق منتشية، ثم أدرتها برفق، فسطع ردفاها أمامي؛ مكتنزين، ورحت أتلمسهما بلذة هائلة. بدت لي حينها وكأنها جنيّة ساحرة بجمالها، خارجة من إحدى الحكايات، فخلعتُ ملابسي أنا الآخر وصعدت على حافة الشباك. عاودَت استدارتها كي نحتضن بعضنا ويلتصق جسدانا بطوليهما، ورحنا بالتحام حقيقي عذب يلامس فيه الجلدُ الجلدَ، الصدرُ الصدرَ، والركبةُ الركبةَ.. وما إن تلامس طرفا عضوينا اللذين لم يصلا إلى بعضهما جيدًا، رغم كل محاولاتنا تحت عصف الشهوة.. حتى ارتعشنا وقذفنا ماءنا بسرعة وغزارة راضّين بعضنا بقوة متبادلين القُبل والدموع.. حتى هدأت أنفاسنا.

تقول لي: (هبيبي)، وأقول لها: (هبيبي). ثم ابتسمنا وشرعنا بمسح ما بللناه من أجسادنا وأطراف الستائر وحافة الشباك.

كنا نشعر بأن كلًّا منا هدية ثمينة من السماء للآخر. تفيض عاطفة هي مزيج من أمومة وأنوثة وحنان، مزيج من عواطف كلينا بحاجة إليها. كلماتنا قليلة جدًّا، فكنت أعوّض غياب الحوار والحديث عن الذات بما أقرأه من بوح هيام في رسائلها. أتخيلها هيام في شخصيتها وتفكيرها، هيام روحًا، ولكن بجسد هذه المرأة الطيبة الجميلة.

شعرنا بأننا صرنا أجمل وأكثر حيوية، وأن الوقت لم يعد يمر صعبًا وثقيلًا علينا. نهارًا، نتحجج للمرور كثيرًا، كل من مكان عمله كي نسترق النظرات إلى بعضنا ونبتسم. كنا نُنفّس عن كل ما في روحينا وجسدينا بهذا التلاقي. تقول لي: (هبيبي) وأقول لها: (هبيبي).

لاحظ خالد بأنني لم أعد أعطيه شيئًا من ملابسي المتسخة كي يحملها إلى والدته لغسلها، فحدثته عن كل شيء. ضحك حد القهقهة في البداية – كم أُحبّ ضحكه! – ثم قال لي: أنت مجنون، فلو تم اكتشاف الأمر ستجلب لك ولها مشاكل لا حصر لها.

حذرني، لكنه بارك لي في نهاية الأمر، وصار يَسألني كلما التقينا عن تفاصيل لقاءاتنا قائلًا: وما أخبار هبيبتك السمراء؟.



هي

صباح تنانير الخبز الساخن..

دائمًا أفطر على رسائلك.. أشتهيك أكثر مما تشتهيني، وأشتهي

وجودك كله. المُستأجِر ليس هنا هذا الصباح فقد وجد عملًا مؤقتًا وبشكل غير قانوني، لأننا لا زلنا بلا أوراق إقامة.

أعترف.. أحببتك، إنني أعترف. سيأتي وقت لن يكفيني تبادل الرسائل والمكالمات، وأخشى أن نضطر لتبادل الصور العارية كما تفعل جارتي الكولومبية المتزوجة، من أجل الأوراق، بإسباني يكبرها بثلاثين عامًا فيما تراسل حبيبها في بلدها. تتبادل معه الصور العارية أكثر من الكلمات.

كانت معرفتي بالشاعر سعيد الخاطر مصادفة في عيادة الدكتور سمير فاضل. كنت حينها معجبة بنصوص التجارب الشعرية الجديدة التي تنشرها مجلة (الطيف) ومنها قصيدة لسعيد عنوانها (الدفن). شعرت بأنها تنطوي على إيحاءات جريئة تتعلق بالقمع، لكنها مغلّفة بشكل ذكي عَبر إشارته إلى أنها تقصد بلدًا عربيًّا آخر، وليس العراق، وأنها مستوحاة من حال عهود سابقة في التاريخ. كنت أعرف شكله من خلال صور له في الصحف. وحال لقائنا في العيادة، ذكّرته بهذه القصيدة وبنص آخر له بعنوان (السقوف) فاندهش كثيرًا عرفت لاحقًا أن مشهد الاندهاش هذا زائف، يصطنعه كلما تقدمت منه امرأة باعتباره شاعرًا، وكلما نوى في نفسه على نيل غرضه منهاأعطاني رقم هاتفه قائلًا: اتصلي بي في أقرب وقت. اتصلت به بعد يومين. التقينا وكررنا اللقاءات. كنا نتحدث كثيرًا ونقرأ ونمشي.. أحب بغداد، وأحبها أكثر ماشية برفقة الأصدقاء.

تبينت في دواخله غرورًا يتعمد إخفاءه، وفي روحه سيل انتهازية جارف. كان لسانه حاذقًا في الكلام، طويلًا بالشتائم وملطخًا بالمجاملات، وكانت يده أطول من لسانه؛ سواء ما تعلق الأمر بالمال أو

بالنساء. مدها تجاهي أكثر من مرة بعد مقدمات عن تحرر المرأة وجمال متعة الحياة وأهمية اللذة، فقلت له: إنني أحب شخصًا آخر. و لم أشعر بأن ذلك يهمه، حيث ظل يواصل لغوه عن التحرر وروعة متع الحياة وأهمية الجنس.

لم أكن حينها ذات جسد فيه ما يكفي من اللحم بحيث يغري الرجال الباحثين عن اللحم، ويبدو بأنه لم يكن يهتم لذلك أيضًا، فالمهم عنده جسد أنثى يمارس عليه فحولة ما؛ ليتحدث بها أمام نفسه وأمام أصحابه بمثابة انتصارات ذكورية، ورقمًا آخر يضيفه إلى قائمة النساء اللاتي غرّر بهن. اعترفَ بأن رفقتي ممتعة وفيها ثقافة وضحك، لكن ذلك لا يكفيه. قَبّلني ذات مرة من خدي خطفًا، فتجاوزتها له وطلبت منه ألا يكررها. قلت له: إنك على استعداد لمضاجعة أية امرأة، وأنا لا أحب أن أكون مجرد امرأة أخرى.. لا أحب أن أكون تكرارًا لغيري.

زعم أنه استأنس قولي أو أنه، في داخله، قطع الأمل من تكرار المحاولة معي والتي ربما تكلفه وقتًا أطول مما قد يكون مع غيري. ربما لو كنت أحبه لما مانعت في شيء. لم يكن هدفي من معرفته هو استعراض جسدي أمامه. الجنس شيء إنساني عظيم في حياتنا، وهو سر الخلق. إنه المحرك الخفي والحقيقي لحيويتنا ومزاجنا؛ أي مثل السيارات والطائرات وغيرها؛ نرى هياكلها الجميلة وحسب، فيما محركها الحقيقي مخفي عن العيون. الجنس عنصر إنساني بامتياز، ولكن للأسف، إن ممارستنا له في أغلب الحالات هي التي تكون غير إنسانية.

أحببت زكريا الذي كان طيبًا وصادقًا ومخلصًا، وإن لم يكن مثقفًا؛ إلا أنه يتمتع بوعي فِطري جميل. كان يعرف كيف يجعلني أحب

أنوثتي، وكيف أحب عريه وعربي أمامه. لم أشعر بأن ذلك ينصبُّ في مسألة الجنس البحت، والذي لم نمارسه بقدر ما كنا نمارس نوعًا حميميًّا من الحنان واكتشاف مواطن اللذة في أجسادنا تحت أصابع الآخر.. والدليل أننا في مرات عديدة كنا نلتقي في متنزه ما، نجلس ونبقى نتحدث لساعات طويلة دون ملل. وفي آخر لقاء لنا، كنت عارية وهو فوقي، فأخذتني موجة بكاء؛ لأنني لم أتصور أن رجلًا آخر سيأخذ مكانه... استلقى إلى جانبي، مسح دموعي في الوقت نفسه الذي رأيت فيه دموعه.. لم أسأله، دائمًا أحرص على احترام خصوصيات الآخرين. ارتدينا ملابسنا و لم نلتق بعدها؛ إلا أنني لم أحقد عليه أبدًا، بل إن آخر كلمة قلتها له هي: شكرًا لأنك أحببتني وسمحت لي بحبك. فرأيت دموعه للمرة الثانية، و لم يقل لي دعينا نواصل لقاءاتنا.

كان يدرك بأنني لن أخون الذي سأتزوجه، ثم ذهب كل منا باتجاه. أيامها تبادلنا لبس حلقات الخطوبة أنا وعبود وسط فرحة الأهل.. وهذه كانت أول مرة أراهم فرحين بي إلى هذا الحد.. وفي اليوم الثاني خرجت معه.

أوه.. إن الذي أحبه الآن هو أنت.. ولكن لابد أن أتوقف عن الحديث، فعليّ أن أذهب لجلب الأولاد من المدرسة. لا تنسني.. لقد قدتني اليوم للحديث عن الجسد.. وفي دمي حرارة الصيف البغدادي، بهارات البصرة، نار كركوك الأزلية وأنفاس بشعة السومرية... أغار ممن قد تكون برفقتك الآن. احفظ لي ولو بعضًا منك.



مساء أمس، وأنا واقفة في المطبخ أعد العشاء، تخيلتك تقف خلفي

وتشاكسني فنسينا الطبخ وأكلنا بعضنا. حسن يا حبيبي.. أقسم لك بأنك معي في كل لحظة، بحيث أنني أضحك أحيانًا حين أنتبه إلى كوني أحاكي نفسي وكأنك هنا بالفعل.. أنت سري الحلو، معك أبوح بكل شيء، وصدّقني؛ هذه أول مرة أحكي كل شيء وعلى هذا النحو، فحتى مع ياسمين، أعز صديقة، لم أبح لها بكل ذلك.. ربما أيضًا لأنها قد خرجت من العراق مبكرًا، و لم تكن حاضرة لهذه التفاصيل. اليوم صوتك جميل أيضًا، أبوسك وأبوس صوتك نبرةً نبرةً بوسات لا تنتهي.

المُستأجِر على وشك المجيء؛ لذا لا أستطيع الكتابة أكثر. لاحقًا سأكتب لك عن كل شيء، حتى التفاصيل الصغيرة.. كن صبورًا معي. كما أن القراءة تأخذني أحيانًا مِن -وبعيدًا عن- لغتي الخاصة. بعض الكتب تنشّط ذائقتنا اللغوية بشكل عجيب، فتحفز بنا الرغبة بالكتابة، وكأنها فعل غريزي. (دابادا) أوقدت لغتي حين قرأتها. كم أنا بحاجة لإعادة قراءتها الآن كي تعينني على التعبير بشكل جميل ودقيق عما أريد كتابته لك. حين أحصل عليها ثانية سأتحسس الكتاب وكأنه نبض قلبي، وكأنه نبض قلبك. سأقول حينها بشكل آخر بأنك لست شبحًا اخترعه عقلي، وإنما أنت حقيقة. سأشم الكتاب، وكل سطر فيه؛ عله يحمل عطرك.. سوف أصاب بالجنون لشدة رغبتي بقراءتها. أنت موجود بالنسبة لي ولا ينقصني إلا أن أنام في مكتبة لمدة عام.. انتظرني غدًا.. وسأسأل سؤالًا أخيرًا.. متى سيجيء هذا الغد الذي سيجمعني بك؟؟.. بوسات إلكترونية متواصلة إلى أن تأتي لحظة البوسه الحقة.. مموووواااااااه.



مرحبا حبيبي.

أحفظُ هذا المشهد الشِعري المكثف والعميق، في الصفحة الخامسة والسبعين. من (داباداً). أردّده مع نفسي كلما استيقظتُ وبي شعور غريب من الأسى لا أستطيع وصفه: "يحس بأنه حزين.. ليس حزينًا بالضبط، وإنما يريد أن يبكي وهو يراقب صوت الفجر المتسلل بين الأحطاب وقصب السقوف والانطلاقة الأولى لعصافير العراق". هل هو المشهد والإحساس الذي سأكون عليه عند احتضاري؟ ولماذا أحفظ الرقم خمسة وسبعين؟ هل هو العمر الذي سأموت فيه؟.

أنهيت إفطاري قبل قليل، ومنذ أن عرفتك وأنا أشعر بأنه ناقص، مادام لا يكتمل إلا بالالتحام بك وتبادل عسل الشفاه والجسد.. أشعر بأن خلاياي تعود لتصبح مراهقة، ما أجمل هذا الإحساس!؟

انظُر إلى نفسك في المرآة يا حبيبي وسوف ترى كم نحن متشابهان. معك أستمد فرحي من الصدق المتبادل بيننا وهي فرصة لغسل الروح ولمعرفتها أكثر. إنني حين أكتب لك عن مقاطع من حياتي لا أقوم بمجرد سرد وقائع، وإنما بتحليل ما، ومحاولة مراجعة فهم لأشخاص ولظروف.. والأهم للذات. ما كذبت عليك في شيء وما تصنّعت.. بل ولم أجاملك.. أنا معك أمام مرآة.. هل تصدّق بأنني، وفي أول اتصال لنا، كنت أقف جوار المرآة المستقيمة في زاوية صالون البيت، أتحدث إليك وأنظر إلى نفسي. كانت تلك أول مرة أنظر فيها إلى نفسي في مرآة بعد هجر المرايا لزمن طويل.. بينما حتى هذا المُستأجِر الأصلع يقف أمامها لترتيب بقايا شَعره أكثر مني. صلعته الآن أكثر اتساعًا مما كانت عليه حين رأيته أول مرة.

زارنا في اليوم الثاني من زيارة أهله لأهلي، وفي اليوم الثالث اتفقوا

على خطبتنا. حاولت إفهامهم بأن لديه أبناءً وأنا لست بقادرة على تحمل مسؤوليتهم؛ لأن كل همي حينها هو إكمال دراستي، أن أقرأ وأكتب، إلا أن أحدًا لم يستمع إليّ، وما كنت قادرة على التمسك برفضي؛ لأن حياتي في الأصل كانت جحيمًا، فحتى حين كنت أخرج يتم الأمر وكأنه بالسرقة، أخرج باسم الدراسة منذ التاسعة وحتى الواحدة ظهرًا، وليس بمقدوري التأخر أكثر من ذلك خوفًا من أبي.. هذا بالإضافة إلى خيبة أملي -نوعًا ما- بزكريا. أظن بأنه كان متزوجًا و لم يتمكن من إخباري بذلك. ليته فعل، فربما كنت سأوافق على أن أكون زوجة ثانية.. كنت آنئذ بحاجة إلى نوع من خلاص منطقي.

في اليوم الرابع؛ أي التالي لخطبتنا أنا وعبود، خرجنا. هو ببذلة وربطة عنق وساعة مذهبة فيها صورة الرئيس، وأنا بثوب المساء المنزلي. أخذني بسيارته الطويلة النظيفة مغطاة الكراسي بالفرو إلى مطعم فخم في (الكرادة)، تتوسطه نافورة كانت أكثر شيء حدقت فيه. أذكر أن أنواع وأشكال الطعام التي قدمت كانت كثيرة جدًّا، لكنني لا أتذكر شيئًا عن ألوانها وطعمها ورائحتها. أول ما قاله لي: إذا أردت أن أحبك أو تحبيني فعليك أولًا أن تحبي أولادي.

كان واضحًا بالنسبة لي أنه يريد إكمال حياته مع امرأةأو الأصح؛ زوجةمسالمة، تهيئ له مستلزمات بيته وتعتني بولديه. قلت له دون رفع نظري عن النافورة: ليس لدي موقف ضدك أو ضد أولادك، وما دمت قد رضيت بالزواج منك سأسعى لفتح قلبي لك ولأولادك، علنا نتمكن معًا من تشكيل حياة جديدة.

أعجبه المنطق الذي كنت أتكلم به، ولا أنكر بأن الجزء الأكبر

من موافقتي عليه كان مبنيًا على كونه لديه عقدٌ للتدريس في الجامعة الأردنية، وأننا سوف نسافر إلى الأردن بعد أقل من عام تقريبًا مع بداية الفصل الدراسي الجديد هناك. واتفقنا على ألا ننجب إلا بعد السفر.

تزوجنا بعد شهر. لم يمنحوني فرصة أكبر للتعرف عليه بشكل أفضل، وأنا بدوري كنت مغترّة بثقتي بنفسي أكثر من اللازم. كنت أعتقد بأن ليس لدي أية مشكلة للتعايش مع أي رجل كان، وأن لديّ القدرة على أن أجعل أي رجل يحبني، وأنني قادرة على حب أي رجل أيضًا. كما كان في ذهني شيء ما يوحي لي بأن الزواج منه مجرد مرحلة، هي في كل الأحوال أفضل من البقاء في بيت أهلي وتحت ضغوطهم. وهكذا منذ الليلة الأولى استسلمت له تمامًا؛ لأنني كنت أعي بأنه ليست هناك أية نتيجة للرفض.

طبعًا لم يلمسني أو يقبلني، ففكرت أن كل تلك الأمور ستحصل في ليلة العرس... وما أدراني ما ليلة العرس... دخلنا الغرفة... كان عصبيًا دون أن أعرف السبب، وقال: غيّري ملابسك بينما أستحم. ودخل الحمّام.

لم أتحرك من مكاني. جالسة على طرف السرير بالثياب البيضاء. لم أنزع ملابسي. كنت أرتجف من الخوف ويكاد يغمى عليّ... أبكي وأتمنى لو أعود إلى بيتنا، إلى أخواتي، إلى غرفتي الخاصة، سريري وكتبي.

خرج من الحمّام وبدأ بالصراخ: ألم تسمعي ما قلته لك؟ فقلت له: نعم سمعت، ولكنني أريد أن أستحم أولًا ثم أغير ملابسي. دخلت إلى الحمام ببذلة العرس. احترت كيف أنزعها وأين سأضعها.. وكيف سأنزع تاج العرس الغبي من رأسي. منذ مراهقتي كنت أتخيل أشياء

وتفاصيل سحرية كثيرة تحدث في ليلة العرس، وكأي بنت، كانت الأفلام والقصص الرومانسية تغذي هذا الخيال وتجعل من ليلة العرس وكأنها أهم ليلة في العمر، وهكذا يسميها الغالبية. لكن، حدث العكس تمامًا. خرجت من الحمام وأنا أرتدي الطقم الأبيض، الروب ودشداشة النوم تحته... تصورته سيقبلني وسينزع عني الروب برقة... وسيهمس بأذني... فإذا به يقول لي: استلقي وافتحي ساقيك، وإذا تمنعتِ أو تحرّكتِ ستتألمين.... آآآآه معذرة، لا أستطيع مواصلة وصف تلك الليلة، أفضلَ نسيانها. ربما سأكمل بعد قليل، أحتاج لبعض الراحة الآن... حسّوني، احضني بقوة.



حتى الآن، لا أعرفت امرأة إلا وقد صدمتها الخيبة من تلك الليلة؛ لذا تجدهن يتحدثن عن كل ما في أعراسهن، الثياب والطعام والضيوف والهدايا والمكان والسفر وغيره، فيما يتجاهلن التفاصيل الحميمة الخاصة، كأنهن يردن مراكمة التفاصيل الخارجية فوق التفاصيل الخاصة كي لا يرينها. تلك اللحظات الفاصلة التي كان عمرهن قبلها حلمًا دائمًا بها، وبعدها يردن نسيانها تمامًا. فتصبح كنقطة ميتة في حياتهن.

سرعان ما أدركت بأننا مختلفان في كل شيء تقريبًا.. لكنه العراق وظروفه السريالية التي وضعتنا في أكثر من موقف مرير.. وشيء آخر، أقوله هنا ولأول مرة في حياتي، بصراحة: إن أهلي قد أرادوا التخلص مني.

كنت أحيا كأنني مُخدَّرة. شعرت بغربة مع هذا الرجل وبعدم

الجدوى. ولداه هادئان لكنهما لم يحباني أبدًا، كأني سرقت أباهما منهما، وهذا شيء طبيعي ويمكن تفهمه لكنه لم يتغير لحد الآن. هو لم يخفِ صور زوجته الميتة التي كان يغطي بها معظم زوايا البيت وغرفتهما. هذا شيء أزعجني منه، لشعوري الدائم بأنه لا زال يحبها ويعتبرها هي زوجته.. أما أنا.. فماذا.. ما دمت حتى لم أتمكن من سد غيابها؟.

كان انتقالي من بيت أهلي الذي ليس علي فيه أية مسؤولية إلى بيت كبير تقع فيه عليّ كل المسؤوليات، انتقالًا انقلابيًّا. في الشهر الثاني أصبحت حاملًاهل لاحظت كم أنا سريعة وخصبة؟وهو أقنعني بأن هذا لا يخل باتفاقنا؛ لأن الولادة سوف تكون في الأردن. أصرّ أيضًا على أن أترك دراستي، على الرغم من أنه لم يبق أمامي إلا بضعة أشهر لإكمالها. قال لن تحتاجي إلى الشهادة بشيء، سوف أوفر لك كل ما تريدين، ثم أنا دكتور وهذا يكفي كشهادة لكلينا.

ولّما أحسست بكائن يتحرك في داخلي أصابتني صدمة الخلق العظيمة.. وزدت استسلامًا لحالة من الشعور التخديري.. كأني سائرة في نومي أو فوق غيوم.



مساء القُبَل على وجهك وأصابعك.

عدت الآن من مشواري اليومي. أبوسك عن كل المساءات الماضية، وفي كل الأوقات التي يملؤها وجودك مسرة ونشوة وآمال. أتمنى أن تكون أنت –وليس غيرك– الرجل الذي أحلم به، وعندها سوف أقول لك: ليست هناك أية مشكلة في أي حال ووضع سنكون مع

بعضنا. فالمهم فقط؛ هو أن نكون معًا حلمًا أو حقيقة. أحب سلفادور دالي لأنه يرسم اللاوعي.. وكم بي رغبة لزيارة متحف (الملكة صوفيا للفن الحديث)، ورؤية لوحاته الأصلية التي طالما حدقت بصورها في المجلات، منذ العراق، لكن هذا الرجل يمنعني من ذلك ويسخر مني كلما حدثته عن رغباتي التي من هذا النوع، وكم منعني بحجج مختلفة من الذهاب إلى محاضرات لكتّاب أحبهم!.

أتمنى مشاهدة المسرحيات وحضور الأماسي الشِعرية. الحياة الثقافية ضاجّة في مدريد؛ صالات عرض، مسارح وسينمات كُثر.. أتمنى لو أتابعها كلها. عندما اقترحت على عبود أن نذهب للمسرح قال: لازم نشوف مسرح مسلمين أو متصوفة..

تخيل! لذلك لم أفتح أمامه هذا الموضوع ثانية. المعهد المصري يقيم أماسي ثقافية مساء كل أربعاء، وعندما أقول له: تعال نذهب لحضورها، يقول: إنني أملّ وأتضايق من هؤلاء المُحاضرين، كلهم علمانيون... وهكذا أنا ممنوعة من الصرف مثل بغداد أو البصرة، صحيح أم أنا غلطانة؟

حسن، لماذا تحاول أن تُعَقّلني؟ إنني أرفض هذا العقل الجمعي الذي يحنطون أنفسهم به. أُفضل الألم، منتهى الألم، على العيش في هذا العقل. لماذا لا أستطيع تنفيذ حتى هذه الرغبات النظيفة؟.

الجو بارد الآن وأنا بالكاد أرتدي شيئًا. قلبي حار جدًّا وأشتهي آيس كريم.. أشتهي أن آكلك. أقبل أصابعك الاثنين والعشرين ... ألحسها. القلم اصبع أيضًا.

قبلاتي لك لا تنتهي.. وما لا تستحصله الآن منها، سَجّله على الحساب، وأنا على استعداد لتسديدها متى ما تشاء. أعرف بأنك

مشغول، فلا تعتذر عن تقصيرك معي، ولا تزعج نفسك وتزعجني بكثرة الاعتذارات وإلا سأكف عن اللعب معك لعبة العريس والعروسة. أنا بنفسي سأجد لك الأعذار أمام نفسي، ولكن فقط، أريدك ألا تنسى بأني الآن لي حق عليك.. أليس كذلك..؟

اكتب لي عما يشغلك.. وخاصة بشأن القراءة والكتابة؟. لا زلت أبحث عن مثقف عربي قريب يعيرني الكتب.. فبلا قراءة أشعر بأن جزءًا كبيرًا مني سيكون معطلًا، خاملًا ومنطفئًا.. شكرًا لأنك تُقر بخصوصيتي.. حدثني عن آخر امرأة في حياتك. عن تعاملك معها روحًا وجسدًا. سينفعني ذلك كمادة تغذي الحلم.. أين كنت منذ زمن؟. ليتني عرفتك مبكرًا. سابقًا كانت لي (بطولات)، وغالبًا ما أكون أنا المُبادرَة.. أما معك الآن، فلا بطولات لديّ وإنما بانتظارها منك وحسب، على الرغم من أنني لا أحب أن أكون عديمة الحيلة. ليتني قربك حين تعود متعبًا من انشغالك، فأخبث عليك وأزيد من تعبك حد إضجارك عامدة.. ثم أقبّلك وأصالحك، وبعدها بخمس دقائق أعاود التخابث. أوه.. ليتني أعيش هذه التفاصيل.. إن السعادة غالبًا ما تكمن في تفاصيل غاية بالبساطة دون أن ننتبه إليها. كن على راحتك معي يا حبيبي.. بلا قيود ولا واجبات مفروضة، فالذي يهمني أن تكون مرتاحًا معي مثلما تمنحني أنت الراحة.

أنا مثلًا، لا أغضب من صديقتي ياسمين أبدًا ولا هي منّي، لأنها تعرفني تمامًا، ولا أحتاج معها للشرح أو التبرير. كلانا لا نحب الزعل ولا العتاب. أما معك، فإن حدث شيئًا من هذا القبيل، علينا فقط، أن نأخذ بعين الاعتبار أنه ربما لكوننا لم نلتق لحد الآن، ولهذا أبدو حساسة بعض الشيء. عمومًا أقبّلك من حيث شئت وأطلب منك

المعذرة. صدقني يا حسن: أنا امرأة خارجة من أحلامك. ذات مرة قرأت قصة قديمة لهرمان هسه ضمن مجموعة قصص له ترجموها بعنوان (أحلام الناي) ربما هي القصة الأخيرة في المجموعة وربما عنوانها (زهرة السوسن) وذهلت، كأنه قد كتبها عني، وكأنه يعرفني وعايشني.

شكرًا لك لأنك تذكرني حتى وأنت مُرهَق.. فهذا يعني حبًّا.. أليس كذلك؟. اتصلت بي ياسمين وأنا سعيدة لأنها سعيدة بلقاء صديق قديم لها، ولأنها سوف تبعث لي بمجموعة كتب جديدة. قلت لها أن تبحث لي عن نسخة من (دابادا) بأي ثمن، على الرغم من أن حلمي هو أن أقرأ نسختك أنت بهوامشك على هوامشها.

في بغداد عرفت أن الشاعر عباس النظيفوأنا أسميه الوسخيسكن في الحي نفسه الذي فيه بيت زوجي. كنت قد قرأت له ديوانًا و لم يعجبني، ثم كرهته كرهًا أعمى حين صار يصدر في كل شهر ديوان مدح للطاغية وللحروب.

أتعرف يا حسن؟.. كل الأخبار التي نقرأها عن العراق كأنها طعنات، جراح جديدة وفتح لجراح قديمة.. إنني أخشى حتى من مجرد الاتصال بأختيّ كي لا أسمع أخبارًا سيئة. إنهما تسكنان في منطقة بالغة الخطورة.. آه يا إلهي.. حتى ونحن على كل هذا البعد من العراق إلا أنه يأكل ويشرب معنا.. أو الأصح يأكل أعمارنا ويشرب من دمنا. وكلما قلت لنفسي كفى عراقًا.. يظهر لي عراقي مثلك فيغرقني مجددًا بحب هذا البلد وأوجاعه. الكاتب الأسباني أونامونو قال أيام الحرب الأهلية "توجعني إسبانيا" وأنا أقولها هنا للأسبان "يوجعني العراق" فيفهمونها ويصمتون.

أهلي كانوا يحبون المظاهر والتباهي دون الالتفات إلى جوهر الأشياء. زوّجوني بسرعة دون أن يمنحوني أو يمنحوا أنفسهم فرصة. كنت مرعوبة من أن ألد طفلًا في هذا المجتمع المحكوم بطاغية أكره حتى ذكر اسمه، و لم أكن أنظر إلى صوره التي تملأ الشوارع والساحات والجدران، فأنظر إلى السماء أو الأرض أو حتى إلى أية مزبلة، أو أمشي ناظرة إلى حذائي.

في الأسبوع الأول من زواجنا، قال لي عبود بأنه قد حلم بأنني كنت متزوجة من رجل قبله، وراح يصف لي كل مواصفات زكريا، ثم ذكر لي اسمه. وقال: كنتما متزوجين ولكنه لم يدخل بك.. كل ذلك رأيته في الحلم. فذهلت و لم أعرف النطق بكلمة واحدة، فقد أحضر لي كل ما عشته مع زكريا وأنا التي تركت كل شيء وراء ظهري على اعتبار أنني سأبدأ معه حياة جديدة. قائلة لنفسي بأنه على الأقل قد منحني اسمه، ويوفر لي كل هذه المتطلبات المعيشية. لاحقًا فكّرت بأنه ربما قد تقصّى عن تاريخي الشخصي بشكل ما، لكنه كان يقسم بأن كل هذا الذي قاله إنما رآه في الحلم، وإلى هذه اللحظة ظل هذا الأمر يحيّرني على الرغم من أننا لم نعد إلى ذِكره أبدًا.

بعد أن أجبرني على ترك دراستي، رفض بالطبع أن أعمل في أي مجال آخر. بقيت في البيت أطبخ وأغسل وأكنس وأنتظر قدوم الطفل والسفر، إلا أنه لم يكن يفتني أي شيء يتعلق بمتابعة الثقافة، سواء في المجلات والصفحات الثقافية في الصحف وما هو بالمستطاع من الكتب؛ لأنه يرفض وجود كتب في البيت باستثناء بعض الكتب العلمية التي من اختصاصه، والكتب الحزبية التي هي من نفاقه، وبعض الكتب الدينية التي يرى فيها ترويضًا لي على طاعته كزوجة.

كان له صديق وزميل في الجامعة والحزب، ووالد هذا الصديق رجل دين ويعمل مستشارًا في وزارة الأوقاف؛ لذا كانت في بيتهم مكتبة كبيرة غالبيتها كتب دينية، بعضها يندر وجوده في المكتبات؛ لأن جدهم بدوره قد كان رجل دين ومن مشايخ طريقة في التصوف. وكنا نتبادل معهم الزيارات كثيرًا فأستعير منهم الكتب وأقرأ بنهم. والدهم، الرجل الكبير، أُعجب بنهمي للمعرفة وأحبني. كان يشجعني ويفرح بأسئلتي ومناقشتي له دون الآخرين الذين يبدو الأمر وكأنه لا يعنيهم، فكنت أجلس إلى جواره في كل زيارة، نحتسي الشاي ونتناقش جانبًا، فيما خليط الحشد من العائلتين منشغلين بالأكل واللعب ومشاهدة التلفاز والثرثرة. كان يحبني لأنني كنت قليلة اللغو وكثيرة التساؤل واستعارة الكتب.

في تلك الفترة، وبشكل ما، صرتُ محبوبة الأهل لأن أختي حنان قد أحبت شابًّا اختارته بنفسها وفرضت عليهم أن تتزوج من أحبته هي لا من سيختارونه لها، مستفيدة بذلك من تجربتي التي دفعتُ فيها نفسي ثمنًا لتطبيق طاعة الأهل وإرضائهم. فتزوجته على الرغم من عدم رضاهم، وهي الآن سعيدة معه بأولادهما على الرغم من الفقر.

بعد فترة، صدر قانون يمنع أساتذة الجامعات من السفر خارج العراق، ورغم ذلك فإن بعض أصدقائه تمكنوا من الخروج بوثائق وجوازات مزورة. تعبت من كثرة الكلام معه ومحاولات تحريضه على ذلك، إلا أنه لم يكن يهتم لرغبتي أو لوعده لي أو لمشاعري... كان همّه الأول هو أولاده ومصلحتهم، كما يقول، حتى أنه قد زرع فيهم الشعور بأن على الجميع أن يكون في خدمتهم؛ لأن أمهم ميتة، وبأنهم فوق الكل. هكذا صرت أعيش غريبة في بيت ليس لي ولست

أنا من اختارت ستائره وأثاثه وأواني الطبخ ولا أي شيء فيه، وإنما زوجته الأولى التي تحاصرني صورها في كل الزوايا، كصورة الطاغية، حتى في غرف النوم. ولم يكن بمقدوري تغيير قناعتهم ومشاعرهم وسلوكياتهم ولا أي شيء في هذا البيت، لذا صرت أشعر بأنني مجرد عاملة بأجر يومي هو المأكل والمنام، ومنذ ذلك الحين صرت أسمي عبود (المُستأجِر). هل عرفت لماذا أتهرب من كتابة التفاصيل في أغلب الأحيان؟.. لأنها تؤذيني وتحزنني، أشعر معها بأنني مجرد ضحية أخرى من ضحايا العراق وأهل العراق وظروف العراق.

أحفظ بيتين من قصيدة قديمة لشاعر من الناصرية، اسمه رشيد مجيد قرأها لي بنفسه حين دخلنا صدفة، أنا ويوسف، لنلتقط صورة في استوديو له في أحد شوارعها، أيام كنا نسرق الوقت ونهرب في تطواف هناك. كنت حينها، وعلى غير عادة بقية البنات الطالبات اللاتي يغلفن محفظاتهن الجامعية بصور الفنانين المشهورين ونجوم الرياضة والأزياء، أغلّف محفظتي بالقصائد دائمًا كي أقرأها في لحظات انتظار الباص، وفي الباص، وفي الدروس المملة، وما أن أحفظها حتى أستبدلها بقصيدة أخرى وهكذا. لحظتها كان الغلاف قصيدة السياب (غريب على الخليج)، حين رآها الشاعر الطيب رشيد، قال اسمعي قصيدتي هذه، وهي من قصائدي الكثيرة عن العراق، وراح يقرأ، فحفظت منها قوله:

"الزنزانة الكبرى عراق

والسجين المرتمي خلف دياجيها... عراق

يا هوانا ...

أيها الموغل ما بين فؤادي والعراق

لم تزل فينا بقايا،

تتشهّى كل شيء في العراق ".

ثم أطلنا الحديث عن الشِعر وقرأ لي مقاطع من ملحمة شعرية له عنوانها (ليلى)، قال إنه اسم فتاة يهودية عشقها في شبابه، ولا زال، حتى بعد مرور أعوام طويلة على فراقهما ورحيلها، وظل يكتب عنها وعن العراق طوال حياته. كان رجلًا في منتهى الدماثة والتعب. في عينيه حزن غائر. يوسف ينظر إلى ساعته ويستعجلني للعودة إلى البصرة قبل أن تغلق أبواب الأقسام الداخلية، وأهمس له: اصبر قليلًا، هذا إنسان جميل. فيزمّ شفتيه مستنكرًا، وحين خرجنا قال: أي جميل هذا! ألم تري وجهه؟. كان الشاعر رشيد مصابًا بمرض جلدي أثر على صحته وملامح وجهه.

.. عندما أنظر إلى نفسي الآن وأقارنها بأية امرأة بعمري في هذا المجتمع، أرى فرقًا واضحًا جدًّا، وفي كل شيء تقريبًا، فأتساءل: لماذا هم سعداء ويشعرون بالنجاح؟ ولماذا أنا إلى هذه الدرجة من التعاسة والفشل وعدم الجدوى وأضطر لتحمل أناس غرباء، أقف ساعات في مطبخهم، أغسل الأواني وأمسح السلم والأرضية علّهم يخفضون الإيجار قليلًا؟.. أحيانًا أتعجب من قدرتي على الحب من جديد على الرغم من كم الحنق الذي في داخلي.

بالمناسبة، لقد خدرت مؤخرتي من طول الجلوس فاسمح لي أن أرتاح قليلًا.. آكل تمرًا وأشرب ماء وأتمطّى في الحديقة ثم أعود إليك.



"أنت عسلي وحلواي

فتعال إذًا وامنحني قُبلة"

هذه كلمات تعلّمتها اليوم من زميلتي البرتغاليّة في مدرسة اللغات، وأعرف نطقها بالبرتغالية أيضًا، ربما هي كلمات أغنية.

ليتنا نمضي معًا ولو أسبوعًا واحدًا في البرتغال. يسحرني شاعرهم العظيم فرناندو بيسوا، وأنا أسميه الشعراء بيسوا؛ لأنه كان يكتب بأكثر من اسم مستعار، وقرأت كثيرًا لخوسيه ساراماغو وعنه. يعجبني هذا الرجل بكتابته ومواقفه وسوف أقرأ له وعنه كل ما يقع بين يدي.. أشتهي لو ألحس آيس كريم الآن... للتو أنهيت مكالمة مع ياسمين، أضحكتني كثيرًا على ذكريات لنا، وتحدثنا، مثلما نفعل دائمًا، عن مدى خوفي من الكتابة.. قرأت نصًا قصصيًا لكاتب عراقي شاب ثلاث مرات متتالية، ففي العراق الآن العديد من التجارب الجديدة. بطريقة ما، شعرت بأنه كاتب أفكاري، ومنها الحانقة الغاضبة على ما يحدث في تفاصيل الحياة اليومية العراقية. طبعته، ولكن صارت الأوراق عندي كثيرة، فأين أُخبئها؟. إنه نص مشغول بصدق ومصحوب بهندسة بارعة في التعامل مع اللغة.. ثمة عبارات تأخذ شكل الكائن الحي؛ أي شعرت بها تتنفس، تشهق وتزفر.. ثمة شيء كنت أريد قوله منذ زمن ووجدته في هذا النص.. كنت أريد القول: إن أي شيء قد حدث لي، وأي شيء سوف يحدث، لن يقدر على إطفاء لذة الاندهاش الأولى في عينيّ، تلك الشبيهة بدهشة شاهين في (دابادا). سوف أسمع صوتك غدًا، ولن يهمني إذا ما كان الوقت مناسبًا أم لا.. سوف أحكي معك حتى لو كنت جالسًا مع الرب نفسه. أعجبني أيضًا التجريب واكتشاف طرق أخرى في السرد،

ومنها التركيز على الثيمة الجانبية الأهم وترك الموضوع الأساسي المعروف؛ نوع من قول الشيء ذاته عبر تناوله من جانب مختلف.. سأقرأ نصوصك عدة مرات، إحداها من النهاية إلى البداية.

أحلم بكتابة هي نمط آخر من الحياة؛ فالحياة أهم من الكتابة، وعلى الكتابة أن تتحول إلى حياة لتكسب أهمية أكبر. عندما كنت صبية وفي مرحلة المدرسة المتوسطة، كنت أعيد كتابة كل ما يعجبني من الأفلام والمسرحيات التي أشاهدها، حيث أشعر بمتعة رؤيتها بعينيّ أنا وبكلماتي، وكم استهلكت من الدفاتر المدرسية في ذلك، وأمي تسألني: كل يوم تريدين دفاتر جديدة.. أين تذهبين بها.. هل تأكلينها؟. فأضحك وأقول لها: نعم، آكلها وتأكلني. وفي الجامعة وبعدها، كثيرًا ما كانوا يسألونني لماذا لا تكتبين؟.

أبحث عن حياة تجعلني أكتب أو كتابة تجعلني أحيا، لا فرق... أحلم بأصابع تمتطي الحرية وتلك كانت المعضلة... أنا مثل حسن مطلك وهو يقول:" لا فرق بيني وبين ما أفكر به... بما أنني سقت نفسي بقسوة إلى الاعتراف بعدم الكذب. أنا والكتابة شيء واحد!"، وهو يتساءل: "كيف أصطاد التجربة بالكتابة؟. يبدو أنني لم أعد أستطيع أن أكتب عن أي شيء، لأنني سوف أستغرق في تأمل الأشياء التي تتحول إلى ماهو أكبر مني". وأحيانًا أقول: بما أن في العالم كتب كثيرة تستحق القراءة فلا مبرر لأن أكتب أنا.. ويكفي أني أقرأ.. ليتني أجد الفسحة الزمنية الكافية لقراءة كل ما أريد قراءته.

لا زال في العمر بقية وكتب. عندي نهدان رائعان، ولن تصدق عند رؤيتهما بأنني في الأربعين وأن ثلاثة أطفال توالوا على رضعهما. أحلم بمداعبة لسانك لحلمتيّ، وسوف ترى كيف تنتصبان. لا زلت

مشتاقة لك، و لم أشبع اليوم من صوتك، أتمنى لو أنك تعاود الاتصال بي. في الحقيقة حتى لو تكلمت ساعة أخرى فسوف أبقى أشعر بظمأ إليك. هات أذنك، أهمس لك: أشعر بنوع من طغيان وجودك الحسي على جسدي، ولا أعرف كيف أوصل لك الفكرة.. ربما في الهاتف أفضل. لا تقل لي انظري حولك. فليس هنا بجوارنا غير بضعة رجال أسبان مملين وإنجليز باردين ومهاجرين مثلنا تائهين خائفين. وحدك أنت من يغذي مخيلتي بالصور الساخنة ويروي عطشي.. فمن أين آتي بك الآن؟..

نادرًا ما أقول كلمة (حبيبي)، وها أنا أقولها لك من كل قلبي كل يوم، لست متسرعة لأن إحساسي بك كبير وأشعر بأنك أنت فعلًا حبيبي الذي بحثت عنه وأريده. أكاد أسمع صخب ضحكتك بصحبة أصدقاء. أكاد أسمع نشيجك على العراق في زاوية معتمة أو بريّة. أحبك ولا أشبع منك ومن حبك. إنني أستحق حبك، أقسم لك. ولو كنت أعرف أين أنت الآن لبادرت بالذهاب إليك أينما تكون والتصقت بك. عجّل بظهورك. فأنا أحتاج إلى شهور طويلة كي أحفظ خطوط يديك. لا أدري أين قرأت قصيدة تقول: "ضياع قديم أنا/ وانتمائي يداك"، ربما هي لشاعر مغربي. وخمسِ سنوات كي أقرا عينيك، وخمسٍ أخرى أتابع فيها أنفاسك، وعشرة أتحول فيها إلى شفاهٍ، كلي؛ لتقبيلك.. ولن أرتوي.

أنتظرك بفارغ الصبر، وأنتظر (دابادا). لا يوجد شيء منشور لحسن مطلك أو مكتوب عنه لم أقرأه، ولكنني لازلت أبحث عن الخاص وعما لم يتم تدوينه. وليس التي تنشر ويقرأها كل الناس. هذا الموضوع يثير حزني أحيانًا. أتركه الآن، وربما لزمن آخر. أقرأ لمحسن

الرملي شقيق حسن مطلك، وهو بالطبع لا يرقى إلى مستوى حسن ولا تعجبني كتابته كثيرًا؛ ربما لأنني أظلمه حين لا أستطيع نسيان حسن فأقارنه به بلا وعي. قرأت شهادته عن أمه في موقع مجلة (ميسوبوتاميا) فأعجبتني جدًّا، وقرأت صفحات من كتابه (أوراق بعيدة عن دجلة) وفي الوقت نفسه أقرأ قصة بالإسبانية فيها أجواء نفسية ورعب، وأقوم بدور الأم.. وطوال الوقت أتحدث معك.. إنني مضروبة بسحر الكلمة.. وأبحث عن صورة تشبهك، حتى صرت أعرف تفاصيل وجهك. حتمًا أنت الآن أجمل من قبل. هل أنت متزوج؟.. هنيئًا لها بك.. حلمت بك قبل يومين، حلم حقيقي في منامي وليس حلمًا إراديًّا.. فأحلامي الإرادية بك ومعك كثيرة جدًّا.. صارت جزءًا من حياتي الواقعية.. بل تكاد تكون هي الجزء الأهم. هل لا زلت تخاف مني؟.. وأنا أخاف أكثر على الرغم من أنني لا أخاف من الرجال.

أعرف بأنك شجاع فيما لو كنت قد خرجت من العراق، وبأنك أشجع فيما لو أنك قد بقيت فيه. وأعرف أيضًا بأنه ليس صعبًا حد الاستحالة أن نلتقي سواء في العراق أو خارجه. أنا على استعداد للذهاب إليك أينما كنت إن كنت لا تستطيع القدوم إليّ. أريد منك إشارة فقط وسوف أفعل، بلا أي تردد، بعد أن تؤكد لي بأنك تحمل تجاهي المشاعر ذاتها التي أحملها تجاهك. لست رخيصة أبدًا، وأنت تعرف ذلك.. لكنني أريد أن أبين مشاعري وأدافع عنها.. لأقول أحبك وحسب. أرجوك، لا تعاند ولا تتهرب... أنا أرض خصبة، فتعال واحرثني، اغرس بذورك فيّ وأمطر عليّ.. سأونع ثمراً جَنيًّا.

قبل قليل خرجت من الحمّام، كان شعري يقطر ماءً على كتفيّ، ينزل على صدري، يبلل الثوب الشفيف فيشف عن مشهد نهدين

أبدع الرب في صوغهما. وقفت أمام المرآة مأخوذة بسحر جمال ما رأيت. حزّ في نفسي أنه سيذهب إلى العدم، ولو كان في هذا الكون عدل لكان من الواجب إنزال أقصى العقوبات بك على جريمة عدم رؤيتك له قبل الزوال. شعرت بقطرات دمعي ترافق قطرات ماء شَعري نزولًا.

حسن أين أنت؟.. كل ثواني عمري متحوّلة إلى أسئلة.. أين أنت؟؟؟ سوف أقول لك شيئًا يصعب عليّ قوله، لكنني سأقوله بشكل ما: أنا بحاجة إليك. إنني أختنق وأشعر بأن.. حتى دموعي صارت بعيدة عني.. بعيدة مثلك...

أقسم بأنني لست أنانية.. لكنني مللتُ من التضحية... سأذهب لأنام.. وأريد أن أصحو عليك.

-١١-

دخول التصوّف والخروج منه

أنا

قررت السفر إلى إسبانيا.

... وأول من أخبرته بهذه الفكرة هو خالد، فضحك كعادته في البداية، وقال: كنت أظن بأن تجربتك هنا في الأردن والالتحام بطين الواقع قد جعلتك أكثر واقعية، ولكن يبدو أن رأسك لا زال يشطح بالأحلام الفانتازية.

سُقتُ له المبررات قائلًا بأنني: ما دمت قد هاجرت وتغربت فلأجعل أعوام غربتي أجدى وأنفع من مجرد سد الرمق، لا أفكر بالعودة إلى العراق؛ فظروفه تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، والأردن كما تراه، بلد صغير بلا موارد ويغص بالمهاجرين الباحثين عن عمل. أريد المحاولة في بلد آخر من أجلي ومن أجل بنات حسن.

– بل قل: من أجلها، وإلا لماذا تفكر في إسبانيا، بينما بلدان أخرى تسهل الهجرة واللجوء للعراقيين؟

– نعم، من أجلها، وكذلك كي أحاول إكمال دراستي للغة الإسبانية التي كنت قد بدأتها في العراق، وأنستني إياها سنوات الخدمة في الجيش والحرب والحصار.

-لا أعتقد بأن الأمر بالسهولة التي تتحدث عنها، لا من حيث الحصول على تأشيرة دخول، ولا من حيث التكاليف المالية، وخاصة أنك مفلس مثلي، ولكن من حقك أن تحلم.

-سأحاول.

في اليوم التالي، يوم أجازتي الأسبوعية، ذهبت إلى المدينة، إلى مقهى الإنترنت الذي اعتدت الذهاب إليه في (دوار الجامعة). طبعت عشر صفحات أخرى من رسائل هيام ثم اتصلت بصديقي من أيام الدراسة في جامعة بغداد عبدالهادي سعدون؛ الذي ذهب لإكمال دراسته في مدريد منذ عام، وكنا نتواصل عبر الرسائل والإيميلات، نتبادل الأخبار والنصوص الجديدة التي نكتبها. كان هو أحد الأصدقاء القلائل جدًّا الذين لم يبتعدوا عني، خوفًا على أنفسهم، أيام اعتقال، ومن ثمّ، إعدام أخي حسن مطلك. أخبرته برغبتي، فقال: يمكنني أن أساعدك بالحصول على قبول دراسي هنا، فابعث لي بوثائقك الدراسية إنْ شئت، وعلى ضوء القبول يمكنك التقديم لطلب تأشيرة طالب، وعند وصولك إلى هنا يمكنك الإقامة معي ونتدبر أمر العيش سوية. يبقى الإشكال فيما إذا كنت قادرًا على تدبير الشرط الأصعب ليمنحوك التأشيرة، ألا وهو أن يكون لديك حساب بنكيٌّ بعشرين ألف دولار على الأقل، وأوراق أخرى تثبت من خلالها أن لديك موردًا شهريًا كافيًا، فهم يشترطون ذلك للتأكد من أن الذي يأتي إلى هنا لا يحتاج لأن يعمل في بلد أكبر مشاكله هي البطالة.

هنا انهار الحلم تمامًا وشعرت بالاختناق مجددًا.. وبأنني محاصر بلا آفاق لفعل شيء مستقبلي أفضل. تزامن ذلك مع تعثر لقاءاتي بـ(هبيبي السريلانكية)، ولم تعد يوميّة؛ فقد أخبرتني مؤخرًا أنها قلقة وخائفة لأنها تظن بأن سيدها، صاحب البيت، ربما لديه شكوك حول حدوث

شيء ما في الليل، فقد لاحظت تغيرًا بطبيعة نظراته وتعامله معها، وبأنه يستيقظ أحيانًا في منتصف الليل، يدور داخل البيت وخارجه، ربما يكون قد سمع أو لاحظ شيئًا ما. لذا صرنا لا نلتقي إلا بموعد نتفق عليه مسبقًا عبر الإشارات، بعد أن تتأكد هي من انشغال سيدها أو من تعبه أو سفره أو مرضه.

مرت عدة أيام كنت فيها دائخًا، لا أشعر بالذي يدور حولي. لا أعرف من أنا ما دمت لا أعرف حتى كيف أتصور غدي. أحس بوجودي بلا أي طعم.. كأنني طعام بلا ملح.

أثناء استراحة شرب الشاي التي اعتاد أن يقوم بها المقاول حسين العمري كلما زار موقع العمل، قال إنه لاحظ بأنني لست على ما يرام في الأيام الأخيرة.. شارد الذهن وحزين. سألني فيما إذا كنت متعبًا، مريضًا، ضايقني أحد أو قد أصاب أهلي مكروهًا في العراق؟. فبثثت له شكواي من شعوري بالتعب واليأس والاختناق وانسداد الأفق، فلا مستقبل هنا ولا في العراق، وبأن بارق الأمل البسيط بالذهاب إلى بلد آخر يبدو مستحيلًا، وحدثته عن فكرة الذهاب إلى إسبانيا وشروطها، ففاجأني بالقول:

– ولا يهمك، هذه بسيطة وأنا أتكفل بحلها. أنت إنسان طيب وابن حلال وأنا أحب وأشجع كل من يريد مواصلة الدراسة وطلب العلم؛ لأن طلب العِلم واجب، بل فريضة على كل مسلم ومسلمة.

كنت أنظر إليه وأنا أكاد أبكي من شدة غبطتي بهذه المفاجأة، أكاد أثب إليه لأحتضنه وأقبل رأسه، لكنني تماسكت وسألته: كيف ستحلها؟ هل تعرف أحدًا في السفارة الإسبانية مثلًا؟

– لا، وإنما سنفتح حسابًا باسمك في البنك، وأضع فيه عشرين ألف دولار، ثم أسجل على نفسي تعهدًا قانونيًا أتكفل بموجبه تحويل

ألف دولار إليك شهريًا، وبعد حصولك على التأشيرة نعيد المال إلى حسابي ونغلق حسابك. تبقى مسألة التعهد، يمكنني التراجع عنها بعد سفرك مثلًا، أو نبقيها لأغراض تسهيل استخراج أوراق إقامتك، ولكن عليك أن تتدبر أمورك بنفسك هناك.

هنا فعلًا اغرورقت عيناي بالدموع ونهضت إليه أقبل رأسه. كنت منبهرًا بحجم هذه الثقة وكل هذه الطيبة، شعرت بأن صعقة من نور الأمل تجتاحني وتهزني حدّ الارتجاف. ربما كنت أرتجف فعلًا، فهدأني وأجلسني برفق إلى جواره، ممازحًا:

- ولكن ها، احذر أن تأخذ مصارياتي (فلوسي) وتهرب حالما أضعها في البنك باسمك.

ثم نهض ونهضت معه، وأضاف:- اذهب غدًا إلى عمان وابق فيها ليومين، استشر معارفك هناك واسأل السفارة مباشرة عن الأوراق المطلوبة وعندما تجهز كل أوراقك أصحبك معي إلى البنك، مدير فرع البنك هنا صديقي أيضًا، ونجهز لك ورقتي الحساب والتعهد.

وقبل أن يغادر، قال:- لا تقلق بشأن الحراسة، سأضع أحد عمالي مكانك لهذين اليومين.



هي

أنجبت طفلي الأول، وكما ذكرت لك، أصابتني صدمة الخلق، ووجدت نفسي أتجه إلى قراءة الكتب الدينية. أكثر الاستعارات من مكتبة بيت صديق عبود، وفجأة.. وجدت نفسي أتَحَجَّب. أهلي العلمانيون غضبوا مني لفعل ذلك.

في سنوات الحصار، مررنا بظروف عسيرة كأي عائلة عراقية. كان راتب عبود لا يكفي لأكثر من عشرة أيام فاضطررت مرة أخرى إلى الخياطة كي أساعد في مصاريف البيت. وحرصًا على مداراة الوضع، عندما يعود أولاده من المدرسة، كنت لا آكل معهم وأجعلهم يأكلون أولًا ثم آكل أنا ما يتبقى. لم أكف عن القراءة يوميًّا، قارئة أي شيء يتعلق بالدين والروحانيات؛ حتى قادني ذلك إلى التصوف. أحب كل ما في أدبيات الأديان من حكايات، وخاصة تلك التي تتحدث عن خلق الكون وعن العوالم الأخرى. وحبّي لك يشبه التدين، حيث أن المتدينين يؤمنون بأشياء وعوالم لم يروها، لكنهم يتعاملون معها على أنها حقائق، ويعيشونها في كل تفاصيل حياتهم. ما يعجبني أيضًا في الأديان؛ تلك النصوص والرسائل والخطابات التي تدعو للحب، ففي كل الأديان ثمة محور أساسي يدعو للحب. ما يغيظني.. هو هذا التناقض عند رجال الدين الذين يدعون للعنف والقتل والحروب بحجة الدفاع عن دين هو في أصله دعوة للحب.

توفيت أمي مبكرًا كان عمرها إحدى وخمسين سنة فقط.. عندها شعرنا بأننا فقدنا كل شيء، البيت والأم والأب، فقد راح أبي يذوي، وغالبًا ما يكون شارد الذهن متشردًا في تطوافه، عندما تتحدث معه عن موضوع، تجده يتحدث عن موضوع آخر. صار يفقد السيطرة على ما يفكر به فيتكلم منتقدًا الحكومة والحزب أينما كان وليس في الاجتماعات الحزبية وحسب؛ لذا تم اعتقاله، في البداية في الشعبة الأمنية الخامسة، ثم لا ندري أين نقلوه أو أخفوه، حيث باءت بالفشل كل محاولاتنا والرشاوى وواسطات عبود ومعارفنا لمتابعة قضيته أو معرفة مصيره، دخلنا في دوامة من الوجل والعوز والذل والرعب. خيّم علينا بؤس حقيقي، عصفت بنا مأساة اختفائه، أو في الحقيقة،

إخفائه، ومُنعنا لاحقًا حتى من السؤال عنه. وبعد سقوط النظام، عرفنا بأنهم عذبوه كثيرًا ثم أعدموه شنقًا ودفنوه في إحدى المقابر الجماعية؛ حيث لم نتمكن من الوصول إلى بقايا جثمانه حتى الآن.

لم تكن لديّ مشاكل كبيرة مع عبود لأنني أسلك وأتصرف وفق ما يريد هو. كنت أفضل مصلحتنا المشتركة ومصلحة الأولاد على مصلحتي الشخصية. همي الأول هو الحفاظ على العائلة بأي ثمن. على مدى ثلاثة أعوام، غصت في مرحلة تصوف فعلية أقضيها بالعبادة وتربية الأولاد صغارًا وكبارًا. ثم صار عندي طفل ثانٍ، وولداه يكبران.

بعد موت أمي وغياب أبي، حدثت مشاكل كثيرة، نفسية ومادية واجتماعية وغيرها، صرت بمثابة أم أيضًا لأختيّ، أقنعت الصغرى بأن تتزوج بعد ستة أشهر فقط من وفاة أمي. حاولت أن أوفّق بين الجميع، لكن المشاكل ظلت تتفاقم وتهطل علينا من كل الجهات، وكلما حدثت مشكلة، ليس لأختيّ أحد غيري تلجآن إليه. كأننا كنا نعيش في مخزن معتم يخمش بعضنا بعضًا، أو يتكيء عليه ويحتضنه. لذا كان توجهي الروحي أشبه باستحداث ضوء ما من داخلي كي أتمكن من الاحتمال والمقاومة. كنت أحب قطب المتصوفين الشيخ ابن عربي؛ بغموض نصوصه، التي أُؤوّلها على مزاجي وكما أريد.. وألتذ بلغتها العالية الغامضة.



لحد الآن لم أكمل طبخ الروبيان مع الأرز والبازلاء والبطاطا، ولكن لا بأس.

لأكتب لك قليلًا عن مرحلة ما بعد زواجي. كان الحمل سريعًا وكأنه قد حدث منذ الليلة الأولى. كنا نزور أصدقاء عبود، ومنهم الدكتور الذي يعمل والده مديرًا عامًّا في وزارة الأوقاف. مكتبة بيتهم الضخمة كلها كتب دينية تقريبًا. بدأت استعاراتي وقراءاتي بكتاب (بداية ونهاية) لابن كثير بكل الأجزاء، (فقه السُنة) كاملًا، (الغدير) كله وبعض الكتب الفلسفية للطوسي، كتب محمد باقر القريشي كلها تقريبًا، (الحِكَم العطائية) للإمام ابن عطاء الله السكندري، (قواعد التصوف) للشيخ أحمد زرّوق، (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي، (الرسالة القشيرية) للإمام القشيري، (من جوامع الكلم) للإمام محمد ماضي أبو العزائم.. وعن البسطامي والحلاج وغيرهم. تعرفت على مصطلحاتهم كالأنس، الاتصال؛ أي أن ينفصل العبد بسره عما سوى الله، التجريد، وبالطبع فهو لا يعني ما نفهمه من معنى معاصر بشأن الفن التشكيلي وغيره؛ وإنما أن يتجرد العبد ظاهريًّا وباطنيًّا؛ ليكون خالصًا لله، الوجد، التواجد، الغيبة، الجمع؛ أي جمع الهمة، بحيث تكون كل الهموم همًّا واحدا، وهو الله. وتدرجات العلم، الصحبة، مجاهدة النفس، الإكثار من ذكر الله والخلوة.. وغيرها.

كانت المكتبة سنية وشيعية بكل مذاهبهما وتفرعاتها، إضافة إلى كتب أقل عن ديانات أخرى، ربما كان عمل الرجل في جهاز الرقابة على الكتب الدينية؛ لذا لديه بعض الكتب التي من الاستحالة العثور عليها في المكتبات. ورافق كل ذلك بداية إحساسي بتحركات الطفل في داخلي؛ مما زاد من توجهي للتفكير بالخلق. بالطبع لم يكن بمقدوري تطبيق أي من تلك المصطلحات حق تطبيقه، لكنني كنت أتخيل بأنني أفعل ذلك ذهنيًّا، أو الأصح، كنت أوهم نفسي بذلك.

ذات شَطحَة روحية.. شعرت بأنني أخترق الحاجز الرقيق الشفيف كغشاء العين بين هذا العالم المكتظ بكل الأشياء وعالم اللاشيء، فوجدت عالم اللاشيء منيرًا، مريحًا، شاسعًا، نقيًّا يتيح الطيران، وفيه ما لا نهاية من اللاأشياء المدهشة بفرادتها، بلاشيئيتها وبعدم وجودها.

في ليلة الولادة الصعبة جدًّا، لم أنم حتى الصباح. كنت أبكي من هول الخلق، لغز الخلق، رهبة الخلق وعظمته. كنت أقشعر وأرتجف بشدة.. ربما أحسست أن شيئًا ما، مِن إله ما، بطريقة ما في داخلي، وأن كل خلق أو مخلوق إنما هو جزء ما من إله ينزاح عن الألوهية ربما لاعتبارات أرضية، أو لأداء مهمة أرضية ما. في تلك الليلة في المستشفى، مر بي كل الخلق وما كنت قد قرأته من تاريخ الأنبياء ومشاهد وملامح من الكتب المقدسة.. بعدها تفانيت بتربية مخلوق جديد، اعتناء بعائلة كبيرة.. وكنت أقرأ وأقرأ كثيرًا.

الأشياء البسيطة، المسلَم بها.. كانت عندي عظيمة جدًّا فأعملها بحب وتفانٍ، بلا كلل ولا ملل. لم أتعب من السهر كي أُرضع طفلي رضاعة طبيعية، وكان هذا الموضوع صعبًا عليّ؛ أنا المزاجية بامتياز، والمُحبّة لجمال صدرها بامتياز.

بعد رمضان، وكان عمر طفلي خمسة أشهر، اخترت الحجاب بلا تردد. أهلي عارضوا، فوالدتي نفسها لم تضع الحجاب على رأسها يومًا. لكن الحياة وشؤونها الطافية على السطح بدأت تتصاغر في عينيّ شيئًا فشيئًا. أنشغل أكثر بالصلاة وتفاصيل العبادة. شعرت بأن ثمة رؤية بدأت تتبلور عندي أو ما اعتقدت أنه وضوح رؤية. كنت أصلي صلوات إضافية قبل النوم، صلاة الليل، وأقرأ مائة آية، وغالبًا ما أستيقظ قبل الفجر للصلاة. لم تكن تعنيني الملذات اليومية،

غاب الشعور بالجوع أو التعب. أرتدي أي ثوب بأي صورة شرط أن يكون طويلًا ساترًا للجسم. كان شعور السلام هو المهيمن عليّ... في الحقيقة هو سلام المستسلمين.



مساء العصرونيات العراقية.

أتمنى تقبيلك الآن.. بل أميتك تقبيلًا.. تخيّلْ أن امرأة تعشقك وتقبلك اليوم بطوله.. عندها، حتمًا سوف تتعقد من النساء وستشتِم أم الذي اكتشف التقبيل وكل عشيرته.. اضحك. أتخيلك ضاحكًا. اضحك يا حُب.

الساعة الخامسة مساءً، وأنا أرتشف الشاي على الطريقة العراقية، ولكن بلا سُكّر لأن حبك هو سُكّر حياتي.. كنت عاقلة أكثر من اللازم مع عبود، وما أكثر صغائر الأمور التي تجاوزتها. ولو كانت أية امرأة أخرى في مكاني لأثارت له في كل يوم مشكلة، لكنني كبرت على المشاكل، تجاهلت عدم اهتمامه وعدم أولويتي في حياته وهربت إلى العبادة. وفيما يتعلق بالجنس تعلمت ترويض النفس والاستبدال، فكلما حانت تلك اللحظة التي أكرهها ولا مفر منها، كنت أملأ رأسي بفيض من الصور التي تجعلني لا أرى ولا أحس بشيء يخص جسدي. في النهاية، هذا الحرمان المتراكم أصاب جسدي بظمأ شديد، إلى أن حدث شيئًا، على الرغم من بساطته، لكنه فَجّر البركان بغتةً، أيقظ تلك الأنثى المنسية المقموعة في داخلي.

كان عبود مُعارًا في إحدى جامعات اليمن لفصل واحد؛ بغية تحسين الوضع الاقتصادي، بقيت وحدي في البيت. ولداه يكبران، دخلا

الجامعة ويدخلان مرحلة المراهقة. كنت حريصة ألا أرتدي أي شيء غير لائق في البيت أو يُظهر أية معالم من جسدي، ومع ذلك ظلت نظراتهم شهوانية نوعًا ما. كنت أشعر بذلك حتى خلف ظهري حين أكون منحنية أعد شيئًا في المطبخ أو الحديقة.

ذات صباح، صعدت إلى الطابق الثاني كي أرتب غرفة ولديه، فرأيت شرائط أفلام فيديو مبعثرة على أرضيتها. وضعت أحدها في الجهاز، فرأيت أول فيلم جنسي (بورنو) في حياتي.. لم يكن أولاده يصغرونني بكثير؛ لذا كان بعض الجيران يتساءلون كيف أبقى معهم لوحدي! والذين لا يعرفوننا منهم، يتصورون بأنني أختهم. كانا أطول مني، وبدأ زغب الرجولة يظهر في وجهيهما وتدب في أجواء البيت شحنات صامتة مقلقة، ثمة توتر ورائحة جنس حتى في الهواء..

لا أستطيع البقاء طويلًا معك هذا المساء، لا أدري لماذا بالضبط، ولكن الأولاد في البيت، ولا أستطيع أن آخذ راحتي بالكتابة لك، ففي كل بضعة دقائق يتعاركون وأضطر للنهوض لفض نزاعاتهم. صخبهم يصدع الدماغ. ولكن لاحظ شيئًا ما؛ دائمًا كانت الأشياء البسيطة هي التي تغير حياتي.

بالمناسبة، ألا ترى بأننا، ودون أن ندري، أصبحنا نعيش حياتنا مع بعض؟. صرت أعرف أوقات استيقاظك، خروجك من البيت ورجوعك، تناولك طعامك وقراءتك لرسائلي ووقت نومك... أتخيلك بكل الأوضاع، وخاصة في الصباح، أصحو على تخيل طريقة مختلفة ومبتكرة توقظني بها.

ليتك تجرّب قليلًا معنى أن تحتاج لاحتضان إنسان بعينه، وليس أي أحد غيره، هذه الحسرة أو هذا الكبت الذي أعيشه طوال عمري. عندما

شاهدت الفيلم الجنسي.. نزلت كل رغبة العالم في جسدي فجأة. بقيت متجمدة على الكرسي لنصف ساعة، متكورة على نفسي، أضم نفسي ولا أدري ماذا أفعل وإلى أين سأذهب. دفعة واحدة فَزَّت مستيقظة كل رغباتي، كل توقد ذهني، كل حبي للأشعار، كل تهوري السابق.. هكذا مرة واحدة، وبلا سابق إنذار.. بُركان، فأدركت أن ثلاث سنوات من الانهماك بالعبادة والغوص في عالم التصوف لم تقدر أن تقيد انعتاقي الداخلي، ولم تستطع تهذيبي على النحو المعتاد. قد يبدو هذا الحدث بسيطًا وعاديًا.. ولكنه قلب كياني، وكان حافزًا هائلًا نحو عودتي إلى الحياة واستئناف الذي انقطع في مسيرة بحثي عن الحب الحياتي.

أثناء فترة تصوفي كانت تمر بي أوقات أشعر معها بأنني بلا جسد، وإنما مجرد روح. هيئة شبيهة بالقطن أو الغيم تتحرك بخفة ولا يكاد ينتبه إليها أحد. كتبت حينها بضعة نصوص تشبه الهذيان، تتدفق حارّة من روحي، أستشعرها ولا أجيد سكبها بموضوعية وإنما عبر اللغة، لغة وحسب، تبدو مجرد تجريد، لكن هذا ما كنت أرى عليه بعض نصوص التصوف التي تبدو غامضة ومجرد مجموعة كلمات بلا رابط، إلا أنني وفي حالات تجليّات روحي، كنت أقرأها بسلاسة وأرى معانيها واضحة تمامًا، كما يقرأ الإنسان العادي أسلوب أية صحيفة عادية. نصوصي الشاطحة، كانت عبارة عن شيء يشبه طريقة كلامي الآن بالإسبانية؛ أي لا أكمل عبارة وتبدو المعاني مقضومة ومشوشة، كأي شخص لا يجيد التكلم بلغة ثانية، ولكنه بحاجة إلى الكلام بها واستخدامها، كذلك كانت تبدو لي اللغة قاصرة عما أريد قوله، ولكن ليس من أداة غيرها للبوح.



اتصلت بي ياسمين قبل قليل وذكّرتني بشيء نسيت أن أحدثك عنه؛ الدكتور هاني الإسكندراني. هذا أستاذ جامعي مصري كان يدرّس ياسمين في الصف الرابع، ونشأت بينهما علاقة. بالطبع، كانت ياسمين تتحدث له عني كثيرًا حتى يغار أحيانًا أو يقول: أنتما سحاقيتان. حين التقينا في الكلية لأول مرة، أُعجب بي، فصرنا نلتقي نحن الثلاثة بين حين وآخر وندخل في أحاديث طويلة، مختلفة عن مواضيعنا العراقية التي اعتدنا عليها. إضافة إلى اختصاصه الأكاديمي بفرع من القانون كان يعمل مترجمًا أيضًا، ولديه اهتمام بالسينما. يملك شقة في القاهرة وأخرى، على البحر، في الإسكندرية. يحب العراق جدًّا.

ذات مرة دعانا إلى بيته وأدخلنا إلى غرفة النوم بحجة أن يرينا صورًا وشراشفَ بُعثت إليه من مصر، يطيل الحديث عن أنواع وفروقات النسيج والتطريز السكندري عن سواه مثلًا، وأثناء ذلك، كان يلامس أكتافنا بكفه أو أيدينا التي تتلمس القماش... أظن بأنه كان يروم تجربة امرأتين في سرير واحد. ولحظة خرجت ياسمين باتجاه المطبخ لمتابعة إبريق الشاي، حاول تقبيلي فانسحبت إلى الوراء وخرجت من غرفة النوم دون إبداء أي انزعاج أو مشكلة. بعدها التقينا في الجامعة. عرض عليّ الزواج بشكل جدي، ثم كرر الأمر مرة أخرى بحضور ياسمين كي يؤكد جديته. رفضتُ بالتأكيد مثلما رفضت عرض طالب تونسي اسمه بدري، وذلك من أجل مشاعر ياسمين وحسب، على الرغم من أن أمنيتي آنذاك، كانت الخلاص من أهلي ومن العراق بأي شكل.

بعدها استمرا هو وياسمين في علاقتهما، وحتى بعد سفره ظلا

يتواصلان عبر الرسائل والهاتف، ولم أقم بسؤال ياسمين أي شيء يتعلق بعلاقتهما أبدًا، تاركة لها خيار أن تخبرني ما تشاء عنه متى شاءت وكيفما شاءت، دون أن أطلب منها أية تفاصيل. وعندما زارت ياسمين مصر في السنة الماضية، كان أول أسئلته لها هو عن هيام.



حبيبي، شكرًا لك على وجودك في حياتي.. أعرف بأنك حنون، وتحمل هموم العالم على أكتاف ضميرك. اكتشفت هذا فيك، رغم البعد، من خلال تصوري لنظرة عينيك وأنت تتحدث عن الأحبة والأهل البسطاء. اليوم أيضًا أيقظتني مبكرًا ومنحتني هدية تأخذ العقل، شعرت بأن حلمي بك قد صارت لديه ملامح.

لا أطالبك بشيء، وليس عندي أي حق بالمطالبة؛ لكنها أمنيات صغيرة فحسب وأنا أكتبها لك كما هي، أتمنى قضاء كل دقيقة معك، نتشارك في كل شيء، حتمًا سنكون سعداء وستثمر هذه المشاركة عن نصوص رائعة أو بنت حلوة مثلًا، أو ضحكة حقيقية.. مجرد أمنيات لا أكثر ولا أقل.. ودائمًا أتساءل: لماذا أنا مضطرة هكذا لقضاء كل هذا الوقت مع أناس لا يعنونني بشيء؟ لماذا نضيع أعمارنا بالانتظار والمهادنة والخسائر والانكسارات؟ لماذا لا نلتقي بالشخص المناسب في الوقت المناسب؟.. ولماذا، ولماذا، وإلى ما لا نهاية من (اللماذات).. فأنا مفرخة خصبة للأسئلة، وجدباء الإجابات، مرتبكتها. أفهم العالم عبر الأسئلة وأُعبّر بالأسئلة.. حتى أولادي أتصورهم أحيانًا بمثابة أسئلة أطرحها على هذا العالم لتبقى من بعدي علامات استفهام عن الحب والحياة، وفي وجه الإشكالية الأكبر التي هي الموت. لا أحب الموت،

ولا الذين يحبون الموت. صديقتي ياسمين هي الأخرى أصيبت مني بعدوى الأسئلة، وفي آخر رسالة منها تقول: لماذا لم يخلق الله إحدانا رجلًا؟!.. أضحك.

أحيانًا، حين أمشي في الشوارع، أشعر بأن كل نظرة من نظراتي أو كل خطوة من خطواتي فيها سؤال أو هي سؤال بحد ذاتها.. وكما يقول مظفر النواب:

" فتَعلَّم

أن علم الشوارع عِلم عظيم

فتَعَلَّم ".

على الرغم من أنني أتمنى ولو دقيقة واحدة معك.. إلا أننا، في الحقيقة، لن يكفينا مجرد لقاء بضعة ساعات ثم يذهب كل منا باتجاه. أنا على يقين من أننا حين نلتقي، لن نعرف كيف سنفترق مرة أخرى، ولأن لكل منا التزامات معينة.. أنا عندي أولاد لا أريد إيذاءهم، وربما أنت كذلك، إضافة إلى أنني لا أريد أن أخون نفسي مرة ثانية.. بالتأكيد سوف أحضنك وأبوسك و.. أفعل كل شيء معك.. لا أحب ساعتها أن أكون مرتبطة بأي أحد غيرك.. وكل الذي أريده من هذا العالم، وحتى من علاقتي معك، هو التطابق مع نفسي.. ها حبيبي.. تُرى هل استطعت أن أوصّل ما أريد قوله؟. أعترف بأنك تأخذ كل تفكيري، كل أحلامي وكلي.. بحيث أريد ولكن لا أعرف كيف أعتذر لك عن كل أخطائي وحماقاتي التي ارتكبتها من قبلك. وسأقول شيئًا آخر: لا مانع لديّ من أن أبقى أحدق بالكومبيوتر طوال عمري بانتظار كلماتك، حتى لو انتزعت حريتي كما هي منتزعة الآن.. وماذا في ذلك؟.. إنني لقادرة على

أن أعاشر طيفك فقط.. وربما سأصبح حاملًا من هذا الطيف؟.. اضحك.

تعرف حسن؟.. أحيانًا أحلم بالنصوص التي سوف نكتبها معًا في الكمبيوتر وأنا جالسة في حضنك، أو على المناديل الورقية في المقاهي، أو على قمصاننا، كما كان بتهوفن يسجل نوتاته، أو على الأجساد، كما كان سلفادور دالي يرسم على جسد حبيبته "غالا".. لا فرق.. وكم أحلم.. كم.. كم..!. اليوم وأنا في السوق بقيت أتساءل: ما العطر الذي يحبه؟ ما هي ألوانه المفضلة؟ ملابسه الداخلية؟ وكلما أردت سؤالك عن أشياء كهذه أنسى. حبيبي، أنا معك كيفما تريد وبأي صورة تريد.. آه، يا حُرية.. أين هي الحُرية؟ فهي بيتنا الذي ليس لنا ملجأ مع بعضنا سواه.. أحبك.. أحبك.. أحببببك..



بعد حادث مشاهدة الفيلم العاري، ذهبت في اليوم التالي إلى بيت أهلي وأعدت قراءة رسائل أبي لأمي، ورسائل عدنان ويوسف لي. حملتُ معي كتبي الأدبية القديمة، وخاصة الروايات، وعدت أقرأها... شعرت بأنني قد رجعت لنفسي، فقد كنت كمن يعيش خارج جلده وبعيدًا عن ملامحه ثم يستعيدها فجأة.. كمن يعيش منفيًّا خارج بلده ثم يعود بعد أن تحقق ما يريد. كانت حياتي مع عبود مجرد تمشية للأيام بلا مشاكل وبلا طعم ولا لون ولا رائحة. وعندما عاد من اليمن قلت له أريد أن أغيّر حياتي وأرجع مثلما كنت لأنني أختنق، لست سعيدة بالوضع الحالي.. على الأقل، لتفصل الطابق الثاني لأولادك لأنهم كبروا، وأن أنشيء لنفسي مكتبة في

البيت للكتب الثقافية والشعرية التي أريدها أنا. ضحك مني وقال: احمدي ربك أنك تأكلين وتشربين وتنامين في بيت، هناك أناس يموتون جوعًا ويتوسّدون الأرصفة.. أي ثقافة وأي شِعر وبطيخ هذا الذي تتحدثين عنه؟.

كان يدرك بأنني لم يعد بمستطاعي هجرانه والتخلص منه، فلا أهل لي الآن.. وأين سأذهب مع طفلين في زمن الحصار والقحط والقمع؟ كانت تعاستي تزداد وأنا أجد نفسي أفقد إنسانيتي بين الطبخ والتنظيف وخدمة أولاده وضيوفه.

بعد عودته من اليمن حاملًا مبلغًا جيدًا من المال تحسنت قدرتنا الشرائية واستطعنا أن نعيد خط الهاتف الذي كنا قد قطعناه بسبب العوز. وذات صباح حين كنت لوحدي في البيت، مباشرة بعد انتهائي خلسة من مشاهدة فيلم جنسي آخر في غرفة أولاد عبود في الطابق الثاني، وهي عادة أدمنتها سرًّا في غيابهم بعد أن تفجر حسي الغريزي إثر صدفة تلك المشاهدة الأولى. كنت في غاية هياجي ولا أدري ماذا أفعل بجسدي، اتصل شاب بالخطأ، وبدل أن أقول له إن الرقم خطأ وخلاص، وجدت نفسي أطاول المكالمة معه بغنج، أحس هو بالأمر ربما من نبرتي وراح يتغزل بي مبتدئًا بصوتي. تعارفنا وقلت له إن اسمي هيفاء، وصار يتصل ونمضي معظم ساعات الصباح على الهاتف، أمارس عليه كل خيالاتي ومكبوتي وأتقمص الصفات التي أشاء. يأخذنا الكلام إلى كل ما لا نستطيع البوح به في حياتنا العادية العلنية. يسخنني وأسخنه حتى نوقد بعضنا بوصف تفاصيل خيالاتنا الخليعة وكل منا يداعب أعضاء جسده باليد الأخرى. رحنا نمارس المواقعة همسًا عبر الهاتف، وما أن نصل وننتهي من شهقاتنا، أقفل

الهاتف سريعًا، أترك سماعته مرفوعة كي لا يعاود الاتصال، وأشعر بخجل شديد من نفسي وباتساخي، فأبكي ثم أسارع إلى الحمّام، وبعدها أصلي طالبة المغفرة، أبكي مثقلة بالخجل في صلاتي، وأعِد بالتوبة، إلا أنني أعاود تكرار الأمر ذاته في الصباح التالي. لم تكن عندي صديقة حينها وأختيّ مشغولتان بمشاكلهما. كنت وحيدة في بيت كبير فارغ، وحيدة وسط طوفان أنوثة جائع. أمارس العادة السرية كثيرًا، أخجل كثيرًا، أصلي كثيرًا، أبكي كثيرًا ولا أدري إلى أين أذهب..



صباح العصافير النظيفة.

آسفة لتأخري بالكتابة إليك. كنت أرد على رسالة من صديق ياسمين في الصين، وأنت تعرف كم أحتاج من وقت كي أكتب بالإنجليزية... أتثاقل بالرد على رسائل الآخرين، وليس عندي مزاج لها. مزاجي كله لك وحدك. شكرًا على النكات التي أضحكتني بها. أشعر بأن صحتي اليوم ليست على ما يرام، عندي مغص ولا أدري من أين أتى ولماذا. ربما من البرد، فكثيرًا ما يصيبني البرد أو الحر دون أن أنتبه، لأن عيشي في وجودي الداخلي غالبًا ما ينسيني ظروف عيشي الخارجي. بالأمس كان الجو باردًا جدًّا، وحتمًا أنني لم أكن متدثرة جيدًا أثناء نومي. على أية حال لا تقلق عليّ، فما هذا إلا شيء بسيط وعابر.

أنا الهادئة بطبعي أحتاج إلى مزيد من الهدوء. الصوت العالي يدمرني، يشل تفكيري ولا يسمح لي بالكتابة على راحتي. الأولاد

يرجّون البيت بصخبهم. بودي لو أكتب لك كل شيء، لكنني ضعيفة مثلًا في القاموس الإيروتيكي وشديدة الخجل.. تصور!. إلا أنني سأسعى للتحرر معك تمامًا، هذا يسعدني، هذا ما أريد. ربما لا أجيد كثرة الكلام لكنني أجيد السباحة معك. بالأمس كنت أستعر اشتهاءً لك، مزيج غريب من حنين معتق.. وبلا وعي وجدت نفسي أهيئ نفسي لك، أجرب أنواع العطر وأصباغ الشفاه وبيجامات رقيقة.. وما النتيجة!.. كنت مهيأة لمن لا أشتهي، دخل السيد المُستأجِر الأصلع.. والنتيجة هذا المغص... حسن، لم أقل عندي زوج وإنما الذي أقوله هو عندي أولاد فقط، أحرص على عدم إيذائهم في هذه المرحلة.. وثمة فرق بين القولين.

أما فيما يتعلق بولديه هو، فقد استمر الحال على ما هو عليه، أخذا من وقتي وجهدي وأعصابي الكثير، وحين أستعيد كل الذي فات، أجد بأنني لم أكن مضطرة لفعل ذلك معهما، فما كانا يعنيان لي شيئًا، لا يحبانني ولا أودهما، كانا مختلفين وبلا اهتمام يقربنا، بلا ثقافة ولا أحلام. لديهما كل ما هما بحاجة إليه، ولا يستثمران هذا (الكل) شيء، فحتى الدراسة هما فاشلان فيها، وأبوهما يركض هنا وهناك بالتوسط لهما عند معارفه ومعارف معارفه؛ إلى أن تمكن من إدخال الكبير في كلية الطب، وها هو بعد ثماني سنوات لم ينهها. وماذا أحكي لك عنهما أيضًا!. الصغير فشل في الإعدادية. وحصل عبود على إعارة خدمات أخرى، للعام القادم، في اليمن من أجله تحديدًا كي يتمكن من إدخاله إلى جامعة ما، وأصر عليّ أن أرافقه على مدى الفصل الدراسي الأول، فانتهزت الفرصة واشترطت أن أدرس أنا أيضًا، وافق، وبدأت أدرس في قسم الصحافة. لاحقًا ستأتيك الحكاية.. أعتذر، فربما أن سردي ليس متسلسلًا، فثمة لغو مربك في

البيت وكرة الأولاد ترتطم بكل أركانه وبظهري أو برأسي فتفزع عصافير تفكيري وعصافير الحديقة.

كنت أتحاشى وأحاذر الكلام معهما، أو حتى التقرب منهما، وطبعًا، كان المُستأجِر معظم الوقت خارج البيت، الجامعة صباحًا وفي المساء اجتماعات حزبية وخفارات. إحساسه بي تحت الصفر وحتى في الفراش، كنت أحس بأنه لا يضاجع وإنما يؤدي، أداء شبيه بحضوره لاجتماعات الحزب أو تهيئة سيارته لركوبها.. فكنت أستبدله بسهولة بزكريا أو برتشارد جير.

من مراجعاتي للقراءة في تلك الفترة قرأت تحليل فرويد لدافنشي وللموناليزا تحديدًا، وأعجبتني الفكرة. أختي حَنان متعلمة ومتزوجة من رجل تحبه وناجح في وظيفته. وهي التي اقترحت عليّ فكرة أن أشتغل أو أدرس لأن الحالة التي وصلت إليها سوف تقودني إلى الجنون أو الانتحار. حكاية الهاتف مع ذلك الشاب الصوت انتهت؛ لأنني خجلت من أختي بشكل يصعب وصفه وهي تعاتبني، تؤنبني وتبكي غير مصدقة، فقد كنت لها نموذجًا في العقل منذ الصغر. لذا صرت أقرأ وأقرأ وأغرق نفسي بالقراءة، ولا أدري من أين كنت أحصل على الكتب الحديثة، وفي حال تعذر الحصول عليها أعاود قراءة القديمة.. المهم ألا أتوقف عن القراءة أبدًا. لو أنك اتصلت بالأمس لكنت قدمت لي أجمل هدية. تستطيع الاتصال في أي وقت تشاء، وعبود في هذه الأيام لا يعود إلى البيت إلا في السادسة وأحيانًا السابعة مساءً. يمضي جل وقته في حي (لابابيس) بين محلات ومقاهي المهاجرين ومساجدهم. اتصل فأنا أحب أن يفاجئني صوتك في كل لحظة. مشتاقة لك.. مشتاقة. أرفق لك هذه اللوحات اليوم ففيها إيماءات

موحية وهي أفضل من أن أبعث لك صوري.. أم أن الصور أفضل.. ما رأيك؟.

بين لحظة وأخرى أبحث عن صورة لك في كل دنيا الإنترنت، وحين لا أجد، أقف أمام المرآة، فأراك جواري، كفك في كفي، أو خلفي منحنيًا على رقبتي تبوسها وأنا ملتذة بدفء أنفاسك. أعرف حتى طعم شفتيك وهما تحتضنان شفتيّ. أحبك، وأنا الآن قد تحسنت قليلًا. خفّ ألم المغص في بطني بفضل وجودك، وبعد أن وضعت عليها كيس ماء حار.. يااااه، متى سأتسلق بطنك؟.

-١٢-

مهابة الماء والصمت في اليَمَن

أنا

في عَمّان الجبلية، كنت أمشي طوال الوقت توفيرًا لثمن المواصلات. أعطتني السفارة الاسبانية قصاصة فيها الشروط والوثائق المطلوبة. اتصلت بأهلي من هناك وطلبت منهم أن يعجّلوا بتصديق وثائقي الدراسية ويبعثوها في البريد السريع. ذهبت إلى معهد ثربانتس كي أهيئ نفسي للدخول بالأجواء الأسبانية. جلست في المكتبة، أتصفح الكتب محاولًا فهم عناوينها على الأقل. ورّقت الصحف وطلبت من الموظف أن يعطيني أيًّا منها مهما تكن قديمة، لكنه رفض. فانتظرت في الخارج حتى المساء حيث ألقوا الصحف في برميل الزبالة فسارعت لأخذها، ثم ذهبت إلى وسط المدينة، ومن هناك اشتريت قاموسًا صغيرًا للغة الإسبانية، واتجهت إلى مقر صحيفة (الدستور) لاستحصال مكافآت ما نشرته، وجدت فيها الشاعر محمد القيسي في مكتب محررها الثقافي خيري، ثم خرجنا سوية باتجاه صحيفة (الرأي) للغرض نفسه، وكنت قد التقيت القيسي أكثر من مرة سابقًا في مكتبة عمان الكبرى وفي رابطة الكتاب وتحدثنا عن أمهاتنا والشِعر وعن الملاكمة التي كان يمارسها في شبابه وتبادلنا النكات الأخيرة.

في القسم الثقافي في جريدة (الرأي) الذي كان مسؤولًا عنه الشاعر باسل، حدثته عن نيتي بالسفر إلى إسبانيا وعلّه يزيد من نشر المواد لي كي أتدبر ثمن بطاقة الطيران. قال إن الأمر صعب وخاصة أن أبناء البلد يريدون الأولوية لهم بنشر نصوصهم؛ لذا تجدنا لا ننشر للاسم الواحد إلا مرة واحدة في الشهر أو مرتين في أقصى الحالات. ولكن، وبعد أن رأى بين يدي صحفًا إسبانية، اقترح أن يكون الحل بتخصيص زاوية أسبوعية لي بعنوان (ثقافة عالمية) أنشر فيها أخبارًا ونصوصًا قصيرة مما أترجمه عن الإسبانية. وحين حل الليل، توجهت إلى مقهى (الفينيق) حيث يلتقي جل المثقفين العراقيين الهاربين من العراق إلى الأردن، ملتفين حول الشاعر الكبير البياتي، والذي سبق لي وأن التقيته في بغداد برفقة بعض الشعراء والمستعربين الأسبان أثناء مشاركتهم في مهرجان شعري. ولأنه قد أقام لما يقرب عقد من الزمان في مدريد أردت استشارته بالأمر. انتظرت حتى خف الساهرون حوله حيث سَكر منهم من سَكر، وغادر من غادر. فيما هو صاح في الليل كعادته بعد أن قلبِ ليله نهارًا ونهاره ليلًا منذ زمن طويل.

حين أخبرته بنيتي، ابتهج كأنني ذاهب لرؤية بيته في بغداد، فرح وشجعني على ذلك، لكنه قال بأن الحياة الاقتصادية ستكون صعبة عليك هناك إذا لم تكن بمنحة دراسية أو عمل، إلا إذا كان لديك حلم أقوى من هذا الحلم الواقعي؛ يجعلك مستعدًا لتحمل المغامرة وكل تبعاتها بروحية أخرى. هنا وبمساعدة الليل الذي يشجع على البوح، حدثته عن قصة هيام فرأيته يبتهج أكثر ويطيل لي الحديث حول الأمر ناسفًا كل ما يبدو للآخرين عبثًا في أن يطارد الشخص حلمًا وهميًا، وراح يحدثني عن (عائشة) التي خلقها من خياله وعشقها رامزًا بها لكل النساء اللاتي أحبهن، كتب عنها كل قصائده عن الحب وطاف

البلدان بحثًا عنها. تلى أبياتًا متفرقة من قصائده العائشية ثم دعاني لمرافقته إلى حانة أخرى في منطقة (الشميساني)، اعتاد أن يختم فيها سهرته مع صديقين أو ثلاثة. ظل موضوع عائشة محورًا لحديثه حتى ما بعد منتصف الليل، وحين هممت بالمغادرة للمبيت عند قاسم المصري، شقيق خالد الأكبر، قال لي: دعني أراك قبل سفرك إلى مدريد كي أعطيك بعض الأشياء وعناوين وأرقام هواتف لأشخاص هناك.

كان قاسم يعيش في غرفة استأجرها منذ عامين، قريبة من المدرسة التي يعمل فيها معلمًا. وجدته ساهرًا وحده يقرأ ويدخن، وحال وصولي سارع لإعداد شيء آكله ثم جلسنا نتحدث لساعتين حتى بان الفجر، من بين ما قاله أنه قد قرأ بعض قصصي المنشورة والمخطوطة التي تركتها عند خالد وأنها أعجبته، ثم اقترح عليّ أن أجمعها في كتاب، فأذهب إلى إسبانيا ومعي كتاب لي، وبذلك أبدأ مرحلة جديدة مختلفة من حياتي وكتابتي أيضًا، حيث أن أغلب قصصي، حتى ذلك الحين، كانت عن أجواء الدراسة الجامعية وعن الحرب. أعجبتني الفكر، فأطلنا الحديث حول الكيفية، وقلت له بأنني لا أعرف كيف أنشر كتابًا، ولا أعرف ناشرًا، كما أنني لا أملك مالاً كي أطبع الكتاب على حسابي الخاص.

الحديث يجر الحديث. شكرًا لليل؛ لأنه حميم، ويحجب عنا رؤية أسوار الواقع وقيوده، فتخرج أحلامنا وأفكارنا من زنازينها داخلنا لتتجول بحرية. لم ننم إلا وقد وجدنا حلًا عزمنا على البدء بتنفيذه ابتداءً من صباح الغد.

قال إن مدير المدرسة التي يعمل فيها، أستاذ كلاسيكي للغة العربية ويكتب الشعر العمودي، وأنه يوشك الآن على التقاعد؛ لذا فهو يعمل

على جمع كل قصائده ونشرها في كتاب على حسابه الخاص، والذي عرفه منه، أن الأمر بسيط ولا يتعدى خطوتين؛ أن تقدم المخطوط إلى دائرة الرقابة لإجازة نشره وتحصل على رقم إيداع، ثم تأخذه بعد ذلك إلى أية مطبعة، وأنه رافقه ذات مرة إلى المطبعة فتعرف على صاحبها. مطبعة قديمة بسيطة في حيّ شعبي، متخصصة بطباعة بطاقات الأعراس وعُلب الحلويات وما إلى ذلك، ولكن الأهم هو أنها رخيصة الثمن. أما عن المال، فلا تحتاج إلا إلى ٢٥٠ دينار لتطبع خمسمائة نسخة. سنتعاون على جمعها لك، وبعد طباعة الكتاب نساهم جميعًا بتوزيعه وبيعه على أقاربنا ومعارفنا، ويكون سعر النسخة دينارين، وهكذا نسدد منها ثمن الطباعة والباقي تدفع به ثمن بطاقة الطيران.



هي

مساء الأمل يا أمل حياتي.

حين أقرأ رسائلكلا فرق بين رسائلي أو رسائلك.. أليس كذلك؟ينبض قلبي بسرعة ولا أدري ما الذي يحدث لي ولا من أين أبدأ وأين أنتهي. لا يهم، فكل "تلك الأغاني التي تتحدث عن معنى الحياكة، هي في الأصل أغنية واحدة" كما تقول (دابادا).

المؤسف يا حبيبي أن الناس كانوا يحسدونني على بيت كبير، وسيارات فارهة، وملابس، وذهب، وطفلين نظيفين، وزوج ناجح، و.. و.. والمؤسف بشكل أشد هو أنني ما كنت أشتكي أو أتكلم كثيرًا. في إحدى مشاجراتي مع عبود، وهي قليلة؛ لأنني كنت أتجنب

أي شجار بلجوئي إلى الاستسلام، وقول ما أريد قوله له في نفسي، فمن غير المجدي استهلاك اللعاب باللغو من أجل إقناع شخص يرفض الاستماع. قال لي بأن عليّ أن أحمد ربي كونه يحتملني حتى الآن، وعلى الرغم مما لحق به وبسمعته ومكانته الحزبية من ضرر بسبب اعتقال والدي، أصبح مراقَبًا الآن أكثر ولم يُرقوه أية درجة، لا في العمل الجامعي ولا في الحزب، على الرغم من مضاعفته لاجتهاده وإخلاصه، لكن اعتقال أبي صار إشارة حمراء في إضبارته الأمنية وفي سيرته إلى الأبد. فاجأني ما قال، بل طعنني. صعدت راكضة إلى غرفتي كي أبكي.. ولم أستطع حتى البكاء بسبب الحنق. لحظتها شعرت بكره عجيب له، نعم أقول كرهًا، وهو ليس من طبعي. بعدها لم أدعه يلمسني ربما لعام كامل، صرت أكثر صمتًا معه وتحاشيًا له. تعلمت الهرب واعتدت عليه، وهذا من أكبر أخطائي. كنت أعجز عن المواجهة في حينها؛ لذا أهرب. أمر عادي أن يصلي ويصوم الإنسان.. ولكن الذي هو ليس بعادي أن يلجأ فقط إلى الصوم والصلاة بهدف الهروب من مواجهة مشاكله.

بالأمس وحال إنهائنا لمكالمتنا، جاءتني مكالمة من أخت عبود تقترح عليّ الذهاب معها إلى السوق، كنت بحاجة لبعض التبضّع. لديها سيارة؛ وهذا يخفّف عني حمل الأشياء الثقيلة. زوجها تاجر جلود وأحذية وسياسة، وهي دكتوراه في الاقتصاد؛ لذا لا مواضيع مشتركة لأحاديثنا سوى توافه المطبخ. نسكن في منطقة حلوة لا تبعد كثيراً عن مركز مدريد، قربنا ساحة فيها نافورة ومكتبة عامة.. كم تعجبني المكتبات هنا وكلما رأيتها أغرق نفسي أكثر في تمارين تعلم اللغة الإسبانية. بيت أخت عبود يبعد عنا ربع ساعة مشيًا. هل تريد أن أكتب لك تفاصيل عنواني؟ فأنا كلي انتظار لمكالمتك لي من

المطار. لا تحسب هذا الأمر مطالبة، فأنت وطبيعة ظروفك. لا أحب أن تحزن أو تتحسر أو تشعر بأي واجب ومسؤولية تجاهي، فلا أحب زيادة همومك. فقط أحب أن تحبني. لا تقلق، لن أنسى ارتداء المزيد من الثياب هذا اليوم. أنا أيضًا أشتهي أن أبوسك، أن أفتح قميصك، ومع كل زر أعاود تقبيلك قبلة عمرها عام، أفتح حزامك والبنطلون.. ثم أهرب سريعًا وأقفل على نفسي باب أية غرفة. دلال، خباثة، لؤم أنثى تحب، وتحب التصابي.. فماذا ستفعل لي؟. أوه، أنت يا ذَكَري، لا تتوقع أن تحصل على أي شيء بسهولة. أحب الرجال الذين لا يحبون الحصول على الحب بيسر؛ لذا أحب حسن مطلك الذي يدرك ذلك فيقول:" كانت تريد أن تعطيني قلبها مثلما تقدم تفاحة ناضجة.. للأسف لا أريد هذا.. أعني لا أريد أن تمنحني بسهولة". يوميًا حين تخلو الدار لي سأمثل معك فيلمًا حميمًا. هذا اليوم مثلًا، تخيلتك عاريًا تجلس على هذا الكرسي، أربط يديك إلى الخلف وأشد عينيك بمنديلي الأبيض، ثم أشعل حرائق رغباتك بلمسات أصابعي، شفتي، عري جلدي وتنفسي و.. و. هاه.. أكاد أراك تعلق مبتسمًا: هذه ليست ممارسة حب وإنما حفلة تعذيب. كم أشتهي الضحك معك. ها أنا أفعل. وأشتهي أن آكل، أشرب، أقرأ معك، أسمع الموسيقى أو أسمع الصمت. أشتهي العيش معك، أشتهي المعرفة كأنها هدف وجودي.

أين وصلنا بفيلم الذاكرة يا حبيبي؟.

دخلت كلية الصحافة للدراسة بعد جهد مضنٍ لإقناع عبود. كنت أريد دراسة اللغة الإنجليزية وآدابها، لكنه رفض قائلًا إن اللغة صعبة، وتحتاج إلى ذهن صافٍ، وتفرغ، ودوام طويل؛ فاتجهت إلى دراسة الصحافة. كان الدوام لأربع ساعات. علي أن أوصل ابنه إلى الكلية

المجاورةوأراقبه في الفرص بين الدروس ثم أعيده معي. بيتنا بعيد قليلًا عن الجامعة. كنت أخرج قبل نصف ساعة بعد أن أكون قد أنهيت أشغال البيت وأرجع بعد نصف ساعة. وتبقى إحدى أختيّ أو إحدى الجارات في البيت لرعاية صغيري. ومع ذلك ما كنت لأستطيع الدوام يوميًا. كان المُستأجِر يعتقد بأنها رغبة عابرة وستنتهي بعد أن تزيد الأعباء عليّ. يقول: أنا متأكد من أنك بعد أسبوعين أو شهرين ستتركينها. لكنني كنت أحب الدراسة، وخاصة أنها تتعلق بالقراءة والكتابة، وأسرار الصحافة. فكنت متفوقة وبارزة ومؤثرة في طلاب شعبتي. غالبيتهم أكبر مني سنًّا، وهناك فوجئت بوجود صديقي البصراوي الأسمر راشد ياسين (حَبّة المسك) يحضر للماجستير، ويُعد نفسه ليكون شاعرًا أيضًا، وسرعان ما أعَدنا دفء صداقتنا. وجدته قد صار كثير الشرود، قليل الكلام، نظراته حزينة. أطول مني بنصف متر. يسموننا الزملاء حين نمشي معًا: رقم عشرة؛ أي هو الواحد وأنا الصفر، أين ذهب ومن أين أتى رقم عشرة؟ كيف الحال يا رقم عشرة؟. وأنا أقول له: أنت وأنا الدون كيخوته وتابعه سانتشو، أنت الكيخوته وأنا سانتشو. وهو يقول: بالعكس؛ أنت الكيخوته لأنك أكثر جنونًا مني، وتنظرين إلى الواقع أو تخلقينه أو تتخيلينه على طريقتك وليس كما هو عليه. ومما قاله لي: اعلمي بأننا نحن الرجال يتعبنا الحب، نشعر به ثقيلًا.. بل ونمل منه أحيانًا، نفَسنا قصير فيه؛ لذا نحتمله ونعيشه ونعبر عنه بشكل تقسيطي، نوبات حبنا ليست متواصلة أو دائمة، ولكنها موجات مؤقتة وعاتية أحيانًا.. أمر شبيه بالشعر؛ لذا فإن القصائد نصوص قصيرة، ولا توجد قصيدة حقيقية طويلة كلها شِعر، فالطوال قد تم مطّها عنوة، فيما جوهرها الحقيقي قصيدة قصيرة، وما تبقى منها فهو صدى لها ولغو وثياب مهلهلة واسعة تثقلها أكثر مما تجليها أو تجملها.

أعتز بصداقته، ولازال يراسلني وينقل لي أخبار الزملاء. أول وأهم شيء فعلته هو أنني استخرجت بطاقة المكتبة، ثم اكتشفت كتب التأجير وكتب الاستنساخ التي راجت في أعوام الحصار كحل لأزمة الطباعة والورق وشح المال. كنت شاطرة بالدروس حتى من دون أن أبذل جهدًا كبيرًا، فقط أراجع للامتحان أثناء طريقي إلى الكلية، وكلما رآني المُستأجِر أقرأ في كتاب يبدأ التحقيقات معي. يزيد من الطلبات ويكثر من دعوة أصدقائه ومعارفه إلى البيت، حتى أن أقرباءً له صاروا يجيئون من قرى ومحافظات أخرى، وخاصة أيام الامتحانات، وكان يردد: لقد أخطأت في موافقتي على دراستك. يقول هذا وهو أستاذ!.

بالطبع كنت أشاكس زملائي، ففي الامتحانات مثلًا، أتخذ كرسيًا منفردًا، أو أجلس على كرسي الأستاذ كي لا ينقلوا مني، فيشاكسونني ضاحكين ويضحك الأستاذ. نجحت في السنة الأولى بالمرتبة الأولى على شعبتي. وجاء موعد إعارة المُستأجِر ثانية إلى جامعة يمنية، فكان لزامًا عليّ أن أؤجل الدراسة وأذهب معه ومع ابنه الصغير، الذي فعل كل شيء من أجل أن يدخله في الكلية عبر التوسط والتزوير والرشوة.

في اليمن كان عليّ أن أضع النقاب على وجهي. أقمنا في مدينة ساحلية. وجدت الناس هناك وكأنهم خارجون من التاريخ أو يعيشون فيه، كل شيء يبدو قديمًا وبدائيًا.. بما في ذلك وجوه الناس وثيابهم ومشيهم والجدران والهواء وإيقاع اللغة. شعرت بأنهم متروكون منذ زمن النبي محمد، هل رأيت فيلم (الرسالة)؟، أول مشهد فيه؟ هكذا بدا لي اليمن. كانت فترة بائسة لكنني لم أنس أن أزور الآثار هناك. أمضي ساعات طويلة على ساحل البحر بين الصخور، وأحيانًا أركّز بصري على موجة واحدة أتابعها، وأتابعها.. أرفق نفسي معها، حتى

تتلاشى ضمن شساعة الماء. في أكثر من مرة كان هذا الغياب يأخذني عن ذاتي.. وحين أنتبه لنفسي أجد بأنني مغمورة حتى صدري في الماء، فأقف قليلًا مفكرة بمواصلة السير حتى الغرق.. أم أعود؟ ثم أخرج من الماء خفيفة نقية كأنني سائرة في حلم. في الصباحات كنت أرى على الرمل وبين الصخور المزيد من العوازل أو الواقيات البلاستيكية الخاصة بالجنس فتثير استغرابي وتساؤلاتي وتأويلاتي عن الكبت أو عن لذة وعبقرية الاحتيالات في تفريغها في هذه الأرض البدائية الوحشية العذراء الأخاذة.

هناك مكتبة عامة وحيدة، وكنت الوحيدة التي ترتادها فيفرح الموظف الوحيد فيها لأنني أخلصه بوجودي وأسئلتي من ساعات الضجر الطويلة. كانت في مبنى تاريخي مدهش، وفيها كتب قديمة ومخطوطات نادرة، تراكم عليها الغبار. هو لا يقرأ وإنما يقضي النهار جالسًا على كرسي في الباب يهش الذباب عن وجهه ويمضغ القات، وهو الذي أعطاني منه وعلمني مضغه، فكنت بعدها أشعر بحالات انتشاء عجيبة وتفتُّح ذهني بحيث أشعر بأنني قادرة على كتابة ما أريد، كمن يُملَى عليه، لكنني لم أكتب، وإنما كنت أستغل ذلك بقراءة الكتب الأصعب، آه.. كم أتمنى لو أن لديّ مضغة قات الآن كي أتقاسمها معك!.

اليمن حلوة لقضاء بعض الوقت، وليس للعيش الدائم. فيها أراض بكر، جبال وهضاب وأودية، هي مستودع أسرار والناس كذلك فيهم أصالة الآدمي الأولى. الصمت هناك شيء مهيب حقًّا، وأحيانًا أستشعر فيه موقفًا من الوجود أو لغة أخرى للتعامل معه. بينما العراقيون والمصريون والأسبان مثلًا، يتكلمون كثيرًا وبكل شيء وبلا

أي حساب للكلام ووزنه. أنا التي أبدو ثرثارة معك، لا أتكلم كثيرًا إلا في مناخات ومواضيع وحالات بعينها، لديّ فلسفتي الخاصة التي أسميتها حين كنت صغيرة بفلسفة الصمت، فبالإمكان، وعبر هذا الصمت، أن تأكل وتشرب وتحب وتعيش حياة كاملة.. بل وتموت أيضًا. يكاد الصمت أن يكون أحد المواضيع الكبرى في الحياة كالموت والحب مثلًا؛ ففيه غموض وثراء غريبان، إنه شيء أكبر وأعمق مما يبدو عليه، شيء يشبه العدم. في بغداد كنت أحب النباتات فأزرعها في الحديقة وأعتني بها، وبشكل خاص تلك الصغيرة منها، أو نباتات الظل الداخلية، أعرف أسماءها وعمر نموها وطرق تكاثرها وغير ذلك من تفاصيلها. كنت أسمي نباتاتي (أبناء صمتي).

عبود مدعو للأكل في بيت أخته وأنا مدعوة للصمت. أحب الصمت، وبشكل خاص؛ صمت الجدار الذي بلا نافذة. أتعامل بشاعرية مع كل الأشياء الصامتة لأن لدي هاجسًا بأنها ستنطق ذات يوم بالحقيقة، فلا شيء صامت في حقيقته، وإنما لكل الموجودات لغة ما، بما فيها غير المرئية كالموسيقى، الحلم، النشوى، النظرات، الأفكار، الشوق.. آه.. شوقي إليك لغته صراخ، أسمعها في كل لحظة. أشعر بأنني قادرة على سماع كل شيء ومن ذلك أعرفك من خلال لغة تخيلي لك، من خلال كلماتك المكتوبة وصوتك. أعتقد بأن لدينا حواسَّ أكثر من هذه المتعارف عليها، وحتى هذه التي نعرفها، نحن الذين نقوم بتحديدها وتحجيم طاقاتها فلا نمنحها فرصة كي تدهشنا. أنت تحب لغة الحب، أصوات تقبيل الكلمات لبعضها، صوت غطيطها، سمفونية التداخل.. أليس كذلك؟. أنا أحبها أيضًا، ولكن معك أنت فقط.

من تناقضاتي الصادقة أنني ألتذ بالثرثرة أحيانًا كتلذذي بالصمت.

في اليمن كنت متطابقة فطريًا مع المحيط الفطري بلا جهد تقريبًا. أهل اليمن لديهم أسرار كثيرة، وهم قليلو الحديث؛ بحيث يتركون الآخرين يظنون بأنهم أغبياء، أما الحقيقة فهم دهاة شديدو الذكاء.. لكنهم كسالى جدًّا. أحببت تلك المدينة الساحلية. نابتة في السهل المحصور بين البحر والجبل، تزحف بيوتها البيضاء متسلقة السفح، وتنساب قواربها مبحرة في الماء، فيما ترتفع مآذنها الجميلة مثل أصابع محناة لعروس ثرية. فيها حَوارٍ ضيقة ببيوت طينية. هناك، تشعر بأن كل شيء، بما في ذلك أية حصاة في الطريق، تنطوي على أسرار. رأيتهم يعدمون في (الساحة المفتوحة) رجلًا قد اغتصب طفلًا وقتله.

كانت المكتبة في بناية قديمة قائمة على سقف مسجد منذ أيام السلاطين، وليس فيها سوى بضعة آلاف من كتب قديمة ومخطوطات قليلة، لا شئ جديد. كان المسؤول عنها يتعجب مني ومن تفتيشي عن كتب لم يمسها أحد منذ أن وضِعت في رفوفها للمرة الأولى. وعلى الرغم من أنه ليس لديه دوام مسائيٌّ، كان يفتحها من أجلي عصرًا مرة في كل أسبوع. أستعير كتبًا قديمة، أقرأ بعضها أحيانًا وأعيد أخرى حتى دون تصفحها.

في وادي حضرموت بئر للأرواح ذكرته بعض كتب التاريخ، و لم أجد تفاصيل عنه ترضي فضولي. سألت الناس ولكن بلا جدوى؛ فليس ثمة من يجود ببوح الأسرار هناك. اللغة والمفردات في تلك الديار لها لغتها الضمنية الخاصة أيضًا برموزها وألاعيبها ومطبّاتها. بعض أسماء الأماكن أضحكتني. مثلًا، ثمة منطقة اسمها (الشرج)، والأدهى أن يقف السائقون في وسط السوق وينادون بصوت عال داعين الناس

للركوب في سياراتهم: شرجِ، شرج، هيا إلى الشرج. ومكان آخر اسمه (الديس)، وآخر اسمه (الخلف)، و(جبل النهدين).. وهكذا يذهبون ركوبًا صوب الشرج والديس والخَلف والنهدين!!. سمعت كنيات، أضحكتني هي الأخرى، لبعض رجالهم مثلًا: (بابعير) أو (باطوق) أو (باعنز).. أكاد أسمع ضحكاتك، وأتمنى لو نترافق ذات يوم إلى تلك البقعة المدهشة من الأرض.

هناك، كم فكرت بأن هذه البلاد الساحرة بمناخها، تضاريسها، ملامح سكانها الأخاذة، أزيائهم وخناجرهم والقات.. يمكنها أن تتحول إلى أجمل جنة سياحية على الأرض، ولكن شرط أن تحكمها امرأة وإلا ستبقى خرابًا فطريًّا.. إنها تحتاج إلى بلقيس أخرى كملِكة سبأ الأسطورية.

كنت أحب حتى تلك الأماكن التي لا أحبها، كي لا أسمح لشيء نقيض للحب من التسلل إلى روحي. يخف حزني عندما أرى الأولاد مرتاحين مع أبيهم. إنهم يحبونه أكثر مني، وهذا شيء يسرني ويريحني تمامًا.

بعد انتهاء العام الدراسي قررنا أن نمضي الإجازة الصيفية في سوريا، حيث اجتمع عدد من أفراد عائلة عبود هناك. أمه وأخواته وخالاته وعماته القادمات من المغرب وإسبانيا والنرويج والعراق والكويت والسودان، وأغلبهن قدمن بصحبة واحد أو أكثر من أفراد عائلاتهن.. ولك أن تتخيل جمهرتنا عندما كنا نجتمع. الصور التي بعثتها لك وفيها العديد من العباءات والحجب والكروش والشوارب والصلعات والكثير من موائد وصحون الطعام قد كانت من تلك الرحلة الدمشقية. أخوات المُستأجِر الثلاث كلهن (دكتورات) ولكن

بلا ثقافة عالية باستثناء الانحصار التقليدي في تخصصاتهن الأكاديمية، وبلا أي طموح أو سعي إبداعي حتى في ميدان تخصصاتهن هذه.. لذلك فاعذرني إذا ما قلت لك بأنني ما عدت أحب هذا اللقب الذي كنت أراه جميلًا (دكتور).

أيكفي ما كتبته لك اليوم أم تريد المزيد؟. المشكلة هي أنني لا أشبع من مناجاتك، استحضار طيفك، خيالك، الحديث إليك، الغناء والكتابة لك.. بحيث أتساءل أحيانًا: أهو عذب إلى هذا الحد؟!.. أشتاق لحضورك ولخطواتك ترافق خطواتي، لأنفاسك ونظراتك ونبرة صوتك ونكاتك وضحكاتك.. وكل شيء.. لا أدري كيف أقول.. فأحيانًا تفاجئني مشاعري حتى أنا نفسي بسبب قوتها نحوك.. أتوق إليك.



كان بمقدور عبود أن يحصل على عمل في إحدى جامعات دول الخليج، وحصل على عرض عقد من الجامعة الأردنية. لكن حضرته السيد الدكتور ظل في داخله يريد أن يبقى كرئيس قسم كما في بغداد، أو أن يكون بمنصب مدير عام لأي شيء، فالمهم بالنسبة له أن يكون مديرًا، وكأي مدير صاحب كرش وربطة عنق وحقيبة فيها بضعة أوراق رسمية ساذجة.

عند العودة إلى بغداد، رجعت إلى دراستي في المرحلة الثانية، وتعرفت على ريتا، بنت صغيرة لكنها مثقفة وواعية. وبالطبع لكي يتخلص المُستأجِر من عبء مشوار إيصالي وإعادتي؛ اشترى لي سيارة. فكنا أنا وريتا نزور في كل أسبوع أحد المعارض الفنية ونقرأ معًا،

نشتكي لبعضنا، نمزح، نسخر ونضحك كثيرًا؛ أي تمكنت من أن أخلق لنفسي حياة بديلة خارج البيت، وكنت كلما عدت إلى البيت ودخلت.. أشعر بالاختناق.

منذ المرحلة الأولى في دراستي للصحافة كان العديد من الأساتذة والزملاء ينصحونني ويحثونني كي أنشر ما أكتبه، لكن أحد شروط المُستأجِر عندما وافق على دراستي هو ألا أعمل في الصحافة أبدًا، وعجزت عن إقناعه. كنت، ولا زلت، أتمنى لو أكمل الدراسة العليا، ثمة تحدٍّ غريب في داخلي بهذا الخصوص.. ربما لكي لا يبقى يتبجح عليّ هو وأخواته بكونهم دكاترة، وأنا لا شيء. بالفعل قد كانت أمامي فرص كثيرة وجيدة للنشر والكتابة، ولكنني لم أجد الوقت الكافي، وما يتوفر كنت أستثمره باستنشاق حريتي المسروقة، كما أنني كنت ملتزمة بالوعد مع عبود.. ليتني لم ألتزم معه بأي شيء.



مساء ضفاف دجلة على ساعديك..

أنهيت فوضى الأكل، والأولاد مشغولون بالواجبات المدرسية، أساعدهم بين لحظة وأخرى. أي شيء يتعلق بالطبخ العراقي، وتريد أن أعلمك إياه، قل لي؛ سأكتب لك الوصفة بالتفصيل، وبأقل قدر من هدر الوقت.. فأنا أحاول اختصار الوقت في أمور كالطبخ إلى أقل ما يمكن. دائمًا أعاني من شحّ الوقت، وأتمنى لو أن اليوم أكثر من أربع وعشرين ساعة. أحيانًا أخرى أتمنى لو أن يومًا بعينه ينقضي بلمح البصر. أحبك. التليفون يزيد اشتياقي لك، ولا أعرف كيف ستكون النهاية معك. أقول لنفسي: عيب اهدئي قليلًا يا امرأة... ولكن بلا

جدوى. عدت اليوم راكضة إلى البيت كي أكلمك، وكلمتك، لكنني الآن مشتاقة أكثر. علّمني الصبر. أدرك بأنني لن ألتقي بسهولة برجل مثلك صغته وفق مزاجي تمامًا، وليس لديّ خيار سوى أن أحبك. أتمنى رؤيتك بأسرع وقت. لا أدري ماذا أقول.. أنا ذات اللسان الطويل، يتبعثر مني الكلام وأنسى الكلمات حين أريد التعبير لك عما في داخلي. تصور؛ وأنا أجرب بطاقةَ الهاتف التي اشتريتها اليوم من الهندي للاتصال بأختيّ في العراق، دون أن أشعر، اتصلت بك أنت.

لحظة. سوف أجيب الأولاد على مسألة، وإذا بقي وقت، قبل أن يأتي المُستأجِر، سوف أكتب لك. أريد أن أحكي لك قصتي مع خلف موريس، والذي يسميه راشد (خُبثٌ مَرير). طالما تحاشيت تذكرها وتعمدت تناسيها، لكنني أريد أن أحكيها لك، مرة واحدة وإلى الأبد، عليّ أن أتخلص منها وأتحرر.. لأنها أتعبتني كثيرًا..

ابقَ معي.. أرجوك.



صباح الحب حسوني.

الساعة الآن أقل من التاسعة بقليل. أوصلت الأولاد إلى المدرسة وفتحت الايميل، على الرغم من أنني قد تأخرت على موعد كورس الحلاقة. ليست مشكلة فأنا سريعة في المشي. راشد أخبرني برسالته أمس، أنهمولا أدري من همقد اختطفوا ثامر، زميل لنا من أيام الدراسة في الصحافة. مسكين، كان يعيل عائلة كبيرة، والدته وأيتام إخوته.

حسن، لا تُذكرني أنت، وإنما من ذاتي سأحدثك عن خلف موريس بكل صراحة وعفوية، ويقينًا، معرفتك بي سوف تيسّر تفهمك لما حدث، فأنت رجل متجاوز بالتأكيد للكثير من عقدنا التي أحكمت حبكها التقاليد. هذا الصباح استيقظت على حلم، فيلم أنت وأنا أبطاله. كان جميلًا. عليّ أن أذهب إلى كورس الحلاقة وبعده إلى مدرسة اللغات. فمتى سأكتب لك؟.. لا أدري. ولكن لا تغضب مني حبيبي، اصبر، وعلمني الصبر. لقد حرقت يدي أثناء إعداد عشاء الأمس لأنني كنت غارقة في حديث طويل معك، حيث انسكب المرق الساخن عليها عندما رفعته عن النار. كنت أبتسم وأبكي مستفيدة من حجة تقشير البصل. لا تقلق، إنه جرح بسيط. أريد أن أقرأ أكثر، أشعر بأنني قد تأخرت أو بقيت على هامش مواضيع كثيرة وأهمها الفلسفة واللغة. رأيت في مكتبة المدرسة كتابًا ممتازًا سأجد طريقة لاستعارته وقراءته خلسة، فهذه بالنسبة لي أثمن المتع حاليًا. عليّ أن اذهب الآن، في طريق عودتي سأجيء بالأولاد من مدرستهم، وأكمل لك.



طاب مساؤك، حبّي.

ها أنا أحتسي شاي الخامسة معك من جديد.. يدي صارت حمراء لكنها بلا فقاعات. كله بسببك. سوف أسجّلها عليك، وكل شيء بحسابه.. ترى ماذا تفعل الآن؟ أحيانًا أنت تذكّرني بزكريا. ربما لأن فيكما صفات تتشابه. أنت حنون وشهواني وتحب الحياة لكنك تحب الالتزام بأخلاقيات معينة. أحبك.. لماذا تأخرت عني كل هذا الوقت؟.. كنت أبحث عنك طوال حياتي. لم يكن عثوري عليك

سهلًا، فلا تتركني لوحدي مرة أخرى. أقبلك. هل أنت مُتعَب؟.. لا تتعب حبيبي وأنا لن أتعب من حبك وانتظارك. أريدك قويًا.. وتجيد السباحة في الحياة وفي السرير. هاه.. أراك تبتسم الآن. إذًا سأواصل الحكي.

في بداية العام الثالث من دراستي للصحافة. كنت يائسة تمامًا من حياتي مع عبود، وصرت أفكر بأن نجاحي خارج البيت وليس داخله. ذات مرة، كنت أسأل عن معرض لرسوم المنغوليين والمرضى النفسيين المبدعين. قرأت خبرًا عنه في الجريدة. وجدت القاعة مغلقة، فاتصلت بالهاتف وكان الذي أجاب على اتصالي هو خلف موريس قائلًا: المعرض انتهى. وبعد أن عرف بأنني طالبة صحافة، ومهتمة بالرسم والثقافة، راح يقدم لي نفسه بكونه المسؤول عن هذا المعرض وبأنه الكاتب، الناقد، الفيلسوف، المسرحي، الروائي، الشاعر، الصحفي، الـ.. فقلت له أعرف اسمك. وقال: إذا كان الموضوع يهمك فيمكننا أن نلتقي وأعطيك الكتالوج وأشياء تتعلق بالمعرض. كان تعارفًا بسيطًا.

في بداية شهر رمضان، والحرب تدق على الأبواب. الحكومة تثرثر كالعادة فيما يخزن الناس ما باستطاعتهم من مؤونة، يهيئون أنفسهم للحرب الجديدة ولرمضان. لم أكن أذهب إلى الكلية سوى مرة واحدة في الأسبوع، وفي هذه المرة وجدت خلف موريس ينتظرني بعد أن كان قد سأل عني راشد الذي هو صديقه وصديقي. تأخرت فوجدته قد يئس من مجيئي، وكان على وشك المغادرة، ليته غار لحظتها، لكننا التقينا صدفة في الممر. كنت أعرف شكله من خلال صوره في الصفحات الثقافية التي كان يكتب فيها ما يسميه (فلسفة) أو (نقدًا).

شكرت له بتهذيب كرم مبادرته بالمجيء؛ على الرغم من أنني لم أطلب منه ذلك، وردّ هو بتهذيب وتواضع، عرفت لاحقًا أنهما مصطنعان. دعوته إلى (النادي) مقهى الكلية، أعطاني صورًا وقصصات صحف تتعلق بالمعرض وما كُتب عنه وأشياء أخرى لا علاقة لها بالمعرض لكنها استنساخ لما نَشر من كتاباته الأخرى.

راشد صديق له ويحبه على الرغم من أنه لا يحترم أغلب سلوكياته، فقد كان يحدثني عنه وعن زيجاته وأحيانًا يصفه بالعبقري وأخرى بالتافه. كان ذلك قبل أن أراه، وأخبرني أن اسمه الحقيقي هو خلف مرعي ولكنه غيره باسم الشهرة خلف موريس لأنه يقرأ كثيرًا للأجانب، وأراد أن يكون له اسمًا شبيهًا بهم. راشد، حين يغتاظ منه، يسميه (خُبثْ مَرير).

في البداية، تكلمنا عن المعرض وعن المرضى النفسيين. قلت له: أنت تسوّق مجرد مادة للإعلام، فلا أعتقد بأن ثمة إبداع لهؤلاء المساكين بمعنى الإبداع الجاد الذي يشكل همًّا ورؤية. فراح هو يجيبني مفلسفًا الأمر ومتشعبًا بأحاديث عن الأدب والفن، وكان يكثر من الاستشهاد بأقوال كبار الأسماء في الفكر والثقافة العالميين. انتهى الدوام وذهب كل منا إلى بيته. بعدها، راحت تتكرر لقاءاتنا في الكلية، أجده أمامي، وما إن أراه حتى أترك الدوام ونبقى نتكلم ونتكلم في الحديقة أو في المقهى. كنت معجبة بسعة ثقافته، وإصراره عليها، وعلى القراءة، على الرغم من أن ظروفه لا تساعده على كل هذه القراءات.

شعرت بأنني وجدت شبيهًا لي، ويفهمني. آخر مثلي؛ فشل و لم يكمل دراسته في أي من الأقسام التي دخلها: الفلسفة والآثار والمسرح واللغة. مهووسًا بحب القراءة مهما تكن قسوة ظروفه. نوعًا ما، هو

يزوّق أو يهوّل الأمور، ليس بالكاذب المحض ولكنه ليس بالصادق أبدًا. كل الناس كانت مشغولة بالتخزين للحرب وهو مشغول بالقراءة والكتابة فقط، لا هم له سوى الثقافة.. كأنه مخلوق للمعرفة وحسب. هذا ما كان يتركه لي من انطباع عنه. لم يكن يعرف كيف يكون إنسانًا عاديًا، وإنما يجيد تمثيل كيف يكون فكرًا. وفكرًا فقط، ويقول لي بأنه ليس لديه حياة خارج الكتب؛ مما جعلني أشد انجذابًا إليه. نظاراته الطبية، لغته، تصنعه للشرود والارتباك، ذكاؤه، حقيبة الكتف المليئة بالكتب، ملابسه الفقيرة وعدم عنايته بهندامه. يعجبني في الرجل طبيعة حديثه التي توحي بالصدق والجدية والانفعال والحماس عند الكلام عن أي شيء، حتى لو كان الموضوع عاديًا، هذا التحسس لانسجام صدق القول مع الشخصية يهمني كثيرًا، حتى وإن كان في الأصل كذبًا، إلا أنه تمثيل متقن؛ أي أنه شيء شبيه بالأدب الذي يخلق أكاذيب ويرويها بصدق. وكان هو ممثلًا بارعًا.. بل إن كل حياته تمثيل في تمثيل. وكم تهربت من علاقات سابقة حين كنت أجد الرجل يبدو حياديًا ومهذبًا عند الحديث؛ بحيث لا أتبين انفعالات روحه، إنهم يخطئون حين يظنون بأن التهذيب العالي والأناقة المفرطة هما الطريق الأفضل إلى قلبي. ربما الأمر في البداية يمكن تقبله أو حتى قد يبدو ضروريًا في الكشف عن إجادة التعامل الحضاري.. ولكن، لاحقًا؛ يعجبني أن يستعمل الكلمات الشعبية الحادة، والتحرشات الحافية، بل وحتى الشتائم التي قد تبدو للآخرين خادشة للحياء. كان هو يجيد الكذب بصدق. يتظاهر بالعفوية فيما أنه في حقيقته يحسب لكل شيء بدقة وقصد. إنه ثعلب ماكر. بارع في خداع الآخرين، وقادر على أن يترك في أنفسهم الانطباع الذي يريده هو. آه.. يا حسن، ليتني عرفتك قبله، ليتني لم أعرفه أبدًا!. رأسي بدأ يؤلمني، سوف ينفجر لأن

ثمة لغو كثير هنا ولا أستطيع التركيز.. سأذهب حبيبي. آسفة. وسوف يكون للغد وجود من أجلك.. وأكمل لك..



صباح الأمهات الناهضات لإعداد الفطور لعوائلهن، والآباء الذاهبين إلى صلوات الفجر، والحقول في بلادنا البعيدة. صباح السلام حبيبي.

أريد أن أتكلم معك، على الأقل كي أبدد الخوف.. أين أنت؟ احضني بقوة.. محتاجة للبكاء بين يديك. الساعة الآن هي السادسة وعشر دقائق. عبود والأولاد لا زالوا نيامًا، وأنا استغل الهدوء كي أكتب لك.

كان خلف موريس يجيد التعامل مع كل حالاتي ويعرف كيف يستوعبني ويجاري تشتتي. يعرف الاستماع، لكنه يعرف الكلام أفضل، ويطيل فيه؛ بحيث أبقى لساعات أصغي إليه وأسأله. في البداية كانت ريتا ترافقنا دائمًا لأن بيتها قريب من بيتي، وتذهب وتجيء معي. كنا نذهب نحن الثلاثة إلى قاعات معارض الرسم، الأمسيات الشعرية، المحاضرات الثقافية، المسرحيات، السينمات، مكاتب الاستنساخ، المكتبات، وإلى المقاهي التي يلتقي فيها المثقفون. كانوا ينظرون إلي بنوع من التساؤل والاستغراب. لاحقًا كفّت ريتا عن رفقتنا حين وجدتنا نكاد ننساها بحكم حواراتنا الثنائية الدائمة وتسارع تقاربنا من بعضنا. كنا نتكلم كثيرًا ويقرأ لي نصوصه. كان يشجعني على القراءة أكثر ويعلمني كيف أنتقي وأوجّه هذه القراءات. نصحني أن أفعل مثله وأحمل معي دائمًا دفترًا أدوّن فيه العبارات والمقاطع والأفكار التي

أجدها في أي كتاب وأعتقد بأنها ستنفعني لاحقًا في كتابة أو استشهاد، وأخبرني أن لديه عشرات الدفاتر على مدى أعوام قراءته. في البداية كان يتعامل معي بحذر بعد أن عرف بأن زوجي عضو مهم في الحزب الحاكم، وأنه رئيس لقسم في الجامعة، و لم يكن يفصح عن كل آرائه، ولا يتكلم كثيرًا عن حياته الشخصية، وإنما عن الثقافة والمثقفين والكتب. وإذا ما تحدث عن شيء شخصي، كان يمنحه سمة الأسطورة، بحيث يبدو ما هو عادي شيئًا هائلًا، وما ليس له معنى ذا مغزى كبير. صرنا نقضي معظم أيامنا معًا بحيث صرت أختنق أكثر وغربتي تتفاقم في بيتي؛ لذا كنا نتحدث في الهاتف طويلًا حين لا نجد فرصة للقاء. لاحقًا عرّفنا أنا وريتا على زوجته التي كانت تعمل في جريدة (الصدى). اسمها ليلى فوجدناها لا تشبهه بأي شيء على الإطلاق، هادئة، واقعية وعملية. تبدو حيادية تجاهه أو ناسية له لأن أكثر همها هو طفلاهما. هو مفلس دائمًا، وكل همه كيف يتدبر قنينة خمر وكتاب وورق كي يكتب. أعتقد بأن مسألة الفلوس هي التي جعلته يتقرب لي في البداية، هي التي كانت تهمه ولا شيء آخر مني. فعلى الرغم من العوز، كنت أتدبر دفع كل شيء، ما نشربه في المقاهي، ما نأكله في المطاعم، ما نستنسخه من كتب، بطاقات الدخول إلى السينما والمسارح، لبعض الدائنين الذين نصادفهم ويطالبونه بدينهم وإلا سيضربونه، إضافة إلى ما أعطيه إياه في كل مرة ثمنًا لسجائره وللخمر الذي يشربه. وكنت أنقله بسيارتي إلى الأماكن التي يريد، أو أن أدفع له أجرة التاكسي إن لم أستطع إيصاله. كان يتباهى برفقتي في مقاهي المثقفين الذين يشبهونه بالإفلاس والفوضى، حيث كنت أنيقة وجميلة، وتبدو عليّ مظاهر ثراء. يعجبه أن يرى نظرات الحسد في عيونهم، وفي الوقت نفسه ليظهر لهم فحولته وشطارته مع النساء كفحولته في الثقافة. بالطبع لم

يكن يهمني كل ذلك؛ لأنني شعرت بأنني أحبه، وبأنه هو الذي كنت أبحث عنه وهو الذي أريد، وأن رفقته وكلامه وثقافته لا تقدر بثمن. أصبحت أتقبل كل ما فيه وتنقلب حتى مساوئه إلى أشياء محببة بالنسبة لي. في الحقيقة كنت قد أُعجبت به منذ اللقاء الأول، أحببت فكره ومعرفته وليس شخصه، أو ربما حتى شخصه؛ كونه مختلفًا عمن سواه ممن عرفتهم، ولأنه على العكس مني، كان يفعل ما يريد ويمارس حريته بغض النظر عن الظروف.. أو هذا ما يوحي به. أنا التي كنت أظن بأن خروقاتي البسيطة الساذجة للعادات والتقاليد هي تمرد وتحرر.. وجدتها لا شيء مقارنة بما فعل ويفعل هو، وبأنه أجرأ مني وأشجع في ذلك، بحيث، في لحظات معينة، تمنيت لو أنني مثله أو أن أكون مثله. على نحو ما، جسَّد هو ما لم أستطع فعله وكنت أظن من الاستحالة فعله في مجتمع كمجتمعنا وظروف كظروفنا.

كنت معجبة بملابسه الرثة ونحافته المخيفة، أحببت حتى أسنانه التي تبدو صدئة بفعل النيكوتين، واتساخه، ورائحة الخمر، وعطن الدخان المنبعث من فمه عند الحديث. كانت محاولاتي في العناية به تشعرني بمسرة أنني أنجز شيئًا ما وأصوغه على هواي، وبأنني مؤثرة. اشتريت له ملابس جديدة وحذاء وفرشاة ومعجون أسنان من نوع غالٍ. حاولت التأثير عليه في أن يغتسل أكثر ويقلل من الشرب الذي يجعله سكرانًا حتى ساعات متأخرة من الليل، وأن يكفّ عن عادة التبول في الشوارع واقفًا حيث يعيد عضوه إلى داخل بنطاله يقطر بولًا؛ مما يجعله يفوح برائحة البول لاحقًا.

كان يحكي لي عن حياته بين سطر وسطر، وعرفت أن زوجته الحالية هي الثالثة، وأن السابقتين قد هجرتاه ومع كل واحدة طفل منه.

أحيانًا، كنت أخجل من تصرفاته مع الآخرين، يتصرف معي بشكل ومع الآخرين بشكل آخر. ثم بالتدريج لم يعد يخجلني ذلك، حيث يجيد التبرير لي أو أنا التي صرت أجيد التبرير له من ذاتي. لم أبخل عليه بشيء مهما كان ضيق الحال. كنت أراه يستحق كل شيء.

ذات مرة اشترينا لطفليه دراجة هوائية وعربة وأوصلته إلى داره. كان يسكن في شقة بائسة لا تصلح حتى لسكن بغل أجرب، فكيف يكتب ويعيش فيها!؟ في الحقيقة، عائلته هي التي كانت تعيش فيها أما هو فأغلب النهار والليل في الشوارع والمقاهي. وهكذا، مع الوقت وجدت نفسي أغرق بعلاقة حب كنت مهيأة لها تمامًا، لكن الظروف لم تكن مناسبة. العراق محاصر، مقهور بالديكتاتورية والعوز.. والآن بجيوش العالم على حدوده. دخل العراق كله في حالة إنذار وطوارئ وترقب مخيف. أنا وخلف، وقبل اندلاع الحرب بأيام، كنا نتجول كثيرًا في شوارع بغداد التي نحبها ونكرر المشي في الشوارع نفسها مرة تلو الأخرى ونبكي متعانقين حين نتخيل بأن الدبابات الأمريكية ستحتلها بعد أيام، وبأننا لن نستطيع المشي ثانية في شوارعنا هذه نفسها. كان مثلي يحب الأماكن أكثر من البشر أحيانًا.

عبود يقضي معظم الليالي ببذلته الزيتونية اللون ومسدسه (الطارق) وبندقيته (الكلاشينكوف) كخفر في مقرات الحزب وأعرف بأنه لن يعود حتى صباح اليوم التالي. لذا اصطحبت خَلَف ذات ليلة ليبيت في بيتي حين وجدت بأننا قد تأخرنا في تجوالنا في الشوارع وبأن بيتي هو الأقرب. كان الجميع نيامًا. فتحت الأبواب بهدوء وحذر. يدي بيده وأخذته إلى غرفة أطفالي، لأننا في الأيام الأخيرة كنا ننيمهم في غرفتنا أنا وعبود كي يكونوا بقربنا ولا يخافا. قلت له: عليك أن تغادر قبل

الساعة التاسعة صباحًا لأن عبود يرجع فيها، أنا سأوقظك. قال إنه لن ينام، لا يستطيع النوم، وسوف يبقى يقرأ حتى الصباح. احتضنا بعضنا خلف الباب وشعرت كفيه تمتدان إلى مؤخرتي برغبة، ثم حول وجهه من رقبتي وراح يقبل خدي.. ثم شفتي، فكانت تلك قبلتنا الأولى التي استسلمت لها طويلًا. شعرت بأنفاس اشتهائه تتصاعد، نقل كفه إلى صدري فهمست له بأنني متعبة جدًا. قبلته وهممت بالمغادرة فقال: هل لديكم شيء أشربه؟. ابتسمت وقلت: لدينا كل شيء باستثناء الكحول. قال: لا بأس، دليني على المطبخ كي أصنع لنفسي فنجان قهوة. ونزلنا معًا. أعددت له القهوة فيما كان هو يتفحص المكان، يطل من النافذة إلى الحديقة ويمد يده إلى خصري بين لحظة وأخرى أو يقبل رقبتي ويحتضنني من الخلف، شعرت بتوتر عضوه بين ردفي.. وتذكرت رجل القطار في طفولتي.

صعدنا مع فنجان قهوته. هيئتُ له فراشًا على الأرض ومصباحًا للقراءة خلف الوسادة. سحبني إلى الأسفل وجلست ملتصقة به. كنت أوشك على الاستسلام له والغرق معه في ممارسة حب جارف، لكنني بالفعل كنت متعبة ومرتبكة، قلقة بسبب مغامرتي في جلبه للمبيت في البيت. احتضنا بعضنا بصمت وأطلنا التحديق في عيني بعضنا وتشابك الأصابع والشفاه، ثم مسحت على شعره المبعثر، قبّلته وغادرت. وقّتُ جرس الساعة المنبه على السابعة والنصف.. وما إن تمددت على السرير حتى غبت في نوم عميق لم أستيقظ منه إلا على هز وصراخ عبود لي.. على مشكلة كبيرة سببها لي خلف موريس.

حبيبي حسن إنهم يستيقظون الآن، عليّ أن أتركك وسوف أكتب لك فيما بعد.. أحبك وأتمنى لك صباحًا يليق بك.

- ١٣ -

اغتصابات مُتزامِنة

أنا

عدت إلى إربد. أخبرت خالد بكل تفاصيل سفرتي إلى عَمّان وبفكرة طباعة مجموعة قصصية، فاعترض كعادته في البداية قبل أن يدعمني بكل ما يستطيع. قال: لا أنصحك بذلك؛ لأن هذه هي نصوصك الأولى، والتي عادة ما تكون مجرد بدايات ضعيفة، وأغلب الكتاب يتنصلون مستقبلًا من أعمالهم الأولى. الأفضل هو أن تتريث لتبدأ في صنع اسم لك بعمل جيد وناضج، وبكتاب يصدر عن دار نشر لها اسمها وليس مطبعة بطاقات أعراس ومآتم وأغلفة الحلويات. العبرة ليست بالنشر ولا بعدد الكتب، فما أكثر الكتب التي تلفظها المطابع يوميًّا، وهي بلا قيمة حقيقية، ولا ينتبه إليها أحد!.

أخبرته باقتناعي بما قاله قاسم. ماديًّا؛ من أجل توفير ثمن بطاقة السفر، ومعنويًّا؛ لكي أنتهي من مرحلة، وتكون كتابتي مستقبلًا بشكل آخر مُستمَدة من تجربة مختلفة، كما أنه لمن الأفضل أن يكون لدي كتاب معي في إسبانيا، أستطيع من خلاله تقديم نفسي كاتبًا لمن سأتعرف عليهم من العرب والمستعربين هناك، وحتى لأغراض الدراسة؛ فقد أخبرني عبدالهادي بأن الجامعة تأخذ المنشورات بعين

الاعتبار، وتمنح مقابلها نقاطًا للطالب؛ مما يقلل عنه عدد دروس الكورسات.

اتفقنا في النهاية على أن يتبنى خالد جلب نصوصي القصصية المحفوظة عنده إلى مقهى الإنترنت الذي نرتاده كي يصفّها على الحاسوب، يطبع منها نسخة يعطيها لقاسم كي يقدمها لدائرة رقابة المطبوعات ويتابع ردها الذي عادة ما يتأخر شهرًا أو أكثر.

عادت الروح إلى روح أحلامي، وعدت إلى عملي في الحراسة، ولأنني لم أعد أذكر من الإسبانية، التي سبق وأن درستها، إلا بضعة كلمات، كنت أستخرج من القاموس كل كلمة في الصفحات الثقافية في الجرائد الإسبانية التي جلبتها معي. أكتب بقلم الرصاص معناها بالعربية فوقها، ثم أقرأ النص هكذا كاملًا وأعيد صياغته، إضافة إلى أنني عدت للتردد على مكتبة جامعة اليرموك في أيام إجازتي الأسبوعية. أبحث بين الكتب المترجَمة، أستعين بها لمعرفة المزيد عن الأدباء الناطقين بالإسبانية كي أكتب عنهم أي شيء بمناسبات تواريخ ميلادهم وموتهم، التي أعددت قائمة بها.. وهكذا استطعت أن أملأ زاويتي الأسبوعية القصيرة (ثقافة عالمية). أراحني هذا الأمر من نشر مقالات ونصوص من تأليفي، وخاصة بعد ما سبّبه لي من أسف وندم نشر مقالي عن مسرحية الدكتور كرّومي، فصار كل ما أنشره تحت صيغة ترجمات؛ وإن كنت أؤلف بعضه، ومنها على سبيل المثال أبيات شعرية زعمت أنها مما تم اكتشافه من أوراق لوركا بمناسبة ذكرى مقتله.

بعد شهرين ونصف أبلغني خالد بأن قاسم قد راجع دائرة رقابة المطبوعات. لديهم ملاحظات على القصص وعليّ أن أذهب لمقابلتهم كي أوقع تعهدًا بالالتزام بها وإلا فلن يجيزوا لي الطباعة. وكنت،

خلال هذا الوقت، قد قدمت إلى السفارة الإسبانية كل الأوراق المطلوبة للحصول على التأشيرة، بعد أن وصلتني وثائقي من الأهل، واصطحبني المقاول حسين العمري إلى فرع البنك الذي يعرف مديره، حيث استقبلنا في مكتبه. قدم لنا الشاي وحدثه حسين عن المطلوب، فقام به كله خلال ساعة واحدة. وقعنا على الكثير من الورق الذي لم نقرأه. فتح لي حسابًا باسمي. حول إليه عشرين ألف دولار من حساب حسين. أعطاني ورقة تؤكد امتلاكي لحساب، والمبلغ الذي فيه. أعاد المبلغ من حسابي إلى حساب حسين، ثم قال: يمكنكم الإبقاء على الحساب أو إغلاقه. فنظرت إلى حسين الذي قال: أبقه، فهو إن لم ينفع فلن يضر. بعدها ذهبنا إلى كاتب عدل. كتب حسين عنده تعهدًا على نفسه بأن يُحَوِّل لي ألف دولار شهريًّا.

بعد انتظار دام ساعتين في صالة صغيرة بمبنى دائرة رقابة المطبوعات، أدخلوني إلى قاعة تتوسطها طاولة طويلة وحولها خمسة رجال بكروش وشوارب يحتسون الشاي وملأوا جوها بالدخان والمنافض بأعقاب السجائر. أشار لي أحدهم بالجلوس أمامه. كان متجهمًا ويتكلم بثقل وتعالٍ. حالما جلست دفع إليّ المخطوط على سطح الطاولة وفوقه ورقة تضم ملاحظاته مع أرقام الصفحات. رحت أتصفحها وهو ينظر الي بعينين كسولتين أو حتى قَرِفَتين مني، إذا جاز التعبير. حاولت الاعتراض ومناقشته ببعض المقاطع والكلمات التي قرر حذفها، ومنها على سبيل المثال، كلمة (ضرط) في قصة تتحدث عن طفل يضرط في مسجد وسط سكون المصلين. قلت له: إنها قصة واقعية، هكذا حدث وكنت شاهدًا عليها، وهذه كلمة عادية، مستخدمة في الحياة وكتب التراث والدين وأن حذفها سيخرب النص كله لأنه أصلًا قائمًا عليها...

لكنه لم يرغب بالاستماع إلى بقية مناقشاتي، وقاطعني بالقول:

- اسمع، عاجبك ولا مش عاجبك؟ هذا هو الموجود، فإما أن تلتزم بكل الملاحظات أو لا يمكنك أن تطبع هذا في بلدنا، إن كنت تريد تخريب الذوق العام فاذهب وخرّبه في بلدك.

بلعت ريقي بصعوبة.. ثم وقعت له على الالتزام بكل الملاحظات من حذف أو تغيير. حين أخبرت خالد وماهر بالأمر قالوا: وماذا كنت تنتظر؟ إنهم مجرد شرطة لا علاقة لهم بالثقافة.

- حتى لو كانوا كذلك، فعلى الأقل، ومن خلال عملهم لسنوات طويلة، المتمثل بالقراءة فقط، يفترض بأنهم قد أصبحوا أثقف الناس، فقد رأيت على الطاولة وفي الرفوف التي تحيطهم على الجدران عشرات المخطوطات إن لم تكن مئات!

- وهل تظن بأنهم يقرأونها فعلًا كما يقرأها أي منا، أو أي قارئ عادي؟ إنهم فقط يمسحون الصفحات بعيونهم باحثين عما يخالف قائمة الممنوعات الموجودة في رؤوسهم حفظًا، إنهم متدربون على ذلك مثل الكلاب البوليسية، والفرق هو أنهم يستخدمون حاسة البصر فيما تستخدم الكلاب حاسة الشم. معروف عن الرقابات أنها تلجأ للرفض أكثر من الموافقة؛ لأن الرفض لن تتبعه أية محاسبة لهم، فيما قد تجلب الموافقة لهم بعض الإشكاليات لاحقًا. يعني الرفض أسلم لهم في كل الأحوال.

في كلِ الأحوال.. لم يكن لدي خيار آخر سوى مواصلة ما عزمت عليه وخطّطنا له، فرحنا أنا وخالد نستدين ممن نعرفهم حتى تمكنا من جمع مبلغ الطباعة، ولأن قاسم كان قد أخبرنا بأن الغلاف الذي بالأسود والأبيض أو الذي لا تتجاوز ألوانه أربعة ولا تحتاج الفرز

سيكون أرخص من الملون بكثير، اخترت صورة من صور الحرب العراقية الإيرانية. كنت أحتفظ بها من إحدى الصحف لشدة تأثري بها، وهي من بين الصور التي كنت أعلقها على جدار عشتي حينًا، وأنزلها حينًا آخر. جندي جريح يسنده جندي آخر منهك، وسط صحراء شاسعة وأعمدة دخان في الأفق.

وصلنا إلى المطبعة التي كانت في مبنى واطئ قديم وسط حي شعبي. يعمل فيها رجلان كبيران في السن. أبلغناهما بتحيات قاسم واتفقنا معهما بيسر. نبهنا سؤال أحدهما إلى أننا قد نسينا ما سنضعه على الغلاف الخلفي: هل تريدانه أبيض هكذا أم أن لديكما شيئًا تضعانه عليه؟

نظرنا في عينيْ بعضنا ثم استئذنّاه لدقائق. خرجنا أمام الباب نفكر بالأمر. اقترح خالد: اذهب إلى أحد الذين تعرفهم من الكتاب المشهورين ليدوّن كلمة قصيرة للغلاف، وهذا سيعزز من التعريف بك، ويمنح الكتاب أهمية أكبر. لكنني قلت له: إن هذا سيستغرق وقتًا طويلًا، بين أن أجد هذا الشخص الذي سيوافق، ومن ثمّ ما سيحتاجه من وقت لقراءة الكتاب وسط انشغالاته، ونحن ليس لدينا وقت طويل.. أو، إنني لا أريد تبديد المزيد من الوقت والمصاريف.

وبعد لحظة صمت وتفكير قلت له: اكتبها أنت الآن. ففاجأه القول حتى ابتعد خطوة إلى الوراء، ومانَع: هذه كتب وثقافة وتاريخ، هذا شيء جاد وليست لعبة رعاة يا بدوي يا متخلف. لكنني ألححت عليه وأخذت أسوق له المبررات ومنها أنه هو أكثر من يعرفني هنا ويعرف نصوصي، حتى وافق... ورحنا نصوغ الكلمة معًا على ورقة أعطيناها للطبّاع، الذي اقترح أن نضع توقيع خالد وصورة لي أيضًا،

فتردّد خالد كأنه سيوقع على صك بألف دينار، لكنه وقع في النهاية، ومن حسن الحظ، أنني كنت أحمل في جيبي صورًا لغرض الفحص الطبي الخاص بتجديد الإقامة الذي سيصادف بعد يومين. أعطيته إحداها.

قال الشيخ الطباع: تمام، تعالوا لأخذ البضاعة بعد أسبوع.

دفعنا له نصف المبلغ والنصف الآخر سيكون عند استلام النسخ، كما اتفقنا، ثم خرجنا مشيًا نحو وسط البلد ونحن مبتهجان وقلقان في الوقت نفسه. تسكعنا في الشوارع والمقاهي و(الساحة الهاشمية) حتى حل الليل. كنا كطفلين سعيدين ونحن نتخيل أول كتاب سننشره بجهودنا الذاتية، ونعد الخطط لكيفية توزيعه بأيدينا، ثم توجهنا مشيًا حتى غرفة قاسم. هناك أعددنا العشاء مما لديه باحتفالية وواصلنا الضحك واحتساء الشاي وتدخين النارجيلة والحديث عن الكتاب والشعراء والبنات والأحلام...



هي

مرحبًا حبّي.

بالأمس، كتبت لك في الصباح أيضًا، ولكن يبدو أن الرسالة لم تصلك أو أخطأت بالعنوان. حاولت أن أبعثها مرة أخرى و لم تُبعث. لا تمحُ رسائلي. لو كنت مكانك لاحتفظت بها، فلا أعتقد بأنني سأروي أحداثًا من حياتي على هذا النحو مرة أخرى أبدًا.

أشعر بقلق شديد. الوضع في العراق غير مطمئن. ماذا لو كنت

أنت هناك؟.. أشعر بالرعب. أنا خائفة جدًّا على أختيّ في بغداد، خائفة على كل الناس. الأخبار سيئة. أشعر بفزع كبير وعدم راحة، قلبي يعتصر. أوه.. دعنا لا نتحدث عن هذا، فكلنا نعاني هذا الوجع الذي اسمه عراق.

وقفت أمام المرآة وابتسمت، عادة صرت أكررها منذ عرفتك، فقد شعرت بأنني لازلت أعيش ولا زلت قادرة على الحب وعلى أن أجعل الأشياء جميلة من حولي، لأن في قلبي إنسانًا رائعًا مثلك. ثمة شيء آخر، وهو بفضل معرفتك أيضًا؛ ربما لو أن هناك جوائز خاصة بالعادة السرية لفزت أنا بالجائزة الأولى. أراك تضحك. وليتني أسمع تعليقك.

اكتُب لي.. اكتُب لي كثيرًا.. كي تعوض قليلًا عن عدم وجودك المادي.

هذا الهندي اللطيف الذي أشتري منه بطاقات الهاتف، شديد البخل. لم يعطني شربة ماء بالأمس من الحنفية وقال: إن شئتِ أبيعك قنينة، فهذا محل تجارة وليس الصليب الأحمر. أرأيت؟.. علمًا بأنني أخبرته بحبي للهند والهنود، وبأن لي أقاربَ هناك، وأنني أشتري منه دائمًا البطاقات والشاي والبرغل والحمص والباقلاء والزبيب والبهارات وأشياء كثيرة.

لا أدري لماذا يطالبني جسدي بك الآن؟. الجسد بحد ذاته أفق هائل للتعبير.. نوع من العودة إلى الفطرة. أشعر بأنني جميلة جدًّا. أكثر مما تتصور. لست بعارضة أزياء أو دمية إعلانات ولكن جمالي من النوع الذي لا ينتهي لأنه يتجدد كل يوم. كأنني على يقين من ذلك وسوف أذكرك به عندما نلتقي، وحين تعرفني سوف أستحوذ

على صور كل النساء في مخيلتك وأكثر.. خاصة حين أجد بأنك حلمي. كثيرون تغزلوا بي، وأذكر أن أحدهم تغزل بالشامة التي في خدي قائلًا: حتى لو أغمضتُ عينيّ فلن أستطيع منعهما من رؤية هذه الشامة.

لم أكن أعر اهتمامًا لمن يطري شيئًا فيزيائيًّا فيّ؛ فهذا أمر ليس من صنعي ولا فضل لي فيه، وإنما كان أجمل الغزل، بالنسبة لي، هو ذلك الذي يتغزل بشخصي، بعقلي، برأيي، بسلوكي وأفكاري.. فهذه نعم، هي من صُنعي ويهمني سماع الإطراء لها. كل الذكور الذين عرفتهم لم أكن أبحث عما هو جسدي معهم وإنما كنت أفتش عن ثقافة الحب، عن حب الثقافة، عن الحب؛ أي أن نجلس مع بعضنا ونتحدث عن الأغاني والكتب والأفلام. المشهد بحد ذاته هو الذي يغريني.

مبكرًا، في الإعدادية، قرأت كتابًا ربما كان عنوانه (مذكرات رجل جنسي)، أعطتني إياه جارتنا الصابئية، وأذكر أنني قد نقلت نصفه في دفتر؛ علّي أفهم بالضبط.. ولم أفهم، وحين أعدته إليها سألتني وابتسامة غريبة خليعة ماكرة على شفتيها، ابتسامه هي الأخرى لم أفهمها ولم تعجبني، قالت: ها، أعجبك.. أليس كذلك؟. قلت لها: نعم. وخرجت مسرعة. صرت أتهرب من رؤيتها ثانية. سألت بعدها جارة أخرى لنا، وهي صديقة لها، وكانت شيوعية وقبيحة الشكل ولها عشيق قبيح أيضًا تعاشره كثيرًا وتحكي لي التفاصيل، ولم أفهم أيضًا؛ لأنني فقط كنت أتخيل حجم القبح الذي يجمع قبحيهما عاريين.

مع زكريا كانت تلمساتي الأولى للحب ولبعض لذة ملامسات

الاشتهاء. لم أكن أتخيل الجنس على حقيقته إلا بعد أن شاهدت، لأول مرة، ذلك الفيلم في شريط الفيديو في غرفة أولاد زوجي. عرفت لحظتها أن للمرأة ذروة شهوة أيضًا. أظن بأنني لم أعرفها بحسها الحقيقي، وكما أريد أنا، إلا مرتين في حياتي... عندي ظمأ. عبود يعتليني، يتخلص من شهوته بآلية وينام، تاركًا إياي متوجعة أو في المنتصف، لم أصل إلى الذروة إلا مرتين تقريبًا؛ إحداها مع خلف، والأخرى ذات صدفة مع عبود. ليست صدفة بالضبط.. إنها ذات الليلة التي عثرت عليك فيها بداخلي. كنت جاهلة بالأمر، وكلما سألته عن سبب سرعته يقول: هذا دليل فحولة حارة. وأنا الجاهلة كنت أصدق.

أحيانًا وهم يرون مدى قوة علاقتي بياسمين ويستمعون إليّ كيف أتحدث عنها بحب، يسألونني فيما لو كنت سحاقية؟.. فماذا سأقول لهؤلاء؟.. إذا كنت لم أرتوِ من الرجل حتى الآن فكيف سأبحث عن المثلية؟ ولو بحثت فلن أرتضي بامرأة غير بشعة. بالمناسبة عبود رجل أنيق وصحي وقوي.. بل هو وسيم أيضًا، أنا أحترمه، ولكن، في الوقت نفسه، لا أشتهيه، لا أستطيع تقبيله ولا احتمال تقبيله لي، وكلما فعلها أشعر بأنه يغتصبني أو وكأنني أرتكب المحرم مع عمي أو خالي. طبيعة شخصيته المتزنة اجتماعيًا، وسلوكه الملتزم، ووقاره، وكونه أكبر مني في السن.. كل ذلك يجعلني أشعر بأنه قريب من هذا النوع، عم أو خال وليس حبيبًا أبدًا.

اليوم حين اتصلت بك أو اتصلت بي، كان صوتك هادئًا، وفيه تعب.. ما الأمر؟.. هل تسهر؟.. مع زوجتك أم مع غيرها؟. إذا كان الأمر مع زوجتك فلا بأس، لم أعد أغار من الزوجات كثيرًا

لأنهن عاديات أو هكذا أصبحن. أنا أيضًا كان صوتي مخنوقًا.. إنه من الخوف يا حبيبي. لماذا لا تغامر وتأتي.. سأدفع لك نصف بطاقة السفر ولو اضطررت لاستدانته من هذا الهندي المستحيل. أكاد أراك تضحك. مشتاقة وقلبي يكاد يقفز من مكانه.

عليّ أن أذهب الآن للطبخ، وبعدها سوف أكمل لك حكايتي، مع خلف، التي لا أحب تذكرها، ولكن لابد أن أحكيها لك، مرة واحدة وإلى الأبد.. عليّ التخلص من عبئها الثقيل على ذاكرتي وروحي.



هلّو يا حُب.

في صباح اليوم التالي لليلة مبيت خلف في بيتنا، أيقظني عبود رافعًا إياي عن السرير من شَعر رأسي، حتى أوقفني أمامه وهو يرتعد ويصرخ بوجهي كالمفجوع بشكل لم أره عليه من قبل أبدًا: ما هذا يا مجنونة؟.. ما هذا يا عاهرة؟.. أتريدين إعدامي وإعدام أهلي؟. سأقتلك يا ابنة القحبة.

وهذه هي المرة الوحيدة التي سمعته يتلفظ فيها بكلمات من هذا النوعٍ. بكفٍّ يشدني من شَعري بعنف، وبالأخرى يمسك برقبتي موشكا على خنقي. كأنني كنت في كابوس. ولا أدري كيف طرأ على ذهني أطفالي قبل كل شيء، نظرت إلى السرير، إلى أرضية الغرفة ولم أجدهما، فتمتمتُ: أين الأولاد؟. قال: رفعتهم إلى غرفتهم كي لا يروني كيف أقتلك وأتخلص منك ومن جنونك ومن عاري ومصيبتي بك.

تذكرت ليلة الأمس، وجود خلف هنا. رمقت الساعة فوجدتها تشير إلى التاسعة والربع. كيف لم أستيقظ إذًا؟. ربما كنت قد وقّتها خطأً، ربما لم أسمعها لشدة تعبي، أو أنها دقت فأطفأتها شبه نائمة وواصلتُ نومي كما يحدث معي كثيرًا. حتى الآن لا أعرف لماذا لم أستيقظ ذلك الصباح. قلت له: اهدأ وفهّمني ما الذي حدث؟. قال ورذاذ غضبه ينفث في وجهي وعينيه تقدحان شررًا كتنين: ما الذي حدث؟!.. تتغابين يا كلبة؟! تعالي وانظري ما الذي حدث.

وجرني من شعري نازلًا بي إلى الصالون، فهالني ما رأيت.

عبارات كبيرة مخطوطة على كل الجدران بخط خلف الذي أعرفه جيدًا، يقول فيها: "الموت للديكتاتور"، ليسقط الطاغية وأزلامه"، "نعم للحرية".. وشبيهاتها. ثم سحبني إلى المطبخ بعنف ووجدت الشيء نفسه هناك، فيما علبة الصبغ التي استعملناها قبل يومين لصبغ شباك تصدأ، ملقاة على حافة الموقد تقطر آخر ما تبقى فيها من السائل الأحمر. صدمتني المفاجأة وسألته: وأين بعد؟. قال: من لطف الله أن جنونك لم يأخذك إلى واجهة البيت أو خارجه وإلا لكنّا الآن كلنا في التعذيب وفي طريقنا إلى المشنقة. قلت له والرعب قد تمكن مني: أقسم لك بأنني لم أفعل هذا؟. قال: ومن يكون غيرك؟.. أنا أعرفك جيدًا، ودائمًا تنتقدين الحكومة والحزب أمامي وتتفلسفين بالحرية وبالخراء الذي تملأ به الكتب التافهة مخك.

كررت بتوسل: أقسم لك.. أقسم بأنني لم أفعل هذا. هذا ليس خطي. أنت تعرف خطي.

التفتَ، تَفَحّصَ الخط، ارتخت قبضته عن شَعري، وقال: فمن يكون إذًا، وقد وجدت باب البيت مقفلًا؟!.

بكيت: لا أدري.. لا أدري. أريد أن أرى الأولاد.

وصعدت راكضة إلى غرفتهما. وجدتهما يحتضنان بعضهما ملتفّين بالفراش بعيون حائرة خائفة. فاحتضنتهما، أهدئهما وأقول لهما ألا يخافا وليس ثمة شيء مخيف. انتبهت إلى أن خلف قد ترك الفراش الذي أعددته له على الأرضية كما هو ومصباح القراءة في مكانه قرب الوسادة. قلت لطفليّ أن ابقيا وسأجلب لكما فطوركما هنا هذا اليوم. حين نزلت وجدت عبود يحاول مسح العبارات أو تشويهها بالصبغ بأسرع ما يستطيع. وقلت له: اذهب إلى أولادك وقل لهما ألا ينزلا إلى أن تأمرهما بذلك. أنا سأحمل الإفطار إليهما وإلى أولادي، ثم أنزل لأساعدك في مسح هذه المصيبة. وأضفت: أنا كنت أقرأ في غرفة الأولاد حتى ساعة متأخرة و لم أسمع شيئًا و لم يحدث شيء قبل أن أنام، وأنت رأيت فراشي هناك.

اتفقنا على ألا نخبر أيًا كان. هكذا تم تلافي الأمر بأعجوبة، وأنا أسوق له التأويل تلو التأويل ومنها: ربما أن شخصًا يغار منه أو يعاديه فعل هذا، أو أن أحدًا يعرف مكانته الحزبية وأراد الإيقاع به.. أو.. أو... وكان الثمن أن منعني من مواصلة دراستي متخذًا من هذا الذي حدث حجة لا نقاش فيها.

هل تصدق بأنني قد سامحت خلف على فعلته هذه أيضًا؟. كنت أعتقد بأنني أحبه، أو ربما كنت أحبه فعلًا؛لذا أتعمد تصديق حتى أكاذيبه. حين عاتبته بالأمر قال: أنت تعرفين موقفي من هذا النظام الديكتاتوري الذي أعدم أولاد أختي وزوجها وأصدقاء لي، وأعدم حسن مطلك وضرغام هاشم ووالدك وآلاف الناس، وسجنني لأعوام في (مصحة الأمراض العقلية)؛ مستشفى المجانين، مع الحالات

الخطرة، كما أعرف بأنك تكرهينه ولك الموقف نفسه، وجدت نفسي مختنقًا في بيتكم؛ لأنه بيت أحد رجال وخدم النظام، وحبيبتي على بعد أمتار مني وهي له وليست لي. لذا كان ما كتبته صرخة تفجرت من قلبي وتفوقت على عقلي، ثم ليتهم عرفوا وأعدموه بسبب ذلك، فهكذا يقتل بعضهم بعضًا وتتحررين أنت منه إلى الأبد.

أنا المأخوذة به، صدقته و لم أسأله في حينها على الأقل: لماذا لا يكتب الذي كتبه على جدران بيتهم وليس على جدران بيت فيه أولادي؟. بالطبع، كل الذي ذكره عن إعدام أولاد أخته وزوجها وعن حجزه في مستشفى المجانين هو صحيح، لكن الحقيقة شيء آخر مختلف وكارثي كما أخبرني راشد لاحقًا.

على الرغم من كل ذلك لا زلت أشعر بكوني مدينة لخلف باعتذار لأنني وعدته ووعدت نفسي بالطلاق من زوجي والزواج معه، لكنني لم أستطع تنفيذ وعدي، فلو رأيته ذات يوم أوصل إليه هذا الاعتذار. قد تعتبرني مجنونة عندما تسمع مني قولًا كهذا، ولكن في رأيي أن كل امرئ يعمل بأخلاقياته، ومن أخلاقياتي البر بعهودي.

في البداية، وقبل الحرب، لم يكن، في سريرته، يأخذ مسألة علاقتنا على محمل الجد، لا أعرف كيف أصف لك ذلك. حسن، أنا لا أبحث عن علاقات وقتية وتنتهي بسرعة. كنت أبحث عن حب حقيقي ومشاركة لما بقي من العمر. كان لدي هاجس منذ البداية أن ارتباطي بخلف لن يطول، هذا على الرغم من حقيقة وجود عاطفة وتواصل ذهني بيننا لم أجده مع آخرين غيره، وكان انسجامنا بديعًا، ويبدو متكاملًا بالفعل. إلا أن ثمة اختلاف بين شخصيتينا، هو وأنا كنا نعرف ذلك، ولكننا كنا نبرره على أنه أفضل، كي يكمل أحدنا

الآخر. أنا نشيطة حيوية وأحب الحياة، بينما هو كسول ولا يضيره أن يكون عالة على غيره، ولا هَمّ له سوى الكتابة والقراءة والكلام. صحيح أن المعرفة هي أثمن شيء من وجهة نظرنا نحن الاثنين، ولكن ليس إلى درجة أن تصير حياتنا كلها معرفة. الحياة بذاتها هي أثمن من المعرفة. ثم إنني كنت أظن نفسي قادرة على تغييره مع مرور الوقت، وبالفعل غيرت فيه أشياء كثيرة؛ جعلته يغسل أسنانه ويستحم مرة في الأسبوع، على الأقل، ويغير تسريحة شعره وأن يكفّ عن التبول واقفًا في زوايا الأزقة، قد تضحك وتعتبر تلك تفاهات، ولكن صدقني إنها إنجازات تطلبت مني جهدًا كبيرًا مع شخص كخلف.. عنيد كسول معتاد على الاتساخ.

راشد كان خائفًا عليّ منه، ولكنه ظل يحترم رغباتنا ويحاول تقليل تدخله بيننا إلى أقل ما يمكن. وبين حين وآخر يبوح لي بقلقه عليّ ويلمح لي بأن أحتاط وأكون حذرة من خلف. كان يقول: يا هيام.. أنت من بيئة وهو من أخرى ولا يمكن أن تنسجما. ربما في البداية سيغطي الحب بعض الأشياء ولكن سرعان ما ستنكشف أخرى تعجز العاطفة عن تغطيتها.

بل وحذر خلف من أن يصيبني بأي أذى. فهو يعرف جيدًا تاريخه وكمائنه، وبأنه ما تعرّف على شخص إلا وانتهى بإيذائه، وفي الوقت نفسه تهمه صداقته التي تربطه به منذ أعوام. كانت جل هذه الأمور واضحة أمامي، لم أكن عمياء تمامًا بحكم العاطفة، ولكنني أردت خوض هذه التجربة لأنها كانت، بالنسبة لي، أفضل من أن أموت تحت وطأة السأم.

ذهبت إلى شقة خلف صباحًا. قبل الحرب بيومين وكانت زوجته

قد تركته وسافرت مع طفليها إلى أهلها في (المسيب)، فيما رفض هو المغادرة. يسكن في الطابق الرابع، وأمامهم الكثير من الدوائر الحكومية التي من المؤكد أنها سوف تُقصَف من أول لحظة. حاولت إقناعه بمغادرة بغداد، أو اللجوء إلى أي مكان آخر أكثر أمنًا عند أحد الأصدقاء، ورفض، فنزلت معه واشتريت له كميات من الأغذية الجافة والمعلبة والمشروبات وغيرها من الحاجيات؛ بمثابة خزين له للأيام القادمة عندما تشتعل الحرب... غادرته واعدة إياه أن أتصل به في كل فرصة ستتاح لي.



في تلك الليلة الجحيمية التي دخلت فيها القوات الأمريكية إلى العراق من الجنوب، وطائراتها راحت ترمي بأطنان من قنابل الموت على بغداد. عبود في خفارة كالعادة. أولاده في بيت خالتهم. أنا وأطفالي وأختي عفراء نجلس حول شمعة تحت السلم في الطابق الأرضي، ملتفين بأغطيتنا ونستمع إلى الراديو. كل منا تحتضن طفلًا. نشعر باهتزازات الأرض والجدران مع كل انفجار. الرعب ينشّف أبداننا، ونكاد نرى شكل الموت وجهًا لوجه. نحاول تهدئة الأطفال وتشتيت انتباههم بالحكايات وبشروح تبسيطية عن الحرب. بالله.. كيف يمكن تبسيط الحرب!.. هذا مستحيل. فقد كان الرعب ينتقل من أبداننا إلى أبدانهم عبر الالتصاق، عبر نبرة الصوت والنظرات، عبر ارتعاشات فطرية لا يخطئها بدن كائن حي.

اتصل خلف على الهاتف في الساعة العاشرة، وكنا قد اتفقنا ألا يتصل بي على البيت أبدًا إلا في حالة قصوى. كان سكرانًا وقال إنه قد

دفع ثمنًا باهظًا من نفسه ومن عائلته لأنهم يحبون العراق. وحدثني عن أولاد أخته الذين أُعدِموا وعن نفسه وكيف نجا من الإعدام بافتعال الجنون، لذلك، وبعد كل هذه التضحيات، فهو لا يحتمل أن يرى العراق تحت الاحتلال، ولهذا، حسب ما قال لي في تلك الليلة: قررت أن أنتحر احتجاجًا على الحرب.

قلت لعفراء أن تعتني بالأولاد وأنني سأذهب إليه، وإذا اتصل عبود فقولي له بأنني ذهبت إلى حنان لأنها اتصلت باكية خائفة وهي مريضة. ارتديت فوق فستاني المنزلي، على عجل، سترة عسكرية من ثياب عبود، ووضعت على رأسي، فوق الحجاب، طاقية من تلك التي يعطونها للجيش الشعبي. حاولت عفراء منعي قائلة إنني مجنونة، فبمجرد أن أخرج من البيت سأموت؛ لأن الشوارع مكتظة بالمفارز، ونقاط التفتيش، وقرقعة السلاح في كل زاوية وفي كل متر مربع، والسماء تمطر جحيمًا. قلت لها: لابد أن أذهب.

أخذت معي بعض بطاقات عبود وأوراقه التي تشير إلى مكانته في الحزب والجامعة، قبّلت أولادي وقلت لهم سأعود بعد قليل. وما إن أخرجت السيارة من الكراج وأصبحت في الشارع حتى وجدت نفسي في ميدان معركة حقيقي. صفارات الإنذار والانفجارات والدخان. و لم توقفني سوى اثنتين من نقاط التفتيش، فأطلعتهم على أوراق عبود، قلت لهم إنني في خفارة أيضًا، ولكن لديّ أخت تسكن وحيدة مع أطفالها الصغار، وهي في حالة طلق الآن، فكانوا يسمحون لي بالمرور. هم أيضًا كانوا خائفين، الذعر واضح في نظراتهم والحيرة بادية في كل حركة. كانت الشوارع خالية إلا من سيارات الإسعاف والإطفاء والشرطة، وأخرى تنقل مسلحين، وقليل من سيارات مدنية

وتاكسيات هي حتمًا لمسؤولين ومخابرات وعسكريين كبار للتمويه؛ لذا فسوف يظنون بأنني منها. كانت نقاط السيطرات أقل تشددًا مما توقعت، فقد اختبأ جل المسلحين في كمائنهم خلف أكياس التراب التي لا تظهر من بين كواتها إلا سبطانات الأسلحة وأذرعهم التي تشير بالسماح بالمرور حتى قبل أن أكمل إنزال زجاج النافذة والتلويح لهم بالأوراق. السيارات القليلة التي في الشوارع كلها كانت تسير بسرعة جنونية وأنا أسير بمثل سرعتهم. كنت أتوقع الموت في كل لحظة، ولكنني أقول لنفسي: وماذا ستعني لي الحياة لو مات الذي أحبه؟ ومن ذا الذي يضمن لي ألا أموت لو بقيت في بيتي، الموت في كل مكان؛ لذا فإن مواجهته هي أفضل المواقف.

كنت أقرأ بصوت عال ما أحفظه من الأدعية والآيات القرآنية، وأشعر بقلبي قد جف وانكمش بحكم طول الوقت الذي دق فيه بسرعة، حتى بدا وكأن الأمر عادي على هذا النحو. أظن أيضًا بأن عينيّ لم ترمشا أبدًا، فقد كنت أشعر بهما جاحظتين متصلبتين على الدوام، كأنهما مجرد قطعتي زجاج. كنت أحب خلف يا حسن.. وعلى يقين، حينها، من أنه كان يحبني. وبأن علاقتنا لم تكن لمجرد تزجية الوقت والثرثرة، وإنما مرتبطة بمعنى وجودنا ذاته.

وصلت إلى العمارة التي يسكن فيها عبر الأزقة، متسللة بين سيارات الإطفاء بأعجوبة. كانت بعض المباني الرسمية القريبة ملتهبة تأكل رؤوسها الحرائق. صعدت الدرج حتى الطابق الرابع ركضًا و لم أرَ أحدًا بالطبع، أصوات الإذاعات وصرخات الأطفال تُسمع وراء الأبواب الموصدة. قرعت بابه بعنف، وما إن فتحه حتى ارتمى في أحضاني وانفجر بالبكاء. أدركت بأنه خائف جدًّا، لكنه، كالعادة،

لا يعترف بأغلب حقائقه، وإنما يمنحها تفسيرًا آخر. مثل جل المثقفين الذين عرفتهم حيث يستعطفون المقابل بطريقة توحي بما هو عكس الاستعطاف تمامًا، إنهم يجيدون قلب الوجوه. جلسنا متعانقين على كنبة الصالون، ورأيت على الطاولة قنينة الخمر، وكأسًا ومسدسًا.. مسدس؟. قال: إنهم سلّحوا معظم الناس في الأحياء القريبة من الدوائر الرسمية كي يساهموا بالتصدي لأي احتمال إنزال من السماء، وقلت لهم أريد مسدسًا وليس كلاشينكوف، لأنني لا أعرف استخدامه، في الحقيقة أنا، وكما تعرفينني، لا أقدر. ومن المستحيل أن أفكر بقتل أي إنسان؛ لذا أخذت المسدس كي أقتل نفسي فيما لو اضطررت إلى ذلك.

كانت رائحة الخمر في فمه أقل من مرات سكره الأخرى التي عرفته فيها، ولا أدري كيف فكرت لحظتها بأن الدموع هي التي كانت تغسله، وأن الحب للعراق ولي هو الذي جعله أشد صحوًا مهما شرب. نهض، جلب كأسًا آخر وصب لي فيه خمرًا، فرفضت، وراح هو يكرع منه ويدور في الصالون يتكلم غاضبًا وكأنه على خشبة مسرح، يطل من النافذة بين لحظة وأخرى، يبصق، يصفق راحتيه أسفًا أو يشد شَعر رأسه تعبيرًا عن الأسف والعجز. حدثني عن انتحار الكاتب الياباني يوكيو ميشيما احتجاجًا على أمرَكَة بلده، وعن انتحار الشاعر اللبناني خليل حاوي حين دخلت القوات الإسرائيلية إلى بيروت، وعن تضحية حسن مطلك بنفسه من أجل عراق حُر،وعن خيبته من مواقف المثقفين العراقيين.. وأنه يفكر بالانتحار ليسجل صرخة رفض واحتجاج تبقى مدوية على مدى التاريخ. وكنت أنا أنهض إليه أهدئه، أحتضنه وأعيد إجلاسه إلى جواري على الكنبة. يحدثني عن اليأس والموت وأحدثه عن الأمل والحياة. كنت أقول له:

إننا نجونا من حروب سابقة وعرفنا كيف نُنجي رقابنا من دكتاتورية قاتلة، ومن يدري، فربما تكون هذه هي آخر الحروب. ويتغير بعدها كل شيء نحو الأفضل.

قال إنه يحبني. وبكى، ثم قال إن حبه لي هو الوحيد الذي سيجعله يتراجع عن فكرة الانتحار، وأن يقبل بالحياة تحت الاحتلال. وكان، خلال حديثه عن حبه لي، يشدني إليه، يقبلني، يعبث بنهدي وأنا أبعد كفه فيمدها إلى فستاني يرفعه وأنا أعيده، قائلة له: إن عليّ العودة إلى أطفالي؛ فقد تركتهما وحيدين مع أختي، وهي خائفة أكثر منهما، وأن عبود قد يتصل في أية لحظة على البيت أو يطل لزيارته، لكنه لم يكترث وكان يشتم عبود وأولادي ويصاعد من مظهر غضبه وسكره وقوته، كان أقوى مني فمددني على الكنبة وجثم فوقي جامعًا يديّ خلف رأسي في إحدى كفيه وبالأخرى يفتح فستاني من عند الصدر ويرفع أطرافه من على الساقين. باعد بينهما بركبتيه. أقفل فمي كأنه مجنون يقترب من خنقي، ارتعشت من فكرة الموت خنقًا. الطائرات الأجنبية فوق بغداد تقصف، هو فوقي يرغي. الجيوش الغازية تقتحم العراق من جنوبه، هو يقتحمني من جنوبي. ماكيناتهم تهتز، وأرض العراق بارث حضاراتها تتصدع تحتها. هو يهتز وأنا أتصدع تحته.. و.. و.. حسن آنا آسفة.. لا أستطيع وصف التفاصيل.. شيء مؤلم.. مؤلم.. إنني أبكي الآن.. إنه اغتصاب.

- ١٤ -

الأمريكان في بغداد

أنا

أخبرتُ (هبيبي) السريلانكية بنيتي السفر إلى إسبانيا، فاعتصرت كفاها كفيّ ودمعت عيناها، ثم عانقتني من وراء القضبان. لم أستطع إخبارها بمسألة الكتاب؛ لانعدام اللغة بيننا، ولأنني لم أخبرها أصلًا بأنني أكتب. اتفقنا على أن نرى بعضنا بأي حال قبل مغادرتي هذا المكان، وعلى مدى أسبوع، رحنا نلتقي كل ليلة. نلتصق ببعضنا أكثر حد الشعور بالاحتواء والحب. صارت تترك لي كرسيها في المطبخ خارج الباب كي أستخدمه للصعود قبالتها، وهي تصعد على كرسي آخر داخل غرفتها. نقف عليهما أو نجلس على حافتي الشباك. المهم أن نكون بمستوى بعضنا وأقرب.

طلع عليّ خالد من الأفق في واحد من تلك الصباحات الجميلة التي يأتي بها ملوحًا لي بالجريدة، ولكن هذه المرة بنسخة من كتابي الأول، فلم أستطع صبرًا. ركضت نحوه وعانقته ثم رحت أتلمس نسخة من العشرة التي جلبها. أقلبها بين يدي بإحساس هائل من النشوة، كالذي عرفته وعشته عند نشر أول قصة لي أيام الجامعة، فاشتريت عشر نسخ من المجلة حينها. أما الآن؛ فهذا كتاب، ولدي خمسمائة نسخة، منها

مائتان في غرفة قاسم في عَمان، وثلاثمائة في بيت خالد في النعيمة. لم يكن خالد يقل عني سعادة، ولم نهتم حينها بنوع الورق الرخيص، ولا بالمقاطع المحذوفة، ولا بالأخطاء اللغوية، فالمهم أن الكتاب كان بين أيدينا حقيقي. والآن علينا العمل على توزيعه، ففي أية لحظة ستكون تأشيرة السفر جاهزة بانتظاري في السفارة الإسبانية. عندها، كان الحل الصحيح الذي اتفقنا عليه أنا وخالد، هو أن أترك العمل هنا في الحراسة وأتفرغ للتوزيع والبيع.

كانت أول نسخة وقعتها، أهديتها لحسين العمري حين جاء. حاول أن يعطيني مالًا مقابلها ورفضت، إلا أنني وجدته في الأيام التالية، حين سلمني مبلغ عملي وتوادعنا، أنه قد زاد عليه عشرين دينارًا. النسخة الثانية لماهر الذي هنأني، وأراد أن يعطيني عشرة دنانير مقابلها ورفضت، فابتسم قائلًا: أنت على هذا النحو ستفسد خطتك ولن تجمع ثمن بطاقة الطائرة. ضحكنا وقلت: لا يهم، إنها فرصتي لأشكر من خلالها من وقفوا الى جانبي وساعدوني. فقال: لا بأس، أنا أريد نسخة أخرى، أشتريها، وقعها باسم مريم. ثم أصر أن يدفع لي مقابلها عشرة دنانير، فتعانقنا، وأخبرته بأنني أريد ترك العمل بالحراسة كي أتفرغ للتوزيع وأستعد للسفر، فقال أمهلني يومين حتى أتدبر حارسًا آخر. قلت له: ما رأيك أن يكون أحد المصريين الذين آووني وكنت أسكن معهم؟ قال: لا بأس ما دام الشخص الذي ستأتي به تعرفه وتثق بأمانته.

في الليل، تسللت إلى (هبيبي) وتحت قميصي، في الحزام، نسخة من كتابي، وبعد العناق الأول أخبرتها بأن هذا هو آخر لقاء بيننا، فلفت ذراعيها حولي، واعتصرتني باكية، وبعد أن هدأت، استأذنت

للحظة. غابت في ظلام حجرتها ثم عادت تحمل في يدها كيسًا صغيرًا، أخرجت منه قطعة قماش بيضاء موضحة أنها هدية منها لي وبأنها صنعتها بيديها. أعادتها إلى الكيس ومنحتني إياه. فأشرت لها أن تفتح أزرار قميصي كما تفعل دائمًا، وما إن راحت أصابعها تفعل حتى اصطدمت بالكتاب وسحبته، فأوضحت لها بأنه هدية مني إليها وقد كتبته أنا. شهقت دهشة حتى كاد يرتفع صوتها فوضعت كفي على فمها وقبلتها، ثم أخذتُ أُريها صورتي على الغلاف الأخير، وأفتح لها الصفحة الأولى حيث كتبت لها إهداءً هو مجرد رسم لقلب كبير وفي وسطه كلمة (شكرًا) بالإنجليزية. قبّلت الكتاب، وقبّلتني، ثم أشارت لي أن أنتظر لحظة وغابت، فوجدتها تخرج إلي من باب المطبخ الخارجي وتقودني من يدي في الظلام إلى حجرتها، إلى سريرها. هناك كان وداعنا الذي يستحيل نسيانه، عاريين ملتحمين نزخ عرقًا ودموعًا ولذة.

حين عدت إلى عشتي قبيل الفجر وأخرجت هديتها، وجدته لباسًا لوسادة وقد طرزت عليه بشتى الألوان بلبلين بمنقارين ملتصقين دلالة تقبيل، واقفين على غصن فيه بضعة أوراق وورود وعنقود عنب، وكتبت أعلاهما بالعربية (أحلام سعيدة). حملت معي هذه الهدية، ولا زلت أستخدمها كغلاف للوسائد التي أنام عليها حتى اليوم.

في صباح اليوم التالي، وبعد أن وصل العمال إلى ورشة البناء وأعددت لهم إبريق الشاي، حملت بعض النسخ من كتابي وذهبت إلى المدينة قاصدًا سكن أصحابي المصريين. لم أجد إلا أربعة منهم، وكان رفاعي في الباب على وشك الخروج، فعانقني وعاد معي إلى الداخل، فرحوا برؤيتي وسارع أحدهم لإعداد الشاي فيما كان (أبو

عطية) ممددًا في الزاوية متدثرًا واعتذر عن النهوض قائلًا بأن ظهره يوجعه، وحين حدثتهم عن نيتي السفر إلى إسبانيا استند جالسًا، وصفع راحة كفه براحة كفي قائلًا: يا دِن (يا جِن) انتَ يا دِن. انت جدع يا محسن وتستاهل كل خير.

أخرجت من الكيس الذي أحمله نسخة من كتابي، فابتهج واستعدل أكثر بجلسته ناسيًا أوجاعه، وأعاد صفع راحة كفه براحة كفي مكررًا: يا دِن انتَ يا دِن، يا أكبر دِن يا وَد يا مُحسن. ثم سألني رفاعي: أهذه هي الرواية؟

قلت له: لا، هذا الكتاب ليس رواية، ولكنه مجموعة قصص، يعني شيء يشبه الرواية.

وعلى الرغم من أنهم لا يقرأون، اشترى رفاعي نسخة قائلًا بأنه سيرسلها لحبيبته هدية عندما تبعث له بعنوانها، واشترى أبو يونس أخرى قائلًا بأنه سيرسلها لابنه يونس ليرى بأن والده يعرف أناسًا على مستوى، وكي يقرأها له عندما يعود إلى مصر.. فيما عاد أبو عطية ليتمدد متكئًا في فراشه ويدخن.

حدثتهم عن الحاجة إلى حارس يشغل مكاني، فعاد أبو عطية وانتصب في جلسته. صوبوا أعينهم عليه ثم شكروني على هذه الالتفاتة وتذكرهم بهذا العمل، وأعلنوا أنهم يرون أن أبا عطية أكثر من يستحقها وتناسبه ليواصل إعالة عائلته الكبيرة؛ لأن الاشغال الثقيلة صارت تتعب ظهره، فالتمعت عينا أبو عطية بسعادة، وقلت له إن عليه استلام العمل اليوم أو غدًا، فهل يستطيع؟ فقال نعم بالتأكيد وما هذا الألم في ظهره إلا عادي وعابر يأتيه بين حين وآخر حين يتعب، وبأنه سيكون غدًا بكامل عافيته مثل حصان. هنا بدأت سخرياتهم

والضحك عليه قائلين بأنه كذاب وهو متمارض كي لا يشارك في الطبخ وصنع الشاي والتنظيف: عاوزنا نشتغل عنده خدامين.. العَرص.

فيقهقه هو منتشيًا وغيمة دخان سيجارته تتمزق أمام وجهه.

أمضيت معهم ساعة من الصحبة الطيبة والضحك، وقبل خروجي، نهضوا جميعًا ليودعوني حتى الباب، بما فيهم أبو عطية، الذي قال لي: والنبي يا عَم محسن تخليلي نسخة من كتابك عشان بنتي تفيدة، وأنا بكرة لما آجي الورشة حديلك الدينارين. فأعطيته نسخة. وغادرتهم باتجاه المسجد كي أسلم على إمامه الطيب مصطفى، أخبره بأخباري وأحاول أن أبيعه نسخة من كتابي، قبل الوصول مررت بالخبّاز، وصاحب الدكان الذي كنت أشتري منهم، ويعرفونني، فبعتهم نسختين، وإن كان صاحب الدكان لم يقبل بشرائها إلا بدينار واحد، مقابل أن يشتري مني أربع نسخ بهذا السعر لاحقًا، فوافقت طبعًا.

كان الملّا مصطفى ينظف باحة المسجد حين دلفت من البوابة الرئيسية، فتوقف واستقبلني بالأحضان، وبعد أن أطلعته على نسخة من كتابي وشرعت أقص عليه أخباري، ترك المكنسة، التي كان يستند عليها، وقادني لنجلس في وسط المسجد وحيدين على السجاد الجميل المعطر، فدعمني ماديًّا بخمسة دنانير مقابل النسخة التي أخذها، ثم راح يدعمني معنويًّا بحديث تشجيعي مطول، ومما قاله: اطلب العلم ولو كان في الصين، واسعوا في مناكبها، ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها. وإن كلًّا إلى ما هاجر إليه؛ تجارة أو علِم أو امرأة. شجعني حديثه، شد من عزيمتي وزاد من أملي بتحقيق هدفي الرئيسي من السفر فأجد هيام.

بعد أن قدمتُ أبا عطية للمقاول حسين العمري ولماهر الأصفر

وشرحت له تفاصيل واجباته كحارس هنا وأين تكون مجمل الأشياء، لملمتُ حاجياتي القليلة في حقيبتي، بما فيها الصور التي كنت قد علقتها على حائط العشة، باستثناء صورة للممثلة ليلى علوي التي يحبها أبو عطية لأنها (مربربة)، فشكرني مبتسمًا بخبث. عانقني وغادرت ماشيًا، أسترق النظر إلى بيت الجيران بحثًا عن (هبيبي). كانت هناك في الحديقة وتنظر إلي، فبقينا ننظر إلى بعضنا دون أن نجرؤ على أن نبدي أية إشارة وداع كي لا يرانا أحد، ابتعد وألتفت إليها وهي تدنو من السور أكثر وتتجه إلى الجهة التي أكون صوبها. كنت أشعر بلغة تامة بيننا، وحديث متواصل. أشم رائحتها، أتذكر ملمس جلدها الناعم، ليلة تعريها السحرية أمام ضوء القمر في الشباك.. وليلتنا الأخيرة؛ لذا، عندما وصلت أبعد نقطة في المسافة واقتربت من محطة الباص، وقفت واستدرت ناحيتها بكل قامتي، وعلى الرغم من أنني لم أعد اتبين ملامحها جيدًا سوى رأسها الذي يبدو مثل كرة ظل مركونة على حافة السور الأبيض. تلفتّ حولي و لم أر أحدًا قريبًا، فرفعت ذراعيّ إلى أقصاهما، ولوّحت لها مودعًا.. حتى شعرت بغصة في الحلق والصدر وبالدمع يبلل عينيّ.. واستدرتُ مغادِرًا.



هي

صباحك خير، حبيبي.

كلما اشتريت بطاقة من هذا الهندي، يقول لي إن مدة مكالمتها ساعتان، ولكن عندما أتصل بك تكون المكالمة ساعة فقط وتنتهي

البطاقة، أما حين أتصل بياسمين في الصين فتكون ساعتين فعلًا، هذا شيء يحيرني حقًّا، سألت الهندي، فقال: حسب نوع التليفون، والبلد الذي تتصلين عليه أيضًا، فما هو نوع هاتفك وبلد إقامتك حبيبي؟.. على أية حال، هذا أمر لا يهمني كثيرًا، ولا أستبعد أن يكون لهذا البهاراتي البخيل حيلة ما، يغش بها زبائنه. المهم عندي هو أن أسمع صوتك وتسمع صوتي ونريح روحينا. وأين ومتى أحببت أن أتصل بك؛ فسوف أفعل.

في اليوم التالي، وقبل أن يتم قصف أبراج الاتصالات وتتعطل الهواتف، اتصلت بخلف كي أطمئن عليه، فقال بلهفة ونبرة متأثرة ومؤثرة: أنا أفضل الآن بكثير. شكرًا لك حبيبتي لأنك قد أنقذتِ حياتي، وأنا آسف جدًّا لما حدث، ما كنت أتمنى بأن تكون أولى ممارستنا للحب على هذا النحو وفي ظرف كهذا، ولكنني كنت سكرانًا وغاضبًا ومحبطًا ومهدّمًا. فكرت بأننا سنموت حتمًا، ويستحيل عليّ تخيل أن تنتهي حياتي دون أن أعيش معك ذروة الحب.. كانت الحالة وليدة حقيقية للحظتها. هل لاحظتِ؟ حبك أنقذني من الموت، هكذا نحن.. على هذا النحو ننتصر على الحروب والخراب والموت بالحب. نواجه مظاهر الموت بمظاهر الحياة. بالنسبة لي، تلك لحظات يستحيل نسيانها لأنها استثنائية ولن تتكرر تحت الظروف نفسها أبدًا، إنها لحظات تاريخية تعني لي الكثير وتفتح ذهني على ما لا ينتهي من التأويلات. حبك لم ينقذني وحسب وإنما منحني الأمل في أشد اللحظات يأسًا ومرارة. أنا مدين لك بحياتي وبحبي إلى الأبد، ولن أتخلى عنك مهما حدث، أنت التي لم تتخلي عني في أسوأ ظرف. أحبك، أحبك..

وظل يردد هذه الكلمة ويستطرد في تأويلاته لما حدث بشكل

يطيب لي جدًّا الاستماع إليه عندما يكون ذهنه متوقدًا والكلام يتدفق منه بسلاسة ومنطق مغري. بالطبع، لم أكن أفهم حينها بأن الذي فعله اغتصاب، ربما لأنني معتادة، وعلى مدى أعوام، أن يطأني عبود، الذي ليس بحبيبي، وفق رغبته لا وفق رغبتي، بينما هذا حبيبي وفعلها لمرة واحدة في ظرف استثنائي، ربما أيضًا لأنني كنت أفهم أن المرأة كبيرة القلب قادرة على امتصاص واحتواء الرجل بكل حالاته. وفي ذهني صاحبة الحانة في (ملحمة جلجامش) التي حوّلت أنكيدو من دابة متوحشة إلى إنسان بعد أن ضاجعها. كنت حينها في فوضى من الشعور والقلق والخوف، حيث أجواء الحرب الشرسة، ودخانها، لا تتيح للمرء أن يتفحص ويتبين تفاصيل أحاسيسه الخاصة وعمقها بوضوح. وكما يقول حسن مطلك: إن "الأسئلة الكبرى تُصنَع في أوقات الفراغ، أما في الحرب، فثمة ذهول يُعتم كل إجابة". كان هو يتفلسف وأنا أسأله عما ينقصه من مأكل أو ملبس، أردد على مسامعه العبارات التي تمنح الصبر والقوة وأشدد عليه بالنصائح الوقائية كأنني أم. بالتأكيد، كانت مسألة النجاة والخروج من الحرب أحياءً هي على رأس الأولويات. الآن وقد صرت أفهم بشكل أفضل.. وفقط الآن، ولك أنت وحدك لا سواك، ولأول مرة في حياتي وستكون الأخيرة، أقولها بوضوح وبكل مرارة موجعة: إنه قد اغتصبني بنذالة وقذارة ووحشية.

الصدمة الأكبر في حياتي والأقوى حتى من صدمتي بفقد أبي، بموت أمي ومن صدمة زواجي برجل لا أعرفه، والتي أعتقد بأنها ستبقى الصدمة الأكبر في حياتي، هي حين رأيت لأول مرة الدبابات الأمريكية تسير في شوارع بغداد. "بكيت في تلك المرة أكثر من جميع أطفال العالم" على حد وصف رامبو وحسن مطلك.. وها أنا أبكي الآن أيضًا.

أنا والأولاد وعفراء نجونا من الموت بأعجوبة. كانت إحدى المعارك بجوار بيتنا. المُستأجِر في خفارة حزبية في الجامعة وأولاده الكبار في بيت خالتهم. صارت حديقة الدار مسرحًا للملابس العسكرية المقذوفة من وراء السياج، تلك التي يتخلص منها الجنود والحزبيون العراقيون كي يفروا بملابس مدنية. وكنت، ضمن محاولاتي لتبديد خوفي على العراق، أقرأ بنهم. أحيانًا أضع في أذني القطن كي لا أسمع أصوات الانفجارات والرصاص، وأغرق نفسي بالقراءة. أذكر من بين ما قرأت: رسول حمزاتوف، ناظم حكمت، بلانش، جاكوبسن، (موت المؤلف)، لعبة الكريات الزجاجية لهرمان هسه، وكتاب آخر عن طاقات الإنسان اللامرئية، نسيت من هو المؤلف.

بقيت بعدها لأيام رافضة للأكل والشرب، رافضة للحياة، وكانت أختي عفراء تحاول التخفيف عني، تعد لي اللبن والتمر قائلة: هذا تَمر البصرة. أقسم لكِ أنه من تَمر البصرة. لا زلت أبكي. بدأ رأسي يؤلمني وأنا أتذكر كل ذلك، وا حسرتي على هذا العراق الجرح الكبير الذي غطى ويغطي أيامنا كلها ولم يندمل بعد!.. حسن، اعذرني.. سأرتاح قليلًا.. فحتى مؤخرتي قد تخدرت من طول الجلوس وأشعر كأن جيشًا من النمل يُقبّلها.. أنا أضحك الآن على هذا التعبير الذي خرج مني بعفوية.. فاضحك أنت أيضًا.



مساء الخيريا غالي.

صباح اليوم ذهبت مع عبود إلى (لابابييس)؛ حي المهاجرين في مدريد، فيه من كل الجنسيات، وبالطبع منهم العرب بمختلف

جنسياتهم، يملكون العديد من المحلات التجارية التي تبيع بالجملة، من بينها محل زوج أخت عبود الذي يعمل فيه عبود بين الحين والآخر. مقاهٍ ومطاعم ومساجد و(حسينية) للعراقيين أخذني إليها كي أساهم في خياطة بعض وسائدها، عبارة عن كراجٍ واسع تحت إحدى العمارات، صبغوه وفرشوه بالسجادات المُعَطرة وغطّوا جدرانه بصور القباب والملتحين، والرايات السوداء والخضراء، وأقاموا في مقدمته منبرًا من خشب. من بين الذين كانوا هناك وجدت أن عبود هو أكثرهم أناقة وأحلاهم سلوكًا وشخصية، وبالطبع لا ينادونه إلا (يا دكتور) فكنت أرى نشوته عند سماعها، وينادونني بزوجة الدكتور فيعجبه ذلك أكثر، إلا أن هذه المناداة تغيظني لأنها تلغيني وتجعل مني مجرد شيء تابع وعائد لشخص آخر. وبعد الانتهاء ذهبت مع أخته -الدكتورة أيضًا- لنتسوق من المحلات. هناك أشياء عربية وإسلامية وعراقية. يعجبها ذوقي واختياري في الشراء. بعد ذلك عدنا لأخذ الأولاد من المدرسة ثم الغداء، والساعة الآن هي الخامسة والربع، وها أنا أحتسي شاي المساء معك.. مشتاقة لك.. وعندما أراك سوف أخرج كل احتراق قلبي معك، سأنالك، سأنالك فأين ستهرب مني؟.

رأيت في الحسينية الناقد يعقوب الفيل. سلّمت عليه وقلت له: الذي أعرفه أنك تقيم في السويد!. قال بأنه انتقل إلى هنا منذ بضعة أشهر؛ لأنه لم يعد يحتمل كآبة البرد والغيم وغياب الشمس هناك، لقد جاء من أجل الشمس. وأنه سيجرب الحال هنا بعض الوقت، فإن لم ينسجم معه سيغادره إلى أرض أخرى. بالطبع هذه أول مرة أراه فيها شخصيًا، فمعرفتي به لا تتعدى ما كان يكتبه في المجلات والصفحات الثقافية في العراق. ومقارنة بما أتذكره عن صوره هناك، يبدو أن كرشه قد انتفخ وأنه قد حلق شاربه. سألته فيما لو يصله، أو يملك، الجديد

من الكتب والروايات العربية. فقال: الكثير. واستل مبتسمًا، على الفور من جيبه بطاقته التي فيها عنوانه ورقم هاتفه والايميل: اتصلي بي متى شئت. فسألته: هل عندك رواية (دابادا) لحسن مطلك؟. قال: لا، ولكن لديّ نسخة من روايته الثانية (قوة الضحك في أورا). فنط قلبي فرحًا وقلت له: إذًا، سوف أتصل بك في أقرب وقت، ألف شكر يا أستاذ.

يدي الآن أفضل بقليل، ليلة الأمس كانت تؤلمني، فطليتها بدهان خاص للحروق. كل هذه الحروق في بدني والحرائق في داخلي هي بسببك. إنك تلغمني بالشرود. وقد لاحظ المحيطون هذا عليّ، فأنا شفافة تطفح على سطحي ألوان داخلي مهما اجتهدت في إخفائها، ولكنهم قد اعتادوا على تقلبات أنواء روحي وشرودي. خذني معك. أريدك الآن ولا أدري بأي شيء ألوذ. أنت بالذات وليس أي أحد سواك. لا أطمئن لغيرك. وحتى ذكرياتك التي ستحكيها لي سوف تصبح ذكرياتي، سنتبادل.. بل الأصح سنتشارك بالحيوات والذكريات. أنت تشبهني تمامًا، وأنت الوحيد الذي يفهمني.

عندما رأيت الناقد الفيل وأعطاني الكارت ورقم تلفونه وقال اتصلي، صدقًا، لم تكن لي نية فعل ذلك، لو لم يقل بأن لديه رواية حسن مطلك، فلا مزاج لي لثريد الكلام أو أي شيء آخر. ثم إن ابتسامته الماكرة لم تعجبني، أثارت الغثيان في معدتي. أريد فقط أن أحبك أنت وأقرأ وأستمتع بالموسيقى أو الصمت وبالهدوء، على ذكر الهدوء.. كلما تواجد الأولاد هنا وهاجوا باللعب والطلبات، يأخذ رأسي بالانضغاط حتى يكاد ينفجر من الصخب، فالمكان الذي نسكنه هنا ضيق، وأضطر أحيانًا للخروج إلى الشارع لمدة نصف ساعة ثم أعود.

في بغداد كان لديّ مكان سري أختبئ فيه للراحة، التأمل، القراءة، البكاء، الحلم، أو مراقبة النمل والحشرات. ركن، أو حديقة خلفية صغيرة منزوية داخل الحديقة، تظللها أشجار النارنج المتدلية من خلف سياج الجيران، وكان الأولاد، أحيانًا، يفتّشون عني في كل مكان ولا يعثرون. أسمعهم وأراهم من خلال الفرجات الصغيرة بين الأوراق الخضراء، ولا أخرج إليهم إلا عندما أشاء أنا.

لا رغبة لي اللحظة بالعودة إلى حكاية خلف موريس، كي لا تفسد عليّ سكون هذا المساء. أود لو تعرفني أكثر كي لا أحتاج لأي شرح. لأنك ستقرأ كل شيء في عينيّ وتفاصيل حركاتي وسكناتي. ولكن هل تأكدت الآن من صدقي بكل كلمة أكتبها لك؟. حتى أني لأعجب أحيانًا من كل هذا الصدق معك. وأقول لنفسي كفى بوحًا، ما الذي سيتبقى لي كي أخفيه؟. مشتاقة لصوتك.. فاجئني غدًا باتصال في أي وقت قبل السادسة مساءً، إذا لم يكن لديك أي مانع. ولا تحرج نفسك من أجلي فأنا سأتدبر تصبير نفسي. هل أخبرتك بأن العادة السرية قد أنقذتني من يقين الشظايا ذات قصف؟. كنت أقرأ على السرير جوار النافذة في الطابق الثاني، جملة ما في الكتاب قادتني للتخيل وتحفيز الغريزة في دمي، بحيث لم أعد أحتمل اصطخاب الشهوة، فنزلت إلى الحمّام وتلاعبت بالأصابع والماء وابتهجت. وحين صعدت ثانية وجدت أن حطام الزجاج وشظايا قنبلة، كانت قد سقطت على محوّلة اتصالات في الشارع القريب، قد غطت السرير ومزّقت الدثار السميك والوسادة والفراش. ها أنا ناجية ولازلت أحب الحب. تعال معي إلى الحمّام الآن.



صباح ضفائر التلميذات الصغيرات الذاهبات إلى مدارسهن الآن.

ليلة الأمس نمت جيدًا وبعمق، ربما هذه هي المرة الأولى التي أنام فيها على هذا النحو منذ زمن طويل. إن حاسة السمع عندي لا تقبل النوم بيسر، فهي تخلط بين الأصوات الخارجية وأصوات داخلي، صوت الصحو مع صوت الحلم، أكاد أسمع بدقة كل شيء تقريبًا، بل إنني أسمع تفكير الآخرين أحيانًا. لا تعجب. بل وأحلامهم أيضًا. ربما أنا مجنونة.. أليس كذلك؟. لقد تأجل موعدي مع الطبيب النفسي، بينما كنت قد أعددت له مسرحية كاملة. بالمناسبة، أنا ومنذ صغري وحتى الآن، حين أجد نفسي وحيدة في البيت، أقوم أحيانًا بإعداد مسرحية وأمثّلها، ثم أصفّق لنفسي عندما تنتهي، وأشعر بغبطة غامرة. إن حياتنا هدية لم ندفع مقابل أن نعيشها شيئًا؛ لذا تجدني أقول لك لا تُقَسّط مشاعرك معي، فهذه الهدية قد تُسلب منا في أية لحظة وفي طرفة عين، وأخشى أن يبقى شيء في داخلي كان يفترض بي قوله و لم أقله، عندها سأندم. هذا النوع من الندم على عدم قول شيء ما، قد حدث معي عدة مرات وفي عدة مواقف، وحتمًا أنه قد حدث معك ومع غيرنا. فلا تقسّط مشاعرك.. دعها لعفويتها. قل لي ما تشاء دون تأجيل أو مقدمات أو خشية، فأنا واعية ولست بمخبولة كما يعتقد البعض. أحيانًا، وحين يعصف بي الشوق إليك. أتوقف عن المشي حتى لو كنت وسط الشارع وأُذكّر نفسي بأنك مجرد حلم. لا تخشَ عليّ يا حسن.. فأنا أُدرك الكثير.

لنعد إلى الحكاية. لحظة. أتعرف؟، أنتبه الآن إلى أنني أشبه شهرزاد التي كانت تؤجل موتها باختراع وسرد الحكايات؛ أي تكسب حياتها

وحياة بنات جنسها، وها أنا أكسب حياتي بالحكايات، باختراعك كحبيب، باختراع الحب لأنني أعتبر الحياة بدون حب هي موت، فلولاك أنت الذي تستمع إليّ لما كان ثمة معنى لما عشته أو أعيشه الآن، لشعرت بأنني ميتة فعلًا، كأني أستمد نبضي من البوح لك. هذا على الرغم من أن بعض الذكريات تؤلمني ولكن من أجلك ومن أجلي سأحتمل. كنت مصرّة على إقناع نفسي بأنني أحب خلف موريس وأنه يحبني بحيث صدّقت ذلك فعلًا، ولا زالت بقعة ما في ضميري تحثني بين الحين والآخر على الاعتذار له عن وعدٍ لم يتحقق. ثمة أمر يهمني أن تعرفه عني، وإن كنت أظن بأنه من صفاتك أيضًا، وهو أني شديدة الحرص على احترام كلمتي وأحترم مواعيدي. معظم النساء يثرثرن كثيرًا، وأنا، التي تحب الكلمات، أتكلم قليلًا وأعني ما أقول.

ذهبت إليه صباحًا أقنعته بالخروج من بغداد، أحضرت له أشياءه الأساسية في حقيبة، تعانقنا بجنون وكأنه تشبث أخير بالحياة. في تلك المرة وصلت إلى الذروة، وجدته خبيرًا في الأمر.. الآن أقول لأنه عاهر محترف. لديّ كلام كثير عن ذلك، هل أحكي الآن أم أستمر؟ سأستمر، وأنت ذكّرني فيما بعد كي أقص عليك التفاصيل. أوصلته إلى مكان قريب من بيت أخته الذي كان في أطراف بغداد، هو الذي قال لي توقفي هنا ولا تقتربي أكثر وأشار لي إلى البيت، في الحقيقة لا شيء يبين منه لأنه مجرد سياج واطئ متهاو، ولكنه مغطى بالدغل والأشجار العالية التي يرى وسطها باب صغير، عبارة عن صفحة من الصفيح الصدئ، مؤطرة بخشب نخر،ومربوطة على عمود إسمنتي في السياج بحبل. والبيوت المجاورة شبيهة به، مدقعة بالفقر، وتبدو كأنها مجرد أكواخ أو أكوام من مزيج الصخر والصفيح والخشب والكارتون. سألته فيما لو يريد أن أدخل معه إلى بيتها، فانتفض رافضًا، وقال: لا، فنحن لم نر

بعضنا منذ أعوام طويلة، وسيكون لقاؤنا بالغ الحساسية والعصف. من الأفضل أن أدخل إليها وحدي وآمل أن أجدها هي الأخرى لوحدها كما قيل لي. وقبل نزوله من السيارة قبّلني وقال: لا تقلقي ولا تخافي، سوف ننجو من الموت، سوف نعيش ونلتقي ونتزوج.

انتظرت حتى صار أمام الباب، ولوّح لي، فيما سمعت نباح كلب عليه من خلف سور الأشجار، فابتسمنا لبعضنا، استدرت بسيارتي وغادرت.

كنت أعرف بأنه كان صادقًا بما قال، ومصممًا عليه، مثلما كنت أنا صادقة ومصممة. بعد يومين اتصل بي وقال إنه في أربيل كردستان، في بيت صديق شاعر، وسألته عن السبب وأخته، قال إن بيتها صغير، ولجأت عندها عائلة كبيرة فقيرة من وسط بغداد؛ لذا لم يشأ إضافة العبء عليها فمنحها ما يملك من مال كي تتدبر أمورها مع العائلة وغادر. بعدها بقيت بيننا اتصالات هاتفية كلما أتيحت لنا فرصة، أو تليفون لازال يعمل. ثم انقطعنا تمامًا على مدى ثلاثة أشهر. لم يسافر إلى حيث زوجته، وقلت حينها لنفسي بغرور: إن الذي يعرفني لن يستطيع العيش بعد ذلك مع زوجته؛ لأنني ألغي كل نموذج لامرأة قبلي وسواي. ولا زال هو لحد الآن خارج بيت الزوجية حسب ما أسمع من أختي.

في تلك الأيام العصيبة، كنت مثل كثيرين، أتمنى فعل أي شيء يساعد آخرين، وأعرف أن العوائل التي في المركز هاجرت إلى الأطراف، أو إلى قرى ومدن أخرى، عند أقارب، وعند أناس لا يعرفونهم، وتكاتف الناس، وأوى من استطاع ما استطاع؛ بحيث تكدست عائلات فوق بعضها البعض بطيبة وحميمية. لا أعرف الكثير عن أخت خلف سوى

ما ذكره عن أنها رفضت الزواج، بعد إعدام زوجها وولديها، ولأنها فقيرة، وبقيت وحيدة؛ عرض عليها أحد الأقرباء أن تسكن أرضًا له في أطراف بغداد، تعتني بمزرعته وتعيش منها.

اتصلت براشد وأخبرته بالأمر، فحملنا معنا ما استطعنا من مواد غذائية وفرش وأغطية وبعض المال وذهبنا إلى هناك. لم يجب علينا أحد حين طرقنا ونادينا من خلف باب الصفيح سوى نباح كلب، فدفعنا الباب بحذر ودخلنا. كانت هناك مساحة غير كبيرة مزروعة بالخضروات ودجاجات وعنزتين تجولان في الفناء أمام غرفة كوخ متهاوية في طرف المزرعة. حين ينبح عليك الكلب لا تذعر، أو تخف؛ لأنه سيشم رائحة خوفك ويهاجمك أكثر، تصرف بشكل عادي. هذا ما قاله راشد، ومشينا تجاه الغرفة التي كان بابها مفتوحًا أيضًا، ومن هناك نادينا فأتانا صوت امرأة واهن: مَن؟.

قلنا لها نحن أصدقاء جئنا للسلام والمساعدة. فخرجت، كانت محنية الظهر قليلًا، وتبدو كأنها شبح إنسان، وليس إنسانًا. لم تكن كبيرة بالسن؛ لكنها تبدو كعجوز هرمة، متعَبة، ونحيفة، بثياب غاية بالبساطة والفقر. اقتربنا منها، صافحناها، ويبدو بأن عينيها قد تعبتا أيضًا بحكم كثرة البكاء؛ لأنها كانت تتفحصنا كأنها تنظر إلى شيء بعيد. قلنا لها إننا أصدقاء لخلف وجئنا لمساعدتها والعائلة التي تلجأ عندها، فانتفضت غاضبة وقالت بصوت صائح: أية عائلة؟ أنا أسكن وحدي هنا، ولا أريد أي شيء يأتي عن طريق هذا الآدمي. شكرًا، اذهبوا من هنا. لا أريد شيئًا. وهذا لا أصدقاء له وإنما ضحايا، إنه مخلوق مُؤذٍ.. مؤذٍ، أنصحكم بالابتعاد عنه. وابتعدوا عن هنا الآن أيضًا.

فاجأنا الأمر، حاولنا الاستفسار أكثر لكنها دخلت وأوصدت

الباب خلفها وهي تكرر: مؤذي، اذهبوا من هنا، دعوني لحالي، اذهبوا، مؤذي..



صباح اللبن والقشدة والشاي العراقي يا حبيبي.

أقسم لك يا حسن بأنك سوف تُجنّني. أنت معي على مدار الساعة، حتى أنني صرت أخشى وأحاذر كي لا أخلط بالأسماء فأنادي عبودًا أو أحدًا باسمك؛ لكثرة ما أردد اسمك مع نفسي، وفي الهاتف. أعيش معك، أو الأصح، تعيش معي في كل لحظة بكل التفاصيل. أنت مختلف عن الآخرين وفيك خليط من الصفات التي أحببتها بكل من عرفته قبلك من الرجال. فكّر قليلًا معي. ألا تلاحظ بأن احتمال لقائنا يكاد يكون أقل من تحت الصفر؟ مع ذلك فنحن مع بعضنا الآن، وآمل أن نبقى معًا دائمًا، وبأية صيغة كانت، فللحضور أشكال لا حصر لها. بودي لو أقبلك قبلة عمرها عام. سوف أرجع لأكتب لك بعد أن أفطر فقد تركت الشاي على النار. تعال وافطر معي. هل تعرف أول شيء أشعر به عندما أستيقظ؟.. قبلاتك على خدي، وأصابعك في شعري ترتبه. حلمة نهدي الأيمن سوف تشفى من حروقها أكثر عندما تلحسها أنت. لم أستطع ليلة الأمس إنجاز واجباتي المدرسية، في منتصفها حضرت أنت ولم يكن بمقدوري ترتيب دماغي ثانية بالإسبانية. مشتاقة جدًّا.. ولا شيء يفيد. أريد النوم في حضنك ولو لليلة واحدة لا أكثر.. ما رأيك أنت؟. أحبك.



القشدة صنعتها بنفسي، والشاي كان بديعًا. لا أدري كيف أقول.. أعتقد بأنني إذا ما قبّلتك يومًا لأول مرة سوف تهزني صدمة قلبية. متى سأقبلك؟. نرجع للحكاية، وإن كنت سأذهب بعد قليل إلى الدرس.

بعد مضي بضعة أشهر على بداية اندلاع الحرب. بدأت بعض خطوط الاتصالات تشتغل، وحركة الناس تزداد. كان أول شيء فعلته هو أن أطمئن على خلف. علاقته بزوجته سيئة جدًّا. هو كسول لا يعمل، وليس من السهل أن تتحمل امرأة هناك في ظرف كذاك كل تكاليف البيت لوحدها.. ليس كل امرأة تحب أن يكون زوجها مثقفًا أو فيلسوفًا، وهي قالت لي ذلك مرة؛ إنها تتمنى لو يكون سائق تاكسي، أو صباغ أحذية، ويتكفل بمصاريف بيته، أفضل من أن يكون عبقريًّا يعيش في الفقر، وأولاده يعيشون بعوز. عندها حق.

عبود قرر أن يسافر بسرعة بعد أن اضطر لترك وظيفته إثر تهديدات من المسلحين الجدد، والحكومة التي نصّبها الاحتلال، وكذلك من قبل عناصر حزبه الذين كانوا يطالبونه بالالتحاق الفوري معهم في المقاومة، وأنا شجعته على الخروج. سافر إلى سوريا. وبقيت أنا مع تركة ثقيلة. خلف عاد من أربيل وكان يحاول معاودة الدراسة في الصحافة هذه المرة، ولم ينجح، ولم يكملها هي الأخرى حتى اليوم، ولن يفعل. كنا نلتقي يوميًّا بعد انتهاء دوامه الذي لم يكن دوامًا أصلًا. ثم راح يعمل في جريدة تابعة لإحدى المجموعات السياسية التي دخلت مع الاحتلال. وبرّر الأمر أن نحاول فعل أي شيء بما نعرفه، وخاصة في المجال الثقافي والإعلامي، ثم إن الجميع يرفع الشعار الوطني. فاشتغلت معه، ولكن بعد أعداد قليلة من صدورها فشلت الجريدة. وسافر هو إلى سوريا لمدة شهرين بحجة أنه يحتاج للراحة

قليلًا من جو العراق المشحون والخطير، الذي قد يودي بحياته، فهناك الكثير ممن صاروا يغتالون العقول لتصفية المثقفين وأساتذة الجامعات ليجعلوا هذا البلد خاليًا من أي تنوير، وتركه للجهل والفوضى كي تسهل سرقته. كما قال. عرفت، فيما بعد، أنه قد حاول هناك تسويق نفسه ثقافيًا لكنه فشل؛ لأنه ليس من السهل في سوريا أن تحصل على المال عبر أشياء لا يلمسون منها ما ينفعهم. عاد بعدها وعاود البحث عن عمل في الصحف التي تكاثرت بشكل غير طبيعي، واشتغل في جريدة بائسة لجماعة سياسية أخرى تتخذ الدين وسيلة لأغراض سياسيّة ومادية.. تخيل!. حسن، التفاصيل كثيرة وأحاول اختصارها. أكمل. من أجلك.

ذهبتُ إلى سوريا بعد أسبوعين من عودة خلف، فقد كان عبود يلحّ على ذهابي. في سوريا تشعر بأن كل حركة تحدث، وكل كلمة تقال، إنما هي محاولة لاستخراج ليرة من جيبك. كان خلف لا يريدني أن أذهب ويقول: أنا متأكد بأنك لن تعودي مرة أخرى. لكنني وعدته بالعودة، وبالفعل رجعت بعد شهر، حيث أقنعت عبود أن الأفضل هو البقاء في بغداد لحماية البيت من نهب اللصوص، وبما أنه لم يجد عملًا في دمشق فسيكون العبء عليه أثقل، بينما أنا هناك سأخفف عنه. وقرر أن يذهب إلى اليمن فرفضت أن أذهب للعيش في اليمن مرة أخرى ورضخ لرأيي. وهكذا رجعت من سوريا ومعي إحدى خالاته التي تقضي الصيف في إسبانيا والشتاء في العراق لأن لديها الجنسية الإسبانية منذ أعوام.

هي مسنّة، ونصف معوّقة، وتخيّل أنت المسؤولية التي تجمّعت عليّ لوحدي؛ بيت كبير، وأولاد صغار وكبار، ودراسة، وحب

متعب، لا يجلب سوى الألم. كان البيت بالنسبة لأولاده الكبار مجرد فندق يأكلون فيه ويشربون ويغسلون ملابسهم وينامون بلا أي شعور بأية مسؤولية أو ارتباط، وعليّ أن أحتملهم مع أصدقائهم الذين غالبًا ما كانوا يبقون معهم.. في ظرف العراق ذاك حيث لا كهرباء ولا غاز ولا بنزين ولا أمان ولا أي شيء.

لم تتخلل لقاءاتي بخلف موريس ملامسات جسدية؛ لأنه لم يكن لدينا وللقاءاتنا مكان مناسب، ولا أي شئ، خاصة بعد أن طردته زوجته من الشقة التي كانت هي تدفع إيجارها. ولأنني شعرت بالملل من وضعنا هذا. فكّرت أن علينا أن نرتبط ونؤسس لحياة جديدة مشتركة بدل هذه اللقاءات التسكعية المتعبة في مدينة تغص بالمسلحين والمحتلين والفوضى. وأخيرًا، قررت أن أخبر عبّود بأنني أريد الطلاق، كنا نتواصل عبر الإيميل وقلت له: أريد الطلاق لأنني لم أعد قادرة على تحمّل أولادك، خذهم معك فلم يعد بمستطاعي حتى إيصالهم إلى مدارسهم، والانفجارات في كل مكان.

سافر عبود من اليمن إلى الأردن بسرعة، وقال لي تعالي هنا إلى عمّان كي نتفاهم. رفضت وقلت له: أنت ارجع إلى بغداد وخذ أولادك، وأنا سأذهب للعيش في بيت أهلي. أتى إلى بغداد سرًّا؛ فلم يكن بمقدوره إخبار أحد طبعًا وإلا سيعرّض نفسه للخطر. رفض أخذ الأولاد وقال لي: ابقي في بيت أهلك الآن وما تريدينه سوف يكون. وعشت أيامًا صعبة. كنت أدرك بأنني لو تزوّجت من خلف موريس سوف ننفصل بسرعة. وهكذا سوف يدفع الأطفال ثمن أخطاء غيرهم.. كنت أعاني وأتصارع مع نفسي ومع كل شيء، ثمة صداع دائم وأكثِر من استخدام الحبوب المهدئة. نحلت حينها، وكانت حرب

ضارية تشتعل داخلي، لا تقل ضراوة عن تلك التي تعصف ببغداد، في الخارج.. كأن إحداهما صدى للأخرى. في نهاية الأمر استسلمت لرأي عبود، ولم تكن موافقتي أكثر من إطراقة رأس، وابتلاع ريق ناشف كأنه رمق أخير. أجّرَ سيارة كبيرة. نمت أنا في المقعد الخلفي، وانطلقنا عبر الصحراء إلى الأردن. كنت بقلب كسير وبلا أية حياة.. مجرد شيء أو كائن يتحرك بوهن.. بقايا إنسان. كانت خساراتي قلادة ثقيلة تحني عنقي وتكاد تخنقه. أتذكر حالتي تلك وتدمع عيناي الآن على تلك الهيام المسكينة التي كانت أنا، والتي مازالت هي أنا. كنت مجرد مجموعة عظام في كيس جلد آدمي. ومع ذلك فقد واجهتُ الأمريكان على الحدود. لا تقلق فقد استعدت عافيتي وبعض كيلوات لحمي وشحمي. عليّ أن أذهب الآن. سأكتب لك لاحقًا.

- ١٥ -

بكاء جنديّة الحدود.. والترحال

أنا

انتقلت للعيش في بيت خالد، ومن هناك، انطلقت تخطيطاتنا وتحركاتنا لحملة التوزيع التي ساهم بها جميع أفراد عائلته بشكل لم نكن نتوقعه؛ من حيث السرعة والتفاعل والنتائج. فكان كل منهم يحمل نسخًا معه حيث يذهب؛ في العمل أو خارجه، وأدركت لاحقًا أن سر هذا التسويق لم يكن لقيمة الكتاب بذاته، وإنما لما علّمهم إياه خالد بأن يرووا حكايتي للناس لإقناعهم؛ أي أنني عراقي مسكين، وعدا كوني أعيل يتيمتين، فإنني أحتاج لجمع ثمن بطاقة السفر كي أكمل دراستي في الخارج، وأن في هذا الكتاب بعض القصص من حياتي في العراق، وفي الحرب، وما إلى ذلك. وهكذا قد ساهم معنا في التوزيع، حتى، والدته، بالبيع للجارات، ووالده الذي يعمل في البريد، وإخوته؛ باسل، الذي في الشرطة، باسم، الذي في الجيش، ساري، الذي يعمل سائق أجرة، وشاهر، المريض؛ على الأطباء والممرضات والزائرين له في المستشفى، والطلبة؛ مشهور وقسيم وخلدون، إضافة إلى بعض أبناء عمومته وأصدقائه. وفي عمّان كان قاسم يقوم بالأمر نفسه، بائعًا الكتاب لأصدقائه وجيرانه وزملائه في

المدرسة، وبعض طلابه وآبائهم. وكنا، أنا وخالد، نذهب للمبيت معه كل يومين، يومان في إربد، ويومان في عمّان، نجول على الأصدقاء والمعارف والأكشاك والمكتبات التي توافق على أن نترك لديها بعض النسخ.

في إربد، خصصنا يومًا للتوزيع في جامعة اليرموك، فحملنا كيسًا فيه ثلاثون نسخة. بعنا اثنين منها إلى المكتبة؛ لأن المسؤول عنها يعرفنا لكثرة ترددنا عليها، بعت أنا نسخة إلى صاحب المطعم، وأثناء اتجاهنا في أحد الممرات قاصدين الدكتور خليل، الذي كان يشرف على رسالة الماجستير لخالد، صادف وأن خرج الدكتور كرّومي من باب إحدى قاعات المحاضرات، والطلاب من خلفه، حاولت التنحي والاختفاء سريعًا كي لا يراني، لكنه فاجأني بالهجوم عليّ وجهًا لوجه، متهللًا، وعانقني باحتفاليته وبهجته المعتادة، وراح يسألني عن حالي وأخباري، وأنا أُجيب بارتباك، بخجل وريق ناشف، ردودًا تقليدية، بالكاد تُسمَع، فبادر خالد بإخباره عن سفري وعن الكتاب وبيعه من أجل بطاقة السفر، ساحبًا الكيس من يدي، ورافعًا إيّاه أمامه. وهنا كانت المفاجأة والموقف الذي لن أنساه للدكتور كرّومي أبدًا.

سارع بالنداء على الطلّاب الذين كانوا يتدفقون خروجًا من القاعة، وأمرهم بالعودة للدخول إليها، سحبنا للدخول معهم أيضًا وأغلق الباب، ثم قال مقدّمًا: هذا هو محسن الرملي، كاتب شاب عراقي مهم، وهذا كتابه الجديد الذي يحتوي قصصًا رائعة، ولن أسمح لأي منكم بالخروج إلا أن يشتري نسخة منه.

قال بعض الطلاب إنهم لا يملكون الثمن الآن، وأنهم يعِدون بشرائه لاحقًا، فقال: لا أقبل هذه الحجة، فالذي ليس لديه مال الآن، أنا أدفع

عنه ويأتيني غدًا بالدينارين. أجلسني على كرسي الأستاذ في المقدمة، أخرج كل النسخ من الكيس ووضعها أمامي على الطاولة، منحني قلمًا للتوقيع، وراح ينظم الطلبة في طابور، ويعطي من محفظته دينارين لمن لم يكن لديه منهم، فيما أنا أوقع الكتب وأنظر بصمت ناطق إلى خالد الواقف إلى جانبي مبتسمًا.

نفدت النسخ و لم ينته الطابور، فأحصى المتبقين وقال: تسعة، وأنا عشرة، هات لنا عشر نسخ غدًا، بل خمس عشرة.

رافقنا في الممر خروجًا حتى باب الكلية وهو يضع ذراعه على كتفي بحميميّة، يكثر من تهنئتي والتمنيات لي بالتوفيق، قائلًا: طارِد حلمك يا صديقي أينما كان ومهما تكن الصعوبات. في الباب، تعانقنا، هو يربت على ظهري، وأنا أضمّه بامتنان، وأقبل خدّيه. ودعناه وهو يكرر: غدًا بانتظاركم.

لكنني لم أعد إليه، حيث بعثت النسخ مع خالد، واتفقنا أن يخبره بأنني سافرت إلى عَمّان. كنت متأثرًا جدًا بما فعله لي بعد الذي فعلته له بكتابة تلك المقالة الناقدة. أخجل من معاودة النظر في وجهه، وظللت بقية ذلك اليوم صامتًا أغلب الوقت، مطرق الرأس، مستعيدًا لتفاصيل ما فعله من أجلي وإلى جانبي خالد متفهمًا لحالي تمامًا. كان ذلك آخر لقاء لنا، حيث عرفت لاحقًا بأنه قد رجع إلى برلين التي تخرج من إحدى جامعاتها، وهناك ظل يواصل عشقه للمسرح حتى النفس الأخير. قرأت في الصحافة أنه قد أصيب بجلطة قلبية أثناء حضوره العرض الأول لمسرحية أخرجها لمسرح برلين، وذلك بعد بدء العرض بأقل من نصف ساعة. وتم نقله الى المستشفى حيث توفي ليلًا. نعاه الجميع بما في ذلك رئيس جمهورية العراق، وهم يلقبّونه (بريخت

العراق) أو (بريخت بين دجلة والفرات)، إلا أنا؛ فلم أستطع كتابة أي نعي أو رثاء له لأنني لا أستطيع أن أتخيل هذا الإنسان المفعم بالحيويّة والحياة ميتًا. لا أريد لأمثاله أن يموتوا.

في عَمّان، حملتُ نسخًا إلى خيري وباسل اللذين نشرا في الملحقين الثقافيين خبرًا قصيرًا عن صدور الكتاب مع صورة لغلافه. بعت نسخًا إلى كل من أعرفهم من أردنيين وفلسطينيين وعراقيين كنت أجدهم في (رابطة الكتاب)، (دارة الفنون)، مقهى السنترال، وبقية المقاهي في وسط البلد، وحين حملت نسخًا ذات ليلة إلى مقهى (الفينيق) وأهديت واحدة للشاعر البياتي، تصفحها ثم حدق بي بغضب وقال مؤنبًا: لماذا فعلت هذا؟ لماذا لم تخبرني بأنك تريد طبع كتاب كي أعطيه إلى ناشري بدل أن تنفق مالك على طبعة رخيصة كهذه؟. رُحتُ أشرح له الأسباب ومنها ضيق الوقت وحاجتي لجمع ثمن بطاقة السفر، ففاجأني أنه فعل ما سبق وأن فعله الدكتور كرّومي تمامًا؛ نادى على المتواجدين في المقهى، والداخلين إليه، وعلى النُّدُل؛ كي يشتروا نسخًا، وأن يدفع هو عمّن لا يحمل في جيبه دينارين، أبقاني إلى جواره حتى نفدت النسخ، ثم انتحى بي جانبًا، دسّ في يدي عشرة دنانير وسألني:

– متى ستسافر؟

– حالما أجمع ما يفي لدفع ثمن البطاقة، فكل شيء جاهز ومنحوني التأشيرة منذ يومين.

– هل تريد أن يقيموا لك أمسية هنا لتقديم الكتاب؟

– لا أدري.

نادى على الشاعر الشلاه الذي كان مسؤولًا عن نشرة المقهى

ونشاطاته الثقافية، وسأله عن البرامج، فأجابه بأنها مكتملة لهذا الشهر وتم نشر الإعلان عنها.

وعاد ليهمس لي: ولا يهمك، متى أردت إقامة أمسية التقديم بلّغْني بالأمر وأنا أرتبها.

وبعد أن ارتشف ما تبقى في فنجان قهوته، ساحبًا علبة سجائره والقداحة إلى جيبه، ململما بقية أشيائه من على الطاولة، بما فيها نسخته من كتابي، وهو يهم بالنهوض للمغادرة، عاد وسألني:

- هل تريد مرافقتي إلى سهرة هذه الليلة أيضا؟

- لا، فأنا تعبان من كثرة التجوال هذا اليوم، كما أن أصدقائي ينتظرونني الآن في سكنهم.

- حسنًا، اسمع، الذي أعرفه أن الخطوط الملكية الأردنية لديها نسبة تخفيضات، ربما تصل إلى نصف الثمن، على بطاقات السفر للكتّاب والصحفيين وللطلبة. فاذهب غدًا على الساعة العاشرة إلى مكتب الروائي مؤنس في وزارة الثقافة كي يتدبر لك هذا الأمر، أنا سأتصل به الليلة وآخذ لك معه الموعد.

ثم نهض ونهضت أنا ومن كان جالسًا معنا على الطاولة، بعض يودعه وبعض يرافقه. أكد عليّ ألا أنسى أن أمرّ عليه هنا قبل سفري؛ كي يزودني ببعض عناوين وأرقام هواتف معارفه في مدريد، ويرسل لهم معي بعض النسخ من إصداراته الأخيرة.

حين عدت إلى غرفة قاسم، وجدته هو وخالد يدوّنان على ورقة ويحصيان النقود التي تم جمعها من بيع هذا اليوم فأخرجت من جيوبي ما لديّ وأضفته، فرِحًا بوافر المحصول، وسألاني عن كيف جمعته.

أخبرتهم بما فعله البيّاتي، وكيف أن موقفه كان كموقف الدكتور كرّومي تمامًا، فهالهم الأمر إعجابًا، ورحنا نتحدث عن ذلك وعن مختلف سلوكيات المبدعين المعروفين، وتوافقت آراؤنا على أن المبدعين الكبار حقًّا هم ليسوا كبارًا بنتاجهم فقط، وإنما هم كبار بإنسانيتهم ومواقفهم وطيبتهم وتواضعهم وتسامحهم، وأن قلوب الكبار حقًّا كهؤلاء لابد وأن تكون كبيرة هي الأخرى.

نهض الروائي مؤنس من خلف مكتب وكيل وزير الثقافة الذي يشغله، رحّب بي ودعاني للجلوس على الكنبة الخاصة بالضيوف ثم سألني فيما إذا كنت أرغب بشاي أو قهوة، قلت: قهوة مُرّة. فقال: وأنا كذلك. ثم اتجه إلى الباب ليبلغ الفَرّاش، وعاد للجلوس إلى جواري. ليست هذه هي المرة الأولى التي ألتقي به، فقد سبق وأن تعارفنا وربطت بيننا صداقة طيبة، وذلك حين فكرت أن أجري حوارات مع الأدباء الأردنيين بأسئلة مختلفة، ومنها عن مصطلح (الأدب الاسلامي) مثلًا، والذي كانت تروج له دار نشر ومجلة تحمل الاسم نفسه، وتشير إلى أنها مدعومة من منظمة العالم الإسلامي. رفض المصطلح جميع من التقيتهم؛ على اعتبار أن الأدب والفن لا يجب تصنيفهما على هذا النحو، وكان خالد يرافقني في تلك الجولات. في ذلك اللقاء كنا قد تحدثنا طويلًا خارج الحوار، وارتشفنا العديد من فناجين القهوة المُرّة. كنا نشعر بأُخوّة ما لأن كلينا ضحية للجلاد ذاته، فهو لا ينسى أعوام الحَجر على والده في بغداد حتى موته. تحدث عنها، وكيف كان يرى والده يذبل أمام عينيه، ويعرف قصة إعدام أخي حسن مطلك، وقد قرأ له. كان يدير حينها مجلة (فِكر) الثقافية، وطلب مني النشر فيها بعد أن أعجبه ما نشرته من نصوص وترجمات في الملاحق الثقافية، وبالفعل بعثت له بعدها أكثر من مادة ونشرها. كان ضخم

الجثة وبقلب طفل. ملتح، حزين وساخر بهدوء، يصف ويسمي كل الشخصيات السياسية المتَسلطة في رواياته (ديناصورات)، وكنت أمر عليه للسلام واحتساء القهوة كلما زرت عَمّان.

أهديته نسخة من كتابي وحدثته عن سبب قدومي، فقال: للأسف، التخفيضات التي كانت مخصصة لنا في رحلات الطيران تم إلغاؤها قبل أسبوعين، مقابلها سمعت بزيادة تخصيصات جديدة للديناصورات. وضحك، ثم راح يحدثني بسخريته المُرّة المعروفة عن وزير الثقافة الجديد الذي ما هو إلا ترضية عشائرية، وبأنه في الاجتماعات لا يحدّثهم عن الثقافة؛ وإنما عن ذكرياته في الطفولة، عندما كان راعيًا للغنم، وكيف يصطاد الأفاعي والحيات التي تخرج ملفوفة على حبل الدلو عندما كان يستخرج الماء من الآبار لروي أغنامه وعنزاته. أطلنا في الحديث والسخرية وشرب القهوة، وقبل أن أخرج قال: لديّ فكرة لمساعدتك إذا وافقت، أن أدفع لك من عندي مقدمًا مكافآت ثلاث مواد ستكتبها لنا كرسائل ثقافية من إسبانيا لنشرها في المجلة لاحقًا. وافقت شاكرًا بالطبع، فأخرج لي من جيبه خمسة وستين دينارًا، عشرين عن كل مادة وخمسة قال إنها ثمن نسخته من كتابي.



هي

صباح الخير حبيبي أو مساء الخير.. كما تشاء أنت، سيكون الوقت، وحيث تكون سيكون الخير.

البارحة، ليلًا، غرقتُ في قراءة (قوة الضحك في أورا)؛ لذلك

أشعر بنشوة هائلة.. فحتى أحلامي كانت عبارة عن نصوص رائعة لم أقرا مثلها من قبل. هل تتخيل بأن هناك امرأة تحلم بقصائد وكُتب؟.. هذه أنا. ولا زلت أقول عن حسن مطلك كلما قرأت سطرًا جديدًا له: كم هو مؤسف أنني لم أقرأ هذا منذ زمن. كل صفحة أعيد قراءتها مرتين، وعندما أترك القراءة لسبب ما ثم أرجع إليها، أفتح الكتاب مرة ثانية وأقرأها من البداية خشية أن تكون هناك كلمة قرأتها باستعجال، أو أن وصفًا قد فاتني.

حلمت بك، أو بحسن. لا أدري بالضبط. كنا نجلس على دكة العرش في أورا هذه. ونتوقف عند المكان الذي يقول عنه والد ديّام "عندما يفخر وهو مضطجع:"جلست فوق دكة العرش" متلذذًا بالسيجارة، وداعيًا ديامة أن تفرك قدميه، وهو يتحدث بطريقة تشبه صوت الرمح المنغرس في الأرض ببطء، أو أية طريقة تجوز معها فكرة التعامد على الأرض؛ الكبرياء". حسن، إنني أشعر بالامتنان أحيانًا لخلف موريس ولحسن مطلك لأنهما كانا سببًا في هذه العلاقة التي بيننا أنت وأنا.

أحيانًا من ذاتي أتوقع أن تسألني عن أشياء وأجيب على أسئلة أتوهمها. أنت معي في كل لحظة فلا تتوقع مني أبدًا أن أتهرّب من إجابة أو استجابة لك. صدّقني حتى بعد أن ننهي مكالمتنا، أبقى جالسة في مكاني ولا أريد الذهاب أو الكلام مع أحد، بل أفقد حتى الرغبة برؤية أي شيء آخر. كن عاريًا وعلى راحتك معي لأنني كذلك معك. سأخرج بعد قليل من البيت. انتهى العمل المؤقت للمستأجِر في محل مجاور لمحل زوج أخته؛ لذا سيرجع اليوم مبكرًا، وربما ستصعب الكتابة لك مرة ثانية. سأحاول الاتصال من أي هاتف. بالمناسبة

الكارت على التليفون الأرضي فيه مائة دقيقة وهو بخمسة يورو فقط.. هذا رائع.. أليس كذلك؟.

ياسمين اتصلت البارحة وتقول إن في ذهنها الكثير من المشاريع، ومنها شراء شقة في القاهرة. تبدو جادّة في ذلك، وتدعوني للعيش معها.. هل تأتي معنا؟. قل أي شيء عن أخبارك أرجوك. أتمنى لو أراك في أسرع وقت. أشعر بأن لدي أسبابًا كثيرة تجعلني بلا صبر أحيانًا.. أحبك.



أنا الآن ضيفة في بيت أخت عبود. أعنتها بإعداد العشاء فكانت مائدة غنية تُذكّر بموائد أعراسنا هناك. أقتنص انشغالهم بالثرثرة، أخذت قدح شايي وانزويت معك على كمبيوترهم، الإنترنت عندهم أسرع. أريد أن أغرق بك وتغرقني. أحس بأنني أشتعل.. وليس ثمة حل. أنا وسط الناس ولكنني معك وحدك.. لا أدري. لماذا أحبك إلى هذا الحد؟. أرتعش كلّي اشتهاءً ولا أدري ماذا أفعل..؟. هل هو تأثير الأكل العراقي المزخرف بالبهارات الهندية؟. أكاد أفهم جدّي الذئب الآن أكثر، وكثرة ترحاله إلى الهند وهوسه بالنساء. أراك تبتسم.. فيما أنا أتدثر بحجاب مزعج؛ شال كبير كخيمة يخيم فوقي في هذا الحر الداخلي والخارجي. أوووف، أنا التي تود أحيانًا لو تمشي عارية تمامًا باستثناء نظارات سوداء لا غير. أحبك وسوف أصاب بالجنون. مشتاقة ومهووسة وأكاد أموت دون أن أعرف آخرتها معك؟!. أقول لنفسي: كنت أعيش بحرمان عاطفي وهذه ليست المرة الأولى. ولكن تجاهك أشعر بأن حرماني أكبر وأشد مضاضة. أحس بأنك تشبهني كثيرًا، ثم

إنك ممتلئ عذوبة وحياة وشهوة ومرحًا وحزنًا من نوع آخر. لو أنني أعرف أين أنت لوجدتني أمامك في الطريق في أية لحظة. حبيبي، لا أستطيع الإطالة. ها هم ينادون عليّ ليشركوني عنوة في ثرثرتهم، المُستأجِر يريد إكمال مشهد مظهره الاجتماعي بحضوري. أعتذر إذا سببت لك أي إزعاج.. يبدو أن ليلتي ستكون عسيرة. إن لم تتذكرنيْ طوال اليوم.. فتذكر قبل النوم أني أقبل جبينك. انتظرني غدًا. أحبك.



صباح النور حبيبي.

يااااه.. وأخيرًا ها هو ضوء الصباح.. نعم الضوء الذي أختنق بدونه أحيانًا واحتاج إليه كحاجتي إلى هواء التنفس. بعض الليالي تكون طويلة بحيث تتحول فيها مسألة انتظار طلوع الفجر إلى هدف مصيري وحيد. شوقي إليك يعصف بي حد الجنون. كانت ليلة قاسية. أحلم بك كثيرًا وأشتهي وجودك معي أكثر... ترى هل أن مشاعرك تجاهي نفسها أم أن هذا الحس لدي وحدي؟. قل أي شيء فلن أزعل.. وحتى إن زعلت.. "يطُبني مَرَض!". أشعر بأنني معبأة بالأسئلة الفلسفية.. ستضحك، ولكن في رأيي أن كل الأسئلة فلسفية إذا ما نظرنا إليها بعين تجيد التفلسف. هل أسأل.. أم أجيب على أسئلتك؟. في الحقيقة أن الفلسفة هي إجادة طرح الأسئلة وليس مهمتها الإجابات؛ لأن الإجابات تعني موتها. أوه.. أراني متفلسفة هذا الصباح.. ربما لأن رأسي لم يهدأ من حشد الكلام والتفكير طوال الليلة. ولكن لندع هذا الآن ولأكمل لك شيئًا من الحكاية.

كانت الصحراء في الطريق إلى الأردن مترامية على جانبي السيارة،

وحين أفتح عيني وأرفع رأسي أرى تشابهًا فيما أراه في داخلي وبين هذا الأفق الذي ليس وراءه إلا أفق آخر وسراب.. وهكذا فلا أدري لماذا يصفون الأفق بأنه أمل فيما هو مجرد خط وهمي بعيد، خلفه خط وهمي آخر بعيد، خلفه خط وهمي آخر أبعد! يتشابه الصحو والنوم عندي وتبدو ثرثرات السائق وعبود بعيدة، كأنها مجرد همهمات، على الرغم من كونهما في المقعد الأمامي. تعاونت أوجاع العادة الشهرية مع أوجاع روحي على هدمي تمامًا بحيث كنت أشعر بكوني مجرد شبح إنسان يودع الحياة باستسلام، وكنت أغمض عيني موافقة على الموت.. فأنام.

صحوت على هزات عبود لكتفي وهو يسألني فيما إذا كنت أريد شيئًا، فقد وصلنا الحدود. توقفت سيارتنا في آخر طابور طويل من شاحنات وحافلات وسيارات صغيرة تكومت على سقوفها حوائج العائلات المهاجرة. قلت: أحتاج إلى حمّام. نظر عبود إلى السائق الذي أجابه بهز رأسه نافيًا قبل أن يسأله. قال: انزلي. الأطفال تبولوا بين السيارات وذهب هو إلى صاحب مقهى خرِب قرب محطة البنزين فرأيته يشير له بذراعه إلى الأودية وكثبان الرمال في خلاء الصحراء القريبة. حين عاد أخبرته بأن احتمالي لبولي أهون عليّ من احتمال المشي إلى مسافة بعيدة.

بعد خمس ساعات في الطابور تتقدم خلالها سيارتنا مترًا فمترًا، وصلنا إلى نقطة التفتيش. كان الجنود الأمريكان يتوزعون في كل الزوايا ويجبرون الناس على النزول وإنزال كل ما يحملونه في السيارات وفتح الحقائب والأكياس وكل شيء. كانوا يصوبون بنادقهم باتجاه الناس وفي عيونهم ارتباك وخوف. هذه هي أول مرة

أرى فيها وجوههم عن قرب، ففي بغداد وعلى الطرق الخارجية يبدون جزءًا من مدرعاتهم وآلياتهم حيث البذلات الكاكية والأجهزة المربوطة على أجسادهم والقبعات المعدنية الثقيلة والنظارات الكبيرة السوداء. وجدتهم هنا من أعراق مختلفة فمنهم الأشقر والأبيض والأسود والأسمر، الأمريكي اللاتيني، فيما لم يكن من العساكر العراقيين إلا قلة بثياب غير مرتبة وحتى بلا أسلحة وبوجوه ورؤوس مكشوفة ونظرات باردة بلا معنى أو حتى خجولة، وإذا تجرأ أحدهم وغمز فهو إنما ليشير بأنه يريد رشوة مقابل محاولة تسهيله وتعجيله لعملية التفتيش.

بعد القيام بتفتيش السيارات وما فيها يشيرون إلينا كي ندخل بطابور طويل إلى قاعة جانبية ينقسم داخلها الطابور إلى اثنين؛ واحد للرجال والآخر للنساء، حيث تُختم الجوازات وتُفتش النساء جندية أمريكية سمراء ضخمة الجثة، حاسرة الرأس وبلا نظارات. كنت لشدة تعبي وطول الوقوف أستند على الجدار وأتلمس أسفل بطني أحيانًا لشدة ألم العادة الشهرية. وكانت تغضبني فظاظتها وهي تفتش النساء قبلي، وبشكل خاص العجائز منهن. كانت تأمرهن بخلع العباءات والأحزمة وفك صرر اليد وحتى عمائم بعضهن؛ مما آلمهن الكشف عن شيبهن وفوضى شعرهن المنفوش تحتها وسمعتهن يستغفرن الله بأصوات خفيضة ويفوّضن، إلى الرب، أمرهن وأمر الأمريكان الذين لا يحفظون حُرمة أحد. حيث يجدن بأن محاولاتهن لإفهام الجندية لا تجدي وهن يتكلمن معها باللهجة العراقية مخاطبات إياها بـ"يا عيني والله ماكو شي" أو "استري عليّ يا ابنتي الله يستر عليك". والجندية ترد بكلمة إنجليزية آمرة أو لا ترد، مكتفية بمد كفيها السميكتين مباشرة إلى العمائم وتخلعها. لذا حين وصلت إليها كنت في أوج

حنقي وصرت أشعر بأنني أستعيد قوتي كلها. كنت أنظر في عينيها بتحد وعناد. مدت كفيها إلى عباءتي فأمسكت بهما وقلت لها بالإنجليزية:" أنا أخلعها بنفسي". ثم أشارت إلى قميص خارجي كنت أرتديه فوق الفستان، فقلبت لها جيوبه الفارغة، لكنها أصرت على خلعه ثم أمرتني برفع ذراعي إلى الجانبين بشكل مستقيم يشبه الصَلب، وراحت تتلمس جسدي من الكتفين، تحت الإبطين، الخصر، الظهر، البطن ونزولًا، فصرخت في وجهها بما أعرفه من الإنجليزية، والتي وجدتها تنساب على لساني بشكل أعجب لطلاقته كلما تذكرته:"عمَّ تبحثون؟!. النفط في بطن الأرض وليس في بطوننا".

جفلت هي وسحبت يديها أمام نبرة صوتي المفاجئة، فيما واصلت أنا الصياح المحتج وعيناي في عينيها: "أنت التي في بلدي ولستُ أنا التي ببلدك؛ لذا فأنا التي يجب أن تفتشكِ لا أنت". ازدادت ارتباكًا وحيرة ورأيت كلماتي تؤثر فيها، فلم تتمكن إلا من تمتمة كلمات مخنوقة:".. عفواً يا سيدة.. أنا أقوم بواجبي فقط". فقلت باحتدامي ذاته:"عن أي واجب تتحدثين أيتها الأجنبية؟ تفصلنا عنكم بحار ومحيطات وقرون، فما الذي تفعلينه هنا في بلدي؟ لماذا لا تذهبون إلى بيوتكم وتتركونا في بيوتنا؟ لماذا لا تتركوننا وشأننا، فحتى وها نحن نهجر لكم بلدنا بأكمله ونذهب إلى المنافي والمجهول تفتشوننا..!". وبغضب أعلى وجدتني أشير لها إلى أسفل بطني وأصرخ:"ألا تشمين رائحة الدم؟! لا نحمل معنا سوى دمنا.. أم أنكم لم تكتفوا بما سفحتموه منه وتريدونه كله هو أيضًا؟".

فانفجرت الجندية بالبكاء واستدارت راكضة وهي تقول:" لم أعد أحتمل، لا أحتمل أكثر.. أريد الذهاب إلى بيتي". فاستقبلها الجندي

الأشقر الذي كان يفتش طابور الرجال واحتضنها وهي تبكي على صدره وتردد: "أريد العودة إلى بيتي، لا أستطيع، لا أحتمل.. أريد العودة إلى بيتي..".

وانتبهت أنا إلى أن كل الحشد الذي كان في القاعة بطابوريه من رجال ونساء وجنود عند الأبواب كانوا متسمرين في أماكنهم بصمت وينظرون إلينا، ووجدت عبود يأتي إليّ من طابور الرجال ويحتضنني مهدئًا، وأنا أبكي أيضًا. ثم اقترب منا ضابطان عراقي وأمريكي ليهدئا الموقف، ويعتذرا بارتباك ويسمحون لنا بمواصلة المرور.

أخذني عبود إلى مقعدي الخلفي في السيارة وانطلقنا بصمت، حيث أن أيًّا منا لا هو ولا أنا ولا السائق ولا الأطفال لم ننطق بأية كلمة طوال الطريق المتبقي من الرحلة، بعد أن اجتزنا نقطة الحدود الأردنية إلى داخل أراضيه، ورحت أحدق بالبراري المفتوحة المغطاة بالصخور والحجارة السوداء. كان لون الأفق قد انقلب من الأصفر الصحراوي داخل الأراضي العراقية إلى الأسود البركاني داخل الأراضي الأردنية. فيما بعد سمعت عبود يتحدث عن كون هذه الصخور السوداء بقايا آثار الغضب الإلهي على قوم لوط.

قد تسألني عن وعدي مع خلف موريس، ولكن الذي يقطع على نفسه وعدًا عليه أن يبذل مجهودًا لتحقيقه. هو لم يفعل أي شيء تجاه هذا الأمر، وأنا بذلت ما في وسعي؛ على الرغم من أنني أعترف بأن اختياري له وعلاقتي به كانت خطأ. إنني لا أقول هذا الآن، وإنما كنت أدرك هذه الحقيقة حتى قبل خروجي من العراق، وكما أخبرتك، كنت حينها أفضل الخطأ على قتل حلمي، أو على الموت من شدة الضجر مع المُستأجِر. ومن حسن الحظ أنني قد اخترت مصلحة الأطفال الأبرياء في نهاية الأمر.

وصلنا إلى عمّان ليلًا، وهي مدينة تشبه الصَّدَفة، أو كأنها سقطت من السماء، وتبعثرت بيوتها على هذه الأرض المتنوعة جبالًا وأودية ومساحات سهلية، تجمع بين القسوة والرقّة، بين الحداثة والقدم وتشعر أن كل زاوية فيها مليئة بالأسرار والألغاز التي يستحيل معرفتها وفك طلاسمها. بقينا أسبوعين في بيت أصدقاء قدماء لعبود. كنت فاقدة للقدرة على الحياة، ولم تفلح كل محاولاته معي في إنعاشي أو إقناعي بشيء. قليلة الأكل، نادرة الكلام ونظراتي زائغة، فارغة في الفراغ. وضع باسمي مبلغًا جيدًا في البنك. ما الذي يظنه؟. الشيء الوحيد الذي كان يربطني بالحياة ويبقيني عليها في تلك الأيام هي قبلات طفلي الصغير الذي كان يبدو حنونًا أكثر من أم.

ثم انتقلنا إلى إربد في الشمال حيث نصحه معارفه بأن الإيجار هناك أرخص والتكاليف أقل من العاصمة، وربما فرص إيجاد عمل ستكون أفضل، لم يكن الأمر بالسهولة المتوقعة، بقينا هناك ما يقارب الثلاثة أشهر، كان عبود خلالها غائبًا أغلب الوقت، يحظى أحيانًا ببعض الأعمال العابرة التي تستغرق يومين أو ثلاثة، كتصليح أو نصب أجهزة كمبيوتر في دوائر ومحلات في البلدات المجاورة، أو أي عمل بدني آخر.

سكنّا في حي شعبي مكتظ بالعوائل الكبيرة الفقيرة والمهاجرين... وبالفعل كان الإيجار رخيصًا، عدا كون البيت قديمًا، وصاحبه يجري عليه بعض الترميمات حتى ونحن فيه، كإصلاح درج أو سقف أو سد شقوق في الجدران، وذات مرة أتى بأحد المصريين لهذه الأعمال، وحين هممت بالنزول على الدَّرج رأيته يقف على الدرجة السفلى، تسمّرتُ مكاني، ينظر إليّ في عيني وأنظر إليه. كانت نظرته ذئبية حقيقية.. وحتى شكله النحيف الأسمر المتجهم حاد القسمات كله ذئبي تمامًا، للحظة

شعرت بأنه جدي الذئب، كان يشبه الصورة التي في ذهني عن جدي، ونظرته ثاقبة تخترق عيني وكياني، لا أدري كم دقيقة بقينا على هذا الحال، هو جالس في أسفل الدرج وأنا واقفة في أعلاه. نهض دون أن يحول نظره عني وتمتم: صباح الخير يا مدام. وربما لم أجبه، حتى سمعته يسأل بعد هنيهة: في حاجة يا مدام؟

فتمتمت أنا هذه المرة وقلت له: لا، لا أبدًا. ثم تداركت: هل تحب أن أعد لك الشاي؟ قال: نعم.

اتجهت نزولًا إلى المطبخ الذي كنت أقصده أصلًا، ومن هناك رحت أراقبه من خلف الستارة، كل حركة من حركات جسده وهو يعمل، متناسقة، قوية واثقة وتنضح رجولة. فكنت أتخيل جدي في الأراضي البعيدة التي قيل أنه زارها وعمل فيها.

حين جئته بالشاي بقينا نتحدث قليلًا، فهو أصلًا كان قليل الكلام بصوته الخشن الأخّاذ، وتدخينه الذي لا ينقطع، لكن نظراته تقول الكثير. شعرت بصلابته تلك؛ نوع من التقوّي والسّند لي في مرحلة كنت فيها هشّة، شبه منهارة معنويا وجسديًا، ويبدو أنه قد تعمد إطالة العمل فيما يصلحه ليستغرق ثلاثة أيام، تعارفنا فيها أكثر وأخبرني أنه يسكن في الحي نفسه. هذا الجمع بين النقيضين في الشخص يعجبني؛ القوة والضعف، القسوة والرقة معًا، اكتشفت أنه هش من داخله وحزين، بطفولة مريرة ويفتقر لأي عطف أو حنان.. فقاربتنا احتياجاتنا، أنا؛ لتماسكه وصلابته. وهو؛ لليونتي وعاطفيتي. لذا تواصلت لقاءاتنا سرية قصيرة في بعض الليالي من خلف السياج، نمسك بيدي بعضنا ونبوح بجمل قصيرة، أعرف بانه قد أحبني جدًا واعترف لي بذلك. قال إنه مستعد لفعل ما أطلبه منه مهما يكن، وأنا كنت على يقين من أنه سيفعل ما سأطلبه منه.

إنه لا يقرأ ولا يكتب، وهذا أمر لا يعجبني فيه، وستستغرب أن أرتضي علاقة كهذه، وقد أخبرته بأن عاطفتي تجاهه ليست كما يتخيل وأنها مجرد ارتياح إنساني. كنت صادقة معه بالطبع، لكنه كان يريد أن يصدق حلمه أو وهمه هو بغض النظر عن كل شيء، ولأن فرص لقاءاتنا قصيرة، كان يأتيني برسائل طويلة يحدثني فيها عن حياته ويتغزل بكلمات جميلة وأشعار أعرف بأنه لم يكتبها وإنما طلبها من أحد ما، لكنني لم أتوقف كثيرًا عند هذا الأمر بقدر إعجابي بابتكاره وقدرته على فعل ما يريد... على أية حال لم يحدث بيننا أي شيء سوى تلك اللقاءات والأحاديث والرسائل ولمسات اليد من خلف السياج، وأقصى شيء حدث هو أنني قبلته ذات مرة من خده ووضعت رأسه على صدري.. فكان إحساسه عجيبًا، شعرت بأن رأسه يصير طريًا كرأس طفل رضيع، وسالت دمعاته بين نهدي... قبل رحيلنا، أخبرته بأنني سأحاول التواصل معه ومراسلته عندما أستقر وأعرف لنفسي عنوانًا.



رحلنا إلى صنعاء ومنها إلى حضرموت لأن عبود وجد عملًا مؤقتًا في جامعتها. الجو هناك شديد الرطوبة وحار خانق. منطقة ساحلية على بحر العرب، أي لا يابسة في الأفق، وكأنها نهاية الأرض من الجنوب. كنت منهكة تمامًا. وعدت نفسي وخطّطت لشيء ولم أقدر على تحقيقه. بحاجة إلى رؤية أمي أو أبي أو أي شيء من رائحة الأهل وبغداد.. كانت الأيام تمضي وكل شيء يتحول إلى مجرد أداء وحكايات.

تلك واحدة من الفترات الأصعب في حياتي. ولأنني كنت

محطَّمة، اتفق عبود مع خادمة للقيام بالأعمال المنزلية. يومان في كل الأسبوع. لكنني حين رأيتها تعمل في بيتي وأنا جالسة، خجلت منها ومن نفسي، فرحتُ أعمل أكثر منها.. وصارت الخادمة تجلس مكاني في الصالون حائرة متسائلة عن دورها هنا.

بعد أن وجد عبود نفسه بلا عمل مرة أخرى، نصحه زميل له من السودان بالذهاب إلى هناك لاحتمال فتح قسم جديد يضم اختصاصه في جامعة أم درمان، فأعجبته الفكرة، وخاصة أن إحدى خالاته متزوجة وتعيش هناك، ومع ذلك فعند انتقالنا إلى أم درمان لم نر المدينة سوى مرتين. سكنّا خارجها على النيل في بيت زميله السوداني. مكان رائع وشرفات واسعة تطل على النهر الساحر، المناخ جميل والناس مفعمون بالطيبة والبساطة والجمال، أحببت هذا البلد جدًّا، وتمنيت لو أنني أمضي بقية عمري في هذا المكان؛ أقضي الوقت باحتساء الشاي في الشرفة الواسعة وأقرأ وأكتب وأن تكون أنت برفقتي وحسب، ويكون لنا بضعة أصدقاء من السودانيين الشعراء والحكّائين والموسيقيين... ما رأيك أن نضع هذا الحلم ضمن مشاريعنا بعد أن نلتقي؟

أحببت أم درمان التي يلتقي فيها النيلان؛ الأبيض والأزرق مثلما أحببت القرنة التي يلتقي فيها دجلة والفرات. أحب التقاء الماء بالماء، لقاء العاشق بالمعشوق وحلمي الأحب هو أن ألتقيك.

لا أدري كم بقينا هناك من الوقت فلم يكن يهمني ذلك؛ لأنني كنت أشعر بأنها محطة للاستراحة، وبالفعل كانت كذلك، فبعد أن تأكد عبود بأن ليس له أية فرصة عمل هنا مستقبلًا، راح يفكر بالمجيء إلى إسبانيا، وهي فكرة أدخلتها في رأسه خالته التي كان يزورها لوحده

كل يوم تقريبًا. اقترحت عليه أن ينتقل إلى أوروبا، فهناك، إن لم يجد عملًا، فعلى الأقل سيكون ضامنًا لأمنه، كما أن الضمان الاجتماعي سيشمله بشكل ما، وإلى إسبانيا؛ كون أخته فيها وزوجها ومعارف آخرين، وثمة إمكانية للوصول اليها عبر المغرب. زوّدته خالته بخطة كيفية الانتقال ودعمته ببعض المال، هي التي دلّته على الأشخاص الذين سيدلونه على المهربين للبشر والحيوانات والبضائع والأسلحة وكل شيء عبر الصحراء إلى ليبيا. كانت ساعات طويلة وغريبة مع أغراب في الصحراء، كانت مغامرة مجنونة.. حتى الآن لا أدرى كيف تجرأنا عليها وقمنا بها ونجونا منها! كم تبدو بعض قراراتنا أو مراحل حياتنا مثل صدفة أو معجزة!. انطلقنا من أم درمان في باص صغير وقديم ينظر فيه جميع الركاب إلينا بفضول واستغراب؛ لاختلاف بشرتنا ولهجتنا حتمًا. ابتسمت في سري متذكرة تلك الأفلام القديمة عن رحّالة أو مغامرين أجانب في أرض غريبة عليهم..

وبعد مسيرة اثنتي عشرة ساعة وصلنا إلى البلدة الصغيرة التي تقع على نهر النيل في شمال السودان... دنقلة.

وبعد يومين أمضيناهما في فندق رخيص، في غرفة تضم عشرة أسرّة، أربعة منها مشغولة، حصلنا بالصدفة على مكان في حوض شاحنة متجهة إلى ليبيا وبصحبة عشرين مسافرًا آخرين... تكدسنا كلنا في الحوض الخلفي مقابل خمسين دولارًا للشخص البالغ، وخمسة وعشرين للصغير.. وبعد مسيرة ثلاثة أيام وسط الصحراء الأفريقية الكبرى وصلت الشاحنة إلى بلدة (الكفرة) الليبية على الحدود السودانية... وهي عبارة عن واحة غنّاء فعلًا في وسط الصحراء...

أجّرنا غرفة فندق، ودخلت قبل الجميع إلى الحمّام كي أخلّص

بدني من الرمال الملتصقة به وبقايا دبق العَرق الجاف، ثم رحت أغسل الأولاد دعكًا وفركًا، كمن يغسل سجادات قديمة، ثم توجهنا للنوم على أسرة قذرة ليومين كاملين، وبعدها توجهنا إلى طرابلس.

لم نمكث في ليبيا طويلًا، في طرابلس أعجبني مقهى بطابقين، قريب من البحر. القهوة فيه، لم أحتسِ مثلها في أي مكان آخر، هذا كل ما أتذكره من ليبيا، إضافة إلى عبارة صديق لعبود قال فيها: نحن، الليبيين والعراقيين، لا يليق بنا الابتسام والضحك، وإن فعلنا نبدُ وكأننا نكذب ولسنا حقيقيين؛ ذلك أن التجهم والحزن سمتنا الأصلية.

بعدها انتقلنا برًّا إلى تونس، التي لم نمكث فيها سوى أسبوع واحد، ومنها إلى المغرب التي أحببت فيها طنجة، وتواعدت مع الشاب الوسيم ذي الرائحة السمكية.. ومن هناك إلى هنا، إلى مدريد.

أتعرف؟ أحيانًا، يقول لي عبود: افتحي بريدك لأنني بعثت لك شيئًا جميلًا، وأنا أعرف غرضه الحقيقي.. يرسل إلي بكل ما يجده من أدعية وفتاوى وحكايات دينية وخرافات في الإنترنت، وما يبعث له أصحابه المتدينين ووو.. إنه لا ييأس من محاولاته لترويضي، يحنّ لأيام تصوفي حيث كنت طيعة بين يديه مثل عجينة، وهو لا يدري حينها بأنني كنت مثل المنوَّمَة.. هذا هو الموجود.. كي تدرك حجم الغربة التي أنا فيها.

ذات مرة، قرأ رسالة كنت قد كتبتها لريتا، كي تعتذر بدلًا عني لخلف. فقط لا غير. فشبت في نفسه الشكوك بشكل قوي، حتى خفت أن يقتلني. سكتُّ في البداية ولم أجبه، ثم قلت له بعدها بأنه: رئيس تحرير جريدة وكنت مرتبطة معه بشغل بسبب الحاجة في

غيابك ومن أجل التخفيف عنك من مصاريفنا، ولأنك لا تسمح لي بالعمل في الصحافة كنت خائفة و لم أخبرك.

لا أدري فيما لو كان صدقني أم لا.. ولكن، يبدو بأنه قد ابتلع هذا الأمر بمزاجه.



حسن.. يفترض بنا أن نستغل اليوم بشيء أهم من الحديث عن خلف. أنت كلمتني بصراحة وأنا فهمت صراحتك جيدًا.. أطلب منك أن تحاول جهدك ألا تكذب عليّ، فقد أوجعني كذب الآخرين وكذبي كثيرًا، ثم إنك، وأنا أيضًا، لسنا بحاجة، ولسنا مضطرين للكذب، ورجاء آخر، وهو ألا يطرأ على بالك بأنك بديل لأي أحد، ولا أنا بديلة لأي واحدة. ربما تكون حياتك مرتبة الآن؛ زوجة وعمل وأصدقاء وصديقات ومشاريع وكل شيء.. سأدرك كل هذا وسأحترمه.

لكن أمنيتي أن تحبني من كل عقلك وقلبك بلا أية وعود من وعود الحب لأجل الحب وحسب.. بعدها، وحين نصل إلى مرحلة كهذه، سيكون لقاؤنا أمرًا حتميًا، أو حتى قد لا يكون. ليست مشكلة.. اتفقنا حبيبي؟.

تلقيت قبل قليل مكالمة من أختي حنان وهي تبكي شاكية من زوجها وتريد الطلاق منه، وهو يريد فلوسًا كي يمنحها الطلاق.. تخيل؟. لا أدري ما الذي بإمكاني فعله وهي تلجأ لي لمساعدتها في الحل. أنا الآن أتقد نارًا عصبية. نحن بنات وليس لدينا أحد يحمينا أو يدافع عن حقنا في مجتمع ذكوري خشن، وأنت تعرف العراقيين كيف

أصبحوا الآن. هذا الذي تزوجَته عن حب وضد رغبة أهلها، ها هو يطالبها بالمال كي يطلقها!.. أي لوثة وتلوث أصابا الناس!.. آسفة إذا أزعجتك. سأفكر بالأمر لاحقًا، لابد أن أفعل شيئًا من أجلها.. لا أدري ما هو بالضبط.. ولكن لابد أن أفعل شيئًا.



خُيِّل إليّ قراءة رسالة حميمة منك.

يعجبني طول تداخل الحب، وليس مجرد دقائق قصيرة. أفهمه كلغة، كاستمتاع، حس عالٍ، فن، ثقافة ونكران الذات الفردية. شيء جوهري في الحب ألا يتم التعامل بأنانية، وأن يتم استبعاد البحث عن اللذة الخاصة بالمرء كفرد فقط.. في هذا محك حقيقي آخر للمحب. متعتي هي أن أرى وأحس بمتعة من أحب. ثم إنني أتخيل بأنه لمن الممكن أن نكتب مع بعضنا أحاسيسنا ونحن في حالة حب. أتمنى أن تكون هذه الكتابة متزامنة في الوقت نفسه، وحتمًا سنكتشف طرقًا أخرى. يااا.. تخيل لحظة اجتماع نشوة العقل بنشوة الجسد ونشوة امتلاك الحبيب والاستسلام له، لحظة التوحد، العبودية والتحرر، التذكر والنسيان، الصخب والصمت، الواقع والحلم، اللذة والألم.. وليكن بعدها الموت. أو ربما هي لحظة حافة الموت، شيء شبيه بتلك الروح المبدعة التي تحدث عنها لوركا. أتساءل متى أراك، وبعدها سأسأل متى نزرع الحب على فراش من الحرية بكل مقاييسها، ومنها حرية إفراغ الحواس من صور الجسد المتعارف عليه وما تراكم فيها منذ زمن التمني الأول عند أول تحسسنا لدغدغة الماء الأبيض فيه. بنصف رسالة.. انظر كيف جعلتني أتدفق.. ترى ماذا لو كان الأمر

واقعيًّا؟!. وعيي مضاعف الآن وأحس ببصري أقوى إلى درجة قدرتي الهائلة على رؤية كل الأشياء. أشتهي مضغ قات يمني أصيل. أريد سماع موسيقى. سأتصل بك غدًا. أحيانًا أقول بأن الموضوع الذي بيننا ليس بموضوع جسد، وحتمًا أنت تدرك ذلك أيضًا، ولكن ليس لدينا خيار كبشر، إلا الاستعانة بالتعبير بالجسد.

اتفقت مع الناقد الفيل أن نلتقي في الواحدة ظهرًا، وإذا أحببت؛ قدم لي مفاجأة واتصل بي وأنا معه.

- ١٦ -

لَظى الأشواق الأُجاج

أنا

اكتمل المبلغ، بل وزاد قليلًا، وزادت من الكتاب نسخ تركتها في بيت أهل خالد حتى اليوم. أبلغت إخوته الصغار بأن من يبيع شيئًا منها، وبأي ثمن بعد الآن، فهو له مكافأةً على تعاونه. فرحوا بذلك، وأنا الآخر، كنت فرحًا بما تحقق من مرحلة تواجدي في الأردن على مدى عامين تقريبًا، قلقًا وحالمًا بشأن المرحلة القادمة لي في إسبانيا. الكل ودعني بالتهاني والتمنيات. بكت أم خالد وودعتني بالأدعية، وبجملتها التي ظلت ترن في مسامعي طويلًا: قلبي الآن على خالد، سيكون حزينًا من بعدك.

حجزت البطاقة للسفر بعد يومين، قمت خلالهما بالمرور على كل من عرفتهم في هذا البلد لأودعهم وأشكرهم. ذهبت إلى سوق البضائع المستعملة، اشتريت ملابسًا لي، وهدايا لصديقيّ عبدالهادي، وأحمد كاظم، الذي يقيم معه. أخبراني في المكالمة الأخيرة، التي أخبرتهما فيها بموعد وصولي إلى مدريد، بأن الجو بارد عندهم، فاشتريت ثلاثة معاطف ثقيلة، إبريقًا وأقداح شاي، أشرطة أغانٍ عراقية حزينة وكتبًا، إضافة إلى الأوراق المطبوعة من رسائل هيام، قررت إعادة قراءتها في

الطائرة، حيث سيبدو العالم صغيرًا من النافذة، والمدن أشبه بألعاب الأطفال. هناك، تحقيق الأحلام الكبيرة أسهل مما لو نظرنا إليها ونحن في الأرض، تحاصرنا الجدران التي بنيناها بأيدينا. ولأن وزن الحقائب قد زاد عن المسموح به؛ ارتديت ما استطعت من الملابس فوق بعضها، بما في ذلك معطفين؛ مما جعل من رحلتي احتمالًا أليمًا، واختناقًا وتعرقًا، ورغم هذه (التضحية) فقد استقبلاني؛ عبدالهادي وأحمد، بالضحك عليّ والسخرية مما فعلت، واصفين إياه بالمبالغة، ولا زلنا نتندر على ذلك كلما تذكرناه.

كان أصعب توديع على قلبي هو وداعي لخالد الذي رافقني حتى غيابي في دهاليز المطار، بكينا على الرغم من أن كل ما بيننا من قبل كان مصحوبًا بالسخرية والضحك، وقوله لي إنني سأبقى ريفيًا، وبدويًّا؛ بطيبتي وسذاجتي، حتى لو عشت كل عمري في أكثر عواصم العالم تحضرًا.

ودّعني وهو يمسح دمعي ودمعه، بالكلمة التي اعتاد أن يخاطبني بها بمحبة: مع السلامة يا مُتخَلِّف.



هي

مساء حب الحياة حبيبَ حياتي.

ليس قلبي وحده الذي يبكي عليك.. زهرة أنوثتي أيضًا.. فمتى ستمسح دمعهما أو تحث انهماره؟. متلهفة لك.. خاصة وأنت تخاطبني: هيّومتي، حبيبتي، قطتي الحلوة. من أين جئت بهذا

الصوت الفتّان؟. اسمع بعض الأغاني العربية من أجلي، اسمع الأغاني العراقية، ومنها سعدي الحلي.. أكاد ألمح ابتسامتك. اسمع أغنيته (عشقك عشق ليلة ويوم) أو (عشق أخضر)، وإذا أعجبتك فكرّر سماعها. أنت تعرف مدى إعجابي المبكر بالشعر الشعبي، ومنها قصائد زاير حسن وملا عبود الكرخي، (المجرشة)؛ ملحمته الشعرية الثورية الهائلة.. كانت دستورًا لي في مرحلة ما. وإذا توفر لديك الوقت فاسمع (مو بيدينا نودع عيون الحبايب) لفؤاد سالم، كان زكريا يغنيها لي دائمًا. ذائقتي متمسكة بتلك الفترة الموسيقية، ولا أعرف الكثير عما جاء من بعدها.

عدت قبل قليل. كان اليوم لطيفًا مع يعقوب الفيل، وحتى قبل أن أقرأ توصياتك تصرفت كما أردتني أن أتصرف. لا تخش عليّ من هؤلاء بعد الآن. فكما تعلم؛ كل ما يهمني من اللقاء به هو الحديث قليلًا عن الثقافة والأدب، والحصول على بعض الكتب الجديدة بالعربية. تصرفت بشكل رسمي قدر الإمكان. ولو كنت أعرف بأنك تخشى عليّ إلى هذا الحد لما رأيته منذ البداية. مع ذلك ثمة مَسرّة تساورني بخوفك هذا لأنها دليلًا آخر على حبك لي وغيرتك عليّ. أقسم بانني أحبك أيضًا. لقد تجاوزت الساعة الخامسة مساءً. لا أدري أين أنت الآن وفي أي وضع. وعدني الفيل بأن يزوّدني بالمزيد من الكتب. أبوس أصابعك التي كتبت لي اليوم، أقبلها وأمصمصها واحدًا واحدًا. أريد احتضانك بقوة، وأفكر متى سأتصل بك والوقت قد تأخر. أعتذر من أذنيك وعينيك وقلبك وشفتيك وظهرك ومؤخرتك وعصفورك وأصابع قدميك، وأود لو أنك الآن بجانبي كي أعتذر بطريقتي، وبالشكل الذي يرضيني.. غدًا وبعده عطلة هنا، مع ذلك سأحاول سماع صوتك. اكتب لي

حتى وإن لم أتمكن أنا من الكتابة إليك... لا أحتمل أكثر، سأجازف حالًا (هنا والآن) وأتصل بك.



لا رغبة لي بالحكي. أريد أن أتنفسك. عجيب هو اشتهائي لك، وأنا التي أتهم نفسي أحيانًا بموت المشاعر.. ها أنت توقدني في لحظة واحدة. ربما حرارتي ورطوبتي الآن بحرارة ورطوبة البصرة في آب. أتوق لاحتضانك بقوة ولو جاء من جاء وشاء من شاء فلن يتمكن من أخذك مني. ها أنا أذوب بك على البعد فماذا لو رأيتك ولمستك عن قرب؟! أشعر بأنك خلاصة في الذوق أو سطوة فحولة لا أدري كيف أصفها. أحقيقة هذه أم تهيؤات؟. فكما تعلم أن الخيال يثير أكثر من الواقع، وهو في الوقت نفسه لا يبرد أية شهوة.. تُرى هل سأبقى طويلًا على هذا الحال؟. حلمتاي انتصبتا. جسدي الآن مثل الكهرباء، مثل بهارات الهندي، مثل اهتزاز الأرض، مثل جيش مجانين بأحدث الأسلحة.. حتى بطني صارت تؤلمني لأنني بأقصى حالات الهياج.. وليس من حل.

الايميل والهاتف فيهما خطورة الآن، أخشى مجيء أحدهم غفلة. كيف سأشبع منك وأنا أحلم بك طوال عمري؟!. كل مائي ينزل اللحظة بانتظارك. إنني أغرق به، بك. تعال واشربني، اقتحمني بعنف وقسوة توازي شبقي الهادر هذا.. هيا فأنا الآن متهيئة لك تمامًا بشكل يندر حدوثه. دون أن ننتبه سنجد أنفسنا متداخلين. أهتز تحتك. أشعر بأنفاسك ولسانك، أشعر بدخولك. سوف أنحني. لا تقل لي شيئًا، فأنا أحب ذلك. أرجوك، أهلِكني أنت كي لا أُهلِك نفسي.. أكاد

أموت. آه اللعنة.. أحتاج إلى ربع ساعة كي أخرج من مناخ العاصفة هذا، وأخاف أن يفاجئني أحدهم.

لا تنس. أبق لي حلمًا، وهذا أقصى ما أريده الآن.. وليذهب جسدي السخيف إلى حيث لا أدري أين... سوف أبقى أحلم بك.. ربما يكون هذا هو انتصاري الوحيد.



سوف أطلع لك في كل شيء بما في ذلك مرق الدجاج الذي تطبخه. عدت قبل قليل من المجلس الديني، حيث ذهبنا إلى إحدى ليالي عاشوراء. عندي مشاهدات كثيرة. كتبت لك رسالة على هاتفك النقال والناس تلطم، وكنت معهم من اللاطمين. ربما كنت ألطم على العراق أو على أنوثتي المُبَدَّدة كل يوم بلا رجل أحبه. ذهبت معهم لأنني لو بقيت في البيت سوف أُجن من كثرة تفكيري بك. كان بمستطاعي عدم الذهاب تحت أية ذريعة ولكنني خفتُ النظر إلى نفسي في المرآة والتحسر قائلة: لماذا لا يكون عندي ومعي الحبيب الذي أريده؟. كنت راغبة بالقراءة، ولكن حزني وعتابي، الذي لا أعرف لمن، قد أتعباني. لذا فضّلت أن أكون بين الناس وأشغل ذهني. لا تخش عليّ. لن أموت، على الأقل الآن. أحسد الوسادة التي ستنام عليها والفراش الذي سيحتضنك. ليتني فِراشك وأنت لحافي. مشتاقة لك وقلبي يوجعني.



هل قرأت هذا الخَبر؟ كان أول ما طالعته في أخبار اليوم.. فبُهِتُّ، فغرت فاهي متخشبة لوقت لا أدري طوله، ولو كانت ثمة عنكبوت قربي لاستطاعت أن تدخله وتنسج بيتها فيه على مهلها دون خشية من انطباقه. هل تذكر ذلك الشاعر (المتشاعر) الذي كان يحلم أن يصبح وزيرًا وزير نساء، سعيد الخاطر الذي حدثتك عنه؟ ها هو يصبح وكيلًا لوزير الثقافة الجديد فعلًا، وليس من المستبعد أن يصير وزيرًا في أية لحظة... يا إلهي! ما هذا! كيف لمدّاح طاغية سابق يكسب رضا عدوه الطاغية الجديد؟! كيف يستطيع أمثال هذا تحقيق أحلامهم مهما بدت غريبة ومستحيلة في بداياتها، بينما أمثالي يواصلون تلقي الصدمات ومضغ المعاناة دون بلوغ طرف أي خيط من نسيج أحلامهم؟!.

الطقس سخيف هذا اليوم. سأحاول الإفلات من مسألة الذهاب إلى الطقس الديني، وإن لم أستطع سوف أقرأ ريلكه هناك خلسة في إحدى الزوايا المعتمة في الصالة المعزولة الخاصة بالنساء. إن الشعور الذي أمر به معك.. شغف يصعب وصفه. أستشعر شعورك بالتعب من بُعدنا عن بعضنا، ومن شائكية علاقتنا، وظروفها أو ظروفنا، التي تقيّد كلًّا منا، فتلمّح برغبتك بالتخلص من هذا العبء أحيانًا.. هل تعتقد بأن هذا هو الحل؟.. الهروب؟. فلنواجه أنفسنا. لم أستطع التعبير لك اليوم عما أردت قوله.. ربما بحكم خشيتي من أن تقول: هذه ظروفها صعبة وتريد استبدال رجل بآخر، وظرف بغيره.

لأكن صريحة معك إذًا: ظروفي العائلية الآن ليست صعبة جدًّا. عندي زوج دكتور ومعروف في اختصاصه في الوسط الأكاديمي العربي. لم يسرق، لم يتقبل هدية من أحد، و لم يستغل مناصبه، صار يصوم ويصلي كثيرًا. لم يخني مع أية امرأة أخرى أبدًا. هنا، كُثر هم من

يعرفونه، تلقى اليوم دعوة للتدريس الخصوصي، وأنا في حال بقائي معه لا أخاف ماديًّا، ولست بحاجة إلى استقرار عائلي كالذي تحلم به ملايين النساء، فعندي زوج مسؤول، وأولاد رائعون أفتخر بهم. كما أنها ليست مسألة جسد، فزوجي لا زال بعنفوانه، يشتهيني ويراودني في كل وقت، عدا ذلك فكثير من النساء في الشرق أو الغرب لديهن أزواج يتولون الغطاء الاجتماعي والإنفاق، وأصحاب في الخفاء للمتع الحسيّة. وكما تعرف، فالجنس هنا متوفر أكثر من وفرة النفط عندنا. هذه شبه مقدمة، أسوقها وإن كنت أدرك بأنك لست بحاجة إليها.

حسن، أنا أحبك، وهذا شيء حقيقي. أحبك بلا أي غرض أو شروط من خارج الحب. وأنا على يقين من أنك على يقين من ذلك. لا تتهيأ لنا فرصة الحب كل يوم. بإمكاننا أن نملأ أيامنا بأصدقاء وأزواج وأولاد.. ولكن من النادر أن نلتقي بأنصافنا، بمن نحبه حقًّا، بأنصافنا الروحية أو الحلمية... وإذا كنت توافقني الرأي.. فأرجوك احرص على أن نلتقي بأسرع وقت ممكن بدل أن نواصل إضاعتنا للأيام. لكي يعمُر القلب بالحب يجب أن يحب كل يوم، كما يقول أفلاطون.



حبيبي.. استطعت التملص هذه الليلة من المجلس الديني إلا أن اللطم بالإسبانية سيفوتني.. شيء يدعو للدهشة حقًّا، وللضحك. الفيل في آخر لقاء لنا أتاني بكيس مليء بنسخ من كتبه، هذا (ناقد) يكتب عن كل شيء، الكتابة عنده سهلة كشرب الماء!!. لا أحب القراءة لمن يستسهلون الكتابة. رميتها كلها في برميل الزبالة في الطريق لأنني لا أستطيع أخذها معي إلى البيت، باستثناء واحد يتعلق بقراءات

في نصوص من التراث، احتفظت به، ليس لما كتبه هو، وإنما للمقاطع الطويلة التي ضمها من النصوص الكلاسيكية. كتبه بمجملها جَمعٌ لمقالات عابرة كتبها في حينها ونشرها في الصحف عن أي شيء، سواء كتاب لصديق، معرض رسم، عَرض مسرحي، ندوة حضرها، وما إلى ذلك.. وكلما صار عنده عشر إلى خمس عشرة مقالة جمعها في كتاب، وأطلق عليه اسمًا مفخمًا.

آه.. حبيبي.. متى ستأتي اللحظة التي نضحك فيها معًا على كتب كهذه!.



لا شيء أجمل من عينيك إلا حبي لعينيك. أبوسهما كي أزيح عنهما تعب النهار. اليوم آلَمني ظَهري. اليوم كان صعبًا عليّ.. كأن دودة تعبث في داخلي وتشدني لسماع صوتك.. قاومت، ملأت يومي بالحركة والمشاهدات. أنت تحبني وأنا أشعر بك وأحبك بكل كينونتي.. فأين المشكلة؟ ليس ثمة مشكلة.. لماذا فقط في الحب والمشاعر الرقيقة تظهر المشاكل، بينما المشاكل الحقيقية هي هذه التي تحيطنا في أرجاء الدنيا المكتظة بكمّ بغيض من السوء والشَر والكُره، مع ذلك تراها تسير وتتفاعل، حياة مليئة بالكراهية وتواصل سيرها بلا مشاكل.. فلماذا الحب أصعب من الكُره؟ أتذكر عبارة لأحدهم يقول فيها: لا يوجد حب مستحيل؛ وإنما يوجد أشخاص عاجزين عن النضال من أجله. وعني شخصيًا، فحتى لو فقدت الثقة بكل شيء فلن أفقد ثقتي بالحب، وهذه هي بطولتي الحقيقية.

دعني أحبك بلا رقابة، بلا حواجز، دعني أحبك بكل الطرق،

بكل الأوقات.. لا تفرض عليّ مواضيع معينة أتكلم فيها وأخرى لا.. كي لا نصبح مثل شخص ممتلئ المثانة ومع ذلك يحاول حل معادلة في الرياضيات. أنا أحبك وأنت تحبني وكفى. إن لم تتمكن من الاتصال فلن أزعل. ربما زوجتك تريد الاحتفال معك بشيء. دعها تحتفل بك الآن؛ لأنك في العام القادم قد تكون معي.



بعد أن كتبت لك، رجعت للنوم؛ فالحياة بدونك سخيفة. كان اليوم طويلًا ولا يقبل أن ينتهي. أقاتل ساعاته. أقتل بالقراءة أي مَلل أو ألم أو غَصة.. أما الآن، فأنا عاجزة تمامًا عن فعل شيء؟ الجو بارد، والساعة قاربت العاشرة، ولا زال الألم مقيمًا في ظهري، لولاه لكنت تمشيت قليلًا. الأولاد في البيت. خرج المُستأجِر ولن يعود إلا في منتصف الليل. فإذا عدت قبل الحادية عشرة اتصل بي ولو لدقيقة واحدة. لو اختَليتَ بنفسك للحظة ستشعر بأنك مشتاق إليّ بحجم اشتياقي لك. كن كالنهر يا حبيبي. تعلّم منه الانسياب بلا تعقيدات.. رقراقًا، هادئًا وباذخًا.

أتابع يوميًّا أحوال الطقس في مدن الدنيا كي أطمئن عليك وأستشعر الحرارة والبرودة اللتان تلفانك. كما أتصفح الأماكن المشهورة فيها، فربما مررتَ بأحدها، أو قربه. أخشى أن يكون الجو باردًا حيث تكون، فالبس جيدًا في النهار، وتدثر ليلًا. لست على استعداد لاحتمال المزيد من غيابك.. سأنتظرك. إن هذا الشعور الذي بيننا حقيقي حد رفرفة الروح لأي خاطر؛ لذا يصعب علينا تجاوزه أو إنكاره أو تناسيه أو.. لا أدري..

حبي، أين أنت الآن؟.. تعال كي ندردش قليلًا، حتى وإن كنا لا نقول شيئًا. أتمنى لو أقرأ معك مجددًا كل الذي سبق لي وأن قرأته. أريد منك ثلاثة أشياء: أن نقرأ (دابادا) معًا وأن تهديني لباسًا داخليًّا أحمر وقُبلة.



شكرًا لاتصالك الصباحي. جعلتني جذلة أغلب النهار. كنتُ مع الأولاد كطفلة، نلعب، نمرح، نتمازح، نكركر واشتريت لهم هدايا حلوة. الآن ابني الأكبر معي، ولأنه قد نما وصار مراهقًا تقريبًا فقد كنت أحكي معك بصوت خافت. أنا اليوم رائعة بحيث أن الألم الذي كان في ظهري قد بدأ ينسحب خجلًا من نفسه، يخف ويزول.. مشيت. أحب المشي، أسمع الأرصفة والأوراق المتساقطة وأراقب خطوات العجائز البطيئة. أمشي سريعًا مثل الجنود، لكنني عندما ألبس حذاء بكعب عالي أعرف كيف أمشي بإغراء. المُستأجِر يعرف بأنني مغرية، ولكن صوتك يجنني، فلا أدري كيف تمكنت اليوم من ضبط نفسي.. لو لم أكن في الشارع ربما لخلعت البنطلون بعد العشر دقائق الأولى من حديثنا.. لماذا أشتهيك إلى هذا الحد؟. ماذا أقول؟!.. إنه هو حظي مرة أخرى. ها أنا أشتري بنفسي تعب القلب لنفسي، وإلا فما معنى أن أكون في هذه الإسبانيا الشاسعة المتنوعة بملايين الرجال فيما أتجه إلى حب رجل لا أعرف حتى مكان إقامته؟!!. تُرى هل أنوثتي تختلف كي تحبك كل هذا الحب وبشكل مختلف!. أحيانًا أكاد لا أؤمن بمسألة الحب هذه، على الرغم من أنني، ومذ خلقني الله نُطفة، وأنا أحب. لا أعتقد بشيء

اسمه صدفة محضة. حتمًا هناك مبررات وعوامل اشترك فيها الكون كله ليُلاقينا.



بعد مشاجرة مع المُستأجِر، رفضت الذهاب إلى مأتمهم. فصار يومي لي وابتهجت به. كنت أصعد في باصات وأنزل في أماكن لا على التعيين، لا أعرفها.. وهكذا إلى أن تعبت وجعت فرجعت إلى البيت في السادسة مساءً. كنت منتشية بحبك، صاحية الحواس، خفيفة مثل طائرة ورقية. كنت أنا نفسي؛ لذا كنت أجمل، رأيت ذلك منعكسًا في النافورات وواجهات المحلات ونظرات التماثيل والعابرين. كنت ترافقني طوال اليوم.. حالمة بكل شيء فيك.

أوه، اللعنة ها هم يعودون ويشوهون عليّ وحدتي أو توحّدي بك. ولكنني سعيدة وأشعر بأنك اليوم أقل خشية مني، وهذا يريحني. تخشى الوعد والارتباط وتنسى أن الحب بحد ذاته هو وعد وارتباط، وفي الوقت نفسه تحرر. هكذا يفكر ويقول حسن مطلك: "لا أريد أن أستهلك كلمة (حب) بيننا، وأتمنى أن ترفضي هذا الاستهلاك. إنها كلمة وعد، وكلمة شرف، لم أقلها إلا وكنتُ أعنيها. إنها أكثر من التزام، أكثر من ارتباط بين رجل وامرأة. كلمة شاملة تنوب عن التفاصيل، تنوب عن الشوق والاشتهاء والجنس. تمثل القدرة في تأكيد الذات، تمثل نجاح النفس في عبور أزمة الإهمال، وعبور الخوف المتوقع، وهي الخوف على الحرية من الهدر، وهي عبور الخوف من أن نكون منسيين؛ لأنها وصول إلى إنسانيتنا المتفردة وتأكيدها. وهي هذه الكلمة السحرية كالكهرباء، تقتلنا إذا أسأنا التصرف بها. وهي

كلمة الرجاء والأمل والبشرى بالسعادة. إننا بحاجة إليها لأننا بحاجة إلى مزيد من الأمان.. فانظري حولك: كيف يمكن احتمال العالم بلا حب؟!".

لابد أن نجعل (كتاب الحب) دستورًا نحتكم إليه في بيتنا المستقبلي على ضفاف النيل السوداني أو ضفاف دجلة العراقي.



قدماي صغيرتان. في العراق كنت أتعب بالبحث إلى أن أجد حذاءً على مقاسي، وذات مرة قال لي صاحب محل أحذية: امشي كثيرًا كي تكبر قدميك. علمًا بأن أكثر شيء أفعله هو المشي، لكن قدماي لا زالتا صغيرتين. تقول ياسمين بأنهم في الصين يعتبرون الأقدام الصغيرة علامة جمال. هل تحب المشي؟. أنا أركب قدميّ يوميًا ما لا يقل عن ثلاث إلى أربع ساعات، وهذه العادة ليست هنا فقط، وإنما منذ كنت أعيش في العراق، ومن ثمّ في اليمن وسورية والسودان وليبيا والمغرب، أما في الأردن فإن عمان الجبلية أكثر مشقة، وكان عبود يتعب فأقول له: اجلس على الرصيف وسوف أعود إليك بعد ساعتين أو ثلاث. قرأت ذات مرة عن شيء اسمه فلسفة المشّائين فشدت فضولي، لكنني لم أجد عنها الكثير. آه لو أعرف أين أنت، لذهبت إليك مشيًا مهما تكن المسافة، كما يسير المؤمنون صوب مراقد أوليائهم.

بودي لو أكتب لك أكثر عن علاقتي مع الأشياء الأخرى غير البشر، مثلًا: الحَرب، النمل، الضوء، الملابس، الأكل.. وهكذا. أيعجبك هذا الشيء أم لا؟. شكرًا لك يا حسن فقد جعلتني أرى

نفسي والدنيا من جديد. عليّ أن أقدم لك شكري بطريقة عملية وليس بمجرد كلمات.. أليس كذلك؟.

المُستأجِر مدين لك بالشكر أيضًا، فقد كانت حياتنا الجسدية صِفرًا. ولكن حبك أحياها في داخلي. بعد أن رجعت اليوم فرحانة. أتعرف ماذا قلت له؟ بثقة ووضوح: اسمع، في الصباح كانت المضاجعة لك، والآن يجب أن تكون لي وبالوضع الذي يعجبني أنا، واحذر أن تقذف بسرعة وإلا فلن تلمس شيئًا على مدى شهر من الآن... المهم؛ سمع الكلام.

نسيت أن أخبرك بأن الفيل قد فاجأني، أهداني قصيدة كتبها عني بعد لقائنا الأول. لم أحدثه بشيء عن حياتي سوى ما هو عام، علمًا بأنني لا أتنصل أو أخجل من تجاربي وأخطائي، فهي جزء من عوامل تشكيل ذاتي. وإن كنت أشعر بنفسي وكأنني أحمل قلادة ثقيلة من أخطاء، هي السبب الذي يحول دون انجرافي مع المحيط الذي أعيش فيه. أحب نفسي بكل ما فيها. ليته سألني عنك لكنت أجبته بالحقيقة.. حقيقة حبي لك.

من الأشياء الحلوة فيك أنك تغار عليّ وتتظاهر بالعكس.. أليس كذلك؟. قل الصدق. لا تقلق، فهو ليس بشخصية لا تُقاوَم وليس فيه شيء من دون جوان أو من سعيد الخاطر. إنسان بسيط، غارق في وهم ما يكتبه. أحيانًا تكون شخصية الكاتب أفضل وأشمل من نصوصه، التي ما هي إلا جزء من أوجه هذه الشخصية. وأحيانًا تكون شخصية كاتب أو مبدع ما، لا تُطاق ولا تُعاشر، بينما نصوصه رائعة.. وكأنها لم تخرج منه، لكنها بالتأكيد تعبر عن وجه خفي فيه.

شكرته بالطبع على الكتب والقصيدة، ولكن، تريد الصدق؟. لا يعجبني أن يجاملني أحدهم بقصيدة إطراء تافهة، وإنما يعجبني النص الذي يأخذ عقلي حتى وإن كان يشتمني. أريدك أنت، ولو كنت معي الآن لقرأناها، ولفتحنا أي واحد من كتبه، على أية صفحة، ثم نعلق ونصيح متهكمين ضاحكين. تحاول إسكاتي ولا أسكت، أعاند وأشاكس أكثر.. أتدري ما هو الحل معي عندها؟.. بوّسني فقط. أينك حبيبي كي تتذوق الخباثة الأصيلة؟ فإذا كان الأب والأم من أصول ذئبية مجنونة، فلك أن تتخيل الابنة الكبرى كيف تكون! أنا بذاتي قبيلة مجانين كما قال بحرالدين. حتى في زمن الطاغية كنت أقول بعلو صوتي: أنا.. أنا رئيسة جمهورية نفسي وقائدة قواتها. كان الزملاء في الجامعة يدعونني ببنت الأستاذ، وأنا أقول ابنة الذئب.

أحيانًا أفزّ في منتصف الليل بَردانة لأنني لا أتغطى. أعطس وأقول: آمل ألا يكون حبيبي بَردانَ الآن. أحبك أنت أما بقية الناس فهم مجرد أشخاص، مجرد ظلال، ومثل الطقس؛ نضطر لتحملهم والتكيف معهم بالوقاية منهم.



اتصلت أختي من العراق، وضعهم مزرٍ، وليس لديّ سوى الدموع. طفلتها ذات الأربعة أعوام مريضة، وينتقلون من مكان إلى آخر خوفًا من الميلشيات المتقاتلة. لا أطباء ولا نقود حتى لاستخراج جوازات سفر لهن، وكل شيء هناك الآن بالرشوة أو التزوير.

اتصلت بي اليوم زميلتي البرتغالية في دروس اللغة، وقالت إن

هناك فرصة عمل قد تنفعني، بضعة ساعات في اليوم، في محل خياطة يدفع على القطعة. سأتصل لاحقًا وأستفهم. تريد الصدق؟.. ليس لي رغبة بالشغل.



أنا مُتعَبة هذا اليوم. طبخت ما يكفي لعشيرة. تخيّل أن يومي كله في المطبخ وأنت في المتنزهات أو المكتبات.. أية مفارقة هذه، وأية قسمة ضيزى!. ومع ذلك نحن مع بعضنا.

سينتهي عزاء عاشوراء وتصبح فرص الانفراد بالإنترنت ليلًا نادرة. لا تعتذر عن تقصير منك تجاهي، فأنت قد قلبت حياتي، حوّلتني من بقايا إنسان إلى امرأة فائقة الجمال. لا تهتم حبيبي. سأكتب لك وأتصل بك وأتحدث وأحلم بالنيابة عنا نحن الاثنين، أو الأصح نحن الواحد. يوم سمعت صوتك سكتت صرخات غربتي وانسحبت. كل صمتي تبدد. لقد غسلت روحي أيها الروح. فلا تزعج نفسك الآن بهذا الشعور. اطمئن فما تبقى من عمري هو كله انتظار لك. وكما يقول حسن مطلك:

"إنني أهيئ نفسي لقفزة الافتراس.

قريبة هي الساعة التي سأُعلن فيها

لكل شيء: وداعًا..

ولكل شيء: مرحبًا".

.. أبوسك وأذهب الآن لأستحم وأستريح، لأنني فعلًا تعبت، ولا زالت رائحة الطعام تفوح من شعري وثيابي. تصبح على حيوية وحب.

- ١٧ -

عين إلى الداخل

أنا

في مدريد، ومنذ أول نزولي في المطار، هالتني رؤية الذكور والإناث يقبلون بعضهم من الشفاه علنًا، دون أن ينظر إليهم المارة. وتخيلت كيف سنفعل ذلك أنا وهيام.

أقمت مع عبدالهادي وأحمد في شقة صغيرة وسط المدينة، ليس فيها سوى غرفة نوم واحدة، لاصقنا فيها أسرتنا. أحمد كاظم الذي عرفته منذ أعوام، حين زرت بيت عبدالهادي في بغداد، فهو جاره وصديقه منذ الطفولة، كان أطولنا قامة وأكثرنا أناقة ووسامة. تَخَرَّج من الكلية الرياضية، أفضلنا في الطبخ وفي علاقاته بالنساء أيضًا؛ لذا كنا نضطر للخروج إلى الشارع ونوم القيلولة أو الليل في الحدائق كلما نبهنا إلى أنه سيأتي بامرأة إلى الشقة. فكنا نبتزه أحيانًا بألا نخليَها له إلا إذا أعطانا مصاريف ما سنشربه في الخارج، ولأنه أكثرنا شغلًا وعملية كان يدفع لنا وهو يمطرنا بالسخرية والشتائم، فنخرج ضاحكين وداعين له بالمزيد من النساء.

كنا نتشارك ونتعاون في كل شيء. الذي يجد عملًا منّا يتكفل

بمصاريفنا جميعًا. ابتدأت أنا من توزيع الكتب والرسائل التي بعثها معي البياتي، وبالتالي التعرف على المهتمين بالثقافة والأدب من العرب والمستعربين وبيعهم نسخًا من كتابي وفق الأسعار هنا. ومن بينهم، تعرفت على الإعلامي السوري مزاحم العبدالله الذي كان شعلة من نشاط، حيث يعمل في السوق كبائع في أحد المحلات، وفي أوقاته الحرة يواصل دراسته للسينما، كما يقدم مجانًا برنامجًا تلفزيونيًا أسبوعيًا باللغة العربية، خاصًا بشؤون المهاجرين، اسمه (نافذة المغترِب)، في قناة محلية اسمها (كواترو كامينوس)، يغطي بثها المنطقة الشمالية من مدريد. دعاني لإجراء لقاء معي في برنامجه. ومن حينها تعززت صداقتنا حتى اليوم. بعد البرنامج، اقترح عليَّ مشاركته في الإعداد والتقديم؛ لأن القيام بكل شيء بنفسه يتعبه، عدا أنه يحب الإخراج الذي درسه، ومن خلال البرنامج سيعرفني على المزيد من المهاجرين العرب، فوافقت طبعًا. لاحقًا اقترح عليَّ إقامة أمسية في تجمع لهم اسمه (النادي الثقافي العربي)؛ للحديث عن الأدب العربي الجديد، وتقديم كتابي أيضًا. ولأنني لم أكن أعرف الإسبانية فقد طالت أمسيتي أكثر من ساعتين بسبب مضاعفة الترجمة لوقتها، ورأيت بعض كبار السن ينامون في مقاعدهم الأمامية مستلذين بخفوت ضوء القاعة وهواء المكيفات.

سجّل مزاحم الأمسية كلها، إضافة إلى لقاءات مع الحضور بعدها، فنفعنا هذا التسجيل للاستراحة من إعداد وتقديم البرنامج لثلاث حلقات، حيث تركنا شريط التسجيل للكونترول وغادرنا حتى ما بعد ثلاثة أسابيع. ولأنه يعمل في أحد محلات البيع بالجملة في الحي الذي يتجمع ويعمل فيه أغلب المهاجرين (حي لابابييس) الذي تشير إليه هيام في إيميلاتها، طلبت منه أن يجد لي أي عمل هناك وبأي ثمن.

وهكذا، رحت أعمل في محل لتاجر مصري، ولأن إقامتي كطالب لا تسمح لي بالعمل ساعات كاملة، ولأن عقود العمل تكلف صاحب المحل دفع ضرائب للضمان الاجتماعي وغيره؛ فقد اتفقنا على أن أعمل بنصف دوام، حتى الرابعة مساءً، وبشكل غير قانوني، بلا أي عقد، مقابل مبلغ شحيح، فرحت أستغل المساءات لدراسة اللغة وتقصي المعلومات والسبل التي من الممكن أن تقودني إلى هيام.

درست في مدرسة اللغات. طُفت على الكنائس التي تُعلم الإسبانية للمهاجرين. صرت أحضر كل الأنشطة والأماسي الثقافية التي يقيمها المعهد المصري. تعرفت على المزيد من العراقيين.. وبشكل غير مباشر أسألهم فيما إذا كانوا يعرفون شخصًا اسمه عبود؛ دكتور وله ثلاثة أبناء وأخت هنا، وزوجها لديه محل؟ فكانت الحوارات تطول دون أن يكون لأي منهم معرفة حقيقية وأكيدة بشخص كهذا.. فيقول ربما تقصد فلان أو فلان الذي كذا وكذا. رحت أزور الحسينية وأتعرف على مرتاديها، قيل إنها ثالث حسينية تم تغيير مكانها في العام الأخير فعاودت مواقع الحسينيات السابقة دون جدوى. ترددت على مساجد مدريد في أيام الجمعات وفي الأعياد حيث الصلوات الجماعية.

سألت عن شخص ناقد يلقب بالفيل فلم يسمع به أحد؛ لأنهم لا يعرفون مهنة تسمى ناقدًا، وذكروا لي شخصًا كان يهتم بالشِعر والكتب، ولكنه انتقل إلى هولندا؛ لأن ظروف اللاجئين والمهاجرين هناك أفضل. حدّثوني عن آخرين انتقلوا الى السويد أو الدنمارك أو ألمانيا أو بلجيكا للسبب نفسه؛ لأن إسبانيا صعبة من حيث قوانين الهجرة وفرص العمل، ولا تمنح جنسيتها إلا بعد عشرة أعوام من الاقامة. سألت عن طبيب نفسي موريتاني، فنظر إليّ كل من وجهت اليه هذا السؤال نظرة ريبة واستغراب،

وربما عدم ارتياح، فهم لم ولا يفكروا أبدا بزيارة طبيب نفسي؛ لأن مجرد ذكره بينهم سيصم الشخص بأنه مختل عقليًا أو مجنونًا، وتسوء سمعته... بل حتى رحت أبحث عن أي هندي لديه محل ويبيع البهارات في الحيّ، فوجدت أن أغلب الموجودين هنا، ممن لديهم محلات أو مطاعم هندية، هم في الحقيقة كلهم من بنغلاديش وليس فيهم أي هندي أصلي من الهند.

اقترحت على عبدالهادي أن نصدر مجلة ثقافية، عسى أن نتمكن من تكوين جو ثقافي هنا وتكون جسرًا للتواصل مع أصدقائنا في داخل العراق وخارجه، ومع العرب، ومحاولة نشر الجديد من الأدب الأسباني، ولتكن فصلية، وحتى إن تأخرت، لا بأس أن نصدرها كلما جمعنا مبلغًا يُمَكننا من طباعة عدد وتوزيعه في البريد. اخترنا لها اسم (ألواح). الأسباب الخارجية والموضوعية كثيرة لفعل ذلك؛ لذا لم أجد صعوبة بإقناعه، بينما كان أحد أهم أسبابي الداخلية هو؛ علّ المجلة تكون سبيلًا للوصول إلى هيام، أن تسمع بها أو تقرأ خبر صدور أعدادها في الصحافة أو يقع عدد منها في يدها؛ وهي المهتمة بكل ما هو ثقافي. كنت مع صدور أي عدد أتوقعها تطل عليّ في المحل الذي أعمل فيه، أو توصل رسالة شفوية مع أحد ما؛ ذلك أننا كنا نوزعها هنا بأيدينا على كل من نعرفه، سواء أكان مهتمًا بالأدب أو لم يكن.



هي

صباح القرى البعيدة ودفء بساتين شواطئ دجلة.

ربما لو التقينا فلن نستطيع الافتراق ثانية. الجو بارد. ومع ذلك

خرجت للاتصال بك من الخارج و لم يرد هاتفك. كانت السماء تثلج والبرودة شديدة لكن حبّي لك أشد من البرد. ابني الأوسط مريض، أصابته نزلة برد ولن يذهب إلى المدرسة اليوم. اشتريت بطاقة اتصال وأنا محتارة كيف أسمع صوتك على راحتي وهو موجود في البيت. ربما سأعاود الاتصال بعد أن يغفو... أشعر بسخونة وصداع، يصعب عليّ التركيز، ربما انتقلت العدوى إليّ منه. قد أكون أهذي الآن. كنت أريد أن أقول لك أشياء كثيرة.. نسيت.. أنت تلاحظ الوضع المفروض عليّ.. إنه استنزاف حقيقي للوقت والجهد. محاباة ومجاملات سخيفة طوال الوقت.. وبالنتيجة، تمضي الأيام من عمرنا هدرًا لمجرد إرضاء الآخرين، الذين لن يرضوا أبدًا في نهاية الأمر.

أحتاج مزيدًا من الوقت لتعلّم اللغة، بالإضافة إلى قراءة المتاح، لكنك ترى هذا الاستنزاف للزمن.. لا تقل لي لتكن علاقتنا ثقافية وحسب.. وإذا ما قررت أنت ذلك وحدك سوف أخترع حسنًا آخر في الكومبيوتر أو الحلم وأستمر معه.. ربما أنت بلا مبرر لتحبني، أما أنا فمليئة بالمشاعر والطاقة، أين سأذهب بها؟.. غدًا سأبعث لك بمقالة عميقة عن الحب. لديّ خزين من الأفكار لمقالات وعناوين لقصص ومواضيع شتى.. فأنساها أحيانًا لزخمها.

أحب نفسي كثيرًا، و لم أشعر أبدًا بالغيرة من أحد. مكتفية بذاتي دائمًا ومشغولة بالنظر إلى عمق دواخلي بحيث أدهش أحيانًا من اكتشاف أشياء تكون غير معروفة أو مرئية لي، وفي الوقت نفسه أحب مشاهدة الناس أكثر من الحكي معهم. بالأمس مثلًا، كنت أشاهد وأحلل الناس والأشياء وصولًا إلى ما لا أعرف ما هو!. لا تسألني ربما هو... وأيضا لا أعرف.. كل شيء عندي هو موضوع يصلح

للكتابة، الموجودات من كائنات حيّة وأشياء وأخرى خيالية لا وجود لها إلا في الرؤوس والكتب وارتباطاتنا بكل هذا وغيره.. ومثال ذلك بكائي على النعل الذي انقطع، كما بكيت على جرة صغيرة سقطت وانكسرت أثناء التنظيف، وهي التي كانت مهمَلة لأعوام على الرف الأعلى يغطيها الغبار، لكنني اعتدت وجودها.. أسمع ضحكتك. هذا ما حدث. كلنا لدينا المشاعر ذاتها بالنتيجة، والامتلاك للأشياء يكون متبادلًا، فمثلما نمتلكها هي أيضا تمتلكنا بشكل ما.

ربما أكون اكثر عقلانية الآن بعد مراجعتي لنفسي ليلة أمس.. أو مضطرة أن أكون عقلانية.. لست مقتنعة بذلك.

لحظة.. عندي سؤال؟ هل كان حسن مطلك يعرفني؟ فهذه هي المرة الثانية التي أجد فيها أحدًا يكتبني، المرة الأولى كان هرمان هسه، والثانية حسن مطلك. فقبل أن أكتب لك عن الامتلاك المتبادل بيننا وبين ممتلكاتنا لم أعرف أن حسن قد تطرق لهذا الامتلاك. اليوم طبعت صفحات من كتاب يومياته (العين إلى الداخل) وقصائده التي في مدونته، وعندما بدأت أقرأ، اندهشت.. مثلًا.. "مَن يعرف عالم الحشرات السري، عوالم أخرى تحيا فيها الأشياء التي نظنها جمادًا؟".. وأشياء أخرى وأخرى، أتعجب أنه ينتبه لأشيائي، لابد أن نقرأ سوية كل كلمة كتبها حسن مطلك..

أما بشأن تساؤلاتك عن مساوئي؛ فأجيبك: لا أتذكر.. لا أعتقد.. لحظة.. كسولة، ليس كثيرًا، ولكنني كسولة. طيبة أكثر من اللازم، وأخجل، فأجامل على حساب نفسي، ثم أندم لأنني أدرك أنه لا أحد يستحق. متهورة وأخترع المغامرة إن لم أجدها. لا أتعظ ولا آخذ دروسًا من تجاربي السابقة؛ كأنني جديدة دائمًا. وماذا بعد...؟ لا

أدري، بل حتى هذه لا أعتبرها مساوئ، فكل ما فينا هو جزء من إنسانيتنا وأبرزها الضعف.

بعثت لك صورًا ليست حلوة، مفتعلة.. وضحكت على نفسي عندما رأيتها، فأنا أنقى بكثير من هذا الافتعال المخصص لالتقاط الصورة، ولأنه ليس مسموحًا لي أن ألبس هذه التنورة، لبستها لك، وغير مسموح لبس التيشرت فارتديته.. يعني فعلت بعض ما أتمناه، وأنت كل الذي أتمناه.. سوف أخرج لأتمشى بعد قليل، تعال معي. كي لا نحرق عمرنا كله بالأمنيات وحين تتحقق لا نصدقها.

صباح اليوم عبَرت حدائق جديدة، كانت ممراتها زلِقة بسبب الجليد. كل يوم عندي رحلة إلى دواخلي وفي عيون الآخرين. أتمنى أن تشاركني كل شيء. أردت سماع صوتك، لكن عقلي نهرني بقوة مخافة إحراجك. كنت ألح عليه مثل طفلة وأقول له إنني أحبه، لكنه يجاوبني بصوت مسموع: اخرسي، ألا زلتِ تحبين؟ وأرد: ربما هذه هي المرة القاتلة. ويرد: أخاف عليك... وهكذا كنا نتجادل فيما أنت بعيدًا، ربما تعرف وربما لا تعرف.. رفقًا بي يا حبيبي، فما أنا إلا بنت مسكينة، يتيمة ومنفية ووحيدة، بعقل مضطرب مكتظ بغابات الخيال، وبقلب بحجم الكرة الأرضية يضج بالبحار والمحيطات التي لا تهدأ أمواجها. أحبك لدرجة تخطت الخيال، وأشعر بأننا نذوب ببعضنا بهدوء كقطعة سكر في قدح شاي، نذوب شوقًا وشبقًا وعشقًا، وآخر خمسين سِنتًا في رصيد الموبايل بعثت لك بها رسالة. لم أتمكن من منعِ نفسي من إرسالها. أفكر أيضًا بأن أبعث لك هدية، فساعدني قليلًا باختيارها. بعد أقل من نصف ساعة لدي دروس فيما أنت ترفض الخروج من تفكيري، إنك تستحوذ عليّ بشكل كامل، كما أنني لم

أطبُخ و لم أنفُخ.. ولا أدري ماذا سأطعم هؤلاء عندما يعودون من المدرسة. في الأسبوع القادم عندي امتحان لغة شفهي شامل، وأعتقد بأنه سيكون أصعب بكثير من الامتحان التحريري. سوف أحاول أن أكون سريعة بتعلم اللغة تحسبًا لأي طارئ.



صباح الخير حبيبي.

حسن، دعني أقُل لك شيئًا. لا يعجبني الرجل السمين أبدًا، فهو يبدو لي مثل قصيدة تفتقد للشعرية وتضيع روحها بين طيات الشحم، إلا أنني سوف أموت عليك أنت كيفما تكون.

مساء أمس تحدثت مع طبيبي النفسي في الهاتف لأنني لم أتمكن من زيارته هذا الأسبوع. قال: أخشى أن حالتك تسوء، ومن رأيي أن تحاولي الخروج من عالمك الداخلي وتكوني أكثر واقعية. فقلت له: وما أدراك أنت بعوالم النفس ودروبها يا شنقيطي يا صحراوي؟ فقهقه وقال: بالعكس، فكوْني كذلك يزيد من معرفتي بها، فالذي يعرف الدروب وسط رمال شاسعة تمحوها الرياح كل ليلة، والدروب بين النجوم البعيدة؛ لن يصعب عليه معرفة دروب عالم صغير مثلك. قلت له: هذا جواب ذكي، ولكنك لن تقنعني به قبل أن تقنعني بشاعر واحد من بلد المليون شاعر. فقهقه مرة أخرى وقال: أعدك بذلك، فقد وصلتني شرائط جديدة لقصائد نسائية موريتانية ستدهشك. ثم قال جادًّا: عليكِ أن تتعلمي محبة عالمك الواقعي ومحيطك أكثر، بدل مواصلة التيه في شعاب عوالمك الداخلية ومتاهاتها التي تبدأ بك وتنتهي بك. ليتك ترين نصف الكأس الملآن في وضعك الواقعي الذي

هو أفضل من أحوال ملايين النساء في بلداننا، ومنها العراق تحديدًا. فأجبته بعبارة حسن مطلك: "لا تقارَن الخسارة بسواها".. فسكت.

رغم البرد الشديد، خرجت أتمشى، وحدي، كالعادة، ورجعت بعد أن دمراني؛ البرد والوحدة. أنا المسكونة بالعناد والمكابرة تشطرني الوحدة. وددت الاتصال بك لكنني لم أشأ أن تشعر بأني أحاصرك بمشاعري، وهذا عقلي الطيب قال لي: أحبي بهدوء، ولا تحوّلي فكرة الاتصال إلى قضية. المهم، عقلت وتمشيت كثيرًا ورجعت، وعند أول فتحي للكومبيوتر رأيت صورتك في أحد المواقع فارتعشت من فوق إلى تحت.. كأنني ممسوسة بتيار كهربائي، كأنها لذة الجسد بعد حرمان مديد، كأنني رأيت أهلي مرة واحدة. أبصرتُ الصورة كبيرة بحيث تمتد بعض أطرافها خارج الشاشة، كانت أهم من الكتابة التي ترافقها.. وكأنها نَص بحد ذاتها، فرُحت أقبل اليدين. لا أدري لماذا أتخيل يديك كثيرًا، وقلت: أَمِنَ المعقول أن يرضى هذا بمسك سيجارة بيده في الوقت الذي فيه وجهي وأصابعي موجودة في هذا العالم! ليلقها ويأخذ وجهي بين كفيه ويمد شفتيه ليقبلني بدل هذه السيجارة اللعينة، ليتناول نهديّ بكفيه ويمد لسانه يداعبهما. لقد اشتعلت غيرة من السيجارة، أعترف. وفي النهاية قلت: لا بأس، أنا والسيجارة والزمن طويل، ولسوف نرى من منا ستزيح الأخرى عن عالمك.. وإلا سأتحول أنا إلى سيجارة تُحرق نفسها كل يوم ثم تلملم رمادها لأجل أن تعاود الدخول إلى جنة صدرك.

يا أنت يا حسن، إنني أعرفك كلك بدقة، وأعرف حتى خطوط راحة كفك.. وسأعرف حتى كم شَعرة في جسدك.



مساء العسل على عينيك الحلوتين.

أتمنى تقبيلهما، مَسح التعب والإزعاج والسأم عنهما. أحبك، سعيدة بحبك حتى وأنا تحت وطأة شعوري الحاد بالوحدة ولكن، إن الله كريم، والحب كريم. ماذا أريد أن أقول؟

بالطبع أتفهمك، وأستغرب محاولاتك للسيطرة على مشاعرك. ليتك تفكر بعقلي؛ عقلي الخاص، وليس بالعقل الجمعي الذي لا أدرى من أين توارثناه، عندها سترى بأنني على حق. لا أريد الضغط عليك بالإلحاح يا حبيبي لكن الإنسان عمومًا هو كائن طماع والعاشق أكثر طمعًا.

أنا وحيدة، وهذه الوحدة لا يملؤها صديق أو ولد.. وحده الحبيب من سيملؤها بحق، وهذا الرجل الذي أعيش معه رجل طيب، وأحترمه، ولكننا لسنا لبعضنا، وهو يعي ذلك تمامًا؛ لذا فهو دائم الشك. ليس الشك بالأخلاق فقط، وإنما الشك بأنني في يوم من الأيام سوف أقول له وداعًا، ويبدو كمن يتوقع هذه اللحظة بجزع.

بعث لي الفيل رسالة، مسحتها سريعًا. كانت فيها قصيدة قديمة عنوانها(.. إلى هيام)، من قصائده في أحد المواقع، وفيها أشواق وغزل. لا أدري لمن كتبها في حينها، وأدري لماذا بعثها، فنماذجه من المثقفين والشعراء ليست جديدة علي، وما أكثرهم أولئك الذين يظنون بأن كلمات لغوهم ساحرة وستأتي إليهم راكضة أية امرأة تسمعها.

بالتأكيد نحن نحتاج للأصدقاء، وقد عرفت أصدقاء رائعين، أتذكر بعضهم باعتزاز أكبر من اعتزازي بتجربة حب فاشلة، لكن أكثر الناس، وأعتقد بأنه واحد منهم، لا يستطيعون التعامل مع امرأة

على أنها صديقة فقط، فيبقون يتململون ويلمّحون لحكاية عاطفية هي خالية من العاطفة أصلًا، وأهدافها معروفة سلفًا.. بالنسبة لي أستطيع أن أُعَلِّمه كيف يعتبرني صديقة.. ولكن ليس لديّ مزاج ولا وقت لذلك. كل ما أريده منه -الآن- الكتب، وقليل من التواصل.. تفهمني أليس كذلك؟ إنه لمن الصعب إعادة تربية الآخرين وأن نفرض عليهم ما نريد. إنني أرى مسار هذه العلاقة ونهايتها قبل حدوثها، سنذهب اليوم لزيارة معرض تشكيلي لمجموعة فنانين من المكسيك، ودعوت جارة أرجنتينية أن تأتي معنا، فهي تحب الرسم.

رسالة أخرى أهم وصلتني هذا الصباح من يوسف، وقد كانت آخر رسالة منه منذ عام ونصف تقريبًا، فأعطيته رقم هاتفي؛ لأن أناسًا مثله يكون سبيل التعبير عندهم ومعهم عبر الكلام الشفهي، وليس عبر الكلام المكتوب مثلنا. أحيانًا أشفق على هؤلاء، وأحيانًا أحسدهم! يوسف يبدو بريئًا، أو هو بريء فعلًا. في الحقيقة ليس هناك شيء أو أي كائن بريئًا تمامًا في هذا العا لم.. ويبقى مفهوم البراءة نسبيًّا، غامضًا وجذابًا مثل مفاهيم أخرى كثيرة، بما فيها مفهوم الحب نفسه.

هل أخبرتك من قبل بأنني مؤمنة بالله كثيرًا، وأؤمن بأن سلوكياتنا وحياتنا هي تمهيد ودروب تقود لما هو لاحق؟ لذا أكون مطمئنة لحظتها بشكل هائل.. طمأنينة متصوفة. أحيانًا أخرى أفكر كثيرًا بما قاله الشاعر/الشعراء البرتغالي فرناندو بيسوا: "لم أعرف قَط كيف أُحب.. عرفتُ فقط كيف أحلم بالحُب". وأفكر بكيف أنه عاش وكتب بشخصيات وأسماء مستعارة عديدة، وهو واحد، وأوجه الشبه والاختلاف بينه وبيني في ميدان الانفصامات الشخصية هذا. هو نجح فيها كلها، فماذا عني؟.. لكنه، وهو صاحب (كتاب

اللاطمأنينة) يطمئنني بقوله: "أنا لا شيء، ولن أكون أبدًا شيئًا، ولكن بخلاف ذلك، أنا أملك بداخلي كل أحلام العالم."

لا زال عندي حديث لك عن الجسد أيضًا. أنت تفهمني، مثلًا؛ تجربتي مع زكريا، على الرغم من أنها غير مكتملة، لكنها بقيت مثالية في نظري.. سأحدثك عن تفاصيلها لاحقًا، كما أود أن أفصّل لك أكثر عن ذلك الخُبث المرير التافه... أنا بريئة، أو الأصح غبية أحيانًا أكثر من اللازم، أما هذا الزوج المستأجر فالعلاقة به لا تستحق حتى أن تسمى جسديّة؛ لأنها آلية، وخالية من أي حس، تشبه إدخال الإصبع في منخر الأنف لاستخراج المخاط.

لذا فلا تعجب أن تكون تجربة جسدي محدودة جدًّا، إلى حد الانعدام تقريبًا، فكنت ولا زلت أعتمد على خيالي وأمارس الحب مع نفسي. أقسم أن هذه هي الحقيقة وسوف تعرفها بنفسك. أحيانًا أفكر بأن النساء في الحقيقة لا يرغبن بالجنس لذاته وإنما للعاطفة التي تصاحبه؛ أي كما قال أحدهم، لا أتذكر من هو، أو ربما هي عبارة بقيت عالقة في ذهني من أحد حوارات الأفلام الكثيرة التي شاهدتها في حياتي، بأن المرأة تَمنح الجنس للحصول على الحب، وأن الرجل يَمنح الحب للحصول على الجنس.

اتصلت ياسمين. كانت قلقة وتبكي تقريبًا لأنها اكتشفت بأن الدكتور هاني الاسكندراني، قد أصدر كتابًا منذ تسعة أشهر، دون أن يخبرها عنه شيئًا، واضعًا صورتها على الغلاف، وساردًا لكثير من تفاصيل علاقته بها. أزعجتني قليلًا، لا زالت مضطربة بشأن ما قد يكون كتبه، فهي لم تطلع على الكتاب بعد، وإنما قرأت عرضًا صحفيًّا عن صدوره، وشيئًا عما يحتويه، مع صورة للغلاف. تقول:

وماذا لو أنه ذكر كذا وكذا؟. وماذا لو وصف كذا وكذا؟.. وهكذا.. افتراضاتها تقلق فعلًا، ومنها؛ تفترض أنه ربما يكون قد كتب عن محاولته جمعنا أنا وهي في فراش واحد... أوه.. لا أدري، أشعر بأنها أصابتني بعدوى انزعاجها فأزعجتني.

إنها مستاءة جدًّا. لا بأس، سأعرف كيف أتعامل معها، فأنا أفهمها تمامًا، وأجيد توعيتها بنفسها أكثر. حاولت تهدئتها ببعض الكلمات، كالحديث عن أهمية ما فعله وما رواه عن حبه لها في كتابه، أن تنظر للأمر من جانب صدقه وعمقه لا من جانب سطحيته التي تخشاها وتسميها فضيحة، وقلت لها أتمنى أن يفعل ذلك معي من يحبني بحق ويؤرخ لحظاتنا كي لا تموت حتى بعد موتنا، وبهذه المناسبة أيضًا، أخوّلك أنت أن تفعل ذلك إن شئت... هذا حديث يطول، وعليّ أن أطبخ الآن. يوما ما سأطبخ لك وحدك أحلى (دولمة) بحياتك.. لذيذة، بحجم أصابعي ورشاقتها.

.. دُمتَ لي.

- ١٨ -

دُروب عَودة

أنا

على مدى قرابة ثلاثة أعوام، لم أترك أية إشارة في رسائلها إلا وتتبعتها، ولا شخصًا، ربما يكون قد عرفها أو عرف زوجها، إلا وتقربت إليه ووضعت خططًا لاستدراجه بالحديث... كنت أشبه بمحقق جنائي، أحمل معي دائمًا دفتر ملاحظات صغير لتدوين كل ما يتعلق بالبحث عنها، بينما لم أفكر أبدًا في حملِ دفتر كهذا لتدوين ما يتعلق بمشاريعي الكتابية مثلًا، كما يفعل جل الكتاب. كنت أمارس حياتي العلنية كأي مهاجر يسعى لترتيب وضعه المعاشي من عمل وسكن، ووضعه القانوني من أوراق الإقامة وما إلى ذلك، لكن موضوعي الرئيسي الذي يشغلني ليل نهار هو الوصول إلى هيام، فمن أجلها جئت أصلًا، من أجل الحُب الذي سيكون أساسًا لبناء كل حياتي اللاحقة.

صديقاي عبدالهادي وأحمد كانا يتعرفان على النساء واحدة إثر أخرى، يقيمان ويعيشان علاقاتهما ويُعرفانني على صديقات صديقاتهما، يحثانني على أن أكون مثلهما ومثل بقية الناس هنا؛ لي صديقة أو حبيبة أمضي معها أيام العطل والمساءات والليالي وأمارس

معها اللغة والحب وأعيش حياتي، لكنني كنت أتملص من كل ذلك على أمل أن أجد هيام. تعرفت على أكثر من امرأة عربية أو إسبانية وسرعان ما أنسحب حالَما أجد أن العلاقة صارت تدخل في باب الجدية باتجاه بلورة مستقبل لها.

في مدريد، أكملت روايتي القصيرة (الفَتيت المُبعثر) التي بدأت كتابتها في الأردن، كما جمعت النصوص القصصيّة الجديدة في كتاب (أوراق بعيدة عن دجلة)، وكانت بالفعل تختلف تمامًا عن كتابي الذي نشرته في الأردن؛ حيث تزخر هذه بشعور الغربة والحنين الذي عانيته كمهاجر في البدايات، لغة وتقنية مختلفة وحرة ومكثفة. بعثت ببعض المواد الصحفية والترجمات إلى مؤنس وخيري وباسل ونشروها. كتبت العديد من القصائد عن أوجاع العراقي المغترب وأوجاع عِراقه، وما كان منها عن الحب، كلها تقصد هيام، آخرها قصيدة دوّنتها على قصاصة منديل ورقي سحبتها من علبة على طاولتي في أحد المقاهي، بعنوان (حُب وحيد)، أبدؤها بالقول: "يا امرأة أنهكها البحث عن حُب وحيد ولا زالت وحيدة".

ذات ليلة صيفية من ليالي مدريد الأخّاذة، في المقهى الخارجي ذاته، المطل على وادي نهر (المانثاناريس)، حيث تطيب الأحاديث ويسهل البوح، وبعد أن كان معظم حديثنا تساؤلات: ماذا عن مستقبلنا الاجتماعي؟ العمر يمر والعراق لا تتحسن فيه الأوضاع، هل الأصح أن نتزوج إسبانية أو عربية من هنا، أم نجلب زوجة عراقية من هناك؟ هل ننتظر قصة حُب أم نتزوج وفق ما يتناسب مع ظروفنا؟... بحتُ لهما بالحكاية كلها، فأطلنا الحديث عنها وتقليبها حتى ساعة متأخرة من الليل، وصارا بعدها يساعدانني بالتحريات وتقصي المعلومات.

بمشاركتهما لسري هذا، وبإمكانية التفكير والحديث عنه بصوت عال أمامهما، شعرتُ بتخفيف هائل عن كاهل روحي، ولكن، كلما اعتقدَ أحدنا بأنه قد توصل إلى طرف خيط ما وسرنا فيه.. ننتهي بعدم الوصول إليها.

وفي صيف العام التالي، في المقهى ذاته، بعد أن وجدا صعوبة بإقناعي لثنيي عن هذا الأمر ونسيانه، كان رأيهما أنه لم يبق أمامي إلا حل واحد. قال أحمد: تعود إلى العراق وتبدأ التقصي من هناك؛ لأن المعلومات التي في إيميلاتها عن حياتها في العراق أكثر والوصول إليها أسهل، سواء عناوين البيوت التي ذكرتها، المعهد الفرنسي، قاعات الفن التشكيلي، أسماء المثقفين الذين ذكرتهم، الكليات التي درست فيها، وغير ذلك. أعتقد بأنه من السهل جدًّا الوصول إليها، والحصول على معلومات؛ بما فيها عنوانها الحالي، من معارفها هناك.

وأضاف عبدالهادي: وإن لم يوصلك إليها بحثك عنها في العراق، عندها لا يبقى أمامك سوى حل أخير، وهو أن تعمل قليلًا على صياغة إيميلاتها وتنشرها كرواية، بعنوان يخصّها، ويلفت انتباهها هي بالتحديد، بحيث أنها حالما تسمع به، تسرع باحثة عن الرواية، هذا عدا أن الأمر سيصل إليها حتمًا من خلال أحاديث الوسط الثقافي هناك عن الرواية، أو من خلال الأخبار والمقالات عنها في الصحافة، وبعدها تكون بانتظارها أنت، فمثلما كتبَت هي ما عندها وركنت إلى انتظارك، تنشر أنت ما عندك وتركن إلى انتظارها.

صمتُّ طويلًا، وبعد تفكير، أو مزيد من تأجيج الأمل والحلم، اقتنعت، وقررت فعل ما اقترحاه. أن أعود للعراق بحثًا عنها، قبل أن يختفي البلد الذي اسمه عراق برمته وسط تناحرات الطائفيين

والقوميين وأصحاب المصالح الشخصية، المدفوعين بمصالح قوى خارجية. وإن فشلت بالوصول إليها، سأنشر الرواية بعنوان: (ابنة الذئب)، الاسم الذي تحب أن تسمي نفسها به، أو بعنوان أكثر وصفًا لها: (ذِئبة الحُب والكُتب).

اشتريتُ هدايا وحجزت طائرة العودة إلى الأردن لأنني فكرت بقضاء يومين هناك، أمر فيهما على كل أصدقائي ومعارفي، أسلم عليهم وأعرف أخبارهم، ثم أذهب بعدها إلى العراق عِبر الطريق البري الذي خرجتُ منه، وخرَجت مِنه هيام وملايين العراقيين الذين تشتتوا في بقاع الأرض، أو ماتوا في المنافي، أو أكلتهم أسماك بحار بلدان أخرى... أو عادوا... إنني إذًا لمن العائدين.. حُبًّا.



هي

وأخيرًا، حصلت أختي على الطلاق بعد أن دفعت ألف دولار. الفلوس اللعينة تروح وتجيء، لكن الإنسان وأيامه لا شيء يعوضها. أية طريقة مثيرة للسخرية هذه التي اخترعها الإنسان للتعامل مع إحدى أهم علاقاته!! أقصد الزواج، يبدأ بعقد فيه مال وينتهي بفك العقد بالمال.

كما تلقيت رسالة من صديقي (حَبّة المِسك)، الذي تسعدني رسائله حتى وإن كانت مجرد تحيات عادية.. ياله من إنسان رائع.. راقٍ، مهذب، ومبتسم دائمًا رغم كل الصعوبات والأحزان التي تمر به، وكنت كلما سألته: لماذا تضحك؟.. يضحك أكثر.

سنوات الزمالة الدراسية رسخت صداقتنا. لم يسألني يومًا من ذاته عن وضعي الشخصي، وعندما أحدثه، يكتم أسراري ويتفهمها قائلًا: حَرامات، يُفترض بأمثالك أن تنصفهم الحياة وتخصصهم للقراءة والكتابة فقط. حين أذهب إلى الكلية منهكة تمامًا من مسؤولية بيت كبير، وأرى ابتسامته، أرتاح وينزاح تعبي... إن الأصدقاء الحقيقيين يعوضون عن الأهل أحيانًا، وعن الإحباطات. ابتسامة راشد وكلماته كانت تسندني في أصعب الظروف... لاحظ بأنني لم أتكلم عنه بصفة شاعر أو أكاديمي أو صحفي؛ بل بصفته إنسانًا حقيقيًا. لذا في بعض المرات أقول مع نفسي: لماذا لا يتحول جميع المحبين إلى أصدقاء في حال عدم تحقق العشق بينهم!.

إنه يعمل الآن ليل نهار ليعيل عائلتين كبيرتين بعد أن اضطر للزواج أيضًا من أرملة أخيه الذي قتله الأمريكان بالخطأ.. يا له من تعبير يدمرني: "قتل بالخطأ". تخيل أن تنتهي حياتك بالخطأ!.. وكأن هناك قتل صحيح! وكأن الموت مجرد تمرين يمكن الخطأ فيه أو تصحيحه!.. بل وهل كان اجتياح الأمريكان للعراق صحيحًا أصلًا كي يعتبروا بعض قتلهم لنا مجرد أخطاء، والقتل الآخر صحيحًا!.

صباحًا يعمل في الجامعة، وفي بقية المساء والليل في صحيفة. وعما يعرفه من أخبار بحر الدين، غرابي الشيشاني، قال بأن آخر لقاء له معه كان منذ عام تقريبًا؛ لقاء وداع لأنه رحل إلى الشيشان وهو يؤكد على كلمة لـ(يناضل) وليس لـ(يجاهد)، وحين سأله راشد: لماذا؟ أجابه بأقوال للشاعر رسول حمزاتوف، الذي كنت أنا من عرّفته على أعماله فأحبه من ساعتها، قال له: اسمع يا صديقي حَبة المِسك، كتب جاري في المولد، الشاعر الداغستاني الكبير حمزاتوف، في آخر

أيامه: "أعتبر حياتي كلها مسوّدة يجب تصحيحها وإعادة النظر فيها" وهذا ما أحاول أن أفعله، وكان ينادي: "أيها الداغستانيون احفظوا كرامة داغستان والنساء الجميلات"، ويردد: "شيئان في هذه الدنيا يستحقان المنازعات الكبيرة: وطن حنون وامرأة رائعة، أما بقية المنازعات الأخرى فهي من اختصاص الديكة"، وبالنسبة لي فلم أشعر بأن العراق وطن حنون.. وإنما مجنون، والمرأتان الوحيدتان الرائعتان في حياتي لم يعدن يعشن فيه؛ لذا قررت العودة من أجل النضال والحفاظ على أي شيء هناك، ولو اسم الشيشان نفسه أو قبر جدتي...

أما أنا فأكاد أجزم بأنه قد ذهب ليلحق بشقيقته التي يحبها بعد أن تزوجت من موظف شيشاني في السفارة الروسية وعادت معه.

يا إلهي.. ما سر ارتباطنا بأرض ولادتنا إلى هذا الحد حتى لو كانت جحيمًا! أليس هو "قبيلة مجانين" أيضًا، كما وصفني؟.. بالمناسبة، أنت وأنا سننتهي مثله، بعودتنا إلى أرضنا الأولى العراق.. حتى وإن ظلت جحيمًا مُستَعِرًا.



حسن.. لماذا تتهمني بأن لديّ معجبين كُثُرًا؟.. هذا ليس صحيحًا، والحقيقة هي أنني جميلة لمن يكتشفني، وأزداد جمالًا بازدياد الاكتشاف.

أحيانًا، أجرب مع الآخرين فيما إذا كنت أعجبهم أم لا، فقط أخمّن.. ثمة حقيقة في داخلي وأريدك أن تعرفها جيدًا، تخصك أنت بقدر ما تخصني. وهي أنني أحبك وممتلئة بك تمامًا. نعم، أعترف بأنني أشعر بالوحدة لأنك لست معي... كأنك يا حبيبي مسافر

وسترجع، كأنك مفارقني قبل يوم أو ساعة. هذا الذي أشعر به الآن، ولا أدري ماذا سيحدث غدًا. الحب يجعلنا نتذوق طعم مختلف للأيام ونتعرف على أنفسنا من جديد، نعيد اكتشاف ذواتنا ونعرف كيف وماذا نلبس ونأكل ونحلم بعيون تلتمع كأنها ترى الشمس مبهورة بها.. كأن الحب هو يوم البداية البدائية الأول، وحتى علميًّا، يقال بأن جسد الإنسان الذي يُحب يفرز سائلًا خاصًّا يحث كل الخلايا على التقارب والتعاضد والنشاط والرغبة، فيما يفرز جسد الغاضب أو الكاره سائلًا آخر يجعل خلاياه تتباعد عن بعضها وتضعف وتوهن البدن والحماس والذهن والرغبة.

لا تتخيلني ملكة جمال، فكل الذي عندي هما عينان مندهشتان طوال الوقت وبكل شيء. لست حلوة جدًّا يا حبيبي بحيث لا تستطيع احتمال جمالي كما يحدث مع بعض الرجال والشعراء مرهفي الحس تجاه الجمال؛ لأن الجمال مخيف كما يقول ريلكة. أنا مخلوقة كي تتذوق أنت روحيتي وأعصابي؛ وبالتالي تصل إلى جمال لم يكتشفه أحد من قبل، فأنا أنثى مُغرية، ليس جسديًّا.. وإنما لا أدري بماذا. فإذا كنت أغري حتى هذا المُستأجِر إلى هذه الدرجة، فيما هو وأنا بلا أية مشاعر متبادلة.. فكيف هو الأمر معك!؟

أتمناك جدًّا.. وسوف نزور معًا كل شيء في أنحائي.. لا تستعجل، كما أذكّرك بأنني أحتاج إلى الصمت أحيانًا أكثر من احتياجي للأكل والشرب والنوم، دعني مع صمتي الآن، واسمعني.. سوف أدهشك.



عند قراءتي لرسائلك اليوم اندهشت..

وأريد أن أسألك سؤالًا، فأنا غابة أسئلة، وبكل خطوة أسأل خمسين ألف سؤال.. حتى يؤلمني رأسي من كثرة الأسئلة. لماذا أثيرك إلى هذه الدرجة؟ ربما كلماتي، حكاياتي الحمقاء، تناقضاتي، ثرثرتي، هذياناتي، صوتي وربما حتى دموعي تجذبك... ولكن لا أريد جوابًا تقليديًّا معتادة على سماعه، أريد جوابًا يشفيني أو يشقيني.. لا فرق.. ثم لماذا أنا التي عليها أن تحكي كل شيء وأنت تنصت وحسب؟ لماذا لا نتشارك؟ هل تخاف مني؟ لا أظن.. إنما أنت تخاف من نفسك؟ الرجال يخافون الحب أكثر من النساء، ربما لأنهم لا يلمّون بجوانبه غير الواقعية، العملية والبراجماتية الملموسة، يدوخون من سعة الرومانسي والخيالي والعاطفي والغامض. لو نتفق على عدم الخوف من الآخر سنعري ذواتنا ويبين كل شيء. روح الحب وحدها لا تكفي، أريد سماع صدى ذكرياتك وصوت أحلامك كما سمعت صيحات غبطتك وانتشائك التي تسحرني. كن حبيبي كاملًا، وأدخلني إلى روحك بلا تردد ولا عُقَد ولا مخاوف.. هكذا كما فعلت أنا معك.

تذكرت زكريا البسيط الذي لم يقرأ عن الحب، فكان شارد الذهن أمام ما ينتابه من أحاسيس لا يعرف كيف يتعامل معها، يعبّر عنها ويُمَنْطِقُها بواقعية ملموسة، يبدو مثل طائر غريب في قفص، مذعورًا ويثير الشفقة. أما أنت؛ فأشعر بأنك تفكر أو تحس أحيانًا وتقول: هذه المرأة ساذجة.

وأعرف في أية لحظات ومواضع يحدث لك ذلك.

لا بأس، فسذاجاتي العفوية أو المتعمدة هي جزء مني ويهمني إيصالها. كل ما أحتاجه اللحظة من هذا العالم؛ صمت قبلة من شفاه رجل أحبه. فقط. مرة واحدة وأنتحر.. "كن سعيدًا مرة واحدة

وانتحر" كما يقول حسن مطلك. فالعلاقة بين الحياة والموت مثل العلاقة بين الأمل وخيبته، ومثل الفرق بين أن أحبك أو أن أحبك فقط.. إنها سفسطة، ثرثرة، هذيان، أليس كذلك؟ لا بأس، حسن.. أنا اشتهيك بصدق.. ثمرة الشجرة الممنوعة يفجرها شبقي كأصبع ديناميت، يشظيها بشكل يؤلمني. وقلت لك ذات مرة بأن للجسد مطالبه، بل حقوقه التي لا نستطيع تجاوزها، وكلما قلت له: تَعَقّلْ. ينتفض ويَثُرْ أكثر، كأن لديه فيدرالية وحكمًا غير مركزي، أوه.. يا عصفوري المبلل بماء شوقه.. متى تهدأ؟



شغلَ تفكيري هذا الوزير الإنجليزي الأعمى. في كورس اللغة، ومن بين واجبات الترجمة، كان من نصيبي ترجمة مقال عن وزير بريطاني أعمى قرر التخلي عن كل شيء، بما في ذلك فرصة أن يكون رئيسًا للحكومة، وذلك ليكون مع حبيبته بأي ثمن، وهي متزوجة من غيره، فبدل أن يتنكر لعلاقته بها حفاظًا على السمعة والمنصب وغيرهما؛ وقف إلى جانبها. لو كان غيره لجنّد كل إمكانياته لتكذيب الأمر والتنصل منه. كلما رأيت صورة له برفقة كلبه الذي يصطحبه معه في كل مكان، بما في ذلك إلى البرلمان، أتمنى احتضانه وطبع قبلة على جبينه، أقصد الوزير طبعًا وليس الكلب، وكلما رأيت صورة حبيبته الآسيوية أقول: ما أسعدها. كذلك الموقف الرائع لزوجها، والذي يدعّم فيه موقف زوجته التي خانته كي تكون سعيدة مع الرجل الآخر الذي أحبته.

انشغلت بتأمل وتحليل قصتهم أكثر من انشغالي بواجب ترجمتها،

واعتبرت مواقفهم هي أفضل صيغة لترجمة الحب. قلت ذلك لمعلمتي، فانفجرت بالضحك وأعجبها مفهومي للترجمة... إن هؤلاء بشر حقًّا، لا يهمهم التصنيف المخترع لمفهوم (خيانة) أو غيره، و لم يأخذوا الموضوع كما نتناوله نحن. أليس الغاية هي السعادة في آخر الأمر!. أعرف أن الصحافة كتبت عن هذه القصة كثيرًا، ونبشت في تفاصيل واقعية وتفسيرية وغيرها، لكنني لا أهتم بكل ذلك، وإنما تهمني رؤيتي أنا لها من وجهة نظري؛ لذا أفكر أن أكتب شيئًا تأمليًّا تحليليًّا عنهم، وربما أجرب إرساله إلى راشد لينشره في العراق، باسم مستعار طبعًا، فهذه قصة جميلة ونحتاج أن نتعلم منها الكثير؛ كالصدق وتحمل المسؤولية ببساطة وعدم التهرب مثلًا. والعراق بأمسِّ الحاجة إلى كلمات وأحاديث وخطابات وقصص الحب. إنه بحاجة للحب الآن أكثر من حاجته لأي شيء آخر. أحيانًا، أسرح في الخيال الذي أغلبه من بذرة الأسئلة أيضًا، وأقول: تُرى ماذا لو بعنا كل ثروتنا النفطية الهائلة واشترينا بها حبًّا؟! ماذا لو استبدل الله بحر النفط الذي في جوف أرض العراق بما يعادله من الحب في جوف قلوب العراقيين؟!

أوه، للأسف، هل لاحظت؟ قلت وفكرت أن أكتب باسم مستعار! يا لها من قسمة ضيزى وحال خانق.. لماذا نضطر إلى ذلك، أو إلى مجرد التفكير به، أليس هذا دليل آخر على نقص الحب والحرية؟!.

آه، أحلم؛ لو نقضي سهرة طويلة في شرفة تطل على شاطئ، أمامنا القمر والتماعات الأمواج التي يمتزج صدى هديرها بحديثنا عن الحب حتى مطلع الفجر.

آه، لو أنك عندي، كنت سأحول ليلك إلى نهار ونهارك إلى ليل، وكليهما إلى نصوص أدبية جميلة.

على الرغم من أنني أحاول الانزياح، ولو قليلًا عن رياح الشوق إليك من كل الجهات، لكن جسدي البري البربري الأحمق هذا يشتهيك بلوعة كلما خطرت على بالي.. ماذا أفعل؟.. فأنت تعرف تمرده. فقط أحببت أن أنقل لك الحدث نقلًا مباشرًا وعبر الأقمار الصناعية.. دمت لي فنار حب.



هذا المساء كان ممتعًا مع ياسمين التي جعلت من مدريد محطة طريق لها في كل أسفارها كي تراني. كانت هي جالسة في الجهة الأخرى لمكان جلوسك في حلمي، هل تذكر ذلك الحلم؟ لقد نالت طلاقها أخيرًا، وعلى العكس من أختي التي دفعت ألف دولار، كسبت هي آلافًا، حيث دفع لها زوجها ربع ثروته مقابل توقيعها على جملة أوراق تخلصه منها تمامًا، وإلى الأبد... حتى أنه رفض الإبقاء معه على جروتها التي تحمل اسمي، بل وهددها بأنها لو تركتها في بيته سيبيعها لأحد الكوريين كي يأكلها. لذا ستأخذها معها عندما تستقر للعيش في القاهرة. تخيّل! إنه لا يريد أي شيء يذكره بي؛ لأنه يعتقد بأنني السبب في سوء علاقة ياسمين به، مثلما يعتقد هذا المستأجر بأن ياسمين والكتب وراء سوء علاقتي به. بالطبع ضحكنا على تفكيرهما واستعدنا بعض أقوالهما ومواقفهما للمزيد من الضحك، أصبحت لهما حصة كوميدية ثابتة في كل أحاديثنا.

رأيتها أجمل بعد الطلاق. قلت لها ذلك بحسد، فضحكت قائلة: العقبى لكِ. إنها تخطط الآن للزواج من هاني الإسكندراني

والذهاب للعيش معه في القاهرة. كم أتمنى زيارة القاهرة ومصر التي أحببناها دائمًا من خلال فنونها وطيبة وفكاهة أهلها. هي تستشيرني بالأمر لأنها تخشى من الزواج والفشل مرة أخرى. لم أستطع إعطاءها جوابًا واضحًا، لكنني حرصت على التأكيد بأن تتأكد هي من نفسها، فيما إذا كانت تحبه حقًّا أم لا. قالت: نعم. فقلت لها، إذًا لا تخشي شيئًا ما دمتِ تحبين.

لم تسألني شيئًا عنك، هي تخاف عليّ جدًّا.. وفي كل لحظة، كنت على وشك البوح لها، لكنني أتماسك، بشكل ما، أعتقد بأنها فهمت أو حدست حالي دون الحاجة إلى كلام. حين اتصلتُ بك وهي قربي، لم أستطع أن أقول لك بأنني أعشقك. لعلي أتصنع القوة أو عدم الاهتمام.. لذلك أقولها الآن بأعلى صوتي، بلهجي: أمووووت عليييك. أنت سِري الرائع الذي لا أريد أن يطّلع عليه أحد.. لا أعرف لماذا؟.. ربما لأننا مللنا البوح للآخرين بلا طائل.

أهدتني حصاة من سور الصين مكتوبًا عليها اسمي، ونسختها من (دابادا) بطبعتها المصرية التي بعثها لها هاني، فشرعت بقراءتها مباشرة، على أية صفحة تنفتح بين يدي، وهي تقول لي: إنك تقرئينها كما تقرئين قصيدة. فقلت لها: هي بالفعل قصيدة غليظة كما يصفها خالقها.

عندما رافقتها إلى المطار، كنت أحسب طول الطريق، وهل سأستطيع احتمال ساعة أقضيها في القطار من أجل ملاقاتك حين تجيء وأذهب لاستقبالك؟ ربما سأتقافز أو أحثُّ الركّاب على الرقص كي أبدد انتظار الوصول فأصل إليك متعبة من النطّ... أفكار وقصائد كثيرة لك في يدي..

لحظة توديع ياسمين، قالت لي: لا تَضِيعي.. أو ضِيعي، أعرف بأنك تريدين الوصول إليه.



آسفة من كل قلبي.. لقد غبت عنك يومًا ونصف اليوم لأنني كنت مشغولة. ها أنا أغرق في مسؤولياتي العائلية وأتعلم لغة وأقرأ وأقابل الناس، لكنني مع كل ذلك منشطرة وأشعر بأن ثمة شيئًا ما مسحوبًا مني ولا يكفيني الشهيق. صدقني، عندما كنت مع يعقوب الفيل، نحتسي قهوة ونتحدث عن الأدب، وهو رجل لطيف، مثقف ونصلح أن نكون أصدقاء؛ إلا أنني شعرت بالوحدة مضاعفة وثقيلة. فأنت وحدك مَن بمقدوره أن يملأ رئتي بالهواء، أنت وحدك من يستطيع إعادتي إلى نفسي ويعيدني إليك. لا أقوى على المطالبة، لكن مشاعري تريد كل شيء... إني أنتظرك الآن وربما أنت مشغول بغيري.

بكيت ليلًا.. لم تكن دموع حزن؛ وإنما دموع حب واشتياق وشح في الكلمات. غدًا عندي موعد مع الطبيب النفسي، هذه المرة أنا التي طلبت موعدًا معه،فلا تقلق إذا لم أتصل صباحًا.

ما كنت أرغب بالحديث عن السبب لكنني سأفعل، لقد فاجأتني مكالمة من راشد قبل الغروب، شعرت فيها حتى أن صوته قد شاخ وكبر، لكن الصدمة كانت فيما كشفه لي بشأن خلف موريس. صدمة حقيقية على الرغم من أنها تفسر لي الكثير من سلوكياته، وسبب غضب أخته حين زرناها. حقيقة ستريح ضميري بالتخلص منه وحتى من ذكراه نهائيًا، يقول راشد بأن ما تم كشفه عن خلف وبالوثائق، أنه كان يعمل لصالح مخابرات الطاغية وما حكاية الجنون وإدخاله للإقامة

في مركز الرعاية النفسية أو المصحة العقلية إلا واحدة من مهمات كثيرة قام بها، كان الغرض من إدخاله هو لحمايته أولًا من أقاربه وأقارب زوج أخته بعد أن وشى به وبولديهما بأنهم ينتمون لحزب ديني معارض فتسبب بإعدامهم، وفي الوقت نفسه ليقوم بالتجسس على النزلاء المعارضين الذين أصابهم الجنون بسبب بشاعات التعذيب الذي تعرضوا له، فكانت المخابرات تريد التيقن من أنهم أصبحوا مجانين فعلًا ولا يدعون الجنون؛ لذا دسّته بينهم كواحد منهم.

قلت لراشد وربما حتى أن علاقته بي كانت من ضمن مهمة تجسس على عبود وعليّ وعلى ما يخص تاريخ وعلاقات والدي. لم يعلق راشد على هذا التفكير، سكت ثم قال: هذه لا دليل لدينا عليها، لكن بقية المعلومات نعم. وأخبرني أن خلف يعمل الآن في القسم الاستخباري الثقافي للحزب نفسه الذي كان ينتمي إليه زوج أخته وأبناؤها، وتسببت وشايته بإعدامهم... تخيل!!!!

أشعر الآن بقرف من كل لحظة أمضيتها معه أو فكرت فيها به، ومن كل بقعة من جسدي مستها يده، أشعر بحاجة إلى بئر ماء حارق أتطهر به، أو للبكاء بين ذراعيك لمدة أسبوع متواصل، روَّعني ما أخبرني به راشد.. من حسن الحظ أنني بعيدة وناجية، بشيء يشبه الصدفة أو المعجزة.. كمعجزة عبورنا الصحراء بين السودان وليبيا. أنا بعيدة الآن، وأرجوك أنت أيضًا أن تُبعد نفسك عن هذا الموضوع.

لا أتهرب، ولكنني أريد إنهاء هذا الفصل الملوّث قطعًا من ذاكرتي، أن أمحوه تمامًا وكأنه لم يكن، أو أن أحوله إلى مجرد حكاية اخترعها خيالي كفكرة لرواية أو لفيلم، أو مجرد كابوس. أوووه، يا إلهي ما أبشع السلوكيات التي يمكن لبني آدم أن يرتكبها.

حين دعاني إلى شقته أول مرة، كانت زوجته موجودة. استغربت لطفه الفائق فقلت له عندما أوصلني إلى باب العمارة: إنك لطيف جدًّا ولكن...

حسن، كتبت قليلًا ثم محوت ما كتبته، لا أدري لماذا.. تفهمني. كل الذي حدث لي معه كان بسبب غبائي وغروري. أقفل فمي وحاصرني خلف الباب كأنه مجنون يوشك على خنقي. ارتعشت من فكرة الموت خنقًا، ومخي الغبي تصور أنه يفعل ذلك من شدة إعجابه بي وبأنه لم يستطع مقاومة جمالي وإغرائي. أنا حمارة أحيانًا.

لم أستطع التملص، أو استسلمت. طواني على الأرضية. دُق الباب.. قمتُ سريعًا. أنزلتُ تنورتي.



شكرًا لك على تفهمك، صبرك، وقتك وعواطفك، وشكرًا لله الذي جعلنا، دون علمنا، نلتقي ونتوحد إلى هذا الحد، وبعد..

لا أدري كيف أقول شكرًا... قرأت رسائلك اليوم خارج البيت، من محل اتصالات رخيص، صاحبه سنغالي طويل بشكل لافت، بحيث حتى وهو جالس يبدو أطول مني واقفة.. الطقس كان رائعًا، فتخلصت من عبء المعطف. تنفست بعمق وأحببت كل البشر. كنت في منطقة (كواترو كامينوس/ أربعة دروب)، يسكنها اللاتينيون؛ لذا تنبض حياة. كانت دموعي في الهاتف معك صادقة جدًا؛ أولًا: لأنها في غير أوانها. وثانيًا: لأنها هطلت مرة واحدة. وثالثًا: لأنها أمامك... أعتقد بأننا قد تجاوزنا مرحلة اختبار بعضنا. دموعي لها أسباب كثيرة، فأنا كعادتي التي تعلمتها من حسن

مطلك؛ أجلستُ نفسي على الطاولة وبدأت بالتحليل والمحاسبة. ولا مانع لدي من أن نحللها معًا في المستقبل كي نصبح معًا أكثر نقاءً.

بالنسبة لموريس فأنت تعرف مدى إجادته للعب بالكلمات، وبالمقابل مدى أثر سحر الكلمات عليّ... ذات مرة، كان موبايلي يدق برقم مجهول من العراق، و لم أرد عليه. راودني هاجس بأنه هو. أخشى أن يكون قد حصل على الرقم بطريقة ما، فهو ثعلب.

صدقني يا حسن، لم يعد لهذا الكائن المسخ من أثر في نفسي إلا بقية لطخات سيئة ستمحى مع الوقت. أنت سألتني عن أشياء خصوصية جدًّا وأجبتك عنها، لكنني مع نفسي لا زلت أخجل من نفسي بشدة. أخجل من تذكر بعض الأحداث والمواقف والمشاهد... ترى ما مقياس الحب والمشاعر الصادقة، عندما تتذكرها بعد فترة؟ هل أنت مغتبط بها أم لا؟ هل أنت راض عن نفسك وما فعلته في تلك التجربة أم لا؟ عندما أتذكر زكريا، أستطيب الذكرى، أما الآخر فلا أدري، كان موضوع مصلحة مصبوغة بعواطف وانبهار أحمق من جانبي. لا زلت أعتقد بأنه مثقف كبير، لكنه بلا إنسانية، وهذا سبب فشله ككاتب. فالإنسان منا ليس مُسيرًا من قبل عقله وروحه فحسب، وإنما تكون ردة فعله أحيانًا على الوضع الذي يعيش فيه، والأشخاص الذين يشاركونه حياته في مرحلة ما، هي التي تسيره. إنني لا ألقي اللوم على أحد، ولكن ما الذي دفعني إلى ذلك؟ فشل متراكم لم أستطع الإفلات منه.. طبعًا قلت كل هذا الكلام للطبيب النفسي، وثمة كلام كثير غيره في داخلي لا ينتهي.

اليوم وأنا في السوق كنت أفكر: هل كل أصواتنا وحركاتنا

داخل هذا الكون الأرضي زائلة؟ كان الناس سعداء، أو هكذا رأيتهم وألوان الربيع براقة. كنت أتساءل: ماذا تبقى من الناس الذين كانوا يشغلون هذا المكان قبل مائة عام؟ هل سيذكر أحد حشدنا هذا بعد مائة عام؟ هل خطواتي زائلة أم أنها ستظل تحوم في مكان ما من هذا الكون؟ أدهشني الصوت العالي، ضجيج الناس. كنت منتبهة لرنين الأصوات، لخليطها، للحروف، للألوان، للروائح، لحركة الأجساد والأيدي.. لكل شيء وحتى للاشيء.. ربما أفعالنا وأصواتنا تتشابك بالفضاء وتكوّن حقولنا المغناطيسية أو حتى أيامنا التالية.. انتبه معي أيضًا، فأنا أكلمك من كل مكان، كل الكابينات عرفت مكالماتي لك وبكل المناطق التي أذهب إليها. سيأتي يوم ما تكون فيه كل كابينات مدريد قد عرفتني، كل الكابينات صديقاتي الحبيبات. اشتريت شتى أنواع الفاكهة والخضراوات بسبب ألوانها، أدهشتني الألوان وأردت تذوقها كلها مرة واحدة.

حسن يا حبيبي.. أنا سعيدة بك ومعك، فقد منحتني شيئًا عظيمًا.. ألا وهو الاستماع إلي.

هل أقول مشتاقة؟ بل أكثر وأكثر من كل الاشتياق، بالمناسبة، وربما أنت أعلم مني بأمور المعاجم، ماذا يطلق على الاشتياق لشخصين لم يريا بعضهما من قبل؟ أظن أن الاشتياق ينطبق على حالة الفراق بعد اللقاء، ولكن ماذا عنا؟ نحن اللذين لم نلتق بعد، ونشتاق لبعضنا على هذا النحو الجارف؟ ماذا نطلق لغويًا على حالة كهذه؟..

عن (دابادا)، لا زلت في الصفحات الأولى، فهي تحفة لغوية، كأنها قصيدة طويلة، رص بديع للكلمات واستنطاق مدهش للحروف. ذهبت إلى حديقة القصر الملكي بعد أن أنهيت دروس

قص الشَعر. كنت أقرأ بصوت عال وأستلذ بنطق الحروف، سأسألك عن كل شيء تعرفه عنها ذات يوم.

إن قراءة نص مثلها يحتاج عندي إلى تركيز طقسي خاص، ومن حسن الحظ أنني لن أضطر إلى إرجاع هذه النسخة لأحد، وهذا معناه أن أشخبط على حواشيها ما أشاء، كأنني أترك بصمات ودبق أصابعي بين السطور.

عني؟ أنا هادئة وعاقلة وكما تريد أو يريدون، صامتة في أغلب الأحيان، وأستمتع بالطقس.. فيما خيوط تأملاتي لا تنقطع.. تُرى هل يكون الذي بيننا خرافة؟ يعني على الأقل بالنسبة لي، فلو أخبرت أي كان بالذي يصير بيننا لما صدق. أنا موغلة بالحلم لدرجة البكاء. تفاديت أن أكتب لك بأنني أشتهي حلمًا..

هل أتحدث عن ذلك البكاء الذي قلّما حصل في حياتي وبهذا الشكل؟

هذه ثاني مرة أتمنى رجلًا وأشعر باطمئنان أنه يلائمني تمامًا. وأعرف أننا لبعضنا بكل المقاييس، ما عدا الوضعية الاجتماعية الأرضية، فرغم كل توحدنا، يفصلنا كل شيء، وليس لي حق الرفض أو حتى مجرد الاعتراض. كانت رغبة مكبوتة عميقًا في داخلي، ليست رغبة الجسد؛ فهذه قد عالجتها في الحمّام قبل ساعة ونصف من مكالمتك.. ولكنها رغبة الحب، شهوة امتلاك المحبوب تحديدًا وليس أي أحد سواه..

في المرة الأولى، كان الآخر ناقصًا، ليس هو، بل شخصيته، أقصد زكريا. كان يحتويني، يحبني كما أنا حتى دون أن يفهمني بالكامل، يتفهّمني بحسه الفطري، يحترمني جدًّا ويسميني جوهرته.. والآن أنت، بالنسبة لي؛ أنت مكتمل تقريبًا؛ لأنني خلقتك كما أريد في

ذهني. نناسب بعضنا. لا أقصد الكمال الساذج طبعًا وإنما الكمال الإنساني النسبي.. حتى أنني بقيت أحلم بإطلالة وجهك على وجهي يومين متتاليين. لا تقلق، فمنذ يومين تقريبًا وأنا أتجنب الحلم بكل أشكاله.

الأول كان متزوجًا ولديه ابن مريض. لم أكن أعرف ذلك حينها، فظل السؤال يؤلمني طيلة ثماني سنوات، بقيت أسيرة السؤال عن سبب عدم طرحه عليّ مسألة الزواج. لاحقًا، وبالصدفة، عرفت بأنه كان متزوجًا ولديه طفل مريض يعاني بُطئًا بالنمو العقلي والجسدي ويحتاج إلى رعاية دائمة.. وهو يحبه جدًّا. لم يكن موضوع الزواج يهمني كثيرًا. كنت فقط أتمنى لو أنه قد أخبرني بحقيقة وضعه وألا يتردد في القول لي أن ابقِ معي بأي شكل، كنت سأفعل. لم يصرح، وفهمت بعد أن عرفت حالة عذابه تلك بين أن يريدني معه حبًّا، وبين كونه لا يستطيع التخلي عن مسؤوليته وحبه لطفله. لم يقدر على إخباري بذلك كي لا يحول دون ما يعتقد بأنه مستقبل أفضل لي.

ذات مرة كان زكريا عائدًا من بلدته الشرقاط إلى بغداد ليوم أو يومين متخذًا أية حجة كي يراني. مر على صديقة قريبة لي وأتى بها عصرًا إلى بيتنا، وبحجة الذهاب إلى السوق برفقة صديقتي وأخيها، خرجنا لساعتين تقريبًا. توقفنا في مقهى على ضفة النهر، وأثناء حديثنا، أخرج من جيبه رزمة رسائل وقال: هذه رسائل حبيبتي القديمة، افعلي بها ما تشائين، مزّقيها أو احرقيها أو ألقيها في النهر؛ لأنني الآن أحبك أنت أكثر من كل النساء اللاتي مررن في حياتي.

تناولتها، فتحت بعضها، قرأتها ثم أعدتها إلى مكانها في جيبه، وقلت له: هذه مشاعر امرأة كانت صادقة في لحظتها وليس لي إلا

أن أحترمها مهما تكن؛ لذا فاحتفظ بها. إنها بمثابة شهادة على أنك إنسان فعلًا.

وعليه، فحتى لو قلت لي، عندما نلتقي، بأنك تحب امرأة ما أو زوجتك وهي تحبك، فصدقني ليس لدي شعور بالغيرة؛ لأنني أعرف بأن الإنسان عميق ومشاعره لها ألف وجه وسأرضى بأي وجه أو أي شيء منك مهما يكن قليلًا، لأنني أنا التي تحبك.

لا تعنيني المسميات والتصنيفات التعميمية للعلاقات، فلا توجد أية علاقة إنسانية تشبه غيرها تمامًا. يعنيني الصدق فقط. أشعر بأن نتيجة عدم الصدق الكامل من قِبلي وقِبل غيري قد شوّه حياتي، هذه السلسلة الطويلة المتواصلة من الأكاذيب التي أوصلتني إلى حد القول عن أولادي أحيانًا بأنهم نتاج الأكاذيب.. وأنت الآن.. ليس حزنًا، صدّقني، فأنا معك أسعد مخلوق، فيما أنت تردد عليّ: تذكري بأنني بلا وعد، فأقول: بأن الصدق هو أجمل الوعود على الإطلاق. لذا تمسك بحبي كتمسكي بحبك، دع الحب هو الذي يقودنا ويقيدنا لا غير. قل لي أيضًا: كوني صادقة دائمًا وحاولي أن تجعلي الوقود الذي يسيّر حياتك هو الصدق وليس الأكاذيب.

بالمناسبة، قرأت خبرًا مفاده أن دولًا عربية منعت بضع كتب وروايات ودواوين شعرية من الدخول إليها بحجة أنها لا أخلاقية وتسيء للذوق العام، فضحكت حد القهقهة على سوء ذائقة وأخلاقيات رقاباتهم المهترئة... يا لها من أكاذيب مفضوحة! لماذا لا يقولون الصدق: منعناها لأنها تصف وتنتقد حالنا المزري بنفاقه!.



لا شئ غير عادي هذا اليوم. بعد إقفالنا الخط، كان بدني متقدًا وقلبي يقرع بصخب حتى خشيت أن يتوقف فجأة. في الثانية عشرة ظهرًا، تذكرت الفيل فاتصلت به كي أعتذر عن عدم تمكني من رؤيته في أمسية المعهد المصري وإذا به يخبرني أن أحد إخوته في العراق قد قُتل. لم أسأله عن التفاصيل. عزّيته بما استطعت من كلمات صادقة تحت وطأة استحضار مشهد حشود جثث قتلى العراق في ذهني.

غيّرت ملابسي، فتحت الثلاجة كي آكل فاكهة، ولكنني عندما تذكرت (الكبة) وهوَسك الغريب بها، انفجرت بالضحك.. يا أبا الكرش (الكبوي)، وتذكرت تبريرك الطفولي لجوعك لها بكونها تشبه النهود، فقلت بصوت مسموع كأنك تقف خلفي أمام باب الثلاجة: آه منك يا كذّاب، إنك تحب التهامها لشراهتك ولا شيء غير ذلك.

جلبت الأولاد من المدرسة. اتصلت ياسمين وقالت إنها ماضية بترتيب إجراءات الزواج والانتقال للعيش في القاهرة، وبأنها، بعد أن تستقر، ستبعث لي بكل الكتب التي أريدها. ولا أدري كيف تطرقنا لذكر طليقها الذي كان يكرر عليها عبارة: لا تضيعي وقتي؟ تخيل! سليل القساوسة المزيف الظريف بدَجَله هذا، والذي خصّص مخّه للنصب على بسطاء المسيحيين الصينيين يقول لها ذلك!. ضحكنا، وصرنا نختم كل أحاديثنا بهذا التعبير: لا تضيعي وقتي.

.. والآن، لا تضيع وقتي ولا أضيع وقتك. أشتهي أن أقرأ.. وأنت معي في كل صفحة وسطر.

- ١٩ -

باقات بَنفسج

أنا

قبل سفري بليلة، احتفلنا بعيد ميلاد صديقنا أحمد في شقتنا الصغيرة. سخرنا منه أنا وعبدالهادي حين أخبرنا بالأمر ورأيناه يعد لهذا الاحتفال منذ الصباح؛ ذلك لأن أيًّا منّا لم يحتفل بميلاده من قبل أبدًا، بل إننا ننسى حتى تاريخ مروره. دافع أحمد عن فكرته بالقول: إنها حجة للاحتفال بأي شيء، كما يفعلون هنا، وفرصة لخلق البهجة ولمّة الأصدقاء.. وخاصة الصديقات. ثم إننا، ومنذ مجيئنا، نحضر حفلات أعياد ميلاد الذين عرفناهم ويكبدوننا الهدايا، فلماذا لا نفعل مثلهم، ولو من باب استعادة هدايانا.

وبالفعل، كانت سهرة جميلة، حيث ازدحم صالون شقتنا الضيق بأكثر من عشرة أشخاص، أغلبهم نساء، فكانت بعضهن يجلسن على رُكب بعضنا. اختلطت اللغات والهدايا والأطعمة؛ شرقية وغربية، بتنوع الحضور من عرب وأسبان ولاتينيين. تقارعت الكؤوس والأقداح نخب أحمد، بعضها فيه العصير وأخرى نبيذ، بيرة، شاي أو قهوة، أما التقارع الثاني، بعد نصف ساعة، فكان نخبي أنا، حيث فاجأنا عبدالهادي بالنهوض وسط اللمة حاملًا كأسه وقال:

وهذا نخب صديقنا محسن بمناسبة سفره غدًا، متمنين له رحلة موفقة وتحقيق هدفه منها. فتقارعت الكؤوس وعبارات الأمنيات، ثم تلتها التساؤلات عن هذه الرحلة وهدفها؛ بحيث شكلت الإجابات عليها من قبلنا أنا وأحمد وعبدالهادي معظم أحاديث السهرة التي امتدت بنا، أو مددناها خارج البيت في مقهانا المفضل المطل على نهر المانثاناريس. وبينما لم يستوعب الذكور منطق قصتي مع رسائل هيام؛ اندهشت الإناث وأشدن بي حد احتضاني وتقبيلي إعجابًا. وصفتني إحداهن، وسط تأييد الأخريات، بأنني آخر الرجال الرومانسيين في هذا العالم.

هديتنا أنا وعبدالهادي لأحمد، كانت ساعة ثمينة في داخلها أكثر من ساعة، إحداها رياضية، كنا قد رأيناه ذات مرة يتوقف طويلًا أمام واجهة أحد المحلات متأملًا إياها. قلنا له مازحين عند تسليمها له: كي تتذكر الوقت الذي نكون فيه خارج الشقة عندما تكون مختليًا بإحداهن. لم يحمل أحمد معه من الهدايا إلى المقهى إلا هذه الساعة وباقة ورد البنفسج التي أهدتها له لوثيا الأندلسية التي جاءت بصحبة خطيبها.

في تلك الليلة، تمنيت، حد الغصة، لو أن هيام معنا، ثم انتبهت إلى أنها قد حضرت فعلًا؛ لأنها أصبحت بطلة أغلب أحاديث سهرتنا، فحين وصل بنا الكلام عن رحلتي إلى احتمالية اللجوء للحل الأخير الذي فكرنا به نحن الثلاثة، وهو نشر رسائلها على شكل رواية، تشعب النقاش وتحول من الحديث عن قصتي الواقعية إلى حديث عن قصة أدبية مجاورة لها، مشتقة منها ومتخَيَّلة. قلت لهم بأن مسألة كتابة رواية ليست بالأمر السهل، كما أنني لا أعرف كيف سأؤطر هذه

الرسائل تقنيًا، ولا كيف سأصنع نهايتها؟ فقال أحمد: إن فن الرواية صار يتسع ويستوعب كل شيء؛ لذا بإمكانك أن تنشر هذه الرسائل كما هي، أما النهاية فأرجوك، اجعلها سعيدة بلقاء الحبيب.. لأنني أُحب النهايات السعيدة.

اعترضت ماريا المكسيكية، التي سبق لها وأن عشقت في بلدها، وتزوجت، فتطلقت، ثم جاءت إلى مدريد بعد أن أحبت سائحًا إسبانيًا، وتزوجته، لكنها تطلقت بعد عام ونصف، قالت: من رأيي أن تجعل هيام تجد الشخص الذي تحلم به وتصفه، وبأنه بالمواصفات التي تتمناها تمامًا، كل شيء منسجم ومتوافق بينهما من حيث التفكير والذائقة والظروف والأحلام، ولكنهما لا يشعران بالحب تجاه بعضهما، بتلك الشرارة الغامضة من الأحاسيس؛ لأن الحب الحقيقي هو لغز حقيقي، شيء غامض يصعب إخضاعه لمنطق وظروف وتوافقات.

اتفقت بورا المدريدية، المولعة بقراءة الروايات الحديثة، مع النهاية التي اقترحتها ماريا، وأضافت عليها مقترحًا؛ أن أجعل قصتي أنا هي الأساس لتكون كتابتي أكثر صدقًا وإقناعًا: يمكنك أن تسرد قصتك أنت معها أيضًا ابتداءً بدخولك صدفة إلى بريدها الإلكتروني عن طريق الخطأ، سواء بسبب التعب أو عدم الانتباه، وبعد تفاعلك وتعمقك بقراءة رسائلها تقع في حبها؛ مما يقودك إلى كسر حياة الوحدة الروتينية التي كنت تعيشها في الأردن، مكتفيًا بتدبير كل يوم بيومه، فيحفزك هذا الحب لاتخاذ قرار السفر بحثًا عنها في مدريد. لأن الفكرة التي تبثها في نصوصها هي أنها لا تريد أن تكون مجرد متفرجة سلبية في هذا العالم، وتجلس بانتظار أن يأتي إليها الحب، وإنما هي التي تبحث

عنه، وأنت تصاب بعدوى هذه الفكرة لتحولها إلى محرك يقودك نحو تغيير حياتك بشكل راديكالي، وبعد أن تلتقي بها شخصيًا في مدريد تكتشف بأنها لا تناسبك في حياتك الواقعية، وإنما تناسب حياتك المثالية وحسب، وربما تصبحان صديقين حميمين وتروحان سوية تبحثان عن حبكما المثالي.

المهندس عزيز المَغربي طرح اقتراحًا مختلفًا تمامًا عن كل ما قيل: ما رأيك أن تجعل تقنية الحكاية كالتالي؛ وأنت تقوم بمراجعة وحفظ وترتيب كتب ومخطوطات وأوراق شقيقك الراحل حسن مطلك، تعثر بينها على مغلف كبير، وعندما تفتحه تجد فيه رسائل هيام التي كانت تبعثها إليه، ولا تعرف فيما إذا كان يرد عليها أم أنه يكتفي بحفظها كأية رسائل أخرى من معجبيه، وعند قراءتك لرسائلها تقع في حبها بحيث تحدث على شخصيتك تحولات تدفعك للتشابه أكثر مع حسن حد تقمص شخصيته تمامًا، وبعدها تقرر البحث عنها. أو تخترع أنك وجدت عنوانها في إحدى رسائلها فتبدأ بمراسلتها، وهكذا تصبح تقنية الرواية هي أسلوب تبادل الرسائل المتعارف عليه في بعض الروايات.

لوثيا الأندلسية، المُحِبة لخطيبها، قالت وكفها في كفه إلى جوارها: أنا أقترح أن يكتشف زوج هيام بريد رسائلها؛ سواء من خلال معرفته العلمية بالحاسبات، أو بسبب أنها نسيت إغلاقه ذات مرة، كأن يكون لارتباكها مثلًا؛ لأنه ينتقدها دائمًا لجلوسها الطويل أمام الكمبيوتر، فتنهض سريعًا دون إغلاقه بشكل تام عندما سمعته يدخل البيت فجأة عائدًا من العمل في غير موعده... المهم أن الزوج يروح يقرأ رسائلها سرًا فيرى كيف تصف شعورها

بالوحدة، إحباطاتها، ذكرياتها، تفكيرها، رأيها فيه وما إلى ذلك.. وهنا يبدأ باكتشاف ومعرفة هذه المرأة التي تشاركه السرير والترحال والأبناء وكل شيء في حياته، فيدرك كم هي ذكية، حساسة، شفافة، مجروحة، نبيلة، حالمة وقوية، ومن خلالها يتعرف على نفسه أكثر، فيحبها أكثر، ويبدأ بإعادة النظر بقناعاته، ويتغير سلوكه الروتيني المعتاد معها إيجابيًّا بالتدريج وفق كل رسالة جديدة تكتبها، كأن يهديها مثلًا كتابًا ذكرته لمؤلف تحبه، أو أن يدعوها لزيارة متحف أو معرض فنان قالت إنها تتمنى رؤيته، وينفتح عليها بالحوارات.. وهكذا، فتلاحظ هي التغيرات على زوجها، وتبدأ بتغيير نظرتها إليه من كونه (مستأجر)، كما تسميه، إلى زوجها بحق. ما أريد قوله هو أن كثيرًا من الناس يعيشون مع بعضهم، لكنهم لا يتحاورون ولا يتواصلون فيما بينهم بشكل حقيقي، ليعرف كل منهم الآخر على حقيقته، فلو أننا أوجدنا النية وبذلنا الجهد لمعرفة الآخر، فربما سنكتشف بأن الشخص الذي نعيش معه هو بالفعل فارس الأحلام الذي كنا نتخيل بأنه بعيد وفي مكان ما.

الغالبية تقريبًا، أعجبهم اقتراح لوثيا وطرحها، باستثنائي أنا طبعًا؛ لأنني سرعان ما تخيلت بأنها عندما ستقرأ الرواية على هذا النحو قد تنفتح على زوجها مجددًا، وتحبه فعلًا، أو أن تعطيه الرواية ليقرأها فيحدث بينهما ما يحدث فيها من إعادة اكتشاف أحدهما للآخر، وعندها سأكون أنا الخاسر.

أما عبدالهادي فقد قال: أنا أرى بأنه يمكن مزج كل هذه الاقتراحات وطرحها داخل الرواية نفسها، وأن تترك النهاية مفتوحة للقاريء نفسه ليتصورها وفق ما يرتئيه، ويتوافق مع تجربته

الشخصية وحلمه، أو أن نعود لاقتراح أحمد لإيجاد نهاية سعيدة؛ وذلك لنسعد أحمد أولًا؛ لأن الليلة هي عيد ميلاده.

ابتهج أحمد بهذا القول حد التصفيق، وأضاف عبدالهادي: ولكي تكون السعادة في ذروتها مثلًا، تجعل هيام تلتقي بحسن مطلك نفسه.

هنا فاجأنا الاقتراح جميعًا. توقف أحمد عن المَرَح المُنتشي. ساد الصمت وشُدَّت كل العيون باتجاه عبدالهادي الذي أكمل: من عظمة الأدب أنه يتيح لنا فرصة أن نعيش ما لم نستطع عيشه في الحياة، وأن نحقق من خلاله كل ما نتمناه ونحلم به بلا حدود، فلتجعل هيام تحقق حلمها إلى أقصاه إذًا. يصلها خبر بشكل ما، من شخص أو من الصحافة بأن حسن مطلك لم يُعدم وإنما كان واحدًا من بين الذين كانوا يقبعون في تلك السجون السرية أيام الدكتاتور، والتي تم اكتشافها بعد سقوطه وإطلاق المساجين منها. قيل بأنهم استغرقوا وقتًا طويلًا لمعالجتهم من الأمراض الجسدية والنفسية التي أصابتهم في الزنازين المظلمة تحت الأرض، وأن بعضهم أصيب بالعمى حال رؤيته لنور الشمس. وبما أننا نتحدث في إطار الأدب، فبالنسبة لي شخصيًّا ولكثيرين غيري؛ أن حسن مطلك لم يمت، بل لازال حيًّا يصاحبنا، يتحدث إلينا ونتعلم منه عبر قراءتنا لنصوصه.

شهقت أنا متأثرًا بما قاله، فنهضت نحوه مختنقًا بالدمع، عانقته بقوة وبكيت فبكى. نهض البقية يعانقون عناقنا أو يربتون على أكتافنا حتى هدأنا وعدنا للجلوس، عندها أضافت مَلَك السورية التي أحزنها كثيرًا موت أبيها في غيابها: ولتكتمل النهاية السعيدة أكثر، اجعل هيام تعرف خبر نجاة حسن مطلك من والدها الذي تكتشف بأنه لم يمت هو الآخر، وأنه كان شريكًا لحسن مطلك في الزنزانة أعوامًا، وهكذا

تقرر العودة إلى العراق .مستعيدة لوالدها وواجدة لحبيبها الحلم، وسيكون هذا بمثابة ترميز لحلم استعادة العراق نفسه وعودته إلى الحياة مثل أسطورة طائر الفينيق التي اخترعها العراقيون أنفسهم.

لكن لوثيا قالت: بالتأكيد كل هذه الاقتراحات جميلة وممكنة، ولكنني شخصيًا أميل إلى الروايات الأكثر واقعية وأقل مبالغة بالخيال لأنها ستكون أكثر إقناعًا للقارئ العادي، ونفعًا له في فهم إشكالياته وهمومه الحقيقية والتعامل معها؛ لذا، لا زلت عند اقتراحي بأن يكتشف الزوج رسائل هيام فيكتشفان من خلالها نفسيهما مجددًا وأن الحبيب المثالي الذي كان يبحث عنه كل منهما إنما هو الشخص الذي يعيش معه فعلًا. كم من الأشياء التي نبحث عنها ونحلم بها فيما هي أمام أنظارنا دون أن ننتبه إليها!.

يبدو أن لوثيا قد عاودت الحديث حول اقتراحها عن قصد وذكاء لإخراجنا من جو التأثر العاطفي الذي دخلنا فيه، وبهدف إنهاء السهرة بالغناء، وهذا ما حدث. راحت توضح وتدعم اقتراحها أكثر وتبين لنا من أين استلهمته. حدثتنا عن أغنية إسبانية تحبها، من تلك التي اشتهرت في السبعينيات، عنوانها (باقة بنفسج) كتبت كلماتها ولحنتها وغنتها المطربة الإسبانية (ثيثيليا) التي كانت مسيرتها الفنية قصيرة، لكنها حققت نجاحًا لافتًا وشهرة آنذاك بأغانيها: (عزيزتي إسبانيا) و(سيدة يا سيدة) و(باقة بنفسج) التي كتبتها سنة ١٩٧٥ وتوفيت بعدها بعامفي حادث سير وقع على الساعة الخامسة والنصف فجرًا حين كانت عائدة من حفل أقامته وختمته بـ (باقة بنفسج) الجديدة وقتئذ.

كلمات الأغنية تتحدث عن زوجة رومانسية حزينة، تعاني من

جفاف تعامل زوجها معها وانشغاله بالعمل عنها. تتلقى رسائل غزل وحب شعرية وباقات بنفسج من شخص مجهول، تجعلها مسرورة.. وهي تتخيل وتحلم بذلك الفارس الذي يحبها إلى هذا الحد وصارت تحبه، ثم يتبين بأن زوجها هو نفسه الذي كان يبعث لها تلك الرسائل وباقات البنفسج حبًّا بها، دون أن يخبرها بذلك. يكفيه بأن يراها سعيدة وأنه هو سبب هذه السعادة.

أعجبَت قصة هذه الأغنية أحمد كثيرًا فقال: الآن عرفت لماذا تحبين ورد البنفسج.

ثم طالب لوثيا بأن تغنيها لنا، ونهض يوزع علينا ورود باقة البنفسج التي أهدتها إليه وهو يقول: وأنا أيضًا أحبكم جميعًا إن كنتم لا تعلمون.

عندما صدحت لوثيا مغنية مقاطع من هذه الأغنية، ارتعش قلبي وأرعَش بدني كله. تذكرت أن هيام قد أشارت إليها وترجمتها في أحد إيميلاتها؛ لذا حال عودتي إلى البيت، حاملًا بيدي وردتي البنفسجية، رحت أُفتش عنها بين كم ورق رسائلها، وأعدت قراءتها بلحنها هذه المَرة.



هي

أحبك كثيرًا، هذا أولًا وأخيرًا.

أما ثانيًا، فإن عبود، ومنذ بضعة أيام، صار يُظهر ويعبر عن حبه لي، ولا أدري لماذا، وما الذي تغير؟ علمًا بأنه يعيش بشعور دائم

بفقداني، وبأنه سيفقدني نهائيًا في أية لحظة، هذا على الرغم من أنني مسالمة، هادئة وأعمل ما يريد قدر الإمكان تجنبًا للمشاكل التي ليس لها مبرر ولا أحبذها، أعتبرها مضيعة لوقت الحياة وضربات تؤذي الذهن والحواس. ومن المصادفات، أن يكون نصيبي هذه المرة، ضمن واجبات دروس الترجمة، أغنية إسبانية من أغاني السبعينيات عنوانها (باقة بنفسج) تتحدث عن امرأة لا تدري بأن فارس أحلامها هو زوجها نفسه. ربما أن معلمتي الراهبة قد كلفتني بترجمة هذه الأغنية تحديدًا عن قصد. إنها لا تعلم بأن الحب شيء والزواج شيء آخر تمامًا؛ على الأقل وفق تجربتي ووجهة نظري. لكن هذه الأغنية قد أعجبتنا بكلماتها ولحنها في كل الأحوال، بحيث ذهبت إلى الأماكن نفسها في المتنزه الذي سجلتها فيه مغنيتها للتلفزيون، وخطوت حافية على العشب مثلها في موضع خطواتها تمامًا، تقمصتها لمساء كامل، أغني أغنيتها وأترجمها، وطبعًا هي بالأصل قصيدة جميلة، مقفّاة، وهذه أول تجربة لي في ترجمة الشعر، آمل أن تعجبك.

"كانت سعيدة في زواجها

وإن كان زوجها هو الشيطان بعينه

فهو رجل عصبي المزاج

وهي تشكو من كونه ليس حنونًا.

منذ أكثر من ثلاثة أعوام

كانت تتلقى رسائل من مجهول

رسائل مليئة بالشِعر،

أعادت إليها الفرح.

فمَن يكتب لها هذه القصائد، قل لي: مَن؟
مَن ذا الذي يبعث لها بالورد في الربيع؟
مَن ذا الذي في اليوم التاسع من كل نوفمبر،
ودائمًا بلا بطاقة أو عنوان،
يبعث لها بباقة بنفسج؟

أحيانًا، تحلم وتتخيل
تُرى، كيف يكون ذلك الذي يُقدرها كثيرًا؟
هل هو رجل أشيب الشَعر؟
ابتسامة منشرحة وحنان في الكفين؟
إنها تعاني بصمت ولا تعرف
مَن هو حبها السري،
وتعيش هكذا.. يومًا بيوم
حالمةً بأن تكون محبوبة.

فمَن يكتب لها هذه القصائد، قل لي: مَن؟
مَن ذا الذي يبعث لها بالورد في الربيع؟
مَن ذا الذي في اليوم التاسع من كل نوفمبر
ودائمًا بلا بطاقة أو عنوان

يبعث لها بباقة بنفسج؟

وفي كل مساء، عندما يعود زوجها

مُتعَبًا من عمله، ينظر إليها خِفية

لا يقول شيئًا.. لأنه يعرف كل شيء.

يكفيه أن يعرف، بأنها سعيدة هكذا على أية حال،

لأنه هو الذي كان يكتب لها القصائد،

هو عشيقها وحبها السري

وهي التي لا تعرف شيئًا

تنظر إلى زوجها.. وتصمت.

فمَن يكتب لها هذه القصائد، قل لي: مَن؟

مَن ذا الذي يبعث لها بالورد في الربيع؟"

★ ★ ★

أتدري يا حسن..

أحيانًا أتخيل بأننا، عندما نعيش معًا، سوف أكون في كل يوم امرأة مختلفة. أتقمصهن، يعني، مثلًا؛ في يوم أكون مثل أمي، ويوم مثل ياسمين، ويوم الراقصة تحية كاريوكا، ويوم المتصوفة القديمة التي كنتها، أو حتى الأم سانتا تيريسا دي كالكوتا، أو رابعة العدوية،

ويوم مثل إحدى الغواني البصراويات اللاتي كنت أراهن في منطقة خمسميل، ويوم بشعة الريفية الذئبية التي حدثتك عنها، ويوم حبيبة معجزة الموسيقى في فلم (المعجزة ٩٩٩) ويوم حنان أختي أو جارتنا الصابئية في بغداد، أو سهيلة زوجة القصاب، أو أخت عبود أو ميسلون أو هدى حبيبات حسن مطلك في (كتاب الحب) أو عزيزة أو عالية في رواية (دابادا) أو تفاحة في رواية (قوة الضحك في أورا) .. وهكذا، كل الشخصيات النسائية التي عرفتها أو قرأتها أو تخيلتها أو سأعرفها.. بالمناسبة أنا أعرف التمثيل أيضًا، ليس التمثيل المحترف بالضبط، وإنما، كما ذكرت لك، عندي عين سينمائية تجيد الالتقاط، وأفكار وأحلام كثيرة لن يكون لها من وجود إلا معك أنت. جرب أن تصف لي بالكتابة أو بالهاتف أي شارع تُحب المشي فيه، أو كافتريا تُحب الجلوس فيها أو مسرح أو حديقة وستجدني أعيش معك فيها فعلًا. أتخيلك تضحك الآن، وأنظر إلى بزوغ الشيب في رأسك، أحبه.. وربما خرج لك مبكرًا لأنك إنسان مرهف وحساس مثلي تمامًا. أحبه فيك وليس في شَعري أنا، فأنا عندي بضعة شيبات، ومجنونة منهن، أطاردهن بالمِلقاط كل يوم في المرآة لقلعهن، مع خشيتي من أن قلع الشيب سيزيد منه، كما يقال... لازلت تضحك.. صح؟

أحبك منذ أكثر من خمسين ألف سنة. أنا حواء الأزلية، غصة مهولة.. أنا.. لا أعرف كيف أكتب هذا الذي أشعر به. إنه لشيء صعب، بل مرير، أن ترى وتسمع غيرك وتفهمه، تشعر بكل ما يعبر عنه وليس لك من سبيل لتعبر له أنت عن نفسك. شعور بالاحتباس، بالاختناق.. بانتظار معجزة... سأكتب لك عندما أهدأ قليلًا.



مشتاقة... أمس كنت في سفرة خارج مدريد.

تذكرتك هناك. رافقنا في الرحلة شقيق زوج أخت عبود، هو وزوجته الألمانية، بشكل ما أحسست بأنه يشبهك، من حيث طول القامة وحجم الأنف والمشية الهادئة الواثقة، ولكن تبقى أنت الأجمل في ناظري. تزوج هو مع حبيبته على الرغم من كل ممانعة وتزمت عائلتها وعائلته المتدينتين وهي باقية على دينها لحد الآن. صورتهم الحلوة في بالي، فيما أفكر بأنني محرومة من كل هذه الأشياء البسيطة والطبيعية، زوجة وزوج يناسبان بعضهما، بينما أنا مع هذا الرجل الغريب عني، أغراب حتى في الصورة الاجتماعية، شيء غير مترابط ولا يجمعنا سوى الاختلاف.

العطلة طويلة والأولاد في البيت وأنا أشتاق أكثر عندما أسمعك أو لا أسمعك.. كتبت لك يوم الأحد. لماذا لم تصلك الرسائل؟. رجعت من السفرة وأنا أشد حيرة، لم أتكلم.. لا حرية، وهي أكثر ما أريد.. يوم الأحد، بعد يأسي من وجودك أمام الشاشة خرجت، جلست على مصطبة في الطريق وكتبت لك على ورق، وقبل رجوعي مزقت الصفحات ثم عدت خالية.. لماذا لك أنت؟.

طوال عمري جائعة، وعطشانة عشق، وأنت وليمة أمامي.. لكنك تقول: لا تمدي يديك... ما أصعب ذلك؟ لا تقل لي احلمي فقط.. تخيل الموقف.. لست معنيًا بأي شيء، ودائمًا أنا معك.. أسترجع صوتك في داخلي.. مرات أمدده معي في الفراش، أحتضنه، أداعبه وألاعبه .. مرات.

عند سماع صوتك أحس براحة ونشوة وماء بارد عذب ينزل على

قلبي. أُقبل قدميك اللتين تمشيان بحثًا عن كابينة هاتف للاتصال بي، أبوس كل ذرّة في لهفتك التي وصلتني طازجة وصادقة ومُحِبة تريد احتضاني وتقبيلي.

اتصلت ياسمين قبل قليل، لكن المُستأجِر كان موجودًا فلم نستطع أن نمزح ونضحك براحتنا، وحالما أنهينا المكالمة اشتغلت أسئلته التحقيقية معي.

فلأطوِ هذه الصفحة أفضل، وأستعِدْ حلم صورة الكرسي الذي نجلس عليه معًا، نقرأ الصفحات ذاتها، ولكن لم أحدد بعد؛ من يجلس في حضن الثاني.. فكلا الوضعين جميلين؟ سنتداول السُلطة على الكرسي.. أكاد أبصر حفيف ابتسامتك العذبة.

عن إذنك لبضع دقائق، سأحضر قدح شاي آخر وأكتب إيميلًا لياسمين ثم أرجع لك حبيبي.



تقريبًا.. أكلت (دابادا) أكلًا، وملأت حواشي صفحاتها بأسئلتي ودهشاتي وشخبطاتي. من أغلى أحلامي أن تقرأ لي بصوتك أنت هذه التحفة. سوف أرتب أسئلتي للقراءة التالية.

أنا مأخوذة بدابادا يا حسن.. أشعر بأنني قد قرأتها قبل أن تُكتب أو حتى قبل أن أولد، هناك وحيدة معها في رحم أمي. صفحاتها الأخيرة مُذهلة وهي تقترب من تفسير دا...با.. دا.. كأنها كل المفردات ومع ذلك لا مفردة. الحوارات الملتحمة بالسرد، الانتقالات بين شاهين وعواد وعزيزة وعالية وحلاب والراوي.. أذهلتني. في

إحدى العبارات يقول الراوي بأنه لا يعرف شاهين ولا عواد ولا عزيزة ولا يقدر على وصفهم.. إنه مثلي يلمس الكلمات بأصابعه كما تُلمس كائنات حيّة، اللغة بالنسبة له هي روح الإنسان؛ لذا كم يحزّ في نفسي أن الناس في هذه الأيام تهمّش لغة الأدب والشِعر في حياتها، تاركة للساسة والتجار ورجال الدين والصحفيين مسألة التحكم بلغتنا اليومية، وهم أسوأ الناس تقييمًا وتعاملًا معها. كأنهم يحترفون تخريبها عبر تعمدهم عدم تسمية الأشياء بأسمائها الدقيقة. اللغة عيننا التي نرى بها العالم، وحرفتهم هي ذرّ الرماد في هذه العين كي لا نرى بشكل صحيح. يفترض إيجاد محكمة دولية لمعاقبة كل الذين يسيئون للغة ويعبثون بها. اللغة هي أخطر الأسلحة التي تفتك بالعالم؛ لذا لابد من إجماع دولي على تحريم سوء استخدامها. صدّقني إن كل مشاكل البشرية سببها سوء التفاهم، وأن سوء التفاهم سببه سوء استخدام اللغة.

لسنوات، كنت أسأل عن حسن مطلك، وكان الجواب جُملًا مبتورة. هو الذي جمعنا بهذه الطريقة التي تفوق الخيال. مع نفسي أقول: من المؤكد أن أجمل لحظة في حياته كانت لحظة اعترافه بكرهه للطاغية أمام بصر وسمع زبانيته، وأنه حاول التغيير. ذات مرة اعترفتُ للمستأجر وقلت له بأنك أكبر غلطة في حياتي. ياااه، يا لها من نشوة تلك التي شعرت بها لحظة الاعتراف. إنها لحظة الذروة في تطابقنا مع أنفسنا، لحظة إشراق وتجلٍّ أن تكون (الأنا) هي ذاتها ولا أي شيء سواها. لحظة عظيمة، خطيرة وبريئة كما يتفتق الكفن أو شرشف المستشفى الأبيض. حسن مطلك واصل هذه اللحظة حتى حبل المشنقة وليس مجرد لحظة عابرة مثلي. حسن مطلك كان بعد عودته من وجبات التعذيب الوحشية محطّمًا، يضع فمه على أنبوب المجاري

الموصل بين الزنازين ويروي لرفاقه النكات، كم أتخيل مشهده هذا سعيدًا والدم يتدفق من فمه، وقد يطفر أحد أسنانه المكسورة على فوهة أنبوب المجاري عندما يقهقه في آخر نكتته. وأية عظمة ونشوة هذه، وإخلاص للغة حين يكون طلبه الأخير من القاضي بعد تلاوة قرار الإعدام، أن يقوم بتصحيح لغوي لنص القرار!!!! بكل يقين هذا كاتب يجلّ اللغة حتى الموت؛ لذا أثق بكل لغته في كل ما كتب، بل إنه لواجب علي أن أحبها حبًّا أعمى.. كحبي لحبك.



حدث شيء غريب، وصلتني رسالة فارغة وبدون مُرسِل إلى الإيميل الآخر. قلقلت قليلًا، وهذا سبب دعاني لمسح رسائلك ورسائل قديمة من عبدالجبار. بالمناسبة، أنا لا أرد على كل الرسائل. ليس لدي مزاج دائمًا. أريد أن تعرف كيف ينظر الآخرون إليّ، أن تعرفني وأنا مع الناس وليس معك فقط، هذا قصدي وليس الهدف أن أثير غيرتك أبدًا. عبدالجبار رجل لا أعرفه، و لم نكن حتى أصدقاء. من هو عبدالجبار هذا؟ لا يهم، لابد وأنه أحد ما!. طبيبي الموريتاني الصديق يلح على عبود أن يقنعني بعدم الغياب عن مواعيده.

أمس تخلصتُ من النظارات الطبية تمامًا واستبدلتها بالعدسات اللاصقة. قبل ذهابي إلى العدسات اتصلت بك مرتين، لكن تليفونك كان يقفل بعد الرنة الثانية، توقعت أن تكون في اجتماع أو محاضرة مثلًا. بعد العدسات اتصلت بالفيل والتقينا. كنت بحاجة لكسر الوحدة التي أشعر بها. أمضينا ساعة ونصفًا نتجول في الحافلات. يدلني على مزيد من الحدائق والمكتبات ومناطق الأمسيات الثقافية.

طلبت منه أن يحكي لي عن حسن مطلك واستطعت أن أعرف شخصيته أكثر، قرأنا قليلًا من داباداا.. وأخبرني عن أمسية لقراءات عربية وإسبانية في المعهد المصري. كنت أريد الذهاب إليها ولكن لم يكن أمامي وقت كافٍ. كان يتعيّن عليّ أن أرجع قبل أو بعد السابعة بقليل. رجعت، وكان عبود في البيت فلم أستطع الكتابة لك.

كنت أريد أن أقول لك بأن لديّ شعورًا كالذي لديك تمامًا. عندما أكون بين الناس أشعر بأنني أحبك أكثر، وبأنك غائب عني مؤقتًا وحسب، بينما المفروض أن تكون معي. أتلفت يمينًا ويسارًا فأراك، أين اختفيت؟ ربما ذهبت إلى الحمّام أو لتشتري علبة سجائر أو استغرقتك القراءة بين رفوف إحدى المكتبات.

أتوق لرفقتك في كل خطوة تخطوها، كل نفس تتنفسه، كل كلمة تقرأها.. بل وأشتهي حتى أحلامك... صباحًا أحسست بطعم قبلاتك على خدي، بادلتك بأكثر منها ومثلنا فيلمًا رومانسيًا قصيرًا وجميلًا. كل خلية في هذا الجسد تتلهف إليك. مرات، أحس بأن في ساحة مركز جسمي مظاهرة صاخبة، أكاد أسمعه يصيح ويهتف مطالبًا بك.. إنه يشتهيك، وأنا لحد الآن بلا فطور، ليتني أفطر عليك ومعك.. يقينًا أن طعم الأكل معك مختلف عن سواه، وحتى طعم الماء والهواء يختلف.. مشتاقة جدًا ولا أستطيع حتى الاتصال بك لأن الأولاد موجودون... أوف، يا لها من محنة!



مساء الخير حبيبي.. كيف حالك؟.. زين؟

قبل قليل، رجعت من الحديقة القريبة أنا والأولاد.. شاهدت أحلى

مطاردة بين سنجابين. صارت الحديقة صديقتي أكثر.. ولأنك تغيب عني وتتدلع عليّ أكثر من اللازم حتى وأنا في أوجِ الشوق والاشتعال.. الأشجار العالية باخضرارها الفاتح احتضنتني بدلًا عنك، وفي أحضانها كتبت لك أشياء عديدة.. شعرت بأن القلم هو الآخر كان بشوق إلى أصابعي بعد أن أضر الكمبيوتر بالعلاقة بينهم... لا تسأل ما الذي كتبته.. فأغلبه شتائم تقريبًا.. أي؛ أفرغت شوقي وغضبي وهدأت من تلاطم أسئلتي قليلًا..

كان الجو باردًا وأنا أقرأ (دابادا) بصوت عالٍ.. حيلة صغيرة؛ القراءة ضد البرد والحَر والألم.. وحتى وجع الأسنان... عندما أكون عند طبيب الأسنان، ولتحاشي التفكير بالألم وما تحدثه الإبر والأدوات المعدنية المقززة في فمي، أقرأ قصيدة (غريب على الخليج) في سري، وحين كانت تنطفئ الكهرباء في بغداد صيفًا، كنت أقرأ الشعراء الروس كرسول حمزاتوف ويسينين وبوشكين وآنا إخماتوفا كي تتسرب إلي بعض برودة الثلوج في بلادهم.



حلمت هذه الليلة حلمًا جميلًا؛ كنت أخبز لك على تنور طيني وسط حقل ريفي قرب النهر، خبزًا مُحمَّصًا بالسمسم. كنت أعتني بكل رغيف كأنه قطعة فنية فريدة كي يعجبك، وأتذكر بأنني كلما لسعتني ناره، أقول: ربما لا يعجب التنّور خبزي أيضًا.. لا أعرف ما دلالة هذا الحلم.

لكن أقرأ رسائلك.. فأجدك تقول لي: هناك دائمًا أناس يعوضونك عني.. لماذا تقول هذا؟ أنت تعرف مدى عطشي لك أنت بالذات منذ

أزل، وتعرف أنني بدونك سأكون منفية ووحيدة.. وكأنني كنت طوال عمري معك وتفارقنا الآن.. ثم يا حبيبي، بعثت لك رسالة ياسمين وفيها قصيدة لي أو لبغداد كي أقول لك بأن الصديقات يكتبن لي وعني أيضًا.. فمثلًا، كانت ريتا تحمل معها دفترًا صغيرًا كلما التقينا وتكتب عني كثيرًا، تراقب تصرفاتي وتدون عباراتي التي أقولها بعفوية..

قبل قليل. كنت أسرق هدوئي وتركيزي معك. سمعت طرقات تتردد على الشبابيك والباب. اصبر قليلًا يا حياتي وصبّرني معك. أشعر وكأنني في عالم آخر. محاصَرة بالطرقات وثرثرة عن كرة القدم أو العراق أو الدين أو الأسعار أو أي حديث يومي سطحي ومعاد. خذني معك كي أنسى الذين حولي. أريد الغرق في أحاديثنا نحن فقط، أحاديث عن الحب والكتب، أحاديث نمارسها كممارسة الحب وأثناء ممارسة الحب. أشعر بنشوة أو بجنين طيفك يتحرك في داخلي، طيفك عندي أجمل من كل الحقائق. مهووسة بك، عقلي، ذائقتي الأدبية، جسدي وحتى حبي للألوان. أقول: أكيد أن الألوان التي تعجبه هي نفسها التي تعجبني. أنت تحب اللون الأزرق. كل قمصانك زرقاء.. أحبك، أحبك أيها الأزرق بلون البحر والسماء والأحلام، وأريد أن أمصمصك شيئًا فشيئًا حتى يزرق جلدك أكثر، أضغط بشفتي، أداعب بلساني، وأنت، اكتب على كل جسدي ما تشاء، ثم نأكل تمرًا ونشرب لَبَنًا ونعود للحب. إنني أغلي الآن، سأجن. الأولاد في الحديقة. يقيني هو أنك الرجل الوحيد الذي لن يشمئز جسدي من ملامسة جسده. أريد الذهاب إلى المكتبة العامة. أقبلك، أبوس عينيك، شفتيك، لسانك، جبينك، رقبتك، صدرك، أصابعك، بطنك، وسطك، ساقيك، ظهرك، قلبك، روحك، ذكرياتك، أقلامك، كتبك... و..و،

ولو بقيت أعد وأسمي ما أحبه وأقبله فيك فلن أنتهي. إذًا لأذهب؛ لأن الكتب بانتظاري في رفوفها منذ أعوام. انتبه لحالك حبيبي، ومؤسف أن السجائر تأخذ من أيامك، يُفترض أن تمنح هذه الأيام لي أنا. كما أوصيك ألا تتكلم كثيرًا مع الآخرين، وإنما وفّر لي كل الحديث، كل السمع.. ولن نكتفي.. ولن ننتهي أبدًا.



حبيبي يا نور عيوني.

كنت أغني لك تحت الدش (هواك أنتَ شَتِل عَنبر يجود بغير منِيّة/ وهواك أنتَ ورد أخضر يمطر وفا وحِنية/ ومن حبك غناي أنا تعلمته.. وهذاك أنتَ). بعثت لك برسالة الفيل خشية عليك من الغيرة بلا سبب. أتعامل مع كل الناس بإنسانية وليس مع الفيل فقط. في كورس اللغة، طالب إنجليزي اسمه تايلور، وهو في أواخر العشرينات. عندما نتحدث يتعجب؛ كيف أنا المحجبة قد قرأت شكسبير؟ وكيف أعرف بايرون وكيتس وهو لا يعرفهم!.. ثم يخجل من نفسه حين أروح أعدد له أسماءً كثيرة من الشعراء الروس والفرنسيين والأفارقة والهنود والأسبان... إنني لأعجب كيف يعيش بعض الناس ويموتون دون أن يعرفوا كل هذه الكنوز والمتع التي تنطوي عليها الكتب! لذا أعتبر كل دقيقة من عمري أعيشها مع هذا المستأجِر غير المكترث بالشِعر خسارة. أشعر بأن كل التجارب التي مررنا بها أنت وأنا، إنما كانت بحثًا عن بعضنا البعض؛ لذلك لن ألح عليك أكثر كي نلتقي، لأنني متأكدة من أننا لن نتمكن بعدها من الافتراق أبدًا. العمر عمرنا ومن حقنا اختيار مع من نعيشه، وليس علينا أن نوزعه على الآخرين، سواء يستحقون

أو لا يستحقون. ربما أنك تتغدى الآن. ومن مشاكلي الجديدة هو أنني صرت أفكر حتى بالذي تأكله. إن الشوربة التي عملتها اليوم لهائلة وهي تحبك وتنتظرك أيضًا. أحسد حتى الهواء الذي تتنفسه وأقول يا ليتني أنا التي أدخل في صدره. ما أريده اللحظة، هو أن أعيش بسلام مع الكومبيوتر وطيفك. تَحَسن الطقس.. وأظن بأنني سأخرج قليلًا لأتمشى وأشم الهواء.



حين تعبتُ من المشي، اشتهيت أن أتكئ على كتفكَ، فتخيلتك أقرب شجرة واتكأت. أردت لمس يدك فلم أجدها، اتصلت بك و لم يرد هاتفك. اعذر نزقي يا حبيبي فأنت تعرف حالي. مثل عطشان يركض على ماء بحر وكلما شرب منه ازداد عطشًا، فلا أدرى ماذا أفعل. رأيت صورتك تنظر إليّ وتبتسم، ما أجملها! ما أجملك! أفكر بأنني إن لم أجدك، فأية صورة سأحتضن عند احتضاري أو آخذها معي إلى القبر، كما فعلت جدتي؟... أفكر بصورة حسن مطلك.

في كل يومين أو ثلاثة، أستعير قصصًا بسيطة لتقوية اللغة، عن شخصيات ممثلين أو سياسيين. آخرها كان كتيبًا صغيرًا عن ممثل أحبه، اسمه كيانو ريفز Keanu Reeves، يقول الكتاب إنه مولود في بيروت لأب أمريكي هاييتي من أصول أوروبية، برتغالية واسكتلندية وإنجليزية وفرنسية وهولندية وكذلك أصول صينية. أمه باتريكا؛ راقصة استعراضية بريطانية، ولديه أخت اسمها كيم. ما أجمل خلطة الدماء البشرية هذه! لم تكن العلاقة بين والديه جيدة فتطلقا. رحل الأب إلى هاواي و لم ير ابنه إلا مرة واحدة عندما كان عمره ثلاثة عشر

عامًا. انتقل كيانو وأخته وأمه إلى نيويورك، وهناك تزوّجت الأم من منتج سينمائي، ثم رحلوا إلى تورنتو حيث حصل كيانو على الجنسيه الكندية، بعدها تطلّقت أمه من المنتج، وتزوجت روبرت ميللر الذي أنجبت منه كارينا، الأخت غير الشقيقة لكيانو، ثم تطلّقت الأم أيضًا وتزوجت جاك بوند صاحب صالون لتصفيف الشعر الذي تطلّقت منه لاحقًا. المفروض أن تُسمى مِطلاقة، بدل مزواجة! صح؟ وتحولت الأم للعمل في مجال تصميم الأزياء بعد أن أصبحت عضلاتها غير قادرة على الرقص كالسابق، أما والده فقد سُجن بتهمة حيازة المخدرات.. حياته ذاتها تصلح فيلمًا.. أليس كذلك؟ أو الأصح حياة أمه، أظن بأنها كانت تبحث عن الحب و لم تجده فأثمرت بدلًا عنه هذا الكائن الوسيم؛ كيانو.

هو ليس بممثل قدير حقًّا، وأغلب شهرته بسبب فلم (الماتريكس). من بين أفلامه لا تعجبني إلا ثلاثة فقط، أحدها عنوانه (نوفمبر الحلو) قصته حلوة فعلًا، ومقدَّمَة بلمسات كوميدية بديعة؛ فتاة تُعجب بشاب ولا تريد الاستقرار معه إلا لمدة شهر واحد فقط.

كيانو عنده فيلم جميل، فاوست عصري ومتمدن، الفيلم غير مشهور لكنه مهم. أتمنى أن نشاهده معًا. هذا الموضوع يثيرني، أقصد تقديم القصص القديمة بطريقة وأحداث ورؤية وتقنية جديدة.

بالمناسبة، في فترة سابقة، كنت أحب كتابة السيناريو، وبدأت بتعلم ذلك من إعادة كتابة الأفلام التي تعجبني، أتذكر ذات مرة أن طالبًا، نسيت اسمه، كان صديقًا لياسمين، من أكاديمية الفنون الجميلة، طلب مني المساعدة لإعداد فيلم قصير كأطروحة لتخرجه، فاقترحت عليه وساعدته بكتابة سيناريو لقصيدة السياب (المومس العمياء). دعوته

لأن نقوم بجولة في أزقة (الحيدرخانة)، وخاصة التي فيها بيوت الهوى، لكي نستوحي منها الأجواء للمشاهَد، استغرب، خجل ورفض في البداية، لكنني أوضحت له بأننا سنفعل ذلك في الصباح حيث لا مظاهر لما قد يتخيله، فوافق والتقينا ببعض القوادات العجائز ممن كنّ جالسات على عتبات الأبواب الخارجية. مددنا رؤوسنا عبر الأبواب المفتوحة كي نستكشف أجواء باحات البيوت. الولَد كان رائعًا ومثقفًا لكنه خجول. كتبنا سيناريو مذهلًا للقصيدة، وعرفت من ياسمين لاحقًا، أن الأستاذ المشرف رفض إنجاز هذا الفيلم، لكنه منح للطالب درجة ممتازة على السيناريو. تقول ياسمين إن هذا الشاب قد هاجر واختفت أخباره، ربما راح يلاحق حلمه حتى هوليود، أو مات في طريق الرحلة في إحدى تلك السفن التي تاجرت بتهريب العراقيين وأكلتهم أسماك القرش.

أحاول أن أنهي قراءة كتاب من كتب المكتبة ولو بسيط كل يوم. أعرف بأنك تريدني أن أتقن الإسبانية بسرعة، وأنا جادّة في ذلك ولا أضيع وقتًا، ولكن أثناء المشي، أحب مشاهدة الناس وهم يتحركون، يتنفسون، يأكلون، يتحاورون.. وأتمنى رؤيتهم حتى وهم ينامون وما يفعلونه قبل النوم.. يعني يعيشون حياتهم. معلمتنا في المدرسة حدثتنا عن رواية من العصر الوسيط الإسباني، يمتلك فيها البطل القدرة على التحليق والنظر إلى داخل البيوت من أعلى.. وكأنها بلا سقوف، ويروي ما يراه من حكايات الناس الخاصة، أدهشتني الفكرة، ولا أستطيع نسيانها.

هي ليست رواية بالضبط ولكنها نشرت تحت تسمية (رواية) عام ١٦٤١، مؤلفها اسمه لويس بيليث دي جيفارا،وعنوانها (الشيطان

كوخويلو). ينهيها بعبارة: ".. وهنا تنتهي هذه الرواية"، هكذا صنّف كتابته الساخرة من الحياة الإسبانية التي تتم مراقبتها من الأعلى من قبل الشيطان كوخويلو وتابعه التلميذ كليوفاس. تبدأ بوصف الشيطان وهو يقوم برفع سقوف الأبنية، بواسطة فن شيطاني، ويكشف عن حقيقة تفاصيل الحياة المدريدية كي يريها لكليوفاس، تمر الكثير من الشخصيات، حيث الجميع يكذب، ثم يحمله طائرًا في أنحاء إسبانيا. وفي ختامها يسخر من الشعراء المشهورين في عصره.

ذكّرتني بقصة طويلة لجليل القيسي ربما عنوانها (الدينار)، يروي الدينار فيها رحلته بين أيدي الفقراء والأغنياء وما يشهده من حكاياتهم، إلى أن ينتهي مقطوعًا إلى نصفين بين كفّيْ زوجين متخاصمين، لست متأكدة بأن القصة تنتهي هكذا ولكنني أتخيل نهايتها على هذا النحو.

أتعرف يا حسن؟.. حتى عندما بدّلت نظاراتي بعدسات، واتتني فكرة خفية وبسيطة ومضحكة، وهي أنني على هذا النحو، عندما أبوسك، لن أضطر للابتعاد عنك ولو للحظة واحدة، لحظة خلع النظارات. أتخيلك تضحك الآن وأنت تقرأ أفكاري الدفينة.

اتصلَ يعقوب الفيل وقال إن ثمة أمسية ثقافية في المعهد المصري على الساعة السابعة، وطبعًا اعتذرت، فحتى لو رغبت بالذهاب، لا وقت لديّ لذلك. فقط، لو كان الأمر برفقتك أنت لخلقت وقتًا من تحت الأرض. خشيت أيضًا من غيرتك أو أن تفكر بأنني واحدة تتلاعب بالآخرين، هو ليس خوفًا من فقدانك بالضبط، لأنك أصلًا لست ملكي إلا في الأحلام. أنت تقرأ أفكاري فلا تحاسبني على الأفكار. الرجل لطيف ورسائله جزء من ملاطفات تقليدية رقيقة لا أكثر ولا أقل. أنا معك لا أحتاج لأن أبرر، عدا أنه ليس هناك ما

يستوجب التبرير أصلًا. إننا نفهم بعضنا تمامًا، عشاق أصدقاء، وعهد؛ سأكون دائمة الصدق معك حتى العَظم، كما كنت منذ أول تصور لك وأول كلمة بعثتها إليك... أوكي حبيبي؟.. لا تدخن كثيرًا أرجوك، وتذكر بأنني أعشقك.



- ٢٠ -

أنيس العوانس

أنا

نمتُ في الطائرة بما يكفي؛ لذا حال وصولي إلى عَمان، انطلقت بجولات التقصي عن معارفي. لكنني لم أجدهم جميعًا. رحل البياتي مرة أخرى وأُغلِق مقهى (الفينيق) من بعده، انتقل إلى دمشق ليعيش آخر أيامه جوار قبر معلمه ابن عربي، طالما ردّد اسمه في قصائده، وزار مدينة مرثيا الإسبانية، مسقط رأسه، وحلم أن يموت مثله في دمشق، ويدفن جواره في مقبرة الغرباء. الدكتور كرّومي، هو الآخر، عاد إلى أراضي معلمه بريشت. مؤنس ترك كل شيء وانعزل متمثلًا عزلة والده الإجبارية حتى موته. باسل انتقل إلى الإمارات. المقاول حسين العمري في مكة لأداء العمرة. محمد القيسي تاه في طريق الغياب الذي سلكته أمه.......

أمضيتُ في النعيمة ليلة في بيت أهل خالد المصري بلا رفقته لأول مرة، فقد رحل إلى أمريكا مُتبعًا أمريكيّة أحبها، كان قد تعرف عليها في جامعة (اليرموك)، تبع قلبه، حبه، حلمه، وهو الذي حاول ثنيي عن اتباع حلمي بالحب. أربكني غيابه، شعرت بكوّة حزن في القلب كادت تتسع لولا فرح أخوته الصغار بالهدايا التي تحملِ شعارات

وألوان أندية كرة القدم الإسبانية، ونشوة قاسم باسطونة أغاني الفلامنكو.

ماهر الأصفر انتقل إلى البيت الجديد الذي كنت أنا حارسًا فيه، فكانت زيارتي له فرصة، علّي أرى (هبيبي) السريلانكية وتراني ولو من بعيد، لكن ذلك لم يحدث، فبعد أن سلمت عليه وقدمت له هديته، مجلدًا ضخمًا يضم مجمل لوحات سلفادور دالي الذي يحبه، احتسينا الشاي في صالون بيته ثم استأذنته أن أقوم بجولة وحدي في هذا الحي الذي صار أغلبه عامرًا. كنت أخبئ هديتي الخاصة لهبيبي في جيبي، شالًا إسبانيًا تقليديًا، أبيض اللون محتشدًا بالورود المطرَّزة، وكنت قد طلبت من خياطة سنغالية في حي (لابابييس) أن تنقل في منتصفه التطريز نفسه الذي نسجته هبيبي على غلاف المخدة الذي اهدتني إياه، بما فيه عبارة (أحلام سعيدة). درت حول البيت الذي كانت تعمل فيه مرتين دون أن أراها. وبعد تردد، قررت أن أقرع الباب، حتى قبل أن أفكر جيداً بالذي سأقوله. فتحته سيدة الدار. حييتها وقلت بارتباك:

عفوا سيدتي، أنا صديق المهندس ماهر الأصفر، صاحب تلك الدار، وكنت حارسها عندما كانت تحت الانشاء، وأنا الآن مسافر عابر، جئت كي أسلم على من عرفتهم هنا، ومنهم خادمتكم السريلانكية.

قطبت السيدة جبينها باستغراب وقالت: وكيف عرفتها؟

ذات يوم حار، انقطع الماء عني وكنت شديد العطش فسقتني شربة ماء.

زاد استغراب السيدة فقالت وهي تدفع دفة الباب قليلا كعلامة

على إنهاء الحديث:- ليست هنا، إنها في أجازة في بلدها وستعود بعد أسبوعين.

سارعت بإخراج المظروف الذي فيه الشال وأعطيتها إياه قبل أن تكمل إغلاق الباب:- أرجو أن توصلي إليها هذه الأمانة. شكراً لكِ.

عدت ووجدت ماهر لازال يقلب لوحات دالي ويحتسي الشاي. قلت له: أوصلني إلى الحي الشمالي.

هناك لم أجد في حجرة سكن المصريين إلا ثلاثة من زملائي الذين آووني، فيما تبدلت بقية الوجوه، ومن حسن الحظ أن أبا عطية كان واحدًا منهم، فاحتضنني بقوة حتى رفعني عن الأرض وهو يردد: مش معقول! يا دِن يا محسن. أنا مُش مصدق عينيه.

وبعد أن أعد لي الشاي، راح يحدثني عن مصير كل واحد، فمنهم من انتقل للعمل في مزارع الأغوار، آخرُ راعٍ في البادية، آخر ربنا فتحها عليه وفتح محل فلافل في قرية قريبة.. أما المعلم رفاعي فقد أصابه مرض أذبله، لا يعرفه أبو عطية، لكنه قال بأن الأطباء أخبروه بألا علاج له، ومن الأفضل له العودة إلى بلده ليموت هناك.

وبعد أن مررت على إمام الجامع مصطفى أوضح لي الأمر، قائلًا: إن رفاعي كان يُكثر من شرب المُنكر ومن ممارسة الحرام مع المومسات في الأيام الأخيرة، والعياذ بالله، و لم ينفع معه نصحي له، فأصابه مرض الإيدز، ولأنني أعرف الطبيب الذي اكتشف إصابته؛ أخبرني أن أنصح رفاعي بمغادرة البلد قبل أن يُبلغ عنه السلطات الصحيّة هنا، فالقوانين هكذا، ولو مات فربما يتم حرق جثته. أقنعت رفاعي بالأمر، نصحته أن يعود إلى بيت أخته لتداريه، وأن يتوب إلى الله لما تبقى له من عمر. وبالفعل، عرفتُ أنه قد مات بعد عودته ببضعة أشهر. وبالمناسبة، لقد

ترك لك معي أمانة. كان على يقين من أنك ستعود وستراني، أو أنني سأعرف لك عنوانًا وأرسلها إليك.

نهض باتجاه الباب المفضي إلى حجرته الخاصة خلف المِحراب، وبقيت أنا مصدومًا بما سمعت، وحزينًا على رفاعي. أتطلع إلى الأعمدة والشبابيك حولي، الثريات فوقي والسجاد تحتي. لم يتغير أي شيء. الأشياء هي نفسها كما تركتها. فكرت ببقاء الأشياء وغياب الإنسان.. مُتذكرًا كيف أن رفاعي هو الذي عرّفني على الإمام، الذي ربما لو تأخر بعودته من حجرته لعاد ووجدني باكيًا تحت سيل انثيال الذكريات. سلمني ظرفًا كبيرا، قلبته بين يدي، ومن زاويته المفتوحة بعض الشيء، رأيت أنه أحد الدفاتر الكبيرة التي كان قد اشتراها لي لأكتب سيرته. فوضعته تحت إبطي دون أن أفتحه، ونهضت أودع الإمام الذي رافقني حتى البوابة بالأدعية.



هي

صباح الخير، ليلة البارحة، لم أنم إلى أن أنهيت كتابًا صغيرًا عن الأم تيريسا دي كالكوتا بالإسبانية دون الاستعانة بقاموس، والكلمات التي لا أعرفها أتخيلها. من بين ما علق بذاكرتي عبارة لها تقول فيها: "أحبَّ حتى يؤلمك الحب. فإذا أوجعك فتلك إشارة طيبة".

اليوم سأنهي كتابًا عن لوركا، من سلسلة الكتب الصغيرة ذاتها. بدأت أتحسس جمال التعبير بالإسبانية أكثر. سأُرجع الكتب وأستعير أخرى، وأستمر بقراءة (كتاب الحب) وأحلم بك كثيرا. حلمت أثناء

النوم بأن لديك أبناء كثيرين، ولكن من نساء أخريات وليس مني، والغريب، كنت أنا المشغولة بالعناية بهم ورعايتهم، ماذا يعني هذا؟ أهي النصوص التي تكتبها مثلًا؟ أهي أحلامك أنت؟ ذكرياتك؟ لا أدري. المهم. سآخذ دوشًّا الآن وأطلع للمشي. لا تقلق ستكون معي في كل خطوة طبعًا.

أحيانًا عندما تروي لي شيئًا من ذكرياتك، تسكنني إلى الحد الذي أخشى معه أن أنسى ذكرياتي وأستوطن ذكرياتك. بعض الرسائل التي أكتبها لك لا أرسلها، تبقى في بريدي، وفي اليوم التالي، عندما أعاود قراءتها، أبكي، لا أدري لماذا!... أحبك بقوة، وفي الحب، أمنح مشاعري كلها دون تفكير. إنني لا أتعلم من دروس الحب. واحدة من أبرز إشكالياتي مع الذين عرفتهم باسم علاقة حب. كنت أحب تمامًا لكنهم لم يحبوني، فكما يقول محمود درويش: "في آخر الأشياء نعلَم أننا كنا نحب... لكي نُحب وننكسر". لا أخاف منك، فأنت حلم أصلًا، حلم سيستمر بكل الأحوال. هل تتذكر زوربا عندما يلتقي صديقه المثقف وهو يحدثه عن الكتب والله والذنوب. زوربا يقول له بأن الرب يغفر كل الذنوب إلا ذنبًا واحدًا، وهو أن تدعوك امرأة مُحبة ولا تلبي دعوتها. أنا أعنيك بهذا الكلام طبعًا، فها أنا أدعوك بكل الحب. إني أحبك جدًّا. هذا مسمار قوي، يعني تلميح مقصود. مرة أخرى، اعذر مساميري، أو على رسلك مع المسامير لأنها تتألم أيضًا، على رأي حسن مطلك.



أنا امرأة فقيرة كما نقول باللهجة العراقية؛ أي ليست فقيرة

فلوس.. وإنما مسكينة، قلبي طيب أكثر من اللازم. لم أكره أحدًا و لم أتكلم ضد أحد بما يجرحه، كما لم أحسد أحدًا على شيء. وكل الذي عندي أقوله للآخر بوضوح.. مثلًا؛ في بغداد كانت لنا جارة متعالية وشايفة حالها؛ لأن زوجها يشتغل في التصنيع العسكري، وعندهم قصر، وسيارات آخر موديل، وترتدي الذهب في رقبتها ومعصميها وقدميها، وما إلى ذلك. وكانت دائمًا تقول بأن لديها الفائض من وقت الفراغ. ذات صيف، أخذتها معي إلى المسبح في (الجادرية). هناك تغار كل النساء من جمال جسدي، ومع ذلك يتقربن مني، يطلبن نصائحي في كيفية جعل أزواجهن يتعلقون بهن، يحبونهن ولا يفكرون بغيرهن. فأفعل وتنجح نصائحي ووصفاتي، علمًا بأنني في الأصل، لا أحب زوجي وأتمنى لو يهجرني إلى غيري.

بعد ذلك، وجدتها تنقلب ضدي تمامًا في تعاملها، وتحكي بالسوء عني وراء ظهري لبقية الجارات. لا أدري لماذا بالضبط، لكن الذي أهجسه هو أنها غارت من رشاقتي مقابل سمنتها، من تمتعي بالسباحة مقابل ارتباكها، من علاقة واحترام الناس لي هناك مقابل تجاهلها، ربما هي أشياء من غيرة النساء هذه. أتت للزيارة بعدها، فتحت لها الباب، أدخلتها، وحين صرنا في الحديقة أوقفتها وقلت لها: اسمعي، ليس لدي وقت للنميمة والنفاق، عندي دروس وأريد أن أقرأ وأطبخ.

أعني من ذلك يا حبيبي؛ ألّا تخشى بأني قد أكون أجاملك أو أسترضيك على حساب صدقي ولو بنصف كلمة، فكل حرف أقوله لك هو صادق ونابع من أعماق هذه الروح الفقيرة الجميلة الغنية بحبك.



حبيبي حسن.. أخذت بنصيحتك، وها أنا أكتب لك الآن بعد دوش سريع وقدح شاي بالنعناع.. أحبك وأشعر بنشوة غير طبيعية.. سأبدل ملابسي وأخرج، أمشي وأغني لك الأغنية التي كانت تغنيها لك أمك في طفولتك (سودة والوجه مُدكِن، حليوة يا حريمة حسن). كنت أغنيها تحت الدوش.. أغلى أمنياتي، اللحظة، هي أن أسمع شِعرًا بصوتك.. أقصد ليس بالتليفون.. وإنما بقربي، بعد أن تكون أجسادنا هادئة وقادرة على استقبال الشِعر بشكل أفضل.

ها أنا متقدة من جديد، لا شيء يخفف من لهيب نار الحب إلا ممارسة الحب نفسه، أليس كذلك؟.. أرتدي جينز داكنًا مع تيشيرت أسود، وفوقه تيشيرت رملي، فيه فتحة واسعة أعلى الصدر. أحبك وأشعر بنشوة غريبة لا تشبه أي شيء.. هي بمفردها شعور خاص، وليس تابعًا لسواه.. أحب الألوان كثيرًا وأرغب بلبس ثلاث تنورات مع بعضها، تكون طبقات، أو مفتوحة من الجانب، بحيث تبين الألوان المختلفة. وأربعة قمصان بألوان شتى، وقبعتين بموديلين.. يعني مدينة ألعاب.. أو تهريج، وبعد كل هذه الهوجة، من أجل إضحاكك. أهيم بك وأرتكب كل جنون العالم اللذيذ معك.. فأقلب اليوم حلمًا والحلم نهارًا لرجل لا يعرف كيف يحلم.. أحقٌّ أنك لا تحلم لا في النوم ولا في اليقظة! يستحيل عليّ تخيل ذلك... إن الحلم اختراع عظيم من الله ضد قوانينه.

السماء صافية الآن كعينيك، وأنا مثلك، أحس بأنني مترعة بكل حب العالم وشهوته، فاعذر يا حبيبي إلحاح الطفلة التي تحتويني ولا تقبل العقل. ماذا أفعل؟ أحبك، وأفكر بالاتصال بك ثانية كي أعتذر

عن الاتصال السابق، ثم أتصل لأعتذر عن هذا الاتصال وهكذا أظل أتصل بلا انقطاع... وأتمنى لك أحلى أطفال العالم وأحلى حروف في العالم وأحلى... وأحلى... إلى ما لانهاية من الأحلى.. متذكرة بول إيلوار: أحبك لأني أحبك من أجل الحب / ولأنك الشمس الكبيرة التي تشرق في رأسي / عندها سأكون واثقًا من نفسي.

أنت تعرف بأنني لست أنانية أبدًا، لذلك، كن أينما تحب وكما تريد، سنبقى معًا بغض النظر عن المسافة والارتباطات الأخرى. هل يكفي هذا الاعتذار؟ أعتذر عن بلاهتي وأنت تسكن حدقتي... أعرف أجوبتك مسبقًا.



عدتُ قبل قليل محملة بالآلام. صداع في رأسي يقرع مثل طبل بسبب كثرة الاستماع والحكي والمزاح. أربع ساعات من الوقوف وعمل التسريحات في محل الحلاقة ثم ساعتين في دروس اللغة. في درس التعبير كتبت عن حسن مطلك وعن مارتن لوثر كنغ، كل موضوع صفحة تقريبًا. المعلمة سمراء؛ لذلك اختارت مارتن لوثر، وأنا لا فرق عندي، فالاثنان يتشابهان في عظمتهما وإنسانيتهما وبياض القلب.. وبالتضحية بحياتهما من أجل حلم الآخرين. طبيبي النفسي ينصحني بالكتابة، وعليك أنت بالكتابة أيضًا. اكتب، وما عداها من المشاغل الأخرى يمكن أن تؤجل، "مَلحوق عليها".. الكتابة والحروف هي مزج الحياة بحياة أخرى؛ لذلك فاكتب في كل وقت ولا يمنعك شيء.. أكتب أي شيء ثم أعد تنسيقه في وقت آخر. يقال بأن تولستوي قد سُئل في آخر حياته: ماذا وجدت في الكتابة؟

فقال: وجدتُ نفسي.

تعرف حسن؟ الكتب، اللعب مع الحروف والعبارات وحتى الإشارات الصوتية غير المفهومة، هي حلمي؛ لذلك أحلم بك أو أخترع حياة كاملة معك، لا شيء فيها غير القراءة والكتابة... لا هموم ولا مسؤوليات سوى هموم الكتابة ومسؤولياتها...

مضاف إلى هذا الصداع، ألم العادة الشهرية، الذي يبدو هذه المرة أشد قليلًا. لا أدري لماذا!. ولحد الآن لم أطبخ شيئًا. سآخذ قرص باراسيتول وأنام. سأروي لك كلما سنح الصمت. أحبك.



لم أستطع النوم.. كلماتك ركبتني وكلمات أغنية (يصد ليك القلب طير ويلوذ بالدوح/ ولقيتك رازقي طِيب وملاحة تفوح).. كلما تخيلت أنني لن أسمع صوتك بعد الآن ينعصر قلبي بشدة، ينقبض. قال لي عبود بأنهم قد يقطعون عنّا المساعدات الاجتماعية. حزنت، ليس على الأكل أو اللبس.. وإنما لاحتمال أنني لن أتمكن من شراء بطاقات للتليفون كي أتصل بك يوميًا... أستحي من كتابة ذلك، وفي الوقت نفسه أتساءل: هل أستجدي الحب؟ لكنني في كل الأحوال أقول ما أشعر به بصدق. ربما لن تسنح لنا فرصة أخرى.. اقترح أنت يا حبيبي شيئًا نرضاه معًا.. شيئًا يحافظ على استثنائيتنا ويديمها. أعرف بيقين أنك تحبني كما أحبك، ولكن ثمة حلقة مفقودة من جانبك.. لا أدري ما هي بالضبط!.

أعرف أن لك بعض مبررات تخوفك.. أعرف أن قلبك عصفور، وأنك تخشى من فقدان سيطرتك عليه فيطير صوبي ويحتضنني.

سأتفهم فيما لو أنك راض عن حياتك ولك زوجة تحبها. لكنك تحبني أيضًا، أليس كذلك؟. حسن، على رسلك معي ومع نفسك، فكلانا من طينة واحدة.. وبالنسبة لي فأنا على استعداد لتنفيذ ما تريده أنت مني وبلا أي تردد.

أنا هيام.. وأحبك جدًّا... كأن موهبتي الوحيدة هي أن أحبك، لذا لا تتحدث عن بقية المواهب.



سآكل وأعود للكتابة، فأنا جائعة و لم أغير ملابسي لحد الآن. جئت ملهوفة إليك، ولا حيلة لي غير الكتابة. وأسأل: متى تكون القُبل غذائي وحيلتي ودوائي؟. ربما عندها سأرتاح.

تلقّيت عدة اتصالات هاتفية، وكنت أعتذر بكوني مشغولة.. لأنني فعلًا مشغولة بك أنت، في كل أوقاتي... أريد أن أكون معك ومع نفسي. أشتهيك بحيث أعيد كلماتي الحميمة التي أقولها لك. وأسمعك ترددها لاحقًا.

حسن، خذني إليك. لا أعرف كيف، لكن جسدي مجنون بك، وأكثر منه روحي. خذني معك في حلمك أو في جحيمك، في الحمّام أو في ذاكرتك، كما تتذكر ذلك الرجل الذي زعل من حماره فاشتغل حمارًا حمّالًا رابطًا العربة على كتفيه، كل ذلك عنادًا لحماره المُعاند. أفكر بك وأعاتب خالقي متسائلة: هل كُتب عليّ أن أكون مشطورة طوال الوقت، جسد مع رجل وروح مع آخر. لماذا؟ وكم سيطول ذلك؟ وهل بإمكاني الاستمرار بالتوازن مشطورة؟ أكلمك أنت وأسمع الآخر. أتنفسك أنت وأجلس مع آخر. هل هناك محنة أشد

وطأة من هذه المحنة؟ أتوسل الحلم كحقيقة، وكانزياح عن الحقيقة إلى حلم. أشتهيك أكثر من التمر يوم الثلاثاء، فلا تنسني ما بقيت تتنفس؛ ذلك لأنني سأتذكرك حتى وأنا مخنوقة عاجزة عن التنفس.

هذا المساء، سأصطحب الأولاد إلى معرض قرأت عنه في صحيفة (المترو). أحاول أن أعلمهم التذوق؛ استخدام البصر والحواس لفهم أعمق؛ تأويل الرموز أو خلقها. وفي زيارة المتاحف أحاول أن أعلمهم الماضي لأنه مهم مثل الحاضر، أو هو والد الحاضر، وليس مِن أحد لا يتأثر بأبيه سلبًا أو إيجابًا.



حبيبي..

أقسم بأنني مصابة بمرض عضال اسمه الشوق إليك. كأننا أمضينا عمرنا معًا، والآن افترقنا. شيء عجيب! كأن ابتعادنا الآن هو الاستثناء، لذلك سأعتبره هكذا، أو أن الحالة هي التي فرضت نفسها عليّ. باختصار؛ إن فراقنا هو الطارئ.. أتعرف يا حسن؛ معك كل وحدتي انتهت، وهذا أجمل ما في الموضوع. أنا الآن لست وحدي في الصباحات، فعندما أفتح عيني بكسل، أتمنى وجهك بجانبي وأحلم أن أشاكسك دائمًا. "بالحلم يتجدد كل شيء"، فابق معي فدتك روحي. أعتقد بأن المشاعر التي بيننا هي أثمن من كل كنوز الدنيا.. واستمر بالحلم... حلم أن تشرق على روحي، أن تشرق على ملامحي... ربما ستختلط ملامحنا ببعضها ويصير وجهانا وجهًا واحدًا.

كم لعبت مع أصابعك، أنفك، عينيك، أذنيك، رقبتك، صدرك وشعر صدرك وسُرتك، ونزولًا. الطقس بارد هذا اليوم وربما عاودت

حرارتي ارتفاعها. رأسي متصدع لكن روحي تشتهي الكتابة لك. حاجتي للكتابة تطول السماء. أحيانًا، أفكر بألا شيء يخفف عني قليلًا سوى أن أكتب. بلا بدايات ولا تصنيفات ولا تخطيط. أكتب الحقيقة التي أعرفها من خلالي، وعبر ما عشته أو توهمت وأتوهم عيشه. انتبهت إلى شيء ما. إن أي كاتب لن يقدر أن يكون إنسانيًّا؛ أي يشعر بمواضيع الآخرين، إلا بعد أن ينتهي من نفسه، وبالطبع لا أقصد بالانتهاء الخواء الداخلي، وإنما بمعنى أن يحوّل حياته إلى كلمات. لذلك فاكتب عن نفسك أولًا.

ألح عليك بالكتابة. وأنت تلح عليّ أن آكل لأحتمل المرض والضعف وغيرها. فتُذكرني بعمتي وإلحاحها عليّ بالأكل؛ لأنها كانت تتمناني زوجة لابنها. ضحكت وأنت تعيدها عليّ باللهجة الحنونة ذاتها.

أما المُستأجِر، فلا يكل ولا يمل من إلحاحه عليّ بشأن الصلاة وقراءة القرآن ويقول: إنك لا تنسين القراءة من الإنترنت أو كتب القصص التي يخترعها مرضى نفسيون، بينما تنسين الصلاة.

لا أجيبه. أبقى ساكتة.. ساكنة مثل حمارة.

بعثت لك برسالة ياسمين المكتوبة بالإنجليزية، أتمنى لو تعرف قراءتها، ففيها سطر بالغ الجمال، ومما فيها أيضًا معلومة تقول بأن شخصيات أعمال شكسبير تذكر كلمة الحب ٢٢٥٩ مرّة، أما كلمة الكره فلا تذكرها سوى ١٨٣ مرة. يعقوب الفيل اتصل بي قبل ساعتين، وقال بأنه سيسافر إلى الكويت، لم أسأله لماذا وإلى متى واكتفيت بترداد العبارات التقليدية بتمني سفرة سعيدة وبالتوفيق. كم أتمنى السفر معك ولو إلى الجحيم!. أريد احتضانك الآن يا حبيبي..

علّ رأسي يُهدئ قليلًا من حرارته وقلبي يُهدئ من اضطرابه وجسدي مما يعتريه عند ذِكرك. سأذهب طبعًا للطبخ الآن... وبعدها سأواصل القراءة.



في عطلة نهاية الأسبوع، كنت أمشي وأعاتب ربي قائلة: هل تتذكر عندما كنت، كلما صحوت ليلًا، أصلي لك وأقرأ كتابك وأناجيك بدموع؟ هل تتذكر أعوام الحصار، عندما كنت أسهر أخيط ثيابًا للبنات الفقيرات في المدرسة المجاورة؟ عندما كنت أتوقف عن الأكل كلما رأيت صورًا للجياع في إفريقيا؟ عندما كنت أستحي من القطط في الحديقة فلا أستطيع إكمال أكل السمك إلا بعد أن تأكل هي؟ عندما كنت لا آكل إلا بعد أن يأكل أبناء زوجي الذين لا يودونني ولا أودهم؟ عندما كنت أدعو العصافير يوميًا في الحديقة إلى وجبة فتيت خبز، ولا أنسى ذلك حتى في الأيام التي أكون فيها مريضة أو مشغولة؟ هل تتذكر عندما بقيت ثلاثة أيام بلا أكل لأنني كلما هممت بالطعام تذكرت أولئك الصغار، وهم يلملمون حبيبات الأرز مع التراب من أمام مجلس العزاء الذي أقيم لأحد جيراننا؟ هل تتذكر خجلي من تلك الخادمة اليَمنية؟ هل تتذكر حبي العظيم لك أيام تصوفي بحيث شعرت بالذي شعرت به رابعة العدوية، عشق خالص لك، لا خوفًا من نارك ولا طمعًا بجنتك؟. و.. و.. و.. و، والآن، أطلب منك أن تساعدني بحلم بسيط، وهو أن أصحو صباحًا وأفتح عيني على وجه حبيبي وأقبله. هل هذا صعب عليك؟ أعرف بأنه ليس بصعب عليك،

فأنت العظيم، الكريم، القادر، الرحيم. أتضرع إليك ألا تجعلني أنتظر طويلًا.

ثم جلست خاشعة تائهة على مصطبة في حديقة المكتبة العامة، وبعد دقائق، انفجرت بالضحك على نفسي قائلة: هو الرب، غير معني بهلوساتي ولديه شؤون أعظم. أما أنا فأفعل ذلك كي أرضي نفسي وأؤانسها، أو ربما جزء من خداعنا لأنفسنا زاعمين بأننا نبتغي وجه إله، ولكن في الحقيقة هي شكل من أشكال ممارستنا لإنسانيتنا، الاعتراف بضعفها ومحدوديتها الذي نعوضه بالحلم والخيال لأنهما بلا حدود.

أبكتك إحدى رسائلي لأنني كتبتها باكية. عن أيام تصوفي تلك، حين خلقت حياة موازية، كنت أتذوق فيها العبادات وأنتشي، روحانيًّا طبعًا. ازددت نحولًا و لم أكن لأنام تقريبًا. كان السلام يسود كل شيء، يملؤني السلام، يحيطني السلام، أتغذى وألمس وأتنفس سلامًا.. لكنه خادع كالسراب. مع ذلك فإني أفكر أحيانًا بالعودة إلى تلك المشاعر، إلى ذلك المُخدر، ذلك التماهي.. ولكن هذا صعب الآن، وليس بالاختيار، ففي تلك الفترة صار عندي نوع من صدق الرؤيا واستبطان وجوه الناس رغم أنني لم أكن أتكلم إلا نادرًا وبهدوء تام. كنت بالغة الحساسية، بل كنت حاسة شاملة تضم كل الحواس. ربما سأعود إلى التصوف في آخر العمر، عندما يصبح الجسد غير قادر على منحي المتعة فأبحث عنها في متعة الروح، وعلى هذا النحو، أكون متهيئة للموت وروحي جاهزة للانتقال إلى عالم الأرواح. لا أدري إن كنت قد كتبت لك عن مرحلة موت أمي أم لا.. أفضل عدم تفصيلها. شيء موجع ومعقد، سأحدثك عنه شفاهيًّا ذات ليلة حزينة.

عن إذنك حبيبي، سأذهب في مشوار قصير وأعود. اعتبر الأمر مثل الفاصل الإعلاني. اضحك أو تبسم على الأقل فإنني أبتسم.. وإن بحزن ما.



اسمع حسن.

أمس واليوم حدثت أشياء عجيب، مثلًا؛ بفعل القراءة في رواية استرجعت بعض الذكريات المركونة في عتمة زوايا مخزن الذاكرة. ربما بيّنت لك علاقتي بعدنان؛ ابن عمتي، وأنت قلت لي إن كل العلاقات في أيام المراهقة تتشابه. ثم استرجاعي لعبارة عمتي وهي تتمنى رؤيتي سمينة: أفديك يا عزيزتي، كُلي أكثر.

أمس في الساعة الخامسة مساءً، رنّ الموبايل ذو الموسيقى، وإذا بصوت يقول: هيام أنا عدنان، كيف حالك؟

تخيّلْ! وآخر حديث بيننا كان أيام خطوبتي من عبود، بعدها سافر هو إلى الأردن ثم إلى بيروت، ومنها انتقل من بحر إلى بحر وصولًا إلى استراليا واستقر هناك. بقيت جامدة للحظات، انتابتني رعدة المراهقة وهو يتفحصني، فتمتمت كي ألتقط أنفاسي: مَن؟

قال: ابن عمتك، عدنان، ما بكِ؟

– أوه، عدنان، لازلت تتذكرني؟

– وهل نسيتكِ حتى أتذكرك؟

وسؤال تقليدي آخر ووعد بمواصلة الاتصالات، وأنا أتلعثم.. ثم مع السلامة. كان المُستأجِر موجودًا فيما تلفني المفاجأة إلى الآن. أتمنى

لو أعرف كيف أقول له: ابحث عن ذلك الطائر الغريب النادر الذي رأيته في طفولتي في استراليا و لم يبق في ذاكرتي من كل تلك القارة سوى صورته.

صباح اليوم، وأنا في الحافلة، متجهة إلى موعد مع الطبيب النفسي لأسرد عليه أحلى مزاوجة بين أحلامي وأوهامي وحقيقتي التي تختلط حتى عليّ أنا نفسي. كنت أقرأ في (دابادا)، وكالعادة، أرتمي في المقعد الأخير بغية المشاهدة أكثر وكي أرفع ساقي. جلست، وإذا بابتسامة من رجل وامرأة قبالتي حالما أخرجت (دابادا) من حقيبتي:

_ تتحدثين العربية؟

_ نعم، وأنتم؟

_ نحن نتعلم العربي الآن. هو إسباني وأنا فرنسية. قالت المرأة.

بعد تبادل بعض العبارات، أعطياني عناوين لتجمعات شهود يهوه في مدريد، وقالا: نتمنى أن تعلمينا العربية ضمن جماعتنا، ونزلا. بالطبع سألا عن الكتاب، وبالطبع أيضًا حدثتهما عن الكاتب أكثر، مما زادهما فضولًا.

بعد محطة، جلس في مكانهما من يريد تبين العنوان بين يديّ، فاسترسلت بالحديث لأنه سوداني، اسمه عثمان، وقال إنه يحب الشعر ويكتبه. أخبرته عن إقامتي العابرة في أم درمان وحبي لها وأمنية العيش فيها. وأعطاني رقم تليفون التجمع السوداني. فقلت له: يهمني أكثر عنوان بيتك في أم درمان. قال: لم يعد لي بيت هناك، استولت عليه الحكومة.

في المحطة التالية، جلسَت مكانه فتاة شقراء جميلة وترِفة كلُعبة.

كانت مشغولة بالتحدث في الهاتف بصوت خفيض والدمع ينسكب من عينيها، من بعض كلماتها المتقطعة وسط النشيج، أدركتُ بأنها تتكلم مع الذي تحبه، وددت لو أحتضنها، أن أمسح دمعها، أضع رأسها على صدري وأُمسد شَعرها، أقبل جبينها. عاتبت البشرية في سري. لماذا نقسو على بعضنا؟ لماذا نستخدم الكلمات الجارحة ضد بعضنا فيما القواميس مترعة بالكلمات الجميلة مجانًا؟ لماذا لا نستخدم الكلمات الجميلة إلا نادرًا؟ آه.. الكلمات.. يا لقدرتها على صبغ الحياة بما نشاء!.

عندما انتهيت من الدكتور الموريتاني المرح، كنت خفيفة ومشتاقة لصوتك. قلت في نفسي: دعيه يرتَحْ من خلقتك، ولكنه لم ير خلقتي، فليرتح إذًا من صوتك. ولم أمتثل. حاولت الاتصال فكان هاتفك مشغولًا ولم أعاود المحاولة. حملتك معي، أمامي في المقعد المقابل، وأنت تلامس ساقي بقدميك وتضحك من صغر قدمي. وها أنا أمام الصفحة الضوئية أتنفسك في كل حرف. المُستأجِر غير موجود، إنه مشغول بترتيب الحياة الواقعية، وأنا مشغولة بترتيب الحياة الخيالية، فلا أدري أي الأمرين أصعب أو أجمل أو أهم أو أجدى!.

أما أنت فربما تقرأ أو تكتب أو تطبخ الآن. ألف صحة لك ولكل الذين سيشاركونك ما تطبخه.



مساء الخير.

الآن فقط، انتهيت من تناول العشاء. لم أكن جائعة. نسيت أن أقول لك اليوم شيئًا مهمًا: أنا أعشقك، وحتى باليأس يكون الحب

أعمق. اليوم كان حلوًا، بلا تفكير، فكلما راودتني أسئلة، أحاول إزاحتها قليلًا. زعلت منك ومن ياسمين لأنكما قلتما لي أن أهرب إلى عدنان ما دام لم يتزوج حتى الآن بسبب حبه لي. هذا كلام جارح؛ لذافزعلي ليس قليلًا عليكما، حتى وإن كان على شكل مزاح، وحتى وإن كان هو عنده كل الإمكانات المادية وظروف العيش الجيدة، ويحبني، وغيرها... فأنا أبحث عن الحب، حبي أنا وحسب. بعد كل هذا التيه الذي أعيش باستمرار على حافاته، وبعد كل المهارة بتفويت الفرص والمجيء بغير الأوان، أريد الحب فقط؛ لذا سأبقى معك، وإن بحثت عن غيرك سوف أبحث عن أحد يشبهك تمامًا.. والله كريم.

أوَ تدري يا حسن!

الآن.. أشعر وكأنني لا أتمنى رؤيتك، وإنما أن أكون مع شوقي لك فحسب، دون إزعاج. أخشى من أنني قد بدأت الوصول إلى مرحلة (مجنون ليلى) الذي حين جاءته ليلى بنفسها لإعادته من خلوته في الصحراء، مع حبه لها، وسط الوحوش، حدّثها عن ليلى، فقالت له: أنا ليلى. فأنكر وقال: أنت لست ليلى، بل أنا ليلى، ليلى هنا. وأشار إلى صدره. أو مثل ذلك المتصوف (الحلاج) الذي ذاب حبًا في الرب فقال وهو ينفض جبّته: "ليس في الجبة إلاّ الله". وأنا أقول ليس في كينونتي سواك أيها الحبيب الذي أنجبتُه من رحم روحي.

أنا وحلمي اليوم، كنا متألقين في درس الشِعر. هيام طالبة ممتازة في الشِعر. أحب الموضوع وأستمتع به. المغربي سعيد كان يجلس بجواري وأراد أن يكلمني، لكنني كنت في لحظة تجمع نقيضين؛ قلقي عليك ونشوتي بدرس الشعر. لذا اعتذرت له، وحال انتهاء الدرس، عدت سريعًا إلى البيت وها أنا أكتب لك.

ثمّة مشروع تجاري بسيط، ربما سأشترك فيه الأسبوع القادم، محل صغير في الحي بمثابة صالون حلاقة وتجميل وخياطة فساتين خاصة. لحظة.

اتصلت معلمة الإسباني الآن وقالت بأنه لا يوجد درس غدُا. كلما نويت أن أوصيك بتقليل السجائر أنسى؛ لذا فها أنا أوصيك الآن. أرجوك خذ بالك على نفسك وعلى من يحبك. لا تُرهق نفسك كثيرًا بالعمل وبالانشغال بي. لا عليك حبيبي، فأنت حبيب الأمس واليوم وغدًا وإلى يوم القيامة وما بعدها. من الطبيعي أن تنشغل عني قليلًا أو تسافر مثلًا، فلا تهتم. أنت تستحوذ عليّ سواء بالحضور أو بالغياب وسأنتظرك دائمًا. لا تنسى أن تكون رائعًا وتنجز كل المطلوب منك بأتم شكل (وأنا وغربتي وشوقي نسولف بك ليلية/ نقول يحن/ ونقول يمر/ وتظل عيوننا ربية). فقط اكتب لي عندما يتسنى لك ذلك.

وليكن في علمك أن هذا، جسدي، صار يحلم بك أحلامًا مستقلة، دون أن يأخذ رأيي بها أو يستشير ذهني وعاطفتي وخيالي. أبدو فاقدة للحيلة معه، كأنه مستقل عني. يحلم أن تَروي عطشه، تُشبع جوعه إلى أن يتعب ويقول اكتفيت. يحلم بشهوة مستعِرة معك بلا توقف، بلا هدنة، بلا راحة وبلا ذروة.. لأن كل شيء سيكون ذروة معك، بدءًا من النظرة إلى النفضة.. آه يا حسن، كم أحبك!.. أحبك إلى درجة الامتلاء بمجرد الحلم بك.



صباح الأمل حبيبي..

أولًا: أحبك يا حياتي.. بعنف، لا.. لا أحب العنف، فلأقل

بجنون، أفضل. لأن حسن مطلك يُعبر هكذا: "أعترف أنني أتحوّل إلى مجنون عندما أُحب؛ لأنني لا أعرف حالة الوسط والتردد.. ولأن المسألة خارجة عن طوع يديّ، ولأنها خارجة عن قدرة عقلي في التحكم بها.. لقد جُننتُ بك يا مركز القلب.. وهذه شهادتي".

خجلت أن أقول لياسمين بأنني أحب حسن؛ لأنها من المؤكد سوف تقول: كيف تحبين شخصًا لم تريه؟ حتى وإن كانت تدرك بأن للحب أكثر من جهة ووجهة. أمس مدًّدت نفسي على سرير المعاتبة والمحاسبة. ليس لديّ ما أخفيه ولكن... أين أنت الآن؟ لابد وأنك تأكل.. كُلني أفضل، فأنا ألذ من كل الأطعمة.. أتمنى فقط. سوف تخلق عندي عقدة من كلمة (أريد)؛ لذا أحولها بسرعة إلى (أتمنى)... اسمعني حبيبي، أريد أن أخبرك بأهم كلمة في هذه الحياة: أحبك.

ثانيًا: اعتبر هذه رسالة أخيرة هنا، ليس لأنني استطعت أن أقول لك كل شيء عني وعما أفكر وأشعر به، فهذا يبدو مستحيلًا. إذا كانت مجرد مشاهدة أي شيء بسيط، كمراقبة أسراب النمل مثلًا، تعني لي حكاية طويلة وذكريات، لا أستغرب محاولة مارسيل بروست للقبض على الزمن بتفاصيله في رائعته (البحث عن الزمن المفقود)، وأفهم حسن مطلك حين يقول: "كيف أصطاد التجربة بالكتابة؟ يبدو أنني لم أعد أستطيع أن أكتب عن أي شيء؛ لأنني سوف أستغرق في تأمل الأشياء التي تتحول إلى ما هو أكبر مني". أنا على يقين من أنني شعرت وفكرت كثيرًا بالذي دفعهما إلى ذلك. لذا فالحل هو المعايشة، عندما نعيش مع بعضنا ونرى ونتحدث عن كل لحظة بلحظتها، آنذاك ربما سنشعر برضا أننا استطعنا قول أو إيصال أغلب ما نريد.

أكرر، أنا على يقين من أننا سنلتقي في النهاية. الحب هو سر ولغز

الحياة وصانع المعجزات. لا تعتبر توقفي عن الكتابة هنا توقفًا عن التفكير بك وانتظارك ولو لحظة، سأبقى أتقلب على نار انتظارك كي أنضج أكثر. والقلب المؤمن بالحب بحب، لابد أنه سيتمكن من تحقيق أحلامه. كما يقال.

لا تقلق عليّ. بقيت لنا محاولة أخيرة هنا لتعديل الأوراق والحصول على إقامة، واذا فشلنا فالحل، كما يقول عبود وينصح به الآخرين، هو أن نهاجر إلى بلد آخر تكون فيه شروط الهجرة وامتيازاتها أفضل، ربما هولندا أو بلجيكا أو الدنمارك أو سويسرا أو السويد أو استراليا أو ألمانيا.. وأنا أتمنى أن تكون ألمانيا؛ كي أتعلم الألمانية وأقرأ هيرمان هيسة وهيجل وهيدجر وريلكة بلغتهم، وإن فشلنا بالحصول على الاستقرار، ربما سنعود إلى بلدنا العراق وليحدث ما يحدث هناك.. هذا إذا بقي بلد اسمه عراق و لم تمزقه أنياب المتكالبين عليه من أعدائه وأبنائه الذين لا يعرفون قيمة هذا البلد العظيم. بلدان لن أُهاجِر إليهما ولو صُلِبت، لا أرغب حتى بزيارتهما أبدًا، ولا أتمنى لهما الخير، وهما إيران وأمريكا؛ لأنهما أكثر من أضرا بعراقي الحبيب.

الطبيب النفسي هو الآخر يؤكد لك بأنني سليمة نفسيًّا، بل إنه يقر بأنني خدعته بذكائي وأنني واعية تمامًا لما أفعل وأقول، وصارت أغلب جلساتنا الأخيرة نقاشات في الأدب والنفس البشرية والسخرية من أنفسنا وما كنا نمثله ونقوله في جلساتنا الأولى، وأكثر السخريات هي مني وعليّ طبعًا.

أولادي سأربيهم عبر صداقتي لهم، وسأسعى لأن يكون تقديرهم للمرأة عاليًا وحبهم لها صادقًا وعظيمًا، وحساسيتهم مرهفة تجاهها، بحيث يكاد أحدهم أن يقول ما قاله حسن مطلك:" أيها الإنسان

يا صديقي المنكسر. لقد جعلَتني هذه المرأة أتذكر أخطاء الرجال وظُلمهم للمرأة على مدار التاريخ الإنساني. وضعتني مباشرة أمام الجرح لأعترف لها باسم جميع الرجال، وأتوب إليها عن خطايا جميع الرجال... يكفي أن أغمض عينيّ، أنا مذنب بما أنني رجل، يا للخسارة، لقد أضعنا ثقة الله ومسحنا المرأة بشهوة الدم وأقفال صناديق الزينة ورنين يوم العرس". أما هذا الرجل المُستأجِر الطيب، فإنني سأنفصل عنه عاجلًا أم آجلًا، فكما يُقال: إن السبب الرئيسي للطلاق هو الزواج، فلولا الزواج لما حدث الطلاق أبدًا.

ماذا سأفعل في الوقت الذي كنت أكتب إليك فيه؟ سأواصل الكتابة طبعًا، ولكن، هذه المرة في ميدان آخر ومن أجل قضية طالما شغلتني كثيرًا، وهي قضية العوانس في عالما العربي. تخيل أنهن ملايين من الفتيات والنساء المسكينات اللاتي يعانين كل يوم وكل لحظة وهن حبيسات جدران بيوت الآباء بانتظار أي رجل يتزوجهن، خلاصًا من مرور الوقت ونظرات المجتمع القاسية الظالمة، وأغلبهن متعلمات جامعيات يرفضهن المتخلفون من الرجال لأنهم يريدون (قِطط مغمضة)، مجرد أجساد مطيعة لتفريغ شهواتهم وتفريخ أولادهم، لديهم عقدة من الاقتران بامرأة أفضل منهم شهادة أو معرفة. كم كان -ولا زال- يشغلني هذا الأمر! منذ زمن مبكر وأنا أرى نساء حبيسات في بيوت جيراننا في بغداد، وبعد معرفتي بالإنترنت، صرت أدخل إلى مواقع ومنتديات خاصة بهن، فأقرأ ما يعصر القلب من حكاياتهن وأوجاعهن التي يُحرَمن حتى من إظهارها وسط مجتمعات قاسية لا تعتبر ذلك وجعًا. تخيل مثلًا... إحداهن تروي عن شقيقتها، توأمها التي تحبها كحبها لنفسها منذ الطفولة؛ بعد أن تزوجت وكانت تأتي حاملة طفلها إلى البيت في زيارة، تقول: وأنا أنظر إليها من النافذة

تعبر الشارع قادمة نحو بيتنا، كنت أتمنى لو أن شاحنة تسحقها هي وطفلها. ثم تؤنب نفسها لاحقًا على هذا الشعور وتبكي، لكنها تعاود الشعور به في كل مرة.

كم أتمنى لو أكتب رواية أو كتابًا يتناول هذه الظاهرة بكل أبعادها الاجتماعية والنفسية، لكنني فكرت بأن ما سأقوم به، من الآن فصاعدًا، أشبه ما يكون بمهمة إنسانية آخذها على عاتقي، وهو أن أدخُل في هذه المنتديات وغيرها بأسماء وصور مستعارة بعناية، أمثل دور الرجل وأتعامل مع كل واحدة أتصادف معها أو نتقاطع في الشبكة لأمثل عليها أو لها دور الحبيب. أقول لها أجمل الكلمات، أحثها على البوح والحلم والأمل، أشتغل عليها من الداخل، أكون لها أنيسًا ومصدر قوة وتسلية، فأنا امرأة وأعرف جيدًا ما الذي سأقوله لامرأة، بحيث يعجبها، وكيف أفك وأحرك كل خيوط شبكتها النفسية الداخلية المعقدة. مهمتي أن أُسعد أكثر عدد أستطيع إسعاده من العوانس، أن أوعيهن بأشياء كثيرة في العالم؛ كالقراءة والكتابة، وحلول تكسر طوق العزلة واختناق أرواحهن، سأفهمهن بأن الزواج ليس هدفًا؛ وإنما الحب هو الهدف، وليس هدف الحب الزواج الذي قد يقتله. سأذكّرهن بأبيات شاعر المرأة نزار قباني:

"الحب ليس روايةً شرقيةً

بختامها يتزوَّجُ الأبطالُ

لكنه الإبحار دون سفينةٍ

وشعورنا أن الوصول محال."

.. يعني باختصار، يمكنك أن تسمي مهنتي أو الأصح مهمتي

القادمة هي (أنيس العوانس). سأختار لنفسي اسم حسن، وأبحث عن أقرب الصور شبهًا بك لأضعها صورة لي، أما تصوري عن شخصيتي كرجل، فستكون كما تخيلتك أنت تمامًا. أخريات، سأكون معهن امرأة، أصادقهن وأشاركهن كل تفاصيلهن وهواجسهن، وسأختار لنفسي اسم (إلهام)؛ فهذا أكثر إيحاءً وأخف وطأة من اسم هيام على أرواحهن الحساسة. سأتناول كلًّا منهن كحالة فردية خاصة وأتعامل معها كطبيب نفسي، بصبر ورقة وحنان ووعي، وإن احتجت إلى استشارة لحالة نفسية ما، سأطلبها من طبيبي الموريتاني، وربما، حتى أقنعه ليشاركني في هذه المهمة الإنسانية.

أما عن الكتابة الأدبية، فعلى الرغم من كثرة أفكاري لأفلام وروايات، لكنني أتمنى التمكن ذات يوم من كتابة روايتين فقط، وكلتاهما عن النساء، واحدة معاصرة عن العوانس، وقد أختار لها العنوان نفسه (أنيس العوانس)، والأخرى عن الجواري والإماء الرائعات في التاريخ، فكم أذهلتني قصص حياتهن ومعاناتهن وإمكانياتهن في الشعر والموسيقى والحكمة والتكيف مع أمزجة ساداتهن، ونهايات بعضهن المأساوية.

أختم بما ختم به حسن مطلك الفصل الثاني من (كتاب الحب) والذي عنوانه: (فصل النظر إلى ـمـ من خلال شرفة الضوء المؤلم وهي تحيك لي جَوربًا من الصوف وتصطادني) حيث يقول: "إن الذكريات لشيء قاتل؛ أن أعيش تلك الأحداث مرة أخرى، أعيش ألمها، وأفسره لكي أكتشف إن كان ثمة لحظة اعتبرتها سعيدة في حينها، ثم أُفسرها تحت غلواء التذكر لأكتشف أنها لم تكن لحظة غبطة، بل نوعًا من الألم المُر. لا طائل أبدًا من استمرار محاكمة الذات، مادامت النتيجة واحدة:

الإحساس بالخراب والعدم. ومادامت تلك الذكرياتوقد حفرت فيّلن تذهب عني. لَمْ أحرص عليها، وقد صنعت التدمير الكامل في كياني. لا جدوى. لا جدوى.

هناك ذرائع أخرى: الكتابة خارج الذات لكي أجعل الوجود ممكنًا. أعتبر أن هذا الأمر صحوة حرّة. فكان الهدف من هذه.. المذكرات، هو الوصول إلى نتيجة معينة، وقد وصلت في البداية. أرجو أن أكون قد أصبحتُ عبدًا للكلمة حد الصلاة. الآن: هيا يا صديقي يا (أنا) إلى العمل، إلى الأوراق البيضاء الرهيبة، كيلا تظل بيضاء بعد الآن". قال هذا وأبدع فيما كتب بعدها، قال هذا ختامًا لتجربة حب موجعة، عاد وأحب بعدها ثانية فأبدع في الحب والكتابة عنه... وأنا وأنت سنفعل ما فعل.

نحن على موعد مع الحب والكتابة، على موعد قبل غروب العمر، قبل الموت.. وقبل القيامة. "كل الأشياء تصبح أوضح حين تُفسر، غير أن هذا العشق يكون أوضح حين لا تكون له أية تفسيرات." كما يقول الشيخ جلال الدين الرومي.

وداعًا يا حبيبي، بل إلى اللقاء. ولا تنس أن تحمل لي معك نسختك من رواية (دابادا).. أنا بانتظارك وسأواصل بحثي عنك في الوقت نفسه، وأنت بدورك، ابحث عني أو انتظرني.. قُبلات لك بحجم الغياب الذي كان والذي سيكون إلى أن نلتقي.

- ٢١ -

هي أنا.. والعكس صحيح

أنا... هي

... ومن الكراج القريب، استقليت أول باص باتجاه عَمّان، عازمًا على ألا أطيل هناك؛ وإنما فقط أغتسل وأرتاح قليلًا في الفندق، ثم أتجه الى (الساحة الهاشمية) حيث مكاتب حافلات النقل للذهاب إلى العراق. وضعت المُغَلف الذي من رفاعي في الجيب الخارجي لحقيبتي إلى جانب نسختي من رواية (دابادا) التي عزمت على إعادة قراءتها في الطريق الصحراوي الطويل، كي تهيئني نفسيًا وذهنيًا لدخول بلدي مجددًا.

في الحافلة المتجهة إلى بغداد، اخترت المقعد الأخير قرب النافذة، عادة صرت أفضلها منذ عرفت ركوب الحافلات، فبدل أن أكون أنا أمام مرمى نظرات الراكبين يكون العكس، تلك الزاوية الأخيرة تتيح لي التأمل عبر النافذة، القراءة، وحتى النوم بلا منغصات. أشعر بلذة عزلتي وسط الحشد.

وما أن خرجَت الحافلة من المدينة وعبرت الأحياء الفقيرة.. ومن ثم الجديدة في أطرافها، صارت المناظر كلها بريّة تنتهي بأفق، حتى غصت

في داخلي ورحت أستعيد تأمّل كل ما مر بي منذ أن جئت عبر هذا الطريق قبل أعوام، ومن ثمّ التفكير بما سأفعله في القادم من الأيام. وحين وصلنا ما يقرب نصف المسافة إلى الحدود، حيث لا شيء سوى الصحراء والنور الصافي يكلل الفراغ، مددت يدي إلى جيب الحقيبة الجانبي بنية قراءة (دابادا)، لكنني استللت بدلًا عنها مغلف رفاعي وفتحته، وبالفعل، كان الحجم والغلاف الأزرق نفسه لأحد ذينك الدفترين، لكن المفاجأة كانت في الداخل، بعد فتحه لا على التعيين، فالمكتوب فيه لم يكن بخط اليد، وإنما مطبوعًا بواسطة كمبيوتر، والورق محكم اللصق من الداخل في باطن غلاف ذلك الدفتر نفسه، بدا كتابًا بغلاف دفتر. عدت سريعًا إلى الصفحة الأولى. كانت بيضاء وملصقًا عليها، في المنتصف، قصاصة خضراء صغيرة من قصاصات الملاحظات، وفيها عبارة بقلم الرصاص: "هذه هي الرواية التي وعدتك بأن أكتبها لك". قلَبتُ هذه الصفحة إلى التي تليها.. فهالني أن أقرأ اسمي أعلاها بخط كبير، وتحته بخط أكبر، عنوان (ذئبة الحُب والكُتب)، وتحته بخط أصغر بكثير كلمة (رواية)، ثم عبارة حسن مطلك: "بالحلم يتجدد كل شيء". سارعت لتصفح الصفحات التالية، فقرأت في أولها:

" أنا محسن مطلك الرملي، مؤلف كل الكتب التي تحمل اسمي، باستثناء هذا، ولو لم أكن شقيقًا لحسن مطلك لكتبتُ ضعف ما نشرته حتى الآن أو لما كتبت أيًا منها أصلًا، ولا حتى اهتممت بهذا الكتاب الذي وجدته صدفة حين كنت في الأردن فغيّر حياتي كلها وجئت إلى إسبانيا بحثًا عن المرأة التي كتبته.

إنها امرأة تبحث عن الحب وأنا أبحث عنها.

....

.................................."

... ثم انتقلت، وقلبي في أسرع دقاته على الإطلاق، لأرى الدفتر من نهايته، آخر فصل فيه، قبل مواصلة قراءة النص كله متسلسلًا، فكان فصلًا قصيرًا جدًّا، رقمه (واحد وعشرون) وعنوانه "هي أنا.. والعكس صحيح". تخطيته إلى آخر صفحة، فوجدت هناك، بين آخر ورقة والغلاف الأخير، قصاصة المنديل الورقي ذاتها، التي كنت قد كتبت عليها، في ذلك المقهى المدريدي المطل على النهر، قصيدتي القصيرة لهيام (حُب وحيد):

"يا امرأة أنهكها البحث عن حب وحيد؛

ولا زالت وحيدة

خذي قلبي وسادةً لقلبكِ الذي أتعبوه،

خذي قلبي دفترًا لقلبكِ الذي لم يفهموه

خذي قلبي حارسًا لقلبك الذي خذلوه .

يا امرأة أنهكها البحث عن حب وحيد؛

ولا زالت وحيدة

تعالي .. خذيني إليك،

.. معكِ،

لأنني بلا حبك؛

أنا.. الوحيد".



"أنا محسن مُطلك الرملي، مؤلف كل الكُتب التي تَحمل اسمي، باستثناء هذا، ولو لم أكن شقيقاً لحسن مُطلك لكتبتُ ضِعف ما نَشرته حتى الآن، أو لما كتبتُ أي منها أصلاً ولا حتى اهتممتُ بهذا الكتاب الذي وجدته صدفة حين كنتُ في الأردن.. فغيّر حياتي كلها وجئت إلى إسبانيا بحثاً عن المرأة التي كتبَته...
إنها امرأة تبحث عن الحُب وأنا أبحثُ عنها".

عراقيان، امرأة ورجل، يبحثان عن الحُب في ظِل الحُروب والحِصار والدكتاتورية والاحتلال والمغترَبات. إنها رواية حُب تدعو للحُب في أزمنة تُهمّش الحُب، لذا يهديها كاتبها الى كل الذين حُرموا من حُبهم بسبب الظروف. **ذِئبَة الحُب والكُتُب** رواية مُثقّفة عن مُثقّفين، تَمنح المتعة والمعرفة لقارئ يجيد الانصات إلى بوح الدواخل وانثيالاتها. إنها بمثابة بحث عميق في الخفي والمكبوت. تتقصى العواطف والجمال والأمل الإنساني وسط الأوجاع والخراب. مكتوبة بلغة وأسلوب وتقنية مختلفة عما عهدنا عليه محسن الرملي في أعماله السابقة، حيث يمزج فيها بعض سيرته الذاتية بالخيال، متقمصاً صوت المرأة، ومتعمقاً أكثر في جوانح شخصياته بعد أن وصف ما مر به بلده من أحداث قاسية وتحولات عصيبة في رواياته السابقة التي تُرجِمَت إلى أكثر من لغة: **حَدائق الرئيس**، **تَمْر الأصابع** و **الفَتيت المُبَعثَر**.


ISBN 978-2843062423

تصميم الغلاف: خالد كاكي